

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة «التراث»

رحلة ابن بطوطة

المسمّاة

تحفة النظار
في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

تأليف
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي

قدّم له وحقّقه ووضع خرائطه وفهارسه
عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

المجلّد الرابع

1417 هـ /1997 م

عبد الهادي التازي

رحلة ابن بطوطة

المجلّد الرابع

م ١١ ٥ ٢



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة «التراث»

رحلة ابن بطوطة

المسّماة

تحفة النظار
في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

تأليف

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي

قدّم له وحقّقه ووضع خرائطه وفهارسه

عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

المجلّد الرابع

1417 هـ /1997 م

أكاديمية المملكة المغربية

شارع الإمام مالك، كلم 11، ص.ب. 5062

الرمز البريدي 10.100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون : 75.51.13 / 75.51.24

75.51.35 / 75.51.89

فاكس : 75.51.01

محتوى الكتاب من مصطلحات

وتعليقات وخرائط وصوَر

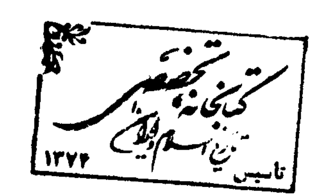
يلزم المحقق وحده

رقم الإيداع القانوني : 1997/321

ردمك 9981-46-006-0 (المجموعة)

ردمك 9981-46-010-9 (الجزء الرابع)

الفصل الرابع عشر



الجنوب الهندي - جزر مالديف - سيلان - البنغال

- من دهلي إلى كُوِل وأسْر ابن بطوطة بها
- من كُوِل إلى دولة آباد
- من دولة أبَاد إلى بلاد المُلَيْبَار : بلاد الأبزار !
- الذهاب إلى مدينة قالقوط
- محاولة الذَّهاب إلى الصين وفشلها...
- جزائر ذيبة المهل (المالديف)
- ابن بطوطة بجزر مالديف ووقوفه بها على النقش التاريخي
- جزيرة سيلان ...
- عندما هاجمه 12 مركباً وسلبوه !



الجنوب الهندي



ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر مَن بعث معي وذكر الهدية.

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمْخا منها مائة من التي تصنع بمدينة الزَّيتون، ومائة من التي تصنع بمدينة الخَنسا، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، وخمسة من التراكش مزركشة، وخمسة سيوف، وطلب من السلطان أن يأذن له في بناء بيت الأصنام الذي بناحية جبل قَراجيل (1) المتقدم ذكره، ويعرف الموضع الذي هو به بسمهل، بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء، وإليه يحج أهل الصين، وتغلَّب عليه جيش الإسلام بالهند فخرَّبوه وسلبوه. فلما (2) وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملَّة الإسلام إسعافُه، ولا يباح بناء كنيسةٍ بأرض المسلمين إلاَّ لمن يعطي الجزية، فإن رضيتَ بإعطائها أبحنا لك بناءه، والسلام على من إتبع الهدى. وكافأه (3) عن هديته بخيرٍ منها، وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة، ومائة مملوك ومائة جارية، من كفار الهند مغنّيات ورواقص، ومائة ثوب بَيْرميَّة، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن، قيمةُ الثوب منها مائة دينار (4)، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجُزّ (5)، بضم الجيم وزاي، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغاً بخمسة ألوان وأربعة، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصَّلاحية، ومائة ثوبٍ

---

(1) يعلِّق بيكينگام (Beckingham) الذي تصدَّى لترجمة الجزء الرابع من الرحلة بعد وفاة الأستاذ گيب : إنه لا يوجد أثر لحد الآن حول أخبار هذه السفارة في المراجع الصينية ولا الهندية. ونحن نقول : إنه يمكن أن تعتبر معلومة ابن بطوطة حول الموضوع معلومة أصيلة يعتمد عليها سيما وابن بطوطة شاهد عيان...

وتعتبر هذه الفقرة من رحلة ابن بطوطة اسهاماً جديداً في كتابة التاريخ الدولي للإسلام وعلاقته بالديانات والعقائد المجاورة حيث نرى المكاتبات بين ملوك الاسلام وملوك البوذية حول موضوع يتعلق بحرية ممارسة الشعائر وما يتصل بها من ظروف وصروف.

(2) عرَّف يول Yule سمْهل هذه وكأنَّها (Sambhal) التي توجد في روهيل خاند (Rohilkhand) – ابن بطوطة ذكر السَّنْبَل على أنها الاقليم الذي تقع فيه مدينة بذاون (136, III) يذكر بيكينگام أنه لم يعثر على بقايا بوذية هناك وان الدّين هناك كان على ما يبدو معدوماً بالمرة في القرن الرابع عشر. علاوة على هذا نذكر أن ملك الهند السلطان محمد كان قد استولى على الناحية في حملته القراجيلية في اتجاه آخر نحو ناگاركو Nagarkot ، وهكذا فإن من الصعب أن نتصور ان سمهل توجد على مقربة من الهيمالايا.
Yule H cathay and THe way Thither. New édiion, LOndon 1913-16, 4 Vols.

(3) نسجل هنا حرص ابن بطوطة على ذكر نص جواب سلطان الهند على رسالة أمبراطور الصّين حول هذا الموضوع الهام في العلاقات بين الإسلام والديانات الأخرى وهذه اللقطة كما أسلفنا تأكيد بيّن لكونها أي الرحلة تعتبر مصدرا من مصادر التاريخ الدولي...

(4) البيرمّي تعبير مستعمل يطلق على ثوب هندي أبيض، وقد ورد ذكره كذلك من قبل الكاتب البرتغالي دُوارْت بَرْبُوزا (Duarte Barbosa) في بداية القرن السادس عشر، ويتعلق الأمر على ما يظهر بالثوب الحريري المنسوب إلى داكا (DACCA) : العاصمة الحالية لبنغلاديش ...

(5) انواع من قماش ناعم متقزح اللّون حريريّ النسيج.

احتفال بأمير مغولي في البلاط - تصوير جداري

رسم يمثل الاحتفال بأحد السفراء - تصوير جداري بقاعة الأعمدة الأربعين

من الشِّيرين بَاف(6)، ومائة ثوب من الشان باف (7)، وخمسمائة ثوب من المرعِز، مائةٌ منها سود، ومائة بيض، ومائة حُمر، ومائة خُضر، ومائة زرق، ومائة شقَّة من الكتان الرُّومي، ومائة فضْلةٍ من الملف، وسرَّاجة (8) وستٌّ من القِباب، وأربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة منيّلة، وأربعة طسوت من الذَّهب ذات أباريق كمثلها، وستة طسوت من الفضة، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشر شَواشٍ من لباسه، إحداها مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة، وأحدها مرصّع بالجوهر، وعشرة من السيوف، أحدها مرصع الغمد بالجوهر، ودشت بان (9) وهو قفَّاز مرصع بالجوْهر، وخمسة عشر من الفتيان.

3/4 وعيَّن السلطان للسَّفر معي بهذه الهدية ║ الأمير ظهير الدين الزَّنجاني (10)، وهو من فضلاء أهل العلم، والفتى كَافُور الشُّربدار، وإليه سلمت الهدية، وبعث معنا الأمير محمد الهروي (11) في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر، وتوجه صحبتنا أَرسال ملك الصين، وهم خمسة عشر رجلاً يسمى كبيرهم تُرسي وخدامهم نحو ماية رجل وانفصلنا في جمْعٍ كبير ومحلة عظيمة، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده.

وكان سفرُنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين (12) وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعَه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين ! فكان نزولنا في أول ║ مرحلةٍ بمنزل 4/4 تِلْبَت (13)، على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي، ورحلنا منه إلى منزل أَوُ، ورحلنا منه

---

(6) نوع رفيع من القطن ...

(7) شان باف (SHANA-BAF) هي على ما يبدوا ثوب شفاف من القطن يسمى سينابافي (SIN-ABAFFI) عند وارثيما (WARTHEMA) الرحالة الايطالي في بداية القرن السادس عشر.

(8) السرَّاجة الخيمة الكبيرة الفسيحة. انظر II، 369 III 44 - 251 - 352 - 415 - 438

(9) يبدوا أن كلمة دشتبان وهي كلمة فارسية صوابها دستبان بالسين.

(10) ظهير الدّين الزنجاني وصفه ابن بطوطة (145, III) بأنه كان كبير المنزلة عند السلطان، كلمة الشرب دار تعنى الساقي والنَّديم. ابن بطوطة III 145

(11) الهروي : نعته (121, III) بالكُتْوال وهي تعني بالأردو صاحب الحصن أو رئيس الشرطة.

(12) التاريخ يوافق 22 يوليه 1342 بيد أن هناك مشاكل تتعلق من جهة بالتسلسل التاريخي، وبخط السير من جهة أخرى. الأمر الذي يفرض علينا تقديم التاريخ الهجري سنة واحدة، وهكذا فإن المناسب هو تاريخ 17 صفر 742 الموافق 2 غشت 1341.

(13) تِلْبِب (Tilpat) ذكرها ابن بطوطة (391 III) على أنها تبعد عن العاصمة بسبعة أميال، وقد ذكرها هنا على أنها تقع على مسافة فرسخين وثلث الفرسخ ...

إلى منزل هِيلُو (14)، ورحلنا منه إلى مدينة بَيَانَة (15)، وضبط إسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون، مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق. ومسجدها الجامع من أبدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة، والأمير بها مظفر ابن الداية، وأمه هي داية السلطان، وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبار الملوك، وقد تقدم ذكره (16)، وهو ينتسب في قريش وفيه تجبُّر، وله ظلم كثير قتل من اهل هذه المدينة جملةً، ومثّل بكثيرٍ منهم، ولقد رأيتُ من أهلها رجلاً حسن الهيئة قاعداً في أسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين.

6/4 وقدم السلطان ▓ مرةً على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجير المذكور فأمر السلطان بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة، وكان يقعد بالدّيوان بين يدي الوزير، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم، فأمره السلطان بإرضائهم فأرضاهم بالأموال ثم قتله بعد ذلك.

ومن كبار أهل هذه المدينة الامام العالم عزّ الدين الزبيري من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه، أحد كبار الفقهاء الصلحاء، لقيتُه بكاليور عند الملك عز الدين البنّتاني (17) المعروف بأعظم ملك.

ثم رحلنا من بَيانة فوصلنا إلى مدينة (18) كُولِ، وضبط إسمها بضم الكاف، مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العَنْبَا، ونزلنا بخارجها في بسيطٍ أفيح، ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين، وهو مكفوف البصر ▓ معمّر، وبعد 7/4 ذلك سجنه السلطان ومات في سجنه، وقد ذكرنا حديثه (19).

---

(14) أوْ وهيلُو لم يقع تحديدهما بصفة مرضية، على الطريق الذي يربط دهلي بعليكرْة ALigarh.

(15) بيانَة تقع على نحو 38 كيلو متراً غرْب عليكره ... ونذكر هنا أنه توجد مدينة (البيَّانة) بالأندلس – ابن بطوطة (370; IV) – ويذكر مزيك Mzik أن كلام ابن بطوطة يقتضي أنه حتى الآن يتحرك في الجانب الغربي لجُومْنا Jumna.

(16) يراجع (ج 230, III) كما تراجع صفحة 318 حيث الحديث عن مجير الدّين بن أبي الرجاء..

(17) الملك عز الدّين هذا يحيى بندات أعطى لقب اعظم ملك من لدن السلطان الذي منحه إقطاعا يحمل اسم سَاتْگاون (Satgaon)، وقد أكدت هذه المعلومات من قبل المؤرخين، وقد تُركت ساكتگاون لفخر الدّين البنغالي وسيرد ذكر عزّ الدّين منعوتا باعظم أمير لمدينة جنديري 41, IV، كما سيرد ذكر عز الدّين الزبيرّي في نفس المساق.

(18) كُول : عَلِكَره (ALIGARH) الحالية في إقليم يحمل نفس الاسم كان في الاصل اسماً لحصن، انظر ج III 307.

(19) يُراجع ج II ص 308.

ذكر غزوة شهدناها بكُول

ولما بلغنا إلى مدينة كُول بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجَلالي (20) وأحاطوا بها وهي على مسافة سبعة أميال من كول فقصدناها، والكفار يقاتلون أهلها، وقد أشرفوا على التَّلف، ولم يعلم الكفار بنا حتى صَدَقْنا الحَمْلة عليهم، وهم في نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهمُ وأسلحتهم، واستشهد من أصحابنا ثلاثةٌ وعشرون فارساً وخمسة وخمسون راجلاً، واستشهد الفتى كافور الساقي الذي كانت الهدية مسلمة بيده، فكتبنا إلى 8/4 السلطان بخبره، وأقمنا في إنتظار الجواب.

وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيُغيرون على نواحي بلدة الجَلالي، وكان أصحابنا يركبون كلّ يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم.

ذكر محنتي بالأسر وخلاصي منه، وخلاصي من شدةٍ بعده، على يدِ وليّ من أولياء الله تعالى

وفي بعض تلك الأيام ركبت في جماعة من أصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه وذلك فصل القيظ، فسمعنا الصياح، فركبنا ولحقنا كُفاراً أغاروا على قريةٍ من قرى الجلالي، فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا في طلبهم، وانفردت في خمسةٍ من أصحابي، فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من 9/4 غيضة هنالك ففررْنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم، ثم انقطعوا عني إلا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدي، وتلك الأرض كثيرة الحجارة فنشبِتْ يدا فرسي بيْن الحجارة، فنزلت عنه واقتلعتُ يده وعدت إلى ركوبه.

والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيْفان : أحدهما معلق بالسّرج، ويسمى الرّكابي، والآخر في التركش، فسقط سيفي الركابي من غمده وكانت حليته ذهباً فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت وهم في أثري، ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه فكان آخر عهدي بهم.

ثم خرجت إلى وادٍ في وسط شعراء ملتفةٍ في وسطها طريق 10/4 فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه فبينا أنا في ذلك خرج عليَّ نحو أربعين رجلاً من الكفار بأيديهم القِسّي فأحدقوا بي وخِفْت أن يرموني رمية رجل واحد إن فررت منهم، وكنت غيرَ متدرع، فألْقيت بنفسي إلى الأرض واستَأسَرْت، وهم لا يقتلون مَن فعل ذلك، فأخذوني وسلبوني جميع ما عليَّ، غير جُبة وقميص وسروالٍ ودخلوا بي إلى تلك الغابة فانتهوا بي إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماءٍ بين تلك الاشجار وأتوني بخبز مَاشْ، وهو الجُلُبّان، فأكلت منه وشربت من الماء.

(20) الجَلاَلي (JALALI) مدينة صغيرة على بعد 17 كـ.م شرق عليگره.

وكان معهم مُسلمان كلّماني بالفارسية، وسألاني عن شأني، فأخبرتهُما ببعضه وكتمتهما أني من جهة السلطان، فقالا لي : لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم، ولكن هذا مُقدَّمهم وأشارا إلى رجل منهم، فكلّمتُه بترجمة المسلمين وتلطفتُ له، فوكل بي ثلاثة منهم : أحدهم شيخ ومعه ابنُه، والآخر أسود خبيث، وكلّمني أولئك الثلاثة، ففهمت منهم أنهم أُمِروا بقتلي، فاحتملوني عشيّ النهار إلى كهف، وسلط اللّه على الأسود منهم حُمّى مرعِدة، فوضع رجليه عليّ ونام الشيخ وابنُه !

11/4

فلما أصبح تكلموا فيما بينهم وأشاروا إليَّ بالنزول معهم إلى الحوض وفهمت أنهم يريدون قتلي فكلمتُ الشيخ وتلطفت إليه فرقَّ لي، وقطعت كُمَّيْ قميصي وأعطيته أياهما لكي لا يأخذه أصحابه فيَّ إن فررت.

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاماً عند الحوض فظننوا أنهم أصحابهم، فأشاروا إليَّ بالنُّزول معهم، فنزلنا ووجدنا قوماً آخرين فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم فأبوا، وجلس ثلاثتهم أمامي وأنا مواجهٌ لهم ووضعوا حبل قنّب كان معهم بالأرض، وأنا أنظر إليهم، وأقول في نفسي : بهذا الحبل يربطونني عند القتل، وأقمت كذلك ساعةً ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم، وفهمت أنهم قالوا لهم : لأي شيء ما قتلتموه؟ فأشار الشيخ إلى الأسود كأنَّه اعتذر بمرضه ! وكان أحد هؤلاء الثلاثة شاباً حسن الوجه، فقال لي: أتريد أن أسرحك؟ فقلت : نعم، فقال : اذهب. فأخذت الجبَّة التي كانت علي فأعطيته إياها وأعطاني مقيَّرةً بالية عنده، وأراني الطريق فذهبت وخفت أن يبْدوَ لهم فيُدركونني، فدخلت غيضة قصبٍ واختَفيتُ فيها، إلى أن غابت الشمس، ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب، فأفضَتْ بي إلى ماءٍ فشربت منه، وسرت إلى ثلث الليل فوصلت إلى جبل فنمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحىً إلى جبل من الصخر عالٍ فيه شجر أمّ غيلان والسدر، فكنت أجني النبق فآكله حتى أثَّر الشوك في ذراعي آثاراً هي باقية به حتى الآن !

12/4

13/4

ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدرعة قطناً وبها أشجار الخروع، وهنالك باينٌ، والباين عندهم : بئر متسعة جداً مطوية بالحجارة، لها درج ينزل عليها إلى ورد الماء، وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القِباب من الحجر والسقايف والمجالس، ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها، وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد(21)، ولما وصلت إلى الباين شربت منه ووجدت عليه شيئا من عساليج الخردل قد سقطت

14/4

(21) انظر مايأتي IV ، 84- 85 حول المقيرة انظر المقدمة.

لمن غسلها فأكلت منها وادَّخرتُ عليه شيئا من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فأكلت منها وادَّخرت باقيها، ونمت تحت شجرة خروع.

فبينما أنا كذلك إذ ورد البابن نحو أربعين فارساً مدرعين، فدخل بعضهم إلى المزرعة، ثم ذهبوا، وطمس الله أبصارهم دوني، ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السّلاح ونزلوا إلى البَاين، وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التي كنت تحتها، فلم يشعر بي.

ودخلت إذ ذاك في مَزرعة القطن وأقمتُ بها بقية نهاري، وأقاموا على البَاين يغسلون ثيابهم ويلعبون، فلما كان الليل هدأت أصواتهم، فعلمت أنهم 15/4 قد مرّوا أو ناموا فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل، والليل مقمر، وسرت حتى انتهيت إلى باين آخر، عليه قبة فنزلت إليه وشربت من مائه وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي، ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها، وكنت أحس حركة حيوان في تلك العشب أظنه حيَّة فلا أبالي بها لما بي من الجهد، فلما أصبحت سلكت طريقاً واسعة تُفضي إلى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياماً، وفي بعضها وصلتُ إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبْه بيت وعلى جوانب الحوض نباتُ الأرض كالنَّجيل. وغيره فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله مَن يوصلني 16/4 إلى العمارة.

ثم إني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثوراً عليه بردعة ومنْجَل، فإذا تلك الطريق تفضي إلى قُرى الكفار فاتبعت طريقا أخرى فأفضت بي إلى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما وأقمت تحت أشجار هنالك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت داراً في بيتٍ من بيوتها شِبْه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزَّرع، وفي أسفلها نَقْب يسع منه الرجل فدخلتُها ووجدت داخلها مفروشاً بالتبن وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت.

وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل، وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين وأقمت على تلك الحال سبعةَ أيام من يوم أسرت، وهو يوم 17/4 السبت وفي السابع منها وصلت إلى قريةٍ للكفار عامرة، وفيها حوض ماء ومنابت خُضَر، فسألتهم الطعام، فأبوا أن يعطوني، فوجدت حول بئرٍ بها أوراق فجل، فأكلته، وجئت القرية فوجدت جماعةَ كفارٍ لهم طليعة، فدعاني طليعتهم فلم أجبْه، وقعدت إلى الأرض، فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به، فلم التفت إليه لعظَم ما بي من الجهد، ففتشني فلم يجد عندي شيئاً فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كمَّية للشيخ الموكل بي.

ولما كان في اليوم الثامن إشتدّ بي العطش، وعدمت الماء ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضاً، وعادتهم بتلك القُرى أن يصنعوا أحواضاً يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة، فاتبعت طريقاً فأفضت بي الى بئرٍ غير مطوية، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض، وليس فيه آنية يستقى بها فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل، وامتصصت ما تعلق بها من الماء، فلم يُروني، فربطت خفي واستقيت به، فلم يفروني فاستقيت به ثانياً فانقطع الحبل، ووقع الخف في البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت، ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بحَبل البئر، وبخرقٍ وجدتها هنالك فبينما أنا أربطها وأفكر في حالي إذ لاح لي شخص فنظرت إليه فإذا رجلٌ أسود اللَّون بيده إبريق وعكّاز، وعلى كاهله جراب، فقال لي : سلام عليكم فقلت له : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقال لي بالفارسية : جِيكَسْ معناه : من أنت؟ فقلت له : أنا تائه ! فقال لي : وأنا كذلك، ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء فأردت أن أشرب، فقال لي : اصبر ! ثم فتح جرابه فأخرج منه غرفة حمّص أسود مقلّو مع قليل أرز، فأكلتُ منه وشربت، وتوضأ وصلَّى ركعتين وتوضأت أنا وصليت، وسألني عن اسمي فقلت : محمد، وسألته عن إسمه فقال لي : القلب الفارح فتفاءلت بذلك وسررت به، ثم قال لي : بسم الله ! ترافقني؟ فقلت : نعم، فمشيتُ معه قليلاً، ثم وجدت فتوراً في أعضاءي، ولم أستطع النهوض، فقعدت، فقال لي: ما شأنك؟ فقلت له : كنت قادراً على المشي قبل أن ألقاك فلما لقيتُك عجزت، فقال : سبحان الله اركب عنقي ! فقلت له : إنك ضعيف ولا تستطيع ذلك، فقال : يقوّيني الله، لا بد لك من ذلك، فركبت على عُنُقه، وقال لي : أكثِرْ من قراءة : حسْبنا الله ونعم الوكيل، فاكثرت من ذلك.

18/4 19/4 20/4

وغلبتني عيني فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض فاستيقظت ولم أر للرجل أثراً، وإذا أنا في قريةٍ عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود، وحاكمها من المسلمين، فأعلموه بي فجاء إليّ فقلت له : ما إسم هذه القرية؟ فقال لي : تاج بوره (22) ، وبينها وبين مدينة كُول حيث أصحابنا فرسخان، وحملني ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمني طعاماً سُخنا واغتسلت وقال لي : عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجلٌ عربي مصري من أهل المحَلَّة التي بكول، فقلت له : هاتهما ألبسهما إلى أنْ أصل إلى المحلة، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتُهما لذلك العربي لما قدمنا كول فطال تعجبي من ذلك !

21/4

(22) تاج بورة (TAJPUR) تقع على نحو خمس كيلو ميترات شمال غرب عليگرة، وقد ظهرت في خريطة عن المواقع الأثرية الهامة ... لجمال م صدّيقي ALigarh : Snippets from the Past
كراسة نشرت بتعاون مع الكونگرس التاريخي الهندي عليكره : عام 1975 – الآية حسبنا الله ونعم الوكيل من سورة آل عمران رقم 173 واللفظ في سورة المائدة والتوبة.

وفكرت في الرجل الذي حملَني على عنقه، فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المُرشدي حسبما ذكرناه في السفر الأول (23)، إذ قال لي : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي دِلْشاد، ويخلصك من شدة تقع فيها، وتذكرت قوله لما سألته عن إسمه فقال : القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دِلْشاد، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه وأنه من الأولياء

22/4 ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكرته.

وكتبت تلك الليلة إلى أصحابي بكوِل معلماً لهم بسلامتي فجاءوا إلي بفرس وثياب، واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم، وبعث بفتى يسمى بسنبُل الجامدار عوضاً من كافور المستشهد، وأمرنا أن نتمادى على سفرنا، ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها عليَّ وعلى كافور، وهم يريدون أن يرجعوا، فلما رأيتُ تأكيد السلطان في السَّفر، أكدتُ عليهم وقوى عزمي، فقالوا أَلا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك، فلنرجعْ إليه أو نقيم حتى يصل

23/4 جوابه، فقلت لهم : لا يمكن المقام وحيث ما كنا أدركنا الجواب.

فرحلنا عن كول ونزلنا بورج بوره (24) وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لانه لا يلبس عليه إلا ثوبا من سرته إلى أسفل وباقي جسده مكشوف وهو تلميذ الصَّالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر، نفع الله به.

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى قائماً على قدم التجرد يلبس تنُّورة، وهو ثوب يستر من سرته إلى أسفل، ويذكر أنه كان إذا صلَّى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وادام وماء وفرق ذلك على المساكين ورمى بفتيلة السراج، وأصبح على غير معلوم.

24/4 وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزاً وفولاً فكان الخبازون والفوَّالون يستبقون إلى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء، ويقول لمن أخذ منه ذلك : أقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلاً كثيراً.

ومن حكايته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتهما، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضعٍ

(23) يراجع ج I ,47 الجام دار : تعني بالفارسية حامل الكاس وسيذكر سنبل وسينعته بالملك V ,95.

(24) بورج بورة (Burjpur) على بعد من 16 كـم في (MAINPUR) بين عَلِيكره وكانُّوج.

يقال له : قشحب، والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع، وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل، وأخذ قيداً فقيد به فرس الملك الناصر لئيلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنة، 25/4 فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين، فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمةً شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أُرسل عليهم من المياه، ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الاسلام بعدها (25)، وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن.

ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآبِ سياه (26)، ثم رحلنا إلى مدينة قِنَوج (27)، وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم، مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كَثيرة السكّر، ومنها يحمل إلى دهلي، وعليها سور عظيم، 26/4 وقد تقدم ذكرها، وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزي أضافنا بها، وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (28) صاحب كسرى، ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق يعرفون بأولاد شرف جهان، وكان جدهم قاضي القضاة بدولة أباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرئاسة ببلاد الهند إليه.

حكاية قاضي القضاة

يذكر أنه عُزل مرة عن القضاء وكان له أعداء فادعى أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده، أنَّ له عشرةَ آلاف دينار قِبَلَهُ ولم تكن له بيّنة وكان قصدُه أن يحلّفه فبعث القاضي عنه، فقال لرسوله : بمَا ادعى عليَّ؟ فقال : بعشرة آلاف دينار، فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف، وسلّمت للمدَّعي.

(25) يتعلق الأمر بمعركة مرج الصُّفّار التي وقعت يوم ثاني رمضان 702 = 21 ابريل 1303 لقد كان قازان المغولي إيلخان فارس اجتحاح سوريا واحتل لفترة مدينة دمشق، وقد دافع السلطان المملوكي الناصر ملك مصر عن البلاد وهزم المغول الذين كان يقودهم قطلو شاه والأمير جوبان وليس الإيلخان – ويبدو أن قشحب تحريف لكلمة كُشَاف حيث التحق قطلو بايلخان. ولا ننسى أنه بمناسبة هذا النصر بعث سلطان مصر لسلطان المغرب ببعض الهدايا التي غنمها في معركته ضد التتر : 20 اكديشا 20 اسيراً – تشكيلة من طبولهم واسلحتهم علاوة على الفيل والزرافة...

وقد قدم لنا المقريزي وصفاً مفصلاً لتلك المعركة ولكن من غير أن يشير لما حكاه ابن بطوطة هنا الأمر الذي يدل على أن الرحلة لم تكن قد وصلت للمشرق أيام المقريزي المتوفى 845=1441 – ابن اياس بدائع الزهور 1982 ج 1، 413... دائرة المعارف الإسلامية، مادة MARDJ AL SSUFAR

(26) آب سياه يعني "النهر الأسود" كاليندي (Kalindi) : احد روافد الكانج.

(27) قِنَوْج (Kanauj) تقع على الساحل الأيمن للكانج في إقليم (Fatehgarh)

(28) يخلط ابن بطوطة بين بهرام جور الملك الساساني لفارس في القرن الخامس وبين الجنرال بهرام جوبان الذي ثار على كسرى بَرْويز – Beckingham : The travels IV P. 784

27/4 وبلغ ‖ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بَطلان تلك الدعوى، فأعاده إلى القضاء وأعطاه عشرة آلاف.

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثاً، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه إن لم يظهر لفلان أثر فيتوجَّه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضا منه ! ثم رحلْنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هَنَوْل، ثم بمنزل وزير بُور ثم بمنزل البَجَالِصة (29) ثم وصلنا إلى مدينة مَوْري (30)، وضبط اسمها بفتح ميم وواو وراء وهي صغيرة ولها أسواق حسنة، ولقِيت بها الشيخَ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر الفرغاني، وكان بحال مرضٍ فدعا لي وزوَّدني رغيف شعير، 28/4 وأخبرني أن عمره ينيف على مائة وخمسين، وذكر لي أصحابه أنه يصوم الدَّهر ‖ ويواصل كثيراً ويكثر الاعتكاف، وربما أقام في خلوته أربعين يوماً يقتات فيها بأربعين تمرة في كلّ يوم واحدة.

وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمى برجب البرقعي دَخَل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة !

ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مَرْه (31)، وضبط اسمها بفتح الميم وسكون الراء وهاء، وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذّمة، وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس مثله بسواها، ومنها يحمل إلى دهلي، وحبوبُه طوالٌ شديدة الصفرة ضخمة، ولم أر قمحاً مثله إلا بأرض الصين ! وتنسب هذه المدينة إلى المالَوة (32) بفتح اللام، وهي قبيلةٌ من قبائل 29/4 الهنود ضخام الأجسام عظام الخلق حسان الصور، لنسائهم الجمال الفائق، وهن ‖ مشهورات بطيب الخلوة ووفور الحظ من اللّذة، وكذلكِ نساء المرْهتة (33) ونساء جزيرة ذيبة المهل (34) !

---

(29) يلاحظ مزيك MZIK بأنه من الصعب جداً أن تحدد الطريق التي سلكها ابن بطوطة من قِنَوج إلى گاليور ... لا توجد اسماء لها شبه بهنول ولا وزير بور أو البجالصة بالاقليم الذي اجتازه ابن بطوطة – وسيذكر ابن بطوطة گاليور على أنه زارها بيد أنه لم يذكر كيف وصلها فلعلها اختلطت عنده بزيارة أخرى .Beckingham P. 781

(30) من الممكن أن يكون القصد إلى أُمري (UMRI) التي تقع على مقربةٍ من بهِند (BHIND) في الإقليم الذي يحمل نفس الإسم...

(31) حول رجب البرقعي يراجع ج I، 367-368 حيث نجده مبعوثاً بهدية من الملك إلى الخليفة وعن مدينة مَرة فإن مزيك Mzik يقترح علينا فكرة احتمال تحريف كلمة موه (MAUH) إلى مَرْه.

(32) مالوة قبيلة تقع شمال غربيّ الإقليم الحالي الذي يحمل اسم ماديَا بْرَادِش -MADHYA PRA) DESH) والذي يقع جنوب دهلي – انظر الخريطة ...

(33) المَرْهَته : يكتبها ابن بطوطة هكذا بتقديم الراء على الهاء والامر بالعكس على ما يبدو، نسبة إلى إقليم مَهَرَشْطَرا (MAHARASHTRA) الذي ينفتح على بومباي الواقعة على بحر العرب انظر ج III 182 تعليق 39.

(34) هي جزر مالديف آتية الذكر.

ثم سافرنا إلى مدينة عَلاَبُور (35)، وضبط إسمها بفتح العين ولام والف وباء موحدة مضمومة وواو وراء، مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة، وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر إسمه قَتَم بفتح القاف والتاء المعلوة، وهو سلطان جَنبيل بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وباء مد ولام، الذي حَاصَر مدينة كيالير، وقُتِل بعد ذلك (36).

حكاية الأمير قتَم

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رَابَري (37)، وهي على نهر الجون، كثيرة القُرى والمزارع، وكان أميرها خطّاب الأفغاني، وهو أحد الشجعان، واستعان السلطان الكافر بسلطانٍ كافر مثله يُسمى رَجُو، بفتح الراء وضم الجيم، وبلده يُسمى سلطان بور (38)، وحَاصَرا مدينة رَبَري فبعث خطَّاب إلى السلطان يطلب منه الإغاثة فأبطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة، ومثلهم من المماليك ونحو أربع مائة من سائر الناس، وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم ! وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى، وتقدَّم خطَّاب وقبيلته وأتبعهم سائر الناس، وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملةً واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً فهزموهم، باذن الله، وقتلوا سلطانيْهم قَتَم ورَجُو، وبعثوا برأسيهما إلى السلطان ولم ينج من الكفار إلا الشّريد .

30/4

31/4

ذكر أمير علابور واستشهاده

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان، وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال، وكان لا يزال يُغير على الكفار منفرداً بنفسه فيقتل ويسبى حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار، وكان طويلاً ضخْماً ياكل الشاة عن آخرها في أكلة!

وأخبرتُ أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشة

(35) علابور حاليا هي (ALAPUR) قرية جنوب شرْق گوَاليور (Gwalir) على بعد نحو 7 كـ. م منها ويذكر Mzik أن هناك موقعاً جغرافياً آخر يحمل نفس الإسم على بعد 37 كـ.م. غربي شمال گواليور الذي يبعد عن الطريق من قِنَوج.

(36) يتعلق الامر، على ما يبدو بأمير دولْبور DHAULPUR مدينة واقعة بين أكرا وگوالْيور على شامْبل، ومن هنا جاءت كلمة جَنْبيل في نصّ ابن بطوطة.

(37) رَابَري : يتعلق الامر، على ما يبدوا، بمدينة رابْري (RAPRI) التي تقع على نهر يامونا (Yamuna).

(38) توجد عدة مواقع تحمل اسم سلطان بور، ومن ذلك موقع اقليم يحمل نفس الاسم في جنوب شرقي لُكْنُوو (LUCKNOW).

ببلادهم ! وكان له ابن يدانيه في الشجاعة، فاتفق أن غار مرة في جماعة من عبيده على قريةٍ للكفار فوقع به الفرس في مطمورة واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتَّارة، والقتَّارة بقاف معقود وتاء معلوة، حديدة شبه سكةٍ للحرث يدخل الرجل يده فيها ‖ فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين، وضربتُها لا تُبقي، فقتله بتلك الضربة وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرْية، وقتلوا رجالَها وسَبوا نساءها وما فيها وأخرجوا الفَرَس من المطمورة سالِما فأتوا به ولده فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجَّه إلى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قُتل وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا!

32/4

ثم سافرنا إلى مدينة كَالِيور، وضبط إسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللاَّم وضم الياء آخر الحروف وواو وراء، ويقال فيها أيضا كيالير، وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأسٍ شاهقٍ على بابه صورة فيل، وفيال من الحجارة ‖ وقد مر ذكره في إسم السلطان قطب الدين (39)، وأميرُ هذه المدينة أحمد بن سيرخان فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل هذه السفرة.

33/4

ودخلت عليه يوماً وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له : بالله لا تفعل ذلك، فاني ما رأيت أحداً قط يُقتل بمحضري! فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه.

ثم رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة بَرْوَن (40)، وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون، مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار، أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة، وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قَتل ‖ من أهلها كثيراً وكانوا يعجبون في شأن دخوله. وأخبرني محمد التُّوفيري من أهلها، وكان جاراً لي بها أنه دخل داره ليلاً وافترس صبياً من فوق السرير، وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عُرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطروحاً بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه. وذكروا أنه كذلك فعلُه بالناس.

34/4

---

(39) يراجع ج III ص 194 حيث ردد ذكر صورة الفيل المنحوت من الحجر على باب الحصن، وعليه صورة فيال..

(40) بَرْوَن (PARWAN) القصد على ما يبدو – إلى نَرْوَر (NARWAR) في ولاية گواليور (Gwalior) التي كانت، حسب المسجل الهندي – إحدى المحطات الخصبة على الطريق الذي يربط بين دهلي ودكَّان (Deccan).الخريطة العصرية توحي كذلك بمكان يحمل اسم بَرْوي PARWAI على بعد 25 ميلا شمال شرق نَرْوَر NARWAR, و 30 ميلاً جنوب گواليور .Gibb : Selections; p. 363 N 5 - Beckingham. IV P. 787 N. 44.

ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو أدمي من السَّحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع، ولما أخبرتُ بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة ولنذكر بعضاً من أخبار هؤلاء السحرة ‖ . 35/4

ذكر السَّحرة الجُّوكية (41)

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تُحفر لهم حفر تحت الأرض وتُبنى عليه، فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم بها الشهور، وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة !

ورأيت بمدينة منجَرو رجلاً من المسلمين ممن يتعلَّم منهم قد رفعت له طبْلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدةً من خمسة وعشرين يوماً وتركته كذلك، فلا أدري كم أقام بعدي.

والناس يذكرون أنهم يركّبون حبوباً يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو أشهرٍ فلا يحتاج في تلك المدة إلى ‖ طعامٍ ولا شراب ويخبرون بأمور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم، ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الاكثرون، والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها، ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتاً من نظرته، وتقول العامة : إنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب ! ويقولون : أكل قلبه، وأكثر ما يكون هذا في النّساء، والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كَفْتَار ! 36/4

حكاية [امرأة كفتار]

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التِّلِنك (42) نفّذ أمره أن يعطى لأهل دهْلي ما ‖ يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم، فجمعهم الوزير، ووزع المسّاكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولّوا إطعامهم فكان عندي منهم 37/4

(41) هؤلاء السَّحرة المدعوون بالجوكية هم بالذات الذين سمع بهم ابن خلدون في المقدمة، (طبعة دار الكتاب اللبناني : ص 898-899) .والكلمة من أصل سنسكريتي (Jogin) المأخوذِ نفسه من كلمة (Yoga) "Joug" التي ظهرت في أوربا منذ سنة 1298 ثم 1553 : Jogue وعام IOGHI - 1575، هكذا يكون ابن بطوطة من أوائل الذين تحدثوا عن الجوكية –

(42) بلاد التّلنك... تيلينگانا Tilingama مملكة هندية بين گودافاري وبين نهر كريشنا بعاصمتها WA-RANGAL يراجع ج III 192.

خمسمائة نفس فعمَّرت لهم سقائف في دارين وأسكنتهم بها، وكنت أعطيتهم نفقة خمسةِ أيام في خمسة أيام، فلما كان في بعض الأيام أتوني بمَرْأةٍ منهم، وقالوا : إنها كَفْتار وقد أكلت قلب صبيٍّ كان إلى جانبها، وأتوا بالصبي ميّتا، فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان فأمر بإختبارها وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيدها ورجليها وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق، فعلم أنها كَفْتار ! ولو لم تطْفُ على الماء لم تكن بكَفْتار، فأمر بإحراقها بالنَّار وأتى أهل البلد ‖ رجالاً ونساء فأخذوا رمادها وزعموا أنه من تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كَفْتار ! 38/4

حكاية [سحر الجوكية]

بعث إليَّ السلطان يوماً وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو في خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطُّون رؤوسهم لأنهم ينْتفونها بالرماد كما ينتف الناس أباطهم. فأمرني بالجلوس فجلست، وقال لهما : إن هذا العزيز من بلادٍ بعيدة فأرياه ما لم يره ! فقالا : نعم، فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعاً، فعجبت منه، وأدركني الوهم فسقطت إلى الأرض ! فأمر ‖ السلطان أن أسْقي دواء عنده فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع، فأخذ صاحبه نعلاً من شكارة كانت معه فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربّع وجعلت تضرب في عنقه وهو ينزل قليلاً حتى جلس معنا، فقال لي السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب النَّعل، ثم قال : لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن ياتوا بأعظم مما رأيت ! فانصرفت عنه وأصابني الخفقان ومرضت حتى أمِر لي بشربةٍ أذهبن ذلك عني. 39/4

ولنعد لما كنا بسبيله، فنقول : سافرنا من مدينة برْوَن إلى منزل أمْواري، ثم إلى منزل كَجَرًّا(43) وبه حوض عظيم طوله نحو ‖ ميل وعليه الكنائس فيها الأصنام، قد مثَّل بها المسلمون، وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى أركانه الأربعة أربع قباب، ويسكن هنالك جماعة من الجُوكية وقد لبَّدوا شعورهم وطالت، حتى صارت في طولهم وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة، وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم، ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي إليهم مدةً طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى. 40/4

(43) أمواري Amouary لم نصل إلى تحديد موقعها... أما كَجَرًّا فإن القصد على ما يبدوا إلى خَجُرَهُ (KHAJURAHO) التي تقع على بعد 27 ميلا شرقي اقليم CHHATARPUR، و 25 ميلا شمال غربي بنًّا (BANNA) بالرغم من المنعرجات الظاهرة في خط الرحلة، وإنَّ الوصف الذي قدمه ابن بطوطة يتفق مع الوصف الذي يوجد عن هذا الموقع في التقارير الهندية Gibb : Selec. P. 363 N.5 Bekingham : Travel 4 P. 790.

وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طَرْمَشِيرين ملك تركستان، وكانوا نحو خمسين فحُفر لهم غارٌ تحت الأرض، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة.

41/4 ولهم شبه القَرْن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة، وشأنهم كله عجب ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعْبر حبوباً يأكلها تقويةً على الجماع (44)، وكان من أخلاطها بُرادة الحديد، فأعجبه فعلها فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات، ووَلِي إبن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكي ورفع قدره !

ثم سافرنا إلى مدينة جَنْدِيري (45)، وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البَنْتاني، بالباء الموحدة ثم النون ثم التاء المثناة مفتوحات ثم ألف ونون، وهو المدعوا بأعْظم مَلِك. وكان خيّراً فاضلاً يجالس أهل العلم، وممن كان يجالسه الفقيه عز 42/4 الدين الزّبيري والفقيه العالم وجيه الدين البَياني، نسبة إلى مدينة بيانة التي تقدم ذكرها (46) والفقيه القاضي المعروف بقاضي خاصَّة، وإمامُهم شمس الدين، وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين، ونائبه على أمور العسكر سعادة التِّلِنكي من كبار الشجعان، وبين يديه تعرض العساكر وأعظَم مَلِك لا يظهر إلا في يوم الجمعة أو غيرها نادراً.

ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظِهار، وضبط إسمها بكسر الظاء المعجم، وهي مدينة المالْوَة أكبر عمالة تلك البلاد، وزرعها كثير خصوصاً القمح، ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي وبينهما أربعة وعشرون يوما.

وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوشة عليها عدد الأميال فيما بين كلّ عمودين فإذا أراد 43/4 المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه وما بقى له إلى المنزل أو إلى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه! ومدينة ظهار اقطاع للشيخ ابراهيم الذي من أهل ذيبة المهل.

---

(44) سياتي عند الحديث عن غياث الدّين كلام أيضا حول هذه الحبوب التي تزيد في قوة الجماع IV,199-200. وحول ابن أخيه ناصر الدين انظر ج. IV ,202 - 203

(45) تقع مدينة جنديري Tchendiri في إقليم كونا (Guna) قلعة مهمة فتحت في فترة علاء الدين الخَلْجي وحول أعظم مَلِك – عزالدّين البنتاني انظر ج IV ص 6 .

(46) يعني ج IV ص 5 وقد تقدم ذكر ظهار ج III، 329 ولكن من غير أن يحددها وينبغي أن يكون القصد إلى DHAR، ويلاحظ مزيك (Mzik) أن ابن بطوطة كان عليه أن يمر عبر UJJAIN قبل أن يصل DHAR.

حكاية [بطيخ الشيخ ابراهيم]

كـان هذا الشـيخ إبراهيم قـدم على هذه المدينة ونزل بخـارجهـا فـأحيى أرضـاً مـواتاً هنالك وصـار يزدرعـهـا بطيـخـاً فـتـأتـى في الغاية من الحـلاوة ليس بتلك الأرض مثلها ويزرع الناس بطيخاً فيما يجاوره فلا يكون مثله، وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر (47) أهدى اليه هذا الشيخ بطيخاً فقبله واستطابه رأقطعه مدينة ظِهار، وأمره أن يعمّر زاوية بربوةٍ تشرف عليـها فعمرها أحسن عمارة وكان ‖ يطعم بها الوارد والصادر، وأقام على ذلك أعواماً ثم قدم على السلطان، وحمل إليه ثلاثة عشر لكّاً، فقال : هذا فضل مما كنت أطعمه الناس، وبيت المال أحق به، فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه في اطعام الطعام!

44/4

وبهذه المدينة أراد ابن اخت الوزير خواجة جَهان (48) أن يفتك بخاله ويستولي على أمواله ويسـير إلى القائم ببـلاد المعبر فنمى خـبره إلى خـاله فقـبض عليه وعلى جـماعة من الأمراء وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء ورد ابن أخته إليه، فقتله الوزير.

حكاية [ابن أخت الوزير وجاريته]

45/4

ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل كما ‖ قُتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها وأطعمها التّنبول وأطعمته وعانقها مودعاً ثم طُرح للفيلة، وسلخ جلده وملى تبْناً، فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها في بئرٍ هنالك تقرب من الموضع الذي قتل فيه فوجدت ميتة من الغد فأخرجت ودفن لحمه معها في قبرٍ واحد، وسمى ذلك قبور عاشقان، وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين.

ثم سافرنا من مدينة ظِهار إلى مدينة أُجَين، وضبط إسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء نون، مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عيْن المُلك من الفضلاء الكرماء العلماء، استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها، وقد زرت قبره هنالك، وسنذكره (49)، وبهذه المدينة ‖ كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي الأصل.

46/4

(47) تمت حملة السلطان على بلاد المعبر في عام 735=1335 انظر ج I, 426 وانظر ج III -45- 58 - 144 - 212 - 214 - 227 - 245 - 234 - 218 - 411

(48) خواجة جَهَان : لقب منح من لدن السلطان لأحمد ابن إياس وتوجد عدة أماكن تتعلق به. انظر التعليق السابق ص 47

(49) يلاحظ أن ابن بطوطة لم يف بوعده في الحديث عن القبر، وسنرى IV, 68 نفس الحال بالنسبة للأمير هريب ... وعن افتتاح المسلمين لجزيرة سندابور التي يسميها المسلمون God – يراجع ج IV ص 106-107 – عن جمال الذين الغرناطي انظر ج 293, III- 272.

ثم سافرنا من مدينة أُجَين إلى مدينة دولة أباد (51) وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلي في رفعة قدرها واتساع خطتها، وهي منقسمة ثلاثة أقسام : أحدها دولة أباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره، والقسم الثاني يسمى الكَتَكة، (51)، بفتح الكافين والتاء المعلوة التي بينهما، والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة، وتسمى الدُّوَيْقِير، بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مد وراء، وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قُطلو خان (52) معلّم السلطان، وهو أميرها والنائب عن السلطان بها، وببلاد صاغر وبلاد التِّلنِك وما أضيف إلى ذلك، وعمالتُها مسيرة ثلاثة ‖ أشهر عامرة كلُّها لحكمه ونوابه فيها. 47/4

وقلعة الدُّوَيْقِر التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الأرض (53)، قد نحتت وبنى بأعلاها قلعة يصعد إليها بسلَّم مصنوع من جلود ويرفع ليلاً ويسكن بها المُفردون وهم الزمَّاميون (54) بأولادهم، وفيها سجن أهلُ الجرائم العظيمة في جُبوبٍ بها وبها فيران ضخام أعظم من القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها ! ولا تصاد إلا بحِيلٍ تدار عليها، وقد رأيتها هنالك فعجبت منها.

حكاية [فيران تأكل الرجال]

أخبرني المَلِك خطَّاب الأفغاني (55) أنّه سُجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران، قال : فكانت تجتمع عليَّ ليلا ‖ لتأكلني فأقاتلها، وألقى من ذلك جهداً، ثم إني رأيت في النوم قائلا يقول لي : إقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة، ويفرج الله عنك، قال : فقرأتها فلما أتممتها أخرجت. 48/4

---

(50) دولة أباد : DEOGIRI ديوجير القديمة (دويقير عند ابن بطوطة) وقد وصف حصن ديوجير في السجل الجغرافي الهندي... وقد كان فتح من لدن المسلمين عام 693=1294 واعترافاً من السلطان محمد ابن تغلق بأهميته كقاعدة لحماية الجنوب الهندي اعطاه اسم دولة أباد... واقتنع باعتباره كعاصمة عام 727=1327... وقبل وفاة السلطان استولى عليه قائد تمرد على الحكم واستقل عن دهلي إلى أن ظهر الامبراطور أكبر 1575 م 983 هـ.

(51) كَتَكَة تعني باللغة السَّنْسكرية : المعسكر الملكي.

(52) هناك طائفة من المراجع التي تتعلق بقطلوخان وخاصة III , 143 وماليها أما عن صاغر فسياتي الحديث عنها ج IV ص 52 وعن بلاد التّلين: (Telingama) يراجع ج III 192...

(53) بُني هذا البرج على صخرة مخروطةٍ من علو 50 ميتر في العلو – الأكَمة التي ينتصب عليها تقوم تقريباً على علو مائتي ميتر على شكل عمودي وتجاور السهل راجع التعليق 50 سالف الذكر.

(54) القصد إلى الجنود المسجّلين على الزّمام الخاص بالجيش.

(55) تقدم ذكر الأفغاني كحاكم في رابري ج IV ص 29 ، سورة الإخلاص أقصر سورة في القرآن رقم 112 .

وكان سبب خروجي أن الملك ملّ كان مسجونا في جب يجاورني فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات فبلغ ذلك السلطان، فقال : أخرجوا خطّابا لئلا يتفق له مثل ذلك، وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن الملك ملّ المذكور والقاضي جلال حين هزمهما السلطان (56).

وأهل بلاد دولة أبادهم قبيل المَرهَتة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا في الأنوف والحواجب، ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن (57)، وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات وأكثر تجاراتهم في الجوهر، وأموالهم طائلة، وهم يسمون الساهة (58)، واحدهم ساهٍ بإهمال السين وهم مثل الأكارم بديار مصر (59).

وبدولة أباد العنب والرمان ويثمران مرتين في السنة، وهي من أعظم البلاد مجْبى وأكبرها خراجاً لكثرة عمارتها واتساع عمالتها.

وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعاً، وهي كما ذكرناه، مسيرة ثلاثة أشهر بسبعة عشر كُروراً، والكرور ماية لك، واللّك مائة ألف دينار ولكنه لم يف بذلك فبقى عليه بقية وأخذ ماله وسلخ جلده ▒. 50/4

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة أباد سوق للمغنّين والمغنيات تسمى طَرَب أباد، من أجمل الأسواق وأكبرها، فيه الدكاكين الكثيرة، كلّ دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه، وللدار باب سوى ذلك ! والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي متزيّنة بأنواع الحلي وجواريها يحركن مهدها.

وفي وسط السوق قبّة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كلّ خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين

---

(56) تقدم الحديث عن هذا الموضوع ج III ص 362-363 ويعتقد مهدى حسين ان ابن بطوطة غادر الهند قبل هذا التمرد...

(57) يعلّق الأمير مولاي العباس في مخطوطته الخاصة الموجودة بالخزانة الملكية على هذه الفقيرة بقوله : "أطعَمنا الله من هذه النعمة "!! هذا وقد علّق بيكِينگام على الموضوع مؤكداً أن رحّالة آخرين يشاطرون ابن بطوطة الرأي حول معرفة المهرتيات بأساليب الجماع...! (يراجع IV , 29 تعليق 33)

(58) اسمهم بالسنسكرتية سارنها فاها وسانتها فاها وينطقها أهل سيلان ساتناهه أو ساتياهه – النُعيمي.

(59) أفرد التجيبي وصفا دقيقا لمسالك الحج من قوص إلى عيذاب، ومعلوم مركز المدينتين في تجارة آسيا والهند التي كانت منتظمة في تلك الفترة بواسطة تجار عَدَن الذين كانوا يُعرفون عند المصريين بالأكارم ولهم خان يخصهم في مدينة قوص التي كانت بحق مركزاً تجارياً وعلمياً متميزاً على ما أسلفناه عند الحديث عن قوص وعيذاب، (I)، 116، III، 251، التجيبي : مستفاد الرحلة والاغتراب تحقيق عبد الحفيظ منصور، مصدر سابق.



الطرب والغناء – عن فن التصوير عند العرب – وزارة الاعلام – بغداد 1973

51/4 بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف ‖ وفي تلك السوق المساجد للصلاة، ويصلي الئمة فيها التَّراويح في شهر رمضان، وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها، ويغني المغنيات بين يديه، وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا.

ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار (60)، وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء، مدينة صغيرة يسكنها المرْهتة وهم أهل الاتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون، وشرفاء المرهتة هم البراهمة وهم الكَتْريون (61) أيضا، وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم، ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبْحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة، ولا ينكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد، ولا يشربون الخمر

52/4 وهي عندهم أعظم المعايُب ‖ وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين، ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة، وسجن في مطمورةٍ ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه.

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر، وضبط إسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء، وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صَاغَر (62) كإسمها، وعليه النواعير، والبساتين فيها العنبا والموز وقصب السّكّر، وأهل هذه المدينة أهل صلاحٍ ودين وأمانة، وأحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر، وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده، فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة.

والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ولكونها محررة من المغارم

53/4 والوظائف. ثم سافرنا ‖ من صَاغَر المذكورة إلى مدينة كِنْبَاية (63)، وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة، وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب، وبه المد والجزر وعاينت المراكب به مرساة في الوَحل حين الجزر فإذا كان المد عامت في الماء.

---

(60) حول نَذَربار (NANDURBAR) يلاحظ أن ابن بطوطة غادر دولة أباد في الاتجاه الذي ورد منه، ويُفترض أن السفارة الهندية كانت تقصد إلى قالقوط عن طريق البر بيد أنَّ ابن بطوطة علم وهو في دولة أباد أن السفر ربّما لا يكون آمناً وقد يتعرض للخطر سيما وأن ما يصحب السفارة من هدايا ثمين جداً...

(61) يتعلق الأمر بالكشترين وهو طائفة انحدرت من (Kshatryas) وهي فرقة تختلف عما سواها من الفرق القديمة في المجتمع الهندي. Enthoven : The Tribes and Castes of Bombay

(62) القصد بصاغر إلى (Songarh) في سافلة النهر الذي هو طابتي (TAPTI)، وقد عوضت صاغر بعد القرن السادس عشر سورات SURAT – راجع التعليق 52.

(63) كان على ابن بطوطة أن يصل إلى كنباية Cambay في النصف الأول من شهر أكتوبر عام 1341 جمادى الأولى 743 هـ ومن المهم أن نذكر هنا أن إفادات بارْبُوزا (بداية القرن 16) أكّدت ما ورد في ابن بطوطة من الأهمية التي كانت لميناء هذه المدينة قبل أن يأفل نجمها.

وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد، وسبب ذلك أن اكثر سكانها التّجار الغرباء فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون في ذلك، ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامرّي الذي اتفقتْ لي معه قضية الحلواء وكذَّبه ملك النُّدماء (64)، ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار، وبابها كأنه باب مدينة، والي جانبها ‖ مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملِك التجار الكازروني، وإلى جانبها مسجده، ومنها دار التاجر شمس الدين كُلاه دوز ومعناه خياط الشواشي. 54/4

حكاية [الثلاثة المخالفين]

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الأفغاني أراد شمس الدين المذكور والناخوذه إلياس، وكان من كبار أهل هذه المدينة، وملك الحكماء الذي تقدم ذكره (65)، على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة، وشرعوا في حفر خندق عليها إذ لا سور لها فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دارٍ واحدة وخافوا أن يُتطلع عليهم فاتفقوا على أن يقتلوا أنفسهم، فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتّارة، وقد ذكرنا ‖ صفتها (66)، فمات اثنان منهم، ولم يمت ملك الحكماء. 55/4

وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبنى بها داراً عظيمةً ومسجداً ثم بعث السلطان عنه وأمَّره عليها وأعطاه المراتب (67). فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله.

وكان أمير كِنباية حين وصولنا اليها مقبل التِلِنكي، وهو كبير المنزلة عند السلطان (68). وكان في صحبته الشيخ زاده الأصبهاني نائباً عنه في جميع أموره، وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة، ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده ويتحيل في الفرار، وبلغ خبره إلى السلطان وذكر عنه أنه يروم الهروب فكتب إلى مقبل أن يبعثه على البريد ‖ وأحضر بين يدي السلطان ووكّل به، والعادة عنده أنه متى وُكّل بأحد فقلّما ينجو ! فاتفق هذا الشيخ مع الموكَّل به على مال يعطيه إياه وهربا جميعاً، وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجدٍ بمدينة قلْهات (69)، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده وحصل على أمواله وأمن مما كان يخافه. 56/4

---

(64) يُراجع ج III ص 422-423.

(65) يراجع ج III صفحة 362 إلى 372.

(66) فعلاً كان ذلك في ج / IV ص 31.

(67) تراجع الفقرة الخاصة باستقبال الغرباء وتخصيصهم بالولايات والمراتب ج III - 97 - 98 - 222 - 229 233 - 239 - 243 - 274 - 298 - 334 - 427

(68) يُراجع ج III صفحة 362-372.

(69) قلهات تقع في عُمان، ج. II - 225 - 226 - 236.

حكاية [الأعورين]

واضـافنا الملك مـقْبل يومـاً بداره فكان من النادر أن جلس قـاضـي المدينة، وهـو أعـور العين اليمنى، وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صـورته وعوره، إلا أنه أعـور اليسرى ! فجعل الشريف ينظر إلى القاضـي ويضـحك، فزجره القاضـي، فقال له : لا تزجرني فاني أحسن منك، قـال : كيف ذلك؟ قال لأنك أعور ‖ اليمنى وأنا أعـور اليـسرى ! فضـحك الأمـير والحـاضـرون وخـجل القـاضـي ولم يسـتطـع أن يرد عليـه، لأن الشـرفـاء ببـلاد الـهند معظّمون أشدَّ التعظيم.

57/4

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا إليه وأكلنا من طعامه، واتّفق له لما دخل القاضـي جلال مدينة كِنْباية حين خلافه أَنه أتاه، وذُكر للسلطان أنه دعا له، فهرب لئيلا يقتل كما قتل الحيدري (70).

وكـان بهـا أيضـا من الصـالحين التاجر خـواجة إسـحق، وله زاوية يطعم فيـهـا الوارد والصـادر، وينفق على الفقراء والمساكين، ومالُه على هذا ينمِّي ويزيد كثرة.

وسـافـرنا من هذه المدينة يعني كنبـاية إلى بلدة كـاوِي (71)، وهـي على خـور فـيـه المد والجزر ‖ وهي من بلاد الريّ جَالَنْسي الكافر وسنذكره، وسافرنا منها إلى مدينة قَنْدَهار (72) وضـبط اسـمـهـا بفـتح القـاف وسكون النون وفـتح الدال المـهمل وهـاء والف وراء، وهـي مـدينة كبيرة للكفار على خور من البحر.

58/4

ذكر سلطانها (قندهار)

وسلطان قنْدهار كافـرٌ اسمـه جَالَنْسي (73) بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسـر السـين المهـمل، وهـو تحت حـكم الاسـلام ويعطـي لملك الهند هديةً كلَّ عـام، ولما وصلنا إلى قَندَهار خرج إلى إستقبالنا وعظّمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فـأنزلنا به، وجاء إلينا من

(70) يراجع ج III 310-311. حول ديار بكر راجع II - 131

(71) كَاوِي (القصد إلى Kava قبالة كنباية على الشاطئ الجنوبي لمصب نهر ماهي (MAHI).

(72) قنْدهار (GANDHAR) مـيناء هامّ كـان في ذلك العـهد، على مـصب نهـر دَانْدَار (DHANDAR) أو DHADAR مباشرة جنوب كَاوِي. انظر الخريطة جنوب ولاية الكجرات.

(73) جالَنْسي Jalansi هذا الاسم يتـفق مع إسم لقبـيلة تحمل اسم راجبـوت (RAJPUT) وهـم : جـهالاس (JHALAS) وهناك عَلَمٌ ظهـر في هـذه الفـتـرة من التـاريخ ضـمن لائحـة لملوك مِـيرْوَار (MERWAR) جنوب شرق راجَستان (RADJASTAN). بيد أن مَارْوَار توجد في الشمال أكثر، وتوجد مـفصـولة عن قندهار (GANDHAR) بالجُزرات تحت هيمنة دهلي على ذلك العهد.

Stéphane II, 185 - Gibb = Selections; P. 363 N. 10.

عنده من كبار المسلمين، كأولاد خواجة بُهرة (74)، ومنهم الناخودة ابراهيم له ستة من
59/4 المراكب مختصة له، ومن هذه المدينة ركبنا البحر.

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا في مركب لابراهيم المذكور يسمى الجَاكَر، بفتح الجيم والكاف المعقودة، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرساً، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركبٍ لأخي ابراهيم المذكور يسمى مَنُورْت، بفتح الميم ونون وواو مد وراء مسكن وتاء معلوة، وأعطانا جَالَنسي مركباً جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما، وجهز لنا بالماء والزاد والعلْف وبعث ولده في مركب يسمى العُكَيري، بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء، وهو شبه الغراب، الا أنه أوسع منه، وفيه ستون مجذافاً ويسقَّف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السَّهم ولا الحجارة، وكان ركوبي أنا في الجَاكَر وكان فيه خمسون رامياً وخمسون
60/4 من المقاتلة الحبشة، وهم زعماء هذا البحر، واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم.

ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيْرم (76)، وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء، وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقينا الماء من حوضٍ بها، وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد! وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها، وجعل بها المجانيق وأسكن بها بعض المسلمين.

ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقَة، وهي بضم القاف الأولى وفتح الثانية، وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق (77) أرسينا على أربعة أميال منها بسبب

(74) البُهْرة يكوّنون إلى اليوم جماعة تنتمي للاسلام في الكُجرات وبومباي ويمتازون بنشاطهم التجاري الفائق وبتنظيمهم الدقيق لحياتهم الاجتماعية حسبما ما وقفتُ عليه بالعيان عندما حضرت مهرجانا دينيا لهم في بومباي أبريل 1975. وإذا كانت فرقة البهرة التي بالكُجرات وبومباي تنتمي إلى الاسماعيلية فإن هناك فرقةً أخرى من أهل السنة، وهم في شمال كونكان Bekingham Konkan.

(75) تم الإبحار كما نرى من مرسى قندهار الذي كان يحتل مكانة كبيرة من هذا الخليج الشهير بتاريخه عبر العصور بما في ذلك عمليات القرصنة التي كانت تشهدها بعض جزره... ويذكر ابن بطوطة أن من جملة المراكب مركبا يشبه السفينة التي تحمل في اللسان العربي اسم الغراب ج اغربة : نوع من المراكب السريعة الحركة وتختص عادة بخفر السواحل وابلاغ البريد.

التازي : الأسطول المغربي عبر التاريخ، مجلة البحث العلمي 39 نونبر 1982.

(76) جزيرة بيرم (PIRAM) أو Perim على مقربة من مدخل خليج كنباية، كانت معقلا مشهوراً للقراصنة قبل أن يُغير عليها السلطان محمد ابن تغلق ويدمّرها.

(77) تقع Goga شمال بيرم على الساحل الغربي لخليج كنباية... ويلاحظ انها لم تكن على طريق ابن بطوطة من قندهار إلى كوا ولكن السفينة قصدتها اما لغرض تقني أو انها اضطرت لذلك مجاراةً للرياح...

61/4 الجزْر، ونزلت في عشاري مع بعض اصحابي حين الجَزر لأدخل اليها فوحل العشاري في الطين، وبقى بيننا وبين البلد نحـو مـيل فكنت لما نزلنا في الوحل أتوكـأ على رَجلين من أصحابي، وخوَّفني الناس من وصول المد قبل وصولي اليها وأنا لا أحسن السباحة، ثم وصلت إليها وطفت باسواقها، ورأيت بها مسجداً ينسب للخضر وإلياس عليهما السلام، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيْدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المرْكب (78).

ذكر سلطانها

وسلطانها كافرٌ يسمى دُنْكُول بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام، وكان يُظهر الطاعة لملك الهند وهو في الحقيقة عاصٍ، ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سَنْدَابُور وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والف وباء موحدة وواو مد وراء، وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية (79)، ويدور بها خور واذا كان الجزْر فماؤها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج، وفي وسطها مدينتان إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمَّره الناخودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري، وسياتي ذكره وذكر حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني إن شاء الله (80)، وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر (81) فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا فيها أحد الجُوكية.

حكاية هذا الجوكي

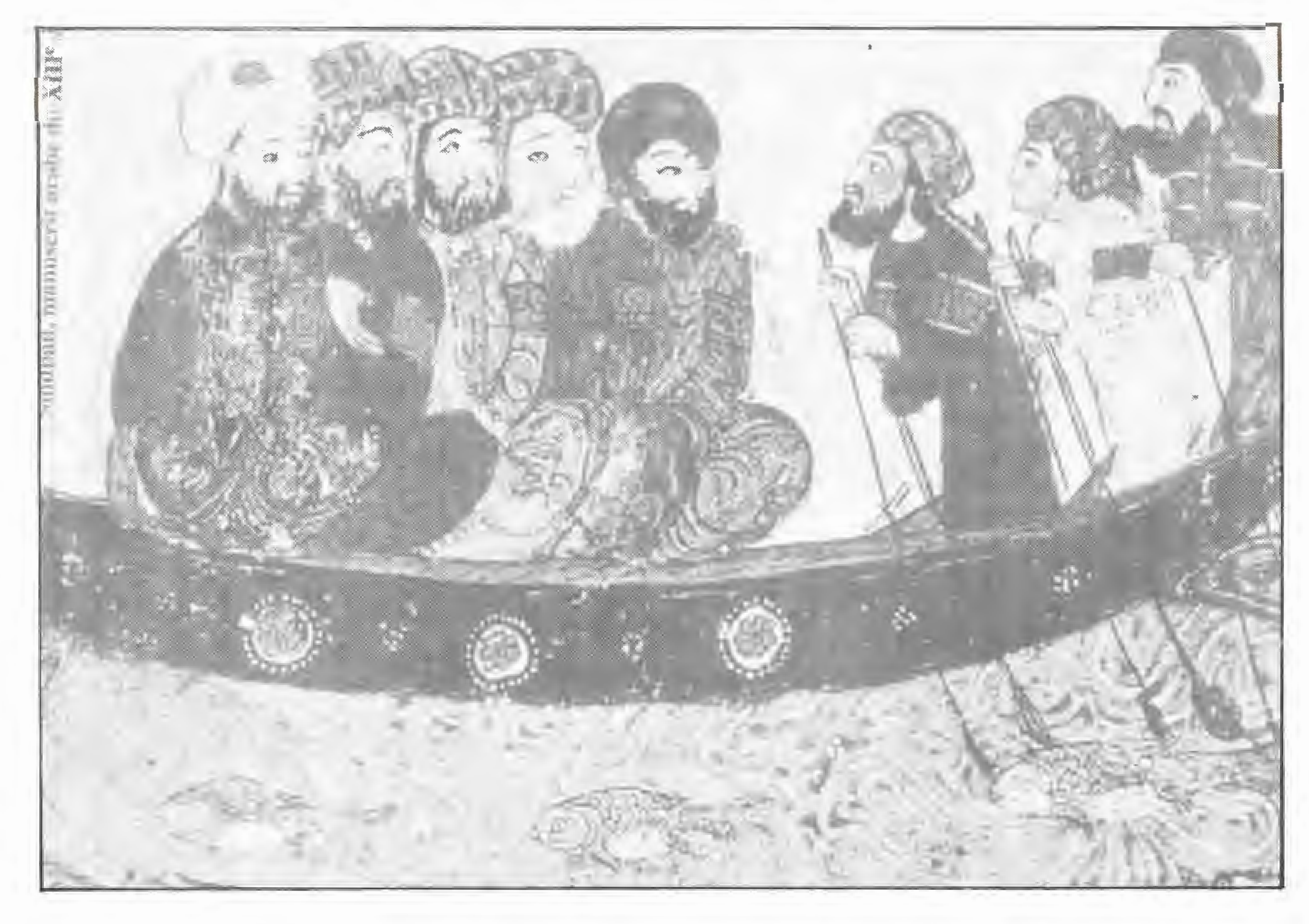
62/4 ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكياً مستنداً إلى حائط بُدَخَانة، وهي بيت الاصنام، وهو فيما بين صنمين منها وعليه أثر المجاهدة فكلَّمناه فلم يتكلم، ونظرنا : هل معه طعام فلم نر معه طعاماً، وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطتْ عند صياحه

(78) حول الحيدرية يراجع ج II ص 6 و ج III ص 79.

(79) سَندابور أو سِندابور Sandbur كانت اسماً يطلق على جزيرة وخليج گوا Goa المعروفين عند التجار الأقدمين المسلمين... وقد كانوا افتتحوها عام 712=1312 وتداولت عليها الأيدي من هذا الطرف أو ذاك ج. II - 177 - 254

(80) ج IV ص 68-69... وكذا صفحة 106-107 من هذا الجزء IV.

(81) القصد إلى جزيرة أنجيديف (ANDJIDIV) التي تقع على بعد 100كـ.م جنوب گو Goa ، والجدير بالذكر هنا أن ڤاسكوا دي كاما الذي يذكرانه زار الجزيرة عام 1498 ترك لنا وصفاً مشابهاً، الأمر الذي يؤيد مصداقية الرحالة المغربي...



نموذج من الفن التصويري عند العرب، تذكرنا بالكثير من المشاهد التي يصفها ابن بطوطة في رحلته

مشهد المركب من إحدى مقامات الحريري (446-516 = 1104-1222)

جوزةٌ من جوز النارجيل بين يديه، ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم، فلم يقبلها وأتيناه بزادٍ فردَّه.

وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلَّبْتُها بيدي فدفعها لي، وكانت بيدي سبْحة زيلَع (82) فقلَّبها في يدي فأعطيته إياها، ففركها بيده وشمها وقبَّلها، وأشار إلى السماء ثم إلى سمت القبلة، فلم يفهم أصحابي إشارته، وفهمت أنا عنه أنه أشار أنَّه مسلم

64/4 يُخفي إسلامه من ▒ أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من تلك الجوز، ولَّما وادعناه قبلت يده فأنكر أصحابي ذلك ففهم إنكارهم فأخذ يدي وقبَّلها وتبسَّم وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا وكنت آخر أصحابي خروجاً، فجذب ثوبي فرددت رأسي إليه، فأعطاني عشرة دنانير، فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي : لم جذبك؟ فقلت لهم : أعطاني هذه الدنانير، وأعطيتُ لظهير الدين ثلاثة منها ولسُنبل ثلاثة، وقلت لهما : الرجل مسلم، ألا ترون كيف أشار إلى السماء؟ يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام وأخذُه السبحة يصدِّق ذلك، فرجعا لما قلت لهما ذلك إليه، فلم يجداه وسافرنا في تلك الساعة.

65/4 وبالغد وصلنا إلى ▒ مدينة هِنوَر (83)، وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء، وهي على خور كبيرة تدخله المراكب الكبار، والمدينة على نصف ميل من البحر وفي أيام البُشْكال، وهو المطر، يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدّة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للصيد فيه، وفي يوم وصولنا إليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة وأعطاني ستة دنانير، وقال لي : البرهمي بعثها إليك، يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة وأعطاني الدنانير فأخذتها منه وأعطيته ديناراً منها فلم يقبله وانصرف، وأخبرت أصحابي بالقضية وقلت لهما : إن شئتما نصيبكما منها، فأبيا، وجعلا يعجبان من شأنه، وقالا لي : إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها وتركناها بين الصنمين

66/4 ▒ حيث وجدناه، فطال عجبي من أمره واحتفظتُ بتلك الدنانير التي أعطانيها.

واهل مدينة هنّور شافعية المذهب، لهم صلاح ودين وجهاد في البحر وقوة، وبذلك عُرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور، وسنذكر ذلك، ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقَوْري أضافني بزاويته. وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية

---

(82) الزيْلع : ضرب من صغار الودع، الصدف... وهناك (زيلع) : العَلَم الجغرافي : عاصمة البربرة التي تقدم الكلام عنها ج II - 180 . حول بُدَخانة يراجع ج. III - 151

(83) هُـنَـور (HONAVAR) تقع في إقليم كَانَارَا (KANARA) عند مصب نهر شاراواتي (SHARAVATI).

والغلام ! ولقيتُ بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضي بها نور الدين علياً والخطيب، ولا أذكر اسمه.

67/4 ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يْلَبس المخيط، (84) إنما يلبسن ثياباً غير مخيطة تحتزم إحداهن بأحد طرفي الثوب وتجعل باقية على رأسها وصدرها، ولهن جمال وعفاف، وتجعل إحداهن خُرص ذهب في أنفها (85). ومن خصائصهن أنهنَّ جميعا يحفظن القرآن العظيم، ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتباً لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ولم أر ذلك في سواها.

ومعاش أهلها من التجار في البحر ولا زرع لهم، وأهل بلاد المَليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كلّ عام شيئا معلوماً خوفاً منه لقوته في البحر، وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة.

ذكر سلطان هِنّور.

68/4 وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم، وهو تحت حكم سلطانٍ كافر يسمى هَرْيَبْ، سنذكره (87)، والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة، وعادتُه أن يأتي إلى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر فيصلي أول الوقت ثم يركب إلى خارج المدينة، وياتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل إلى قصره وهو يصوم الأيام البيض (88) وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للافطار

---

(84) هذا الثوب هو الذي يعرف إلى الآن باسم الصَّاري (LE SARI).

(85) ما يسمى ناث (NATH) يجعلنه يسار الأنف...

(86) محمد بن حسن شخصيةٌ لم نقف لها على ذكر لها فيما توفر لدينا من مصادر وهي تنتسب على ما يترجح لدينا إلى فريق من النواتية المسلمين الذين تمكنوا من بعض النقاط الساحلية : كُوا، وهُنَوَر الخ.

(87) يقول ابن بطوطة هنا أنه سيتحدث عن هَرْيَب هذا وهو الوعد الذي لم يتحقق على نحو وعد به قبل عندما وعد بالحديث عن قبر الملك ناصر الدّين ابن عين الملك (45, IV)، فهل كانت تلك الفقرات وهذه مما أتت عليه عملياتُ الإيجاز التي قام بها ابن جزي؟!

مهما يكن فإن هذا السلطان الذي لم يذكره مرةً أخرى تم التعريف به مع هَارهَارَا نرييَّالا (HARIHARA-NRIPALA) (1340-1375) حفيدِ هُنَّانْرِيبًّا (HONNA-NRIPA) الذي كان جَنرالا عند فِرَابَا لاَّ الثالث (VIRA BALLALA III)، سلطان هاوْزالا Hoysala

Ibn Battuta, voyages. T, III P. 193 Note 87 Trad de l'arabe de D.S. 1858. INTROD. et notes de Stephane Yerasimos, EDIT. la Découverte, PARIS 1990.

(88) القصد بالأيام البيض إلى يوم 13-14-15 من الشهر القمري التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصومها...

معه فاحضر لذلك ويحضر الفقيه علي والفقيه اسماعيل فتُوضع أربع كراسي صغار على
69/4 الأرض فيقعد على أحدها ويقعد كل واحد منا على كرسي ‖ .

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه أن يوتي بمائدة نحاس يسمونها خَوَنْجة (89) ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطَّالَم، بفتح الطاء المهمل وفتح اللام، وتاتي جارية حسنة ملتحفة بثوبٍ حرير فتُقدّم قدور الطعام بين يديه، ومعها مغْرفةُ نحاس كبيرة فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة وتجعلها في الطَّالم وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزَّنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا، فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح، فإذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم غرفت غرفةً أخرى من الأرز وأفرغت دجاجة مطبوخة في سُكُرجة فيوكل بها الأرز أيضا فإذا تمت المغرفة الثانية غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج توكل به،
70/4 فإذا ‖ تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السَّمك فياكلون بها الأرز أيضا، فإذا فرغت ألوان السمك أتو بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فيأكلون بها الأرز، فإذا فرغ ذلك كلُّه أتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون إطعامهم فإذا وُضع عُلم أنه لم يبق شيء يوكل بعده، ثم يشربون على ذلك الماء السخن لأن الماء البارد يضرُّ بهم في فصل نزول المطر.

ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرة أخرى أحد عشر شهراً لم آكل خبزاً، إنما طعامهم الأرز وبقيت أيضا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمُلَيْبار (90) ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرز حتى كنت لا استسغيه إلا بالماء.

ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق يشدّ في وسطه فوطة، ويلتحف
71/4 ملحفتين إحداهما فوق ‖ الأخرى ويعقِد شعره ويلف عليه عمامة صغيرة، وإذا ركب لبس قباد والتحف بملحفتين فوقه، وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال.

وكانت إقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام وزوَّدنا وسافرنا عنه، وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المُلَيْبار بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة

---

(89) الكلمة بالفارسية (KHWANTCHEH) واختصرت وعرِّبت إلى خوان بمعنى الصَّحن أو السّماط وهي العبارة التي اختارتها اليوم الخطوط الملكية المغربية للتعبير عن قائمة الطّعام (menu). والطّلم : يضم الطاء وتسكين اللاّم : باللغة العربية ما يبسط عليه الخبر.

(90) بلاد المُلَيْبار (Moulaïbar) المعروفة بإنتاج الأبزار (le poivre) : الفلفل الأسود كما يسميه المشارقة.. وتتفق اليوم مع ولاية كيرالا : إحدى ولايات الهند 22 ... وتستدل الهند أحيانا على حدودها التاريخية بما يرويه ابن بطوطة !

وألف وراء، وهي بلاد الفلفل، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سَندابور إلى كولم، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار، وفي كل نصف ميل بيت من الخَشَب فيه دكاكين يقعد عليها كلّ وارد وصادر، من مسلمٍ أو كافرٍ وعند كل بيت منها بئر يُشرب منها، ورجل كافر موكل بها، فمن كان كافراً يُسقاه في الأواني ومن كان مسلماً يسقاه في يديه ولا ‖ 72/4 يزال يصب له حتى يشير له أو يكف، وعادة الكفار ببلاد المُلَيْبار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم، فإن طُعم فيها كسّروها أو أعطوها للمسلمين، وإذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دارٌ للمسلمين، طبخوا له الطعام وصبُّوه له على أوراق الموز وصبُّوا عليه الإدام، وما فضل عنه يأكله الكلاب والطير.

وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه، ويطبخون لهم الطعام، ولولاهم لما سافر فيه مسلم، وهذا الطريق الذي ذكرنا أنّه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوق دون ‖ 73/4 عمارة، وكلُّ إنسان له بستانه على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب، والطريق يمر في البساتين فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هناك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر، هكذا مسيرة الشهرين !

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابَّة ولا تكون الخيل إلا عند السلطان، وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين، ومن لم يركب في دولة مشى على قدميه كائناً من كان، ومن كان له رحل أو متاع من تجارةٍ وسواها اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعتهم، وبيد كلّ واحدٍ منهم عودٌ غليظ له زجُّ حديد، وفي أعلاه مِخطاف حديد، فإذا أعيا ولم يجد ‖ 74/4 دكَّانة يستريح عليها ركز عوده بالأرض وعلَّق حمله منه، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به.

ولم أر طريقاً آمن من هذا الطريق، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى ياخذه صاحبه !

وأخبرت أن بعض الهنود مرّوا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة، وبلغ خبره إلى الحاكم فأمر بعود فرُكز في الأرض وبُرِي طرفه الأعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه، ومدّ الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وتُرك عبرة للناظرين !

ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرٌ ليراها الناس فيتعظوا، ولقد كنا ‖ 75/4 نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز، والمسلمون أعزّ الناس بها غير أنهم كما ذكرناه لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم.



كيف يحمل الناس على الدَّولة

وفي بلاد المُلَيْبَار اثنا عشر سلطاناً من الكفار (91)، منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفاً، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف، ولا فتنة بينهم ألبتَّة، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف، وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه إسم الذي هو مبدأ عمالته، ويسمونه : باب أمان فلان، وإذا فرَّ مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر أمن على نفسه، ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه وإن كان القوي ‖ صاحب العدد والجيوش. وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت مُلكهم (92) دون أولادهم، ولم أر من يفعل ذلك إلا مسّوفة أهل اللثام وسنذكرهم فيما بعد(93)، فإذا أراد السلطان من أهل بلاد المُليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها فلا يبيع أحدٌ ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان.

76/4

ذكر الفلفل

وشجرات الفلفل (94) شبيهة بدوالي العنب، وهم يغرسونها إزاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالي إلا أنها ليس لها عَسْلوج وهو الغزْل كما للدوالي، وأوراق شجره تشبه ‖

77/4

(91) في الحقيقة نجد المؤرخين في بلاد المعْبر والمُلَيْبار التي تقع جنوب جبل دلّى (Delly) استطاعوا أن يعدو- في القرن الثامن عشر - أكثر من ثمانية عشر سلطاناً، الأربعة الأساسيون الذي كانوا في عهد ابن بطوطة واستمروا فيما بعد : آل كولاتِّيري (Kolattiri) أصحاب كانَّانُور (Cannanor) شمال قاليقوط، والسَّامريون Zamorin أصحاب قاليقوط وآل راجا أصحاب كوشان (Cochin) جنوب قاليقوط، وأصحاب كولم التي يسمونها (Quilon) جنوب كوشان، وبين هؤلاء وأولئك وفي أخريات البلاد تلتئم سلسلة لإمارات صغيرة أدَّى التنافس فيما بينها للتدخل البرتغالي 900=1495 !
أحمد زين الدّين المعبري المليباري : تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين تحقيق محمد سعيد الطريحي مؤسسة الوفاء بيروت 1405=1985.

(92) التنظيم الاجتماعي يأخذ بعين الاعتبار الانتساب للام وحده وقد تردد ذكر مثل هذا عند حديث المؤرخين عن بعض قبائل إفريقيا أنظر مادة (عادة) في دائرة المعارف الاسلامية - وأنظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 5، ص 17.

(93) مسّوفة قبيلة من البربر كانت تتمركز في غرب الصحراء يتميزون بنظامهم الاجتماعي المبنيّ على أنَّ مرجعية النسب إلى الأم وليس إلى الأب على ما يذكر، يراجع (388, IV)، هذا وعوض اللّثام الذي هو الصواب نجد في بعض النسخ : الشام !

(94) الفلفل : (Poivre) هو بالذات الذي يُخصُّ في المغرب باسم الأبزار، ولا يعرف في بلادنا باسم الفلفل، انما الفلفل هو النبات المعروف، وينعت الفلفل في بعض بلاد المشرق بالفلفل الأسود تمييزا له عن الفلفل: النبات، ومعلوم أن بلاد الابزار هي المليبار...!
هذا وكلّ النسخ تذكر عسلون بالنون وهو تحريف لكلمة عسلوج بالجيم التي تعني نفس ما تعنيه الكلمة العربية : الغَزْل (ج. غزول) (Vrille) وهي العروق اللينة التي تنطلق من الدالية أو اللّواية أو العليق لتشتبك بنحو الشجرة والجدار وتكون بمثابة خيوط (تغزل) الدالّية بما جاورها، والكلمة من دقائق اللغة العربية المستعملة من لدن ابن بطوطة ... انظر لسان العربَ مادة عسلج - دوزي مادة غزل.

آذان الخيل، وبعضها يشبه أوراق العلّيق، ويثمر عناقيد صغاراً حبّها كحبّ أبي قُنَينة(95) إذا كانت خُضراً، وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس، كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلّبونه حتى يستحكم يبسه ويسودّ ثم يبيعونه من التجار، والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار! وبسبب ذلك يحدث فيه التكريشُ، وليس كذلك، وإنما يحدث ذلك بالشمس، ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصبّ للكيل كالذّرة ببلادنا.

وأول مدينة دخلناها من بلاد المُليبار مدينة أبي سَرور (96)، بفتح السين، وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النّارجيل، وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة 78/4 ║ أحد الكرماء، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نَفِدت.

وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فَاكَنَور (97)، وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء، مدينة كبيرة على خور، بها قصبُ السكَّر الكثيرُ الطيب الذي لا مثْل له بتلك البلاد، وبها جماعة من المسلمين يُسمّى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاضٍ وخطيب، وعمَّر بها حسين المذكور مسجداً لاقامة الجمعة.

ذكر سلطانها

وسلطان فَاكَنَوْر كافر إسمه بَاسَدَوْ (98)، بفتح الباء الموحدة والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو، وله نحو ثلاثين مركباً حربية، قائدها مسلم يسمى لُولاَ، وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار، ولما أرسينا على فاكنور ║ بعث سلطانها إلينا ولده 79/4 فأقام بالمركب كالرهينة، ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيماً لسلطان الهند وقياماً بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا.

ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهراً وضاعفوا عليه المغرم، ومنعوه عن السفر ما شاءوا.

---

(95) حار المعلقون في البحث عن معنى أبي قنينة والكلمة معروفة في شمال المغرب الذي ينتسب إليه ابن بطوطة وهو نبات يكثر في المناطق الجبلية يستعمل حبه لعدة أغراض على ماقلناه في المقدمة...

(96) مدينة أبي سَرور : (BARCELORE) التي تنتج الأرز حسب بارْبُوزا، BARBOSA وقد أنشأ الهولانديون هنا فيما بعد وكالة تجارية. ولا وجود للمدينة اليوم.

(97) فاكَنُور هي (BACCANORE) القرية التي تحمل حالياً إسم (BARKUR)

(98) كانت المنطقة في ذلك العهد محكومةً من لدن دولة آل ألُوبّا (ALUPA) حليفة هاوزالا (HOYSALA). سالفة الذكر، كان السلطان هو كولاَ سِيخَارَا ألوبّانْدْرَا–دوڤا الثاني((Kulasekhar Alupendra Deva II) حوالي سنة 1335 - 1354 صاهر هاوْزالا فيراِبالاّ الثالث Hoysala vira Ballala III - هناك نقْشٌ بتاريخ 745 = 1345 يثبت حكمه في بَاراكُورو (BARAKURU).

وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة مَنْجَرور (99)، وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء، وواو وراء ثانية، مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدُّنْب، بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة، وهو أكبر خور (100) ببلاد المُلَيْبار وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن، والفلفل والزنجبيل بها كثير جداً.

ذكر سلطانها

وهو من أكبر سلاطين تلك البلاد، واسمه رَامَ دَوْ (101) بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضاً بناحية المدينة، وبما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار، وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المَعْبري وهو يقرئ العِلم صعد الينا إلى المركب ورغب في النزول إلى بلده، فقلنا حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب، فقال : إنما فعل ذلك سلطان فَاكَنَور لانه لا قوة للمسلمين في بلده، وأما نحن فالسلطان ▒ يخافنا فأبينا عليه إلا إن بَعث السلطان ولده، فبعث ولدَه كما فعل الآخر، ونزلنا اليهم وأكرمونا إكراماً عظيماً وأقمنا عندهم ثلاثة أيام.

81/4

ثم سافرنا إلى مدينة هِيلِي (102)، فوصلنا بعد يومين، وضبط اسمها بهاء مكسورة وياء مد ولام مكسورة، وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ولا تدخل الاّ مرساها ومرسى كَوْلم، وقالقوط.

---

(99) مَنْجَرُور هي (MANGALORE) جنوب كَانَارَا (Kanara) وشمال جبل دلّي Delly، وقد ورد ذكرها عند وارثيما (Warthema) عندما قال إنه يوسق منها سنويا 60 سفينة من الأرز... وقد نصَّ ابن بطوطة على أنها كانت ملتقى تجاريا دوليا كما نرى.

(100) رَامَ دو (Ram Deo) من المعروف أن منجرور أو مَنْگالور كانت جزءاً كذلك من ممتلكات آل (ALUPA)، وكانت في أغلب الأحيان عاصمة لفرعٍ من الدولة، ولكنه لا يعرف في تلك الفترة أي شخص كان يحكم في هذه المدينة.

(102) تحدَّث عددٌ من المؤلفين عن هِيلِي (ELI) ويروي ماركو بولو عن الفلفل الاسود (الأبزار) الذي ينبت بها بكثرة وكذا الزنجبيل (GINGEMBRE)، كما تحدث عنها نيكولو كونتي N. Conti في القرن 15 أما باربوزا فلم يتحدث في بداية القرن 16 الا عن "جبل إيلي" (DELY)... وان وصف ابن بطوطة المتعلق بالخور العظيم يمكّن من تحديد المكان في مادايي (Madayi) الواقعة بالخور العظيم حالياً على بعد ثمانية أميال جنوب جبل ديلي (DELLY) Gibb : Ibn Battuta in Asia and Africa - P. 364. Note 14.

ومدينة هِيلى معظمةٌ عند المسلمين والكفَّار بسبب مسجدها الجامع، فإنه عظيم البركة مشرق النور (103)، وركاب البحر ينذرون له النُذور الكثيرة، وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين، وحسنِ الوزان كبير المسلمين ‖ وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد، وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها. 82/4

ولقيت بهذا المسجد فقيهاً صالحاً من أهل مَقْدَشَو (104) يسمى سعيداً، حسن اللقاء والخُلُق يسرد الصوم، وذكر لي أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الأمير بمكة أبا نُمّى (105)، والامير بالمدينة منصور بن جمَّاز وسافر في بلاد الهند والصين.

ثم سافرنا من هِلِي إلى مدينة جُرْفَتَّن (106)، وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديدها وآخره نون، وبينها وبين هِيلي ثلاثة فراسخ، ولقيت بها فقيها من اهل بغداد كبير القدر يعرف بالصَّرْصرى (107) نسبة إلى بلدة على مسافةٍ عشرة أميال ‖ من بغداد في طريق الكوفة، واسمها كإسم صرصر التي عندنا بالمغرب، وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له أولاد صغار أوصى إليه بهم، وتركته آخذاً في حملهم إلى بغداد، 83/4

---

(103) يَرجع أصْل دول المَعبر إلى جدٍ واحد شيرُومان بيرومال (Cheruman Perumal) الذي اعتنق الاسلام... ثم قام بأداء مناسك الحج حيث أدركه أجله في مكة، وقبل وفاته بعث برسول من الغز هو دينار مالك ت 591=1195 ليحمل المواطنين على إعتناق الإسلام، فزار دينار الجزر الكبرى لبلاد المعبر وقام – رحمه الله – ببناء عددٍ من المساجد كان منها مسجد مدايي (MADAYI) أحد المساجد الثلاثة المعروفة هناك، هذا المسجد الذي يحمل دائماً كتاريخ للبناء عام 518=1124 ويتفق في أغلب الظن مع المسجد الذي ذكره ابن بطوطة. هذا ونذكر هنا أن القصد إلى دينار ملك وليس إلى مالك ابن دينار كما ورد عند الشيخ أحمد زين الدين المعبري المليباري المتوفى بعد 991 = في تاليف تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تقديم وتحقيق وتعليق محمد سعيد الطريحي، ص 226-228 دائرة المعارف الاسلامية مادة دينار مالك. د. التازي : رسالة إلى محمد سعيد الطّريحي مجلة (الموسم) العدد 369 – أكاديمية الكوفة – هولاندا.

(104) حول مقدشو – ج II 180-191.

(105) حول أبي نُمَى، أنظر ج I ,360.

(106) لعل القصد بجرفتَّن إلى كنانور CANNANORE التي يقول عنها وارْثيما (WARTHEMA) في بداية القرن السادس عشر : إنَّه بمينائها يتم انزال الخيول التي يؤتى بها من بلاد فارس... انظر الخريطة وانظر ما نقله BEKINGHAM عن يول ومزيك وگيب ج IV، 810 تعليق 36.

(107) أول المراحل من بغداد نهر صرصر، وعليه مدينة صرصر، تجري فيه السفن، وبين مدينة صرصر وبغداد تسعة أميال، وهي مدينة عامرة... ولها جسر من مراكب يعبر الناس عليه"
– الادريسي : نزهة المشتاق، طبعة نابولي، ج 6، ص 668 أما صرْصر المغرب فهو جبل : أنظر كتاب (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً) لياقوت الحموي (تـ 626) ص 282 (De Wustenfeld).

وعادة اهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميّت ولو ترك الآلاف، وإنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعاً.

ذكر سلطانها

وهو يسمى بكُوَيل (108)، بضم الكاف، على لفظ التصغير وهو من أكبر سلاطين المُلَيْبَار، وله مراكب كثيرة تسافر إلى عُمان وفارس واليمن، ومن بلاده دَهْ فتَّن وبُدْ فَتَّن وسنذكرهما. 84/4

وسرنا من جُرْفتَّن إلى مدينة دَهْ فتَّن (109)، بفتح الدال المهمل وسكون الهاء، وقد ذكرنا ضبط فتَّن، وهي مدينة كبيرة على خورٍ كثيرة البساتين، وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول، وبها القلقاص (110) الكثير، ويطبخون به اللحم، وأمَّا الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمناً.

وفيها الباين (111) الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر، في كل قبة أربع مجالس من الحجر، وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة، وفي وسطه قبَّة كبيرة من ثلاث طبقات في كلِّ طبقة أربع مجالس.

وذكر لي أن والد هذا السلطان كُوَيل هو الذي عمر هذا الباين، وبإزائه مسجد جامع للمسلمين وله أدراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون، وحدثني الفقيه حسين أن 85/4

(108) هذه المملكة الأولى للمُلَيْبار التي تبتدئ من الشمال والتي هي نفس هيلي عند ماركو بولو وهي بالذات مملكة آل كولاترِي (KOLLATIRI) إحدى العائلات القوية في الساحل، وبما أننا لا نتوفر على لائحة للملوك الذين تعاقبوا على الحكم هناك فإننا لا نستطيع أن نتعرف على اسم السلطان الذي كان يحكم أثناء مرور ابن بطوطة. هذا ونذكر مرةً أخرى بأن اللقب الذي كان يعرف به الحاكمون لبلاد المعبر هو لقب السامري : (Le Zamorin).

(109) هذه المدينة عرفت بـ ڤالاَرْبا طَّانَام (VALARPATTANAM) التي توجد، مع ذلك، على بُعد خمسة أميال شمال كانَّانور على الساحل الجنوبي للوادي الذي يحمل نفس الاسم.

(110) القلقاص ويرسمه ابن البيطار بالسين في كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية أُروم كولوكازيا -(ARUM COLOCASIA) : نبات تستعمل أوراقه اللينة كخضرةٍ في الطعام...

(111) الباين أو (WAIIN) يعني الصهريج وقد ورد في ترجمة الامبراطور بابور (BABUR) في القرن الخامس عشر بقلمه : "بنيتُ بئراً واسعاً مُغطّى، مقياسه عشرة على عشرة بدرج في داخله، معروف تحت إسم واين (WA'IN)، "

الذي عمر المسجد والباين أيضا هو أحد أجداد كُوَيل وأنه كان مسلما (112) ولإسلامه خبرٌ عجيب، نذكره.

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع

ورأيت إزاء الجامع شجرةً خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صليت فيه ركعتين، واسم هذه الشجرة عندهم دَرَخْت الشهادة، ودَرَخْت بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة، وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن 86/4 يستحيل لونها إلى الصفرة، ثم إلى الحمرة ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة (لا إلاه إلا الله محمد رسول الله)، وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة، وقرأوا المكتوب الذي فيها، وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى.

وهذه (113) الشجرة كانت سبب إسلام جد كُوَيل الذي عمَّر المسجد والبَاين فانه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها، وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه، وحكايته عندهم متواترة. 87/4 وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفَر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر، ثم إنها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعاً.

ثم سافرنا إلى مدينة بُد فتَّن (114)، وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربةٍ من البحر يأوي اليه غرباء المسلمين لانه لا مسلم بهذه المدينة، ومرساها من

(112) يتعلَّق الأمر، على ما يظهر بأحد المساجد التي بناها دينار مالك والذي يوجد إلى الآن.
انظر تاليف الشيخ أحمد ابن زين الدين المعبري المليباري المتوفى بعد سنة 991 هـ : تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، سالف الذكر.

(113) تتحدث (مالاَباركازيتير (MALABAR GAZETTEER) عن حالات علاج بالسحر بواسطة نقوش رسمت على أوراق التنبَول، وهناك أسطورة تتعلق بشجرةٍ ذات كرامات توجد فيٌ جبل ديلي (DELLY) سالف الذكر والأسطورة ظلت تتردد إلى أواخر القرن التاسع عشر.

(114) بُد فتَّن هي : دارْمَابَّاطَّانام (DARMAPATTANAM) (مكان الرحمة) الموجودة على جزيرة كوَّنها إلتقاء مجاري نهر تيلّيشيري (TELLICHERRY) ونهر أنجاراكاندي (ANJARAKANDI)، شمال مدينة ثيليشيرّي (TELLICHERRY)، وحسب ما ورد في أقوال ابن بطوطة فإن هذه المدينة يظهر أنها أيضا كانت ملكاً في تلك الفترة لال كولاَّتِّيري (KOLLATTIRI) بيد أن أطراف البلاد كانت تكون مملكة كوطايام (KOTTAYAM) التي سيصبح لها فيما بعد منفذ على البحر عن طريق هذه المدينة : دَارماباطام (DARMAPATTAM) .المسجد المتحدث عنه لا شك وأنه كذلك من المساجد التي بناها دينار مالك، ولكنه لا يوجد له أثر الآن... يراجع التعليق 103.

أحسن المراسي وماؤها عذب، والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مُبغضون في المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم.

حكاية [مسجد بُدْفتّن]

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته ‖ فاشتعلت النار في بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه ! فاحترموا هذا المسجد ولم يعرضوا له بسوء بعدها وخَدَموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير.

88/4

ثم سافرنا من المدينة بُدّ فتَّن إلى مدينة فَنْدَرَيْنا (115)، وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحين وياء آخر الحروف، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق، وبها للمسلمين ثلاث محلات، في كل محلة مسجد، والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر، وقاضيها وخطيبها رجلٌ من أهل عُمان وله أخ فاضل، وبهذه البلدة تشْتُو مراكب الصين...

ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط (116)، وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم

---

(115) فَنْدَرَيْنَا هي (Pantalayini) پانْطَالاَيِيني الحالية وهي لاَفْلاندرينا La flandrina التي زارها أودْريك دُوبُورْدُونُون في نفس الفترة التي زارها ابن بطوطة، هذا ويلاحظ أن ابن بطوطة قام ابتداءاً من دار مابَّاطَّانام بطفرةٍ تخطّى فيها 40 كـ.م. مكنته من أن يتجاوز مملكتين : مملكة إيرُوڤالينَاد (Iruvalinad)، بين تيليشيري (Tellichery) وما هي (Mahé) حيث ستنشأ الوكالة التجارية الفرنسية فيما بعد، ومملكة كادَاطَّاناد Kadattanad بين أودية ماهي (MAHE) وكوطَّا (Kotta) حيث كان المركز هو بادَاگارَا (BADAGARA). بيد أنه لا يعرف تاريخ لميلاد هاتين المملكتين اللتين ظلتا خاضعتين لـ كولاَّتيري (Kollatiri). يمكن أن يكون ذلك تمَّ بعد مرور ابن بطوطة. بانطالايني مقرّ المملكة القديمة پاياناد (Payanad)، كانت جزءاً من هذه الفترة تابعاً لممتلكات السامريينَ (Les Zamorins) حكام قالقوط. المسجد الرئيسي هو من مؤسسات دينار مالك وليس مالك بن دينار. انظر دائرة المعارف الاسلامية دينار مالك وانظر التعليق السابق رقم 103-112-114.

(116) قالِقوط يعتبر ميناؤها أكثر أهمية في شمال المُلَيْبار بين بَّانطا لاييني (Pantalayini) وكوْلم. وهناك مملكتان أخريان تابعتان للسامري صاحب قاليقوط، يحتلان أطراف البلاد : بَّايُورْمَالا (Payormala) وكُورُمْبَرَانَاد : (Kuru M Branad). هذا وعن وصول البرتغاليين في حملتهم الثانية إلى كاليكوت التي كانت أهمّ موانئ المُليبار قال ابن ماجد :

وجا لكا ليكوت خذ ذي الفائدة	لعام تسعة وستٍّ زائدة
وباع فيها واشترى وَحَكَما	والسامري برطله؟ وظلما
وصار فيها مبغض الاسلام	والناس في خوف و في اهتمام
وانقطع المكي عن أرض السامري	وشدّ جردَفون للمسافر
وهو الذي قد قهر المغاربة	واندلس في حكمه مناسب!!

ذ. التازي : ابن ماجد والبرتغال : محلة البحث العلمي العدد 36، 1406-1986.

89/4 القاف الثاني وآخره طاء مهمل، وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المُلَيْبَار، يقصدها أهل الصين والجاوة، وسيلان، والمَهل، وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق. ومرساها من أعظم مراسي الدنيا (117).

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يعرف بالسَّامري (118) شيخ السِّن، يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم، رأيته بها، وسنذكره إن شاء الله، وأمير التجار بها إبراهيم شاه بنْدَر (119) من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون في سماطه، وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النُّذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازروني (120)، نفع الله به، وبهذه 90/4 المدينة الناخودة مثقال الشهير الإسم صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس، ولمّا وصلْنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمَّى بقُلاج، بضم القاف وآخره جيم، ومعهم الأطبال والانفار والأبواق والأعلام في مراكبهم، ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد، فكانت فرحةً تتبعها ترحةً ، وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين، ونزلنا بالمدينة وجُعل كل واحد منا في دار، وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى

---

(117) ورد وصف وارْثيما (Warthema) للمدينة بأن البحر يرتطم على منازلها، وأنه لا يوجد فيها ميناء، بيد أن هناك وادياً عند مدخل البحر...

(118) السَّامري ما يسميه البرتغاليون (Le Zamorin)، ربما كانت الكلمة آتيةً من أصل مالوي، Samutisi : ملك البحر، لقب - كما أشرنا - يحمله السلاطين الاكثر أهمية في المليبار، الحكم كان يتعاقب فيما بين الاخوة، وتنتقل السلطة إلى أول ولدٍ من الاخت الكبرى كما قلناه سابقا (أنظر التعليق 92). هذا وأما السامري في القرآن الكريم (سورة طه 85/87-95) فالقصد إلى رجل ينتمي إلى السامرة : أجدى قبائل بني إسرائيل من قوم موسى فَتَنَ قوم موسى أثناء غيبته وصنع لهم عجلا تصْدُر منه اصوات غريبة بفعل الرياح ودعاهم إلى عبادته فعبدوه ولما رجع موسى كشف عن حيلته ونفاه. مجمع اللغة العربية (القاهرة) : معجم ألفاظ القرآن 1409=1489.

(119) شاه بندر يعني رئيس الميناء. على نحو النواتية (Navaiyats) في كَانارا (Kanara) (أنظر تعليق 86)، آل مابِّيلا (Mappila) - وهم مسلمون، وغالباً ما يكونون عرباً مولَّدين من أصل هندي - هم الذين يهيمنون شيئا فشيئا على القوة الاقتصادية في الُمليبار. عائلة علي رجَا تبوأت الحكم في كانَنُّور Cannanore إبتداءً من القرن السادس عشر.

(120) حول الكازروني - انظر ج II 89.

91/4 الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر(121)، وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين ولنذكر ترتيبها.

ذكر مراكب الصيّن

ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى الجنوك، واحدها جُنْك (122)، بجيم معقود مضموم ونون ساكن، والمتوسطة تسمى الزَّوْ (123)، بفتح الزاي وواو، والصغارُ يسمَّى أحدها الكَكَم، (124) بكافين مفتوحين، ويكون في المركب الكبير منها اثنى عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجةً كالحصر، لا تحطّ ابداً ويديرونها بحسب دوران الريح، وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح.

ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم : البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة 92/4 تكون فيهم الرماة وأصحاب الدَّرق والجُرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفى والثلثى والربعى، ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزَّيتون من الصين، أو بصين كَلاَن، وهي صين الصين (125)، وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جداً موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام، طول المسمار منها ثلاث أذرع فإذا التأم الحائطان بهذا الخشب صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوهما في البحر، واتموا عمله وتبقى تلك الخُشب والحائطان موالية للماء، ينزلون إليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم.

وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً 93/4 ويجذفون وقوفاً على أقدامهم ويجعلون للمراكب أربعة ظهور،

(121) كان على ابن بطوطة أن يصل إلى قالقوط حوالي أوائل جمادى الثانية 742 منتصف نونبر 1341، وقد بقي في قالقوط إذن إلى منتصف يبراير 1342 يعني إلى بداية شهر رمضان من عام 742. هذا وينبغي أن نقف قليلا مع الحكمة التي ردَّدها ابن بطوطة والتي تجري مجرى المثل : "بحر الصيّن لا يسافر فيه الا بمراكب الصين"!

(122) جُنك (JONQUE) أصل الكلمة من اللغة الجاوية جُونك Djonk.

(123) الزَّوْ، من المحتمل أن تكون الكلمة من أصل صيني (SAO) أو (TSAO) وهي زاوو (DHAO) الحالية، أو (DHOW)، التي تستعمل إبتداء من عَدن إلى ماليزيا، عبارة عن سفينة لها صاريان وشراعان مثلَّثان في الشكل.

(124) الكَكم : الكلمة من أصل صيني هُوَاهانگ Hoq-Hang ويقترح يول أن يكون كَكَم تحريفا لكلمة ايطالية قديمة كوكًا Cocca. هذا وكلمة النفط من أصل فارسي، مادّة قاريَّة زفتية ...

(125) صين كلان أو صين الصين : Guangzhou (كانطون) على ماسنرى وقد زرتها عام 1988 (256,IV ت 36) انظر ملحق المراسلات...

ويكون فيه البيوت والمَصَاري (126) والغرف للتجار، والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس، وعليها المفتاح يسدها صاحبها، ويحمل معه الجواري والنساء، وربَّما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيرُه ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد، والبحرية يُسكِّنون فيها أولادهم، ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواضِ خشب.

ووكيلُ المركب كأنه أميرٌ كبير، وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه، وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركَّزوا رماحهم عن جانبَيْ بابه ولا يزالون كذلك ‖ مدة إقامته. 94/4

ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وُكلاءه إلى البلاد، وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين.

ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك.

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهَّز لنا السلطان السامري جُنكاً من الجنوك الثلاث عشرة التي بمرسى قالِقوط، وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي، وبيني وبينه معرفة، فقلت له : أريد مصريةً لا يشاركني فيها أحد لأجل الجواري، ومن عادتي أنْ لا أسافر إلا بهن، فقال لي : إن تجار الصين قد اكثروا المصاري ذاهبين وراجعين، ولصهري مصريةُ أعطيكها لكنها لا سنداس ‖ فيها، وعسى أن تمكن معاوضتها، فأمرت أصحابي 95/4 فأوسقوا ما عندي من المتاع، وصعد العبيد والجواري إلى الجُنك، وذلك في يوم الخميس، وأقمت لأصلي الجمعة وألحق بهم، وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية، ثم إن فتى لي يسمَّى بهلال أتاني غدوة الجمعة، فقال : إن المصرية التي أخذنا بالجنك ضيقة لا تصلح، فذكرت ذلك للنَّاخودة فقال : ليست في ذلك حيلة، فإن أحببت أن تكون في الكَكَم ففيه المصاري على اختيارك، فقلت : نعم، وأمرت أصحابي فنقلوا الجواري والمتاع إلى الكَكَم واستقروا به قبل صلاة الجمعة.

وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كلَّ يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه، وكانت ‖ الجُنوك قد سافرت ولم يبق منها إلا الذي فيه الهدية وجُنْكٌ عزم أصحابه على أن يشتوا 96/4 بفَنْدَرَيْنا، والكَكَم المذكور، فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الكَكَم ولا

(126) المصاري جمع مصرية، وهي في الاصطلاح المغربي دُوَيْرة صغيرة تكون ملحقة بالدَّار الكبرى، والكلمة نسبة إلى مصر لأن تصميمها الأول أخذه صاحبه، على ما يظهر، عن مصر على نحو "الصقلبية " في المغرب التي يأتي اسمها من الصقالبة الذين كانوا يسكنون بها... السنداس في الاصطلاح المغربي يعني المرحاض وما أشبهه د. سليم النعيمي : ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العلمي العراقي 1974

يستطيع مَن فيه النزول إلينا، ولم يكن بقى معي إلا بساط أفترشه، وأصبح الجُنك والكَكَم يوم السبت على بعدٍ من المرسى، ورمى البحر بالجُنك الذي كان أهله يريدون فَنْدَريْنا فتكسر، ومات بعض أهله وسلم بعضهم.

وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبةً في مؤخر الجُنْك فانتدب لذلك بعض البحرية الهُرْمُزيين فأخرجها، وأبى أن يأخذ الدنانير، وقال : إنما فعلت ‖ ذلك لله تعالى، ولما كان الليل رمى البحر بالجُنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه! ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه، والملك سنبل قد ضربه مسمارٌ في أحد صدغيه ونفذ من الآخر، وصلينا عليهما ودفنّاهما!!!

97/4

ورأيت (127) الكافر سلطان قالقوط، وفي وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفَّها من سرَّته إلى ركبته، وفي رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين، والشطر بيد غلام فوق رأسه، والنار توقد بين يديه في الساحل، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر.

وعادة بلاد المُلَيْبار أن كل ما انكسر من مركبٍ يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا في هذا البلد خاصةً فان ذلك يأخذه أربابه ولذلك عمرت وكثر تردد ‖ الناس اليها (128). ولما رأى أهل الكَكَم ما حدث على الجُنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري، وبقيت منفرداً على الساحل ليس معي إلا فتى كنت اعتقته، فلما رأى ما حلَّ بي ذهب عني ! ولم يبق عندي إلا العشرة الدنانير التي أعطانيها الجُوكي، والبساط الذي كنت أفترشه، وأخبرني الناس أن ذلك الكَكَم لا بد له أن يدخل مرسى كولم فعزمت على السفر إليها وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضا لمن أراد ذلك، فسافرت في النهر واكتريت رجلاً من المسلمين يحمل لي البساط.

98/4

وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشى فيبيتوا بالقُرى التي على حافتيه، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو ‖ فكنا نفعل ذلك، ولم يكن بالمركب مسلم الا الذي اكتريتُه، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا ويعربد عليَّ فيزيد تغيُّر خاطري ! ووصلنا

99/4

---

(127) ينبغي أن نقف قليلا مع هذه المحنة التي اعترضت طريق ابن بطوطة وهو في بداية مهمته الدبلوماسية حيث نراه يشاهد زميله ورفيقه في المهمة : ظهير الدين وقد انشقَّ رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل يضربه مسمار يدخل من أحد صدغَيْه ليخرج من الجهة الأخرى، إنه طالع نحس لا يبشر بالخير ...!!

(128) يشير ابن بطوطة هنا إلى قاعدة أو مبدأ فقهي دوّلي نص عليه فقهاؤنا في مصنفاتهم، ويتعلق الأمر بحماية تركة الأجنبي المتوفى. والطريف في استنتاج ابن بطوطة أنه يرى في هذا التشريع ما يشجع الناس على قصد تلك البلاد للاستثمار فيها ! التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 5 ص 235 تعليق 3.

في اليوم الخامس من سفرنا إلى كُنْجِي كَرِي، وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء، وهي بأعلى جبل هنالك يسكنها اليهود (29) ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم.

ذكر القِرفة والبقّم

وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القِرفة (130) والبَقّم، وهي حطبهم هنالك، ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق.

وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كَوْلَم (131) وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو، وهي أحسن بلاد المُليبار، وأسواقها حسان، وتُجّارها يعرفون بالصُّوليين (132) بضم الصاد، ولهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع، وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوَجي من أهل أوه، من بلاد العراق (133)، وهو رافضي ومعه أصحابٌ له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك، وقاضيها فاضل من أهل قزوين (134)، وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم إسمه تقى الدين، والمسجد الجامع بها عجيب عمَّره التاجر خواجة مهذّب (135). وهذه المدينة أول ما يوالي الصين من بلاد المُليبار، وإليها يسافر أكثرهم والمسلمون بها أعزة محترمون.

100

(129) عن الجاليات اليهودية في كيرالا يراجع كتاب J.B. Segal : A History of The Jews of cochin, London 1993. حيث يقول الأستاذ سيگال : من المعقول أن تحدد مع قسم من الوادي الذي يحمل اسم كانجيرَابّوزها في شرق جزيرة شينَّمَنگلام Chennamangalam حيث كان هناك اقدم استقرار لليهود ...

(130) يتعلق الأمر بالقرفة البرية في بلاد المعبر وهي من نوعية أقل جودة من القرفة التي توجد في سيلان – والبقّم : الشجر المعروف بشجر البرازيل (BRAZIL). فعلاً هو شجر من أمريكا الوسطى يحتوي خشبه على مادة ملونة تستعمل في الصباغة... وقد تحدث عنه كذلك ماركو پولو.

(131) كَوْلم هي التي تحمل عند الغرب اسم QUILON : مدينة نعتت أيضا من لدن ماركو بولو على أنها مهمة، وكذلك عند ڤارثيما Varthema وبارْبُوزا Babosa.

(132) الصُّوليون (CHulia) هو الاسم الذي أعطى سواء في سيلان أو في بلاد المعبر (المُليبار) للمسلمين الشيعة ولا ندرى أصل هذه التسمية وربما أعطيت للمسلمين بصفة عامة.

(133) القصد إلى عراق العجم يعني فارس، هذا ويلاحظ أن معظم سكان المنطقة اليوم من أهل السنّة...

(134) قزوين تقع شمال إيران وفي شالوس منها قضّيت يوم 15 يونيه عام 1979. ويصادف ذكرى ميلادي.

(135) الواقع التاريخي أن الذي عمَّر كولم بالمسجد هو دينار مالك... ويبدو أن التاجر خواجة انما قام ببعض أعمال ترميمية بالمسجد.

ذكر سلطانها

101/4 وهو كافرٌ يُعرف بالتِّيرَوَرِي (136)، بكسر التاء المعلوة ‖ وياء مد وراء وواو مفتوحين وراء مكسور وياء، وهو يعظِّم المسلمين وله أحكام شديدة على السُّراق والدُّعار.

حكاية [العراقي القتيل]

ومما شاهدت بكولم أنَّ بعض الرماة العراقيين قَتل آخر منهم، وفر إلى دار الآوجي، وكان له مال كثير وأراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك، وقالوا : لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به، وتركوه في تابوته على باب الآوجي حتى انْتَن وتغيَّر فمكنهم الأوجي من القاتل، ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيا فأبوا ذلك وقتلوه 102/4 وحينئذ دفن المقتول ‖.

حكاية [رجل قتل بحبة عنبة]

أخبرت أن سلطان كولم ركب يوماً إلى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين، ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك، فأخذ حبَّة واحدة من العنْبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر إليه فأمر به عند ذلك فوُسِّط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين (137) !!

حكاية [قتل مغتصب سيفاً]

ومما اتفق نحو ذلك بقالقُوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفاً لبعض 103/4 تجار المسلمين فشكا بذلك إلى عمه ‖ فوعده بالنظر في أمره، وقعد على باب داره، فإذا بابن أخيه متقلّد ذلك السيف، فدعاه، فقال : هذا سيف المُسلم؟ قال : نعم ! قال : اشتريته منه ؟ قال : : لا؟ فقال لأعوانه : أمسكوه، ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف !

---

(136) على نحو ما أشرنا اليه في التعليق 131 فان كولم Quilon كانت منذ القدم كانت مركزاً تجارياً هاماً لبضائع الصين، وقد ورد ذكرها عند التجار العرب والفرس كذلك منذ القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي تحت اسم كَوْلَم مَلاي، ولم تلبث أن انهارت كمنافستها قالقوط في القرن السادس عشر... هذا ويرى يول Yule أن الإسم الذي اورده ابن بطوطة لسلطان كولم : التّيـرَوَري يمكن أن يكون من أصل تاميل سنسكري : (Tiru - pati) بمعنى السيد المقدس Yule : Cathay IV, P. : 40 – Holy Lard.

(137) تعتبر السرقة في بلاد المُلَيْبار من الكبائر بعد قتل البراهمة وبعد تناول الخمور...

وأقمتُ بكَوْلم مدةً بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ زاوية قالقوط، فلم أتعرف للكَكَم خبراً، وفي أثناء مقامي بها دخل إليها أرسال ملك الصين الذين كانوا معنا، وكانوا ركبوا في أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا فكساهم تجار الصين وعادوا إلى بلادهم ولقيتهم بها بعد.

104/4 وارادت أن أعود من كوْلم إلى السلطان لأعلمه بما ▒ اتفق على الهدية (138) ثم خِفت أن يتعقب فعلي، ويقول : لم فارقت الهدية؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنّوري وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الكَكَم، فعدت إلى قالِقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان، فبعث فيها أميراً من العرب يُعرف بالسيد أبي الحسن وهو من البرْد دَارية (139)، وهم خواص البوابين، بعثه السلطان بأموالٍ يستجلب بها مَن قدر عليه من العرب من أرض هُرمز والقطيف (140) لمحبته في العرب، فتوجهت إلى هذا الامير ورأيته عازماً على أن يشتو بقَالِقوط، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب فشاورته في العودة إلى السلطان، فلم يوافق على ذلك ! فسافرت في البحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه ▒ فكنا نسير نصف النهار 105/4 الأول ثم نرسوا إلى الغد، ولقّينا في طريقنا أربعة أجفان مخزونة فخفنا منها ثم لَم يعرضوا لنا بشَرّ!

ووصلنا إلى مدينة هنّور (141) فنزلت إلى السلطان وسلمت عليه فأنزلني بدار، ولم يكن لي خديم وطلب مني أن أصلّي معه الصلوات، فكان أكثر جلوسي في مسجده، وكنت أختم القرآن كلَّ يوم، ثم كنت أختم مرتين في اليوم، ابتدي القراءة بعد صلاة الصبح فاختم عند الزوال وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت منها أربعين (142) يوماً ▒ . 142/4

(138) هذا من المواقف الغير المعتادة في حياة وسلوك ابن بطوطة، فقد عوَّدنا على عدم التردد في اتخاد القرار، وعلى ألأخذ بالأحوط في الموضوع، وهكذا فقد كان عليه أن يبلغ الحقيقة في الوقت المناسب للسلطان الذي وضع فيه ثقته، وليكن ما يكون !!

(139) البرد دراية أصل العبارة (PARDE-DAR) الحاجب السلطاني III 280.

(140) يلاحظ أن ابن بطوطة لم يضبط القطيف على نحو ما عند ياقوت في معجم البلدان بفتح القاف وقد مرَّ بنا أنه ضبطها (247,II) بضم القاف...

(141) كان على ابن بطوطة أن يصل – في اتجاه الشمال – إلى هُونَفَر (Honavar) حوالي أواسط شهر أبريل 1342 = ذي القعدة 742 حتى يبلغ مجموع أيام مقامه لدَى هذا السلطان أحد عشر شهرا على ما يذكره جمال الدّين محمد بن حسن – انظر التعليق (86).

(142) ملازمة المسجد والاعتكاف في مثل هذه الظروف يُترجم عن الوضع الدقيق الذي وجد ابن بطوطة نفسه فيه بعد مصرع رفاقه في السفارة وبعد تفريطه في الهدايا الملكية، وبعد أن نصحه الحاجب أن لا يعود لدهلي !، وهكذا أخذنا نسمع عن انقطاعه بل وعن التغير الشامل لمسلكه في الحياة... بعد أن لفَّته الحيرة ولم يعد يدري ماذا سيكون غَدُه ؟!

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبًا سفرية برسم غزْو سندابور، وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف، فكتب ولدُه إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ويُسلِم الولد المذكور، ويزوجه السلطان أخته (143)، فلمَّا تجهزت المراكب ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد ففتحت المصحف أنظر فيه فكان في أول الصفحة : يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره، فاستبشرت بذلك، وأتى السلطان إلى صلاة العصر، فقلت له : أريد السفر فقال : إذاً تكون أميرهم، فأخبرتُه بما خرج لي في أول المصحف فأعجبه ذلك، وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل، فركب مركباً منها وأنا معه، وذلك في يوم السبت فوصلنا عشيّ الاثنين إلى سندابور، ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدّين للحرب وقد نصبوا المجانيق، فبتنا عليها تلك الليلة. 107/4

فلما أصبح ضربت الطبول والانفار والأبواق وزحفت المراكب، ورموا عليها بالمجانيق، فلقد رأيت حجراً أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان، ورمى اهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترسة والسيوف، ونزل السلطان إلى العُكيرى، وهو شبه الشلِّير (144)، ورميت بنفسي في الماء في جملة الناس، وكان عندنا طريدتان مفتوحتَي المواخر، فيها الخيل، وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوْفها ويتدرَّع ويخرج ففعلوا ذلك، وأذن الله في فتحها وأنزل النصر على المسلمين، فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار في قصر سلطانهم، فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضْنا عليهم، ثم إن السلطان أمَّنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف وأسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته، وأعطاني جاريةً منهن تسمى لَمْكي فسميتها مُباركة (145)، وأراد زوجها فداءها فأبيت ! وكساني فرَجية مصرية وجدت في خزائن الكافر، وأقمت عنده بسَنَدابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادى الأولى إلى منتصف شعبان (146)، وطلبت منه الإذن في السفر، فأخذ عليَّ العهد في العودة إليه ! 108/4

(143) حول سندابور حيث توجد جزيرة (كوَا) راجع التعليق السابق رقم 79... يظهر أن خلافا شبَّ بين حاكم الجزيرة وبين ولده أدّى إلى استنجاد هذا الأخير بالسلطان جمال الدين ضدّ والده، تلقاء أن يسلم الأمير الولد، وأن يتزوج بنت السلطان المسلم - الآية : (ولينصرن الله من ينصره) السورة 22/ الآية 40.

(144) يذكر دوزي في معجمه أن العكيرى نوع من السفن الشراعية الكبرى، ويذكر الشلّير على أنه نوع من الفلك...

(145) سمَّاها كذلك طلباً للفأل الحسن سيما ونحن نعرف عن وضعه الحرج بعد كل الذي تعرض له من محن وفتن...

(146) يعني منذ 15 أكتوبر 1342 إلى منتصف يناير 1343.

109/4 وسافرت في ‖ البحر إلى هِنور ثم إلى فاكَنَوْر، ثم إلى مَنْجَرور ثم إلى هِيلي ثم إلى جُرْفَتَّن ودَهْ فَتَّن، وبُد فَتَّن وفَنْدَرَينا وقَالِقُوط، وقد تقدم ذكر جميعها ثم إلى مدينة الشاليات، وهي بالشين المعجم والف ولام وياء آخر الحروف والف وتاء معلوة، مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها (147)، وأقمت بها فطال مقامي فعدت إلى قالقوط، ووصل اليها غلامان كانا لي بالكَكَم فأخبراني أن الجارية التي كانت حاملاً وبسببها كان تغيُّر خاطري توفيت، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري واستولت الأيدي على المتاع وتفرَّق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة، فعدت لما تعرَّفتُ هذا إلى هِنَّور، ثم إلى سنداپور فوصلتها في آخر المحرم وأقمت بها إلى ثاني من شهر ربيع الآخر.

110/4 وقدم (148) سلطانها الكافر الذي ‖ دخلناها عليه برسمِ أخذها وهرب إليه الكفار كلّهم، وكانت عساكر السلطان متفرقة في قرى فانقطعوا عنا، وحَصَرنا الكفار وضيَّقوا علينا، ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة (149)، وعدت إلى قالِقوط.

وعزمتُ على السفر إلى ذيبة المَهَل وكنت أسمع بأخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقَالقوط وصلْنا جزائر ذيبة المَهَل، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب (150)، والمَهَل بفتح الميم والهاء، وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهي نحوُ ألفي جزيرة (151) ويكون منها مائة فما

---

(147) الشاليات CHALIYAM هي التي كان البرتغال يطلقون عليها شيليات Chiliate أو Chale، وتحمل اليوم اسم بيپُور (Beypore) على بعد نحو سبعة أميال جنوب قالقوط، وقد اشتهرت المدينة بمعاملها في النسيج المتنوع الأشكال، وما يزال اسم (الشال) معروفا عند الناس، حتى في الغرب نسبة إلى المدينة المذكورة.

(148) يعني من 24 يونيه إلى 24 غشت 1343 – يلاحظ أن هذه التواريخ لا تتوافق مع معلومته الآتية الذكر (IV -164-165) التي تفيد أنه غادر مالديف بتاريخ 26 غشت 1344 = 15 ربيع الثاني 745.

(149) لو كان ابن بطوطة ثبت في موقفه وبقي صامداً لحضر نصراً جديدا للسلطان جمال الذين سلطان هونفر (Honavar) وحضر كذلك وفاة السلطان الأخير فيها...

(150) ذيبت كلمة من أصل سنسكري : دْفيبًا (DVIPA) ومعناها جزيرة. ومَهَل هو إسمها، جزيرة مهل أعطت بالصياغة الأوربية مَهَل جزيرة : أي مالديف وتقع جزر مالديف جنوب جزر لاكديف التابعة للهند... ويلاحظ أن هذه الإفادات من ابن بطوطة عن جزر مالديف تعتبر أصيلة وفريدة في بابها لم يتقدم عليه أحد فيها ومن هنا وجدنا أن المالدفيين لاينفكّون يذكرون الرحالة المغربي بكلّ خير...

د. التازي : أقدم نقش في مالديف يتحدث عن المغرب... – بحث قدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته السابعة والخمسين (يبراير 1991).

هذا وقد كانت أقدم ترجمة لهذا النص الخاص بالمالديف من رحلة ابن بطوطة هي التي قام بها البيركراي (Albert Gray) معززا بـ H.C.P. Bell في الملحق A لترجمتهما لحكاية فرانسوا بيراردو لافال البحار الفرنسي الذي حرَّت مركبه هناك وأقام في مالديف من عام 1602 إلى 1607 وقد طبعت عام 1887-90 من طرف Hakluyt وقد قدم السيد C.H.B. Reyolds مساعدةً ثمينة إلى Bekmgham بعض في تعليقاته ...

(151) يتكون الأرخبيل من عشرين جزيرة مرجانية حلقية الشكل atolls ومن حوالي ألف ومائتي جزيرة Islands.

دونها مجتمعات مستديرة كالحَلْقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلاّ منه، وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بدَّ له من دليلٍ من أهلها ‖ يسير به إلى سائر الجزائر، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الأخرى، فان أخطأ المركب سمتَها لم يمكنه دخولها وحملته الريح إلى المَعْبَر أو سيلان (152).

111/4

وهذه الجزائر أهلها كلّهم مسلمون، ذووا ديانة وصلاح، وهي منقسمة إلى اقاليم، على كلّ إقليم والٍ يسمونه الكَرْدُوبي (153)، ومن أقاليمها إقليم بَالِبُور (154)، وهو بباءين معقودتين وكسر اللام وآخره راء ومنها كَنَّلُوس (155) بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وآخره راء، ومنها كَنَّلُوس (155)، بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل، ومنها إقليم المَهَل (156)، وبه تعرف الجزائر كلَّها، وبها يسكن سلاطينها، ومنها إقليم تلاديب (157)، بفتح التاء المعلوة واللام والف ودال مهملة وياء مد وباء موحدة، ومنها إقليم كَرَايْدُو (158)، بفتح الكاف والراء وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو، ومنها إقليم التَّيْم (159)، بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة، ومنها اقليم تَلَدُمَّتِي (160)، بفتح التاء المعلوة الأولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الأخرى وياء

---

(152) ساحل المَعْبَر جنوب الهند.

(153) الكَرْدُوي KARDUI وهو ما يوجد في مخطوطة الكتاني، سماه ابن بطوطة فيما بعد الكردوي بدون الياء الثانية، بيد أن كلاً من الإسمين لا يظهر أنه يطابق الحقيقة، فإن الكلمة المالديفية هي : كَرُدَا-فيري Karuda-veri : تعبير قديم يعادل اليوم التعبير العصري أتولو فيري Atolu-Veri أو (Atoll Chief).

(154) الجزيرة المرجانية الحَلْقية الشكل بَّالِبُور (Palipour) تقع بين الدرجة السادسة والخامسة من خطوط العَرض وهي الجزيرة التي تحمل اسم (Fadiffoulu) عند Francois Pyrard De Laval البحَّار الفرنسي سابق الذكر.

(155) عرفت بأنها جزيرة كينالوس (Kinalos) في الجزيرة المرجانية مالُوسمادُولُو (Malosmadulu) دائما بين الدرجة السادسة والسابعة غرب بَاديفُولو (بَّالِبُور) ابن بطوطة.

(156) المهل (Male) تكوِّن جزيرتين مرجانيتين : إحداهما تقع في الشمال بين الدرجة 5 و 4، وثانيتهما تقع في الجنوب على الدرجة الرابعة. عاصمة سائر الأرخبيل – وتسمى أيضا مالي (Malé) توجد على الجزيرة المرجانية الشمالية.

(157) تلاديب Taladib يتعلق الأمر إمَّا بجزيرة تولادو (Tuladu) في الجزيرة المرجانية الجنوبية لِمَالُوسْمادُولُو (Malosmadulu) أو بجزيرة تلاديب التي يقع كل من قسميها شمالاً وجنوباً في الخط الثالث من خطوط العرض.

(158) كرايدو : Karhidu القصد إلى الجزيرة الصغيرة المعزولة (Karhidu) تقع على الخط الخامس...

(159) التّيم القصد إلى (Oteim) في الخرائط القديمة وهي : أوتِيمو (Utimu) الحالية، جزيرة شمالية تابعة للجزيرة المرجانية تيلاً دوماتي (Tilladumati) بين الدرجة السابعة والدرجة السادسة من خطوط العرض.

(160) تِلدُمَّتِي : الجزيرة المرجانية (Tilladumati)، بين الخط السابع والسادس.

112/4 ومنها إقليم هَلْدُمَّتِي (161)، وهو مثل لفظ الذي قبله الا أن الهاء أوله، ومنها إقليم بَرَيْدُو (162)، بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو، ومنها اقليم كَنْدَكَل (163)، بفتح الكافين والدال المهمل وسكون النون، ومنها إقليم مُلوك (164)، بضم الميم، ومنها اقليم السُّوَيد (165) بالسين المهمل وهو أقصاها.

وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا أن في اقليم السُّويد منها زرعاً يشبه أنْلي (166) ويجلب منه إلى المَهَل، وإنما أكل أهلها سَمَك يشبه البيرون(167)، يسمونه قُلْب الماس، بضم القاف، ولحمه أحمر، ولا زفَر له،إنما ريحه كريح لحم الانعام، وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوها يسيراً ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلّقوه للدخان فإذا استحكم يُبسه أكلوه (168) ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن ويسمونه قُلْب الماس بضم القاف . 113/4

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النَّارجيل (169)، وهو من أقواتهم مع السَّمك، وقد تقدم ذكره، وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتُثمر النخل منها اثنى عشر عذقاً في السنة، يخْرج في كل شهر عذق، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً وبعضها يابساً وبعضها أخضر، هكذا أبداً ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا في السفر الأول (170) ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه، وكذلك أكله.

(161) هَدّمَّتي هي (Haddumati) وتقع على الدرجة الثانية – أنظر التعليق الآتي رقم 205.

(162) بَرَيْدُوا : Braidu كان هذا العَلَم أصعب الأعلام في مالديف لتحديده والتعريف به، ويمكن أن يكون فوليدو (Falidu) بين الخط الرابع والثالث.

(163) كَنْدَكل هي التي تسمى (Kaindecolu) في الخرائط القديمة، وهي كيدكولو (Kedidolu) الحالية في الجزيرة المرجانية (Miladummadulu) التي توجد على الخط السادس...

(164) مُلوك Mulaku تقع على الخط الثالث.

(165) السويد (Suwaid) أو (Suadiva) بين الدرجة الأولى وخط الاستواء.

(166) أَنْلِي : كلمة بربرية تعني الحَبّ الذي يسمى بالفرنسية Millet. III , 314 - III 130 .

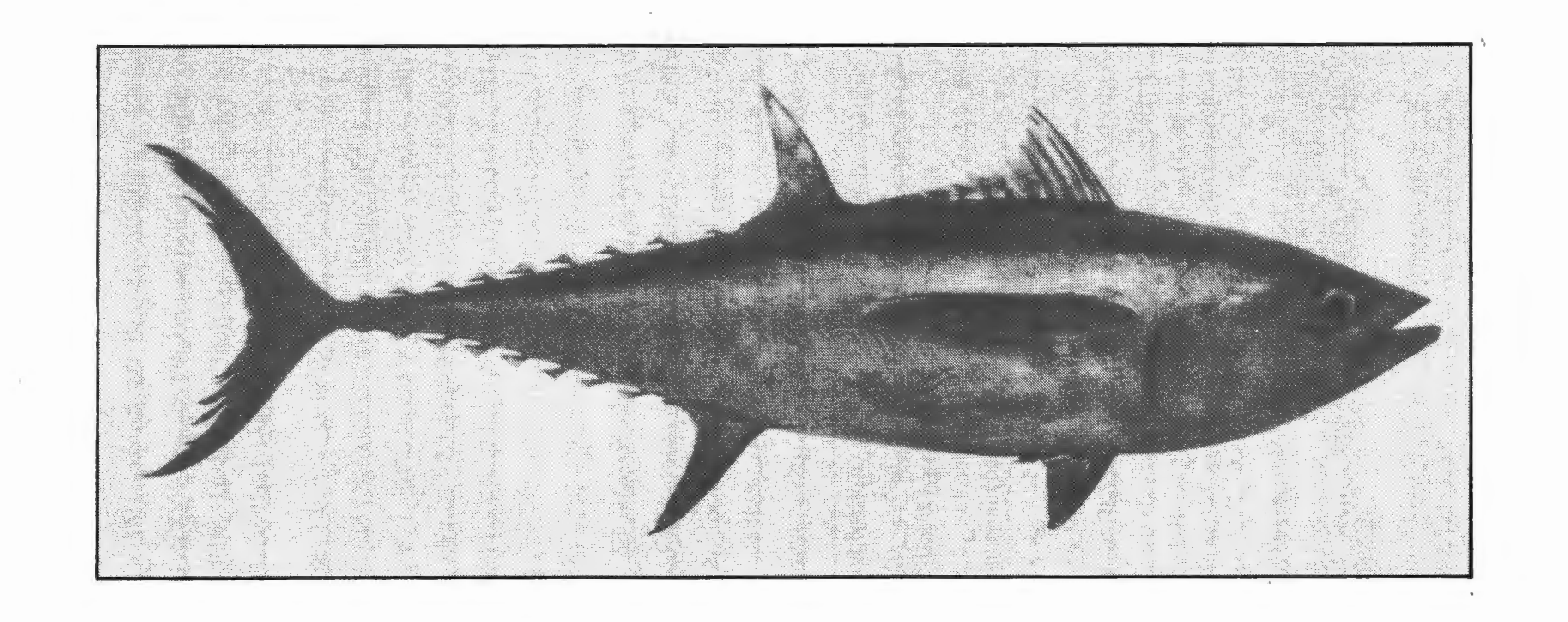
(167) البيرون كما في نسختنا المصححة، أصله أبَيْرون لفظ بربري يعني سمك التن. قلب الماس أصل الكلمة مالديفي : Halu-Bili-Mas، معنى كالو : أسود، ومعنى بيلي : التُّون، ومعنى ماس : سمك، ويظل دائما هذا النوع من السمك هو المنتوج الأساسي لجزر مالديف، وقد أهديتْ إلينا نماذج منه عند زيارة الجمهورية بمناسبة عيدها الوطني مايه 1990. ويعتبر من أجود الأنواع التي تصدَّر للخارج.

م. شفيق : المعجم العربي الأمازيغي – أكاديمية المغرب
Destaing : Vocabulaires Français Berbèrs - Paris 1935.

(168) من الطريف أن نعثر عند بيرار Pyrard على وصفٍ دقيق لكيفية تصبير هذا النوع من السمك الذي يُمْسى لونه بعد العملية أسود.

(169) النَّارجيل هو بالذات ما نسميه جوز الهند ... وهو في الأصل من جزر شيشيل (Seychelles).

(170) يراجع ج II ص 206 وما بعدها ... ومن غريب ما وقع فيه بيكيگام عند الترجمة أنه ترجم السَّفر بكسر السِّين على أنه سَفَر بفتحها حيث قال : (in the first journey).



يظهر أن هذا النوع من الأسماك الذي شبهه ابن بطوطة بما يعرف في المغرب بِأَبْرَيْرُون (ABRAIROUN) هو الذي يحمل
في منطقة الخليج اسم قباب الذي عرف في الانجليزية تحت اسم Yellow fin Tuna
عن أسماك الخليج اعداد بوهارون للمعدات البحرية - أبو ظبي/ مع شكرنا للسيد أحمد ثاني الدوسري

وللسَّمك الذي يغتذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها، ولأهل هذه الجزائر عجبٌ في ذلك، ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنتُ أطوف على جميعهن كلَّ يوم، وأبيت عند من تكون ليلتها، وأقمتُ بها سنةً ونصف أخرى على ذلك ! (171).

114/4

ومن أشجارها الجمّون (172) والأترج والليمون والقلقاص (173)، وهم يصنعون من أصوله دقيقاً يعملون منه شبه الإطرية، ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من أطيب الطعام كنت أستحسنها كثيراً وآكلها.

ذكر أهل هذه الجزائر، وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهلُ صلاح وديانة وإيمان صحيح ونيةٍ صادقة، أكلهم حلال ودعاءهم مُجاب، وإذا رأى الانسانُ أحدَهم قال له : الله ربي، ومحمد نبيّ وأنا أمي مسكين، وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء، ولقد أمرت مرةً بقطع يد سارق بها فغُشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس، ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا أنّ من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة، واذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا، من غيرهم، ولم يعرضوا لأحدٍ منهم بسوء، وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونةً عاقبة أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم.

115/4

وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة وأكثر عمارتهم بالخشب وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية ويتلطّخون بالغالية المجلوبة من مَقْدَشَو.

116/4

ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية (174) فيكحِّل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية، فتصقلُ بشرتَه وتُزيل الشحوبَ عن وجهه.

ولباسُهم فُوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على

---

(171) كلام ابن بطوطة واضح في أنه قضى في مالديف سنة ونصف السنة وقد ناقشه حول هذا المقام بعض الذين علقوا على الرحلة (انظر المقدمة).

(172) (EUGENIA JAMBOLANA) انظر II 191 III 128

(173) يسمى (Hittala- Fu) في جزر مالديف، وتعني كلمة (FU) الدقيق، انظر تعليق 110.

(174) الغالية : عطرٌ مركب من المسك ومن العنبر... وهذه المادة كثيرة في الجزر.

ظهرهم ثياب الوِلْيَان (175)، بكسر الواو وسكون اللام وياء آخر الحروف، وهي شبه الآحاريم، وبعضهم يجعل عمامة، وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً منها، وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزلة ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غُرْفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفةً عند باب البيت تنتظره فإذا وصل إليها رمتْ على رجليه (176) ثوباً يأخذه خدامه، وان كانت المرأة هي التي تاتي إلى منزل الرجل بُسطت داره وجُعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه، وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم، لا بد من ثوب يرمى عند ذلك، وسنذكره.

117/4

وبنياتهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات لأن أرضهم ندية، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارةً يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفاً ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يضعون الحيطان من الخشب (177) ولهم صناعة عجيبة في ذلك، ويبنون في أسطوان الدار بيتا يسمونه المَالَم (178) بفتح اللام، يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها، ويكون عند هذا البيت خابيةٌ مملوءة ماءً، ولها مُسْتَقَى يسمونه الوَلَنْج (179)، بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم، هو من قشر جوز النَّارجيل وله نِصابٌ طوله ذراعان، وبه يسقون الماء من الآبار لقربها.

118/4

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيعٍ ووضيعٍ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار

---

(175) الوليان، يرى كراي وبيل أن الكلمة ربَّما كان أصلها مالديفي Feliya وتعني صدرية وتلبس عند بعض المناسبات ، وبالنسبة لكلمة الإحرام - انظر I, 18.

(176) يتعلق الأمر بشكلين من الزواج يوجدان معا في سيلان القريبة من مالديف، وخاصة عند الجماعة السنْهالية، (سيري لانكا) يحمل الشكلان إسم بينا Bina وديكا و (Diga). الزواج على طريقة (Bina) يتم عندما تكون الزوجة تمتلك داراً أو أراضي، الزوج يقصد بيتَها الذي يصبح بيتاً للزَّوجين معاً، أما الزواج على طريقة (Diga) وهو الذي يكون فيه الزوج هو المالك للدار أو الارض فإن الزوج يسمى كذلك سيد البيت وهذا يشبه التقاليد في جزر لاكاديف (انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة (Laccadive) وهي تقع كما قدمنا شمال مالديف انظر التعليق 150 من هذا الفصل وانظر اصطيفان.

(177) نفس المعلومات يرددها بيرار (Pyrard).

(178) هذه الكلمة (المالم) لم نهتد لتحديد معناها، هذا وتختص الحجرة الداخلية أو الخاصة باسم إيتيريجي (Eterige) والحجرة الخارجية أو العامة تحمل اسم بيرو - جي (Beru-gé).

(179) حول الوَلَنج، نذكر أن هناك باللغة السنْهالية كلمةَ (فالاندا (Valanda) بمعنى اناء يصلح للطبخ، الجفن - أو القصعة المعرفة اليوم تحمل اسم ضوني Doni.

119/4 فالماشي بها كأنه في بستان، ومع ‖ ذلك لا بد لكل داخلٍ إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية، بالمَالَم ويمسحها بحصيرٍ غليظ من اللّيف (180) يكون هنالك، ثم يدخل بيتَه، وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد.

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه الكنادر (181)، وهي القوارب الصّغار، واحدها كُنْدُرة، بضم الكاف والدال، وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول، والكَرَنبة (182) وهي جوز النَّارجيل الأخضر فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من اهل المركب ويكون نزيله ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج، فإذا حان سفره طلق المرأة لانهن لا يخرجن عن بلادهن ! ومَن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل

120/4 بدارها ‖ تطبخ له وتخدمه وتزوّده اذا سافر وترضى منه في مقابلته بأيسر شيء من الإحسان.

وفائدة المخزن ويسمونه البندر (183)، أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظاً بسومٍ معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه ويسمونه : شرع البندر (184)، ويكون للبَندر بيتٌ في كل جزيرة من الخشب يسمونه البَجَنْصار (185)، بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء يَجمع به الوالي وهو الكردوري (186) جميع سلعه ويبيع بها ويشتري، وهم يشترون الفخَّار إذا جلب اليهم بالدَّجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست.

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه، وجوزَ النارجيل والفوط والوِلْيان

---

(180) اللّيف : مادة تتخذ من أوراق النخيل.

(181) الكنادر : جمع كُنْدُرة باللغة السنكرية (Bhandara) بمعنى المخزن والمستودع وهي غير البندر بمعنى المرسى والميناء... – المصادر البرتغالية تتحدث عن كنادر (Gundras) مالديف، والسنْهاليون يسمون أيضا السفن المالديقية باسم كُنْدَرة.

(182) القصد إلى كُوروبا (KURUNBA) باللغة المالديقية، وكورومبا (Kurumba) باللغة السنْهالية.

(183) البندر يعني الميناء بلغة الفرس، وهناك كذلك بْهَانْدَاره (Bhandara) بمعنى الخزينة باللغة السنسكرية على ما تقدم في التعليق 181.

(184) يشرح بيرار (Pyrard) كيف يتصرف السلطان في البضائع التي تعرض على المسؤولين في الجزيرة، ويقع التراضي في المبالغ المستحقة وشرع البندر يعني حق الدّيوانة، وقد سمّاه قبل هذا (حق البَنْدر) عندما تحدث عن سلطان فاكنور انظر IV ، 78

(185) يُدْعى المستودع فارُوجِي (Varu-GÊ) البَجَنصار (Bangasar) أو بنْكْشال (Bankschall) الذي سيستعمل في فترةٍ لاحقةٍ.

(186) الكَرْدُوي أنظر التعليق رقم 153، فقد رسمه هناك هكذا كَرْدُويي (Kardui).

121/4 (187) والعمائم، وهي من القطن ويحملون منها أواني النّحاس فانها عندهم كثيرة (188) ويحملون الوَدَع ويحملون القَنْبَر، بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والرَّاء، وهو ليف جوز النَّارجيل، وهم يدبغونه في حُفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب، وتحمل إلى الصين والهند واليمن، وهو خير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك البحر كثير الحجارة فإن كان المزكب مسمّراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر، وإذا كان مخيطاً بالحبال أُعطى الرطوبة فلم ينكسر.

وصرف أهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه في البحر، ويضعونه في حُفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه : سِياه، بسين مهمل وياء آخر الحروف، ويسمُّون السبعمائة منه : الفال، بالفاء، ويسمون الاثنى عشر الفا منه : الكُتّي، 122/4 بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة، ويسمون المائة الف منه بُسْتُوا(189) بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل، ويباع بها بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز، وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة، ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم، وهذا الودع أيضا هو صرف السودان في بلادهم (190)، رأيته يباع بمالي وجَوْجَو (191) بحساب الف ومائة وخمسين للدينار الذَّهبي.

ذكر نسائها

ونساؤها لا يُغطين رؤوسهن ولا سلطانتَهم تغطي رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعْنها إلى جهة واحدة (192)، ولا يلبسن أكثرهن إلا فوطةً واحدة تسترها من السرة إلى أسفل 123/4 وسائر أجسادهن مكشوف، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها.

(187) يراجع التعليق السابق رقم 175.

(188) العجب من بعض المعلّقين يجدون أنّ من السهل تشكيكَ الناس في هذه المعلومات طالما لم يرْوها أحد غير ابن بطوطة عوض أن يقولوا إنها مما استأثر بذكره الرحالة المغربي !!

(189) هذه الالفاظ التي مرت (Hiya) (أو (Siya) باللغة السنهالية) فالي (Falé) كوتي (Cotté) ثم بَاسْطا (Basta) كلها بالمالديفية كُتّى ج كتاتي ج IV - 147.

(190) يتحدث المعلقون هنا عن قيمة الوَدَع كعملة سواء في هذه الجهات أو في بعض أقاليم إفريقيا السوداء، كما أنهم عندما يتحدثون عن الوجود الهولاندي في مالديف – بعد فترة ابن بطوطة يقولون : إنهم كانوا يمارسون تجارة هامة وكانوا يتقاضون تِلقاء التجارة هذا الودع ...

(191) حول جَوْجَو التي يرسمها أيضا كوكو انظر ج. IV ص 495 - 426 - 435 - 438.

(192) تتحدث بعض التعاليق عن الوضع بالنسبة للشّعَر عند الرجال، وتذكر أنه من غير المسموح للرجال أن يتركوا شعورهم اللهم إذا كان الامر يتعلق بالضباط أو جنود السلطان أو كبار البلاد فهؤلاء يسمح لهم بإطالة شَعَرهم ... الفرق في توفير الشّعَر بين النساء والرجال أن الرجال يضفرون شعورهم على قمة رأسهم ولا يَرسلونها خلف الرؤوس كما تفعل النساء. هذا ويذكر أن لباس النساء لم يختلف أيام بيرار Pyrard عنه أيام ابن بطوطة في أغلب الحالات...

ولقد جهدتُ لمَّا وليتُ القضاء بها، أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللّباس، فلم أستطع ذلك فكنت لا تدخل إليَّ منهن امرأة في خصومة الا مستترة الجسد، وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة، ولباس بعضهن قُمُصٌ زائدة على الفوطة، وقمصهن قصارُ الأكمام عِراضها، وكان لي جَوارٍ كسوتهن لباس أهل دهلي وغطّين رؤوسهن، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن إذْ لم يتعودنه !! وحلْيهنّ الأساور تجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة ولا يجعل أساورَ الذهب ‖ إلا نساء السلطان وأقاربه، ولهن الخلاخيل ويسمُّونها البايل، بباء موحدة والف وياء آخر الحروف مكسورة وقلائدُ ذهب يجْعلْنها على صدُورهن ويسمونها البَسْدَرَد، بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء.

124/4

ومن عجيب أفعالهن أنهن يستاجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عددٍ معلوم من خمسة دنانير فما دونها (193) وعلى مستأجرهن نفقتُهن، ولا يرين ذلك عيباً، ويفعله أكثر بناتهم فتجد في دار الإنسان الغنيّ منهن العشرة والعشرين، وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته، وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج اليها العدد الذي هي مرتهنة فيه فتدفعه لاهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها للآخرين وأكثر شغل هؤلاء ‖ المستأجرات غزل القَنْبَر (194).

125/4

والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء، وأكثر الناس لا يسمي صداقاً إنما تقع الشهادة ويعطي صداقاً، مثلها، واذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فإذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة(195)، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً. ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجليه عند النوم، ومن عوائدهن الا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة، ولقد تزوجت بها نسوةً فأكل معي بعضهن بعد محاولة ‖ وبعضهن لم تأكل معي ولا استطعت أن أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك !!

126/4

(193) هذا النوع من المساعِدات لا يعتبرن رقيقات أبداً ولكنهن خادمات لفترة محدودة وفي مقابلة شروطٍ

(194) تراجع الصفحة رقم 121 من هذا الجزء.

(195) يظهر أن الرحالة المغربي من أنصار المتعة على نحو ما في (فتاوي ابن رشد) ج IV ص 153

نكـــر الســـبب في إســـلام أهـل هـذه الجـــزائر وذكر العفاريت من آلجن التي تضر بها في كل شهر.

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني، والفقيه المعلم على، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً، وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادتهم إذ رأوه أخذوا جاريةً بكراً فزينوها وأدخلوها إلى بُدَخانة (196)، وهي بيت الأصنام، وكان مبنياً على ضفة البحر، وله طاق يُنْظر إليه منها ويتركونها هنالك ‖ ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضَّة ميّتة ! ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته! 127/4

ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري وكان حافظاً للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوماً وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في مأتم، فاستفهمهن عن شأنهن، فلم يفهمن فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها، وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت، فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضاً من بنتك بالليل، وكان سِناطا : لا لحية له، فأحتملوه تلك الليلة وأدخلوه إلى بُدخانة وهو متوضئ وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة فلمَّا كان منه بحيث يسمع القراءة ‖ غاص في البحر، وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها، فوجدوا المغربي يتلوا فمضوا به إلى ملكهم وكان يسمى شَنُورَازة (197)، بفتح الشين المعجم وضم النون وواو وراء وألف وزاي وهاء، وأعلموه بخبره، فعجب منه وعرض المغربي عليه الإسلام ورغّبه فيه، فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر، فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت ! فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبْل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته، ثم حُمِل المغربي لما دخل الشهر إلى بُدْخانة ولم يات العفريت فجعل يتلو حتى الصبَّاح، وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الأصنام وهدموا بُدخانة وأسلم أهل الجزيرة، 128/4

(196) تقدم I - 151 تعليق 88 أن كلمة بُدخانة أصلها بوذاخانة أي معبد بوذا الإلاه عند بعض الهنود. هذا ويحكون مثل القصة عن الفتاة التي تلقى في النيل حتى يجري الماء إلى أن أرسل عمر بن الخطاب رسالة للنيل ج I - 78 - 109 – القزويني : عجائب المخلوقات تحقيق فاروق سعد، بيروت 1973 ص 226.

(197) شَنُورَازَه يظهر أن هذا اللقب يعني وظيفة سامية في الدولة، وهو يهجى على عدة أشكال منها شنورَجَا (Shano Raja)، وجميعها أت في الأصل من اللغة السنهالية والكلمة تعني القائد الأعلى للجيش، وقد ورد ذكر شَنُو مرتين في اللوحة الخشبية المنقوشة التي وقفنا عليها في المتحف الوطني لمالديف، هذا وقد كان حاكم الجزيرة بوذياً على نحو ما كان عليه سكان البلاد قاطبة...
د. التازي : أقدم نقش عربي في مالديف يتحدث عن المغرب، مصدر سابق...

وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظماً وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضي الله عنه، وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه، وبنى مسجدا هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب : أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي.

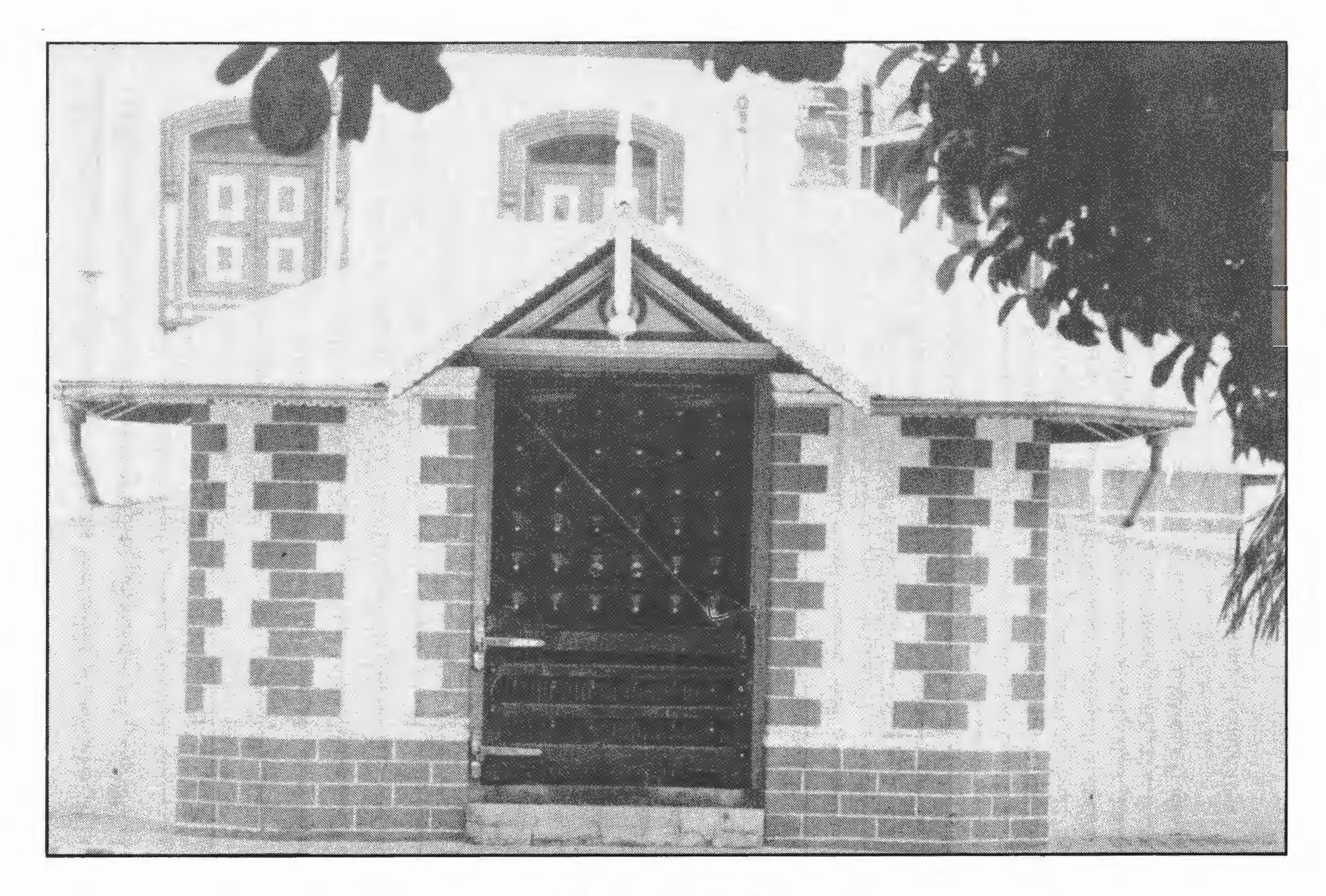
وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل إذ كان اسلامه بسببهم، فسمى على ذلك حتى الآن (198)، وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام. ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه، فبيْنا أنا ليلة في بعض شأني إذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الأولاد وعلى رؤوسهم المصاحف والنساء في الطسوت، وأواني النحاس فعجبت من فعلهم وقلت : ما شأنكم؟ فقالوا : ألا تنظر إلى البحر ؟ فنظرت فإذا مثل المركب الكبير، وكأنه مملوء سرجاً ومشاعل فقالوا : ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرةً في الشهر فإذا فعلنا ما رأيت إنصرف عنا ولم يضرنا !

130/4

(198) بالوقوف على اللوحة التأسيسية الخشبية (وليست النُّحاسية المنتسخة محرَّفةً من الخشبية!) التي ترسم بكل وضوح (البربري) وليس التبريزي كما وهم القاضي حسن تاج الدين (تـ 1139=1726) في تأليفه : تاريخ إسلام ديبا محل الذي حققه ذ. هيكوايتش ياجيما طوكيو – 1982 – وقد كانت الحروف أربعةً : بربر وليست خمسة : تبريز فليس هناك "كونفيزيون Confusion كما توهم ! وهكذا فإن "البطل" الذي تم اسلام الجزر على يديه سيظل مغربياً عكس ما قاله بيرازيموس من أنه تبريزي ! وعكس ما قاله هربك من أنه صومالي ! على ما أوضحته أمام أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة (بيراير 1991) وأمام أكاديمية المملكة المغربية (مايه 1991) في بحث ترجم ملخصه للفرنسية والانجليزية وبعثته (الخارجية) المغربية إلى نظيرتها في ماليف عن طريق ممثل هذه الدولة في نيويورك بتاريخ 1991/8/8. وقد شهدتْ رحاب القصر الملكي في 19 رمضان 1413 (13 مارس 1993 القاء محاضرة رفيعة المستوى القاها فخافة السيد رئيس الجمهورية المالديفية مأمون عبد القيوم بمحضر جلالة الملك الحسن الثاني وحضور رجالات الدولة وأعضاء السلك الدبلوماسي المسلمين تناولت هذا الموضوع وقد تضمّن الطابع الذي أصدرته وزارة البريد 1996 جانباً من المنقوش...

IVAN HRBEK : Ibn Battuta and The maldives Islands, The Oriental Institu lePrague 1992 P 56.

C.F. Beckingham : THe Travels of Ibn Battûta THe Hakluyt Society - London 1994 P. 830.



ضريح أبي البركات البربري في عاصمة مالديف : مالي

ذكر سلطانة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة، وهي خديجة (199) بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي (200)، وكان المُلك لجدِّها ثم لأبيها، فلما مات أبوها وَلِي أخوها شهاب الدين (201) وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمّه وغلب عليه، وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين، كما سنذكره (202)، فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر السويد، واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمى علي كَلَكِي (203) ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السُّويد (204)، وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف إلى حُرُم أهل دولته وخواصه بالليل ! فخلعوه لذلك ونفوه إلى اقليم هَلَدُتَنِي (205) وبعثوا مَن قتله بها، ولم يكن بقي في بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى

131/4

(199) تملكت السلطانة خديجة عام 740=1340، بعد إقصاء أخيها شهاب الدين عن الحكم في أعقاب فضيحة أخلاقية. شهاب الدين هذا هو الذي يوجد اسمه منقوشا على اللوحة التأسيسية كآمر – خلد الله أعماله – بعمارة المسجد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائةً ... وفي أيام سلطنتها زار ابن بطوطة مالديف مرتين متواليتين وكان يتحدث عنها حديث الموظف السامي الذي يعرف السلطانة معرفةً جيدةً حتى لَسَجَّل عبارة دعاء الخطيب لها يوم الجمعة – ولهذا فإن الاعتماد على إفادة ابن بطوطة، وهو شاهد عيان ينبغي أن يُعطي الاسبقية على ما كتب بعد أربعة قرون من لدن القاضي حسن تاج الدين مما يفيد أن السلطانة إنما حكمت ابتداء من عام 748=1347 أي بعد مغادرة ابن بطوطة لمالديف ببضع سنوات... !!

زينب فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدُور، طبعة أولى، 1312 ص 182.

(200) جلال الدين عمر هذا ورد ذكره في اللوحة الخشبية التأسيسية الشاخصة إلى الآن في المتحف الوطني بمالديف على أنه والد السلطان شهاب الدين أحمد الذي عمَّر المسجد عام 738=1339 قبيل زيارة ابن بطوطة بسنوات، هذه اللوحة هي التي وقف عليها ابن بطوطة بمحضر علية القوم في الجزيرة... يلاحظ أن شهاب الدين هذا الذي نُقش إسمه على اللوحة المذكورة كسلطان في العام المذكور 738=1339 لم يكن سلطانا عند القاضي حسن تاج الدين إلا عام 741=1340 !!
– تراجع الدراسة التي قام بها د. التازي للوحة التأسيسية، والمشار إليها أثناء هذا البحث ...

(201) حسب اللوحة التأسيسية المعاصرة فإن شهاب الدين هو السلطان الذي جدد بناء الجامع عام 738=1339 ودعى له في اللوحة المذكورة بكلمة : خلد الله أعماله، وليس عام 1340 كما عند القاضي حسن تاج الدين وتبعه بعض الناس ...

(202) يُراجع 132, IV - 143 - 149 - 165.

(203) كَلَكِي : (Kalege) : لقب (Quilague) يعني الضابط العام للسلطان...

(204) راجع التعليق السابق رقم 165...

(205) هَلَدُتَّني هي التي دعيت سابقا هلدمتي (أنظر التعليق 161)

ومريم وفاطمة (206)، فقدموا خديجة سلطانةً وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين (207)، فصار وزيراً وغالباً على الامر، وقدم ولده ‖ محمد (208) للخطابة عوضاً منه، ولكن الاوامر إنما تنفذ باسم خديجة، وهم يكتبون الأوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون في الكاغد إلا المَصاحف وكُتب العِلم، ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول : اللهم انصر أمتك التي اخترتها، على عِلم، على العالمين وجعلتها رحمةً لكافة المسلمين ألا وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين.

132/4

ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى إلى المشور وهم يسمونه الدار، فلا بدَّ له أن يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمي بأحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمي بالثاني، وعسكرها نحو ألف إنسان من الغرباء، وبعضهم بلديون وياتون كلَّ يوم ‖ إلى الدار فيخدمون وينصرفون، ومرتَّبهم الأرز يُعطاهم من البندر (209) في كل شهر، فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا، وقالوا للوزير : بلّغ عنا الخدمة، وأعْلِم بأنا أتينا نطلب مرتّبنا، فيؤمر لهم بها عند ذلك. وياتي أيضا إلى الدار كلّ يوم القاضي وأرباب الخطط وهم الوُزراء عندهم فيخدمون، ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون.

133/4

• ذكر أرباب الخطط وسيرهم

وهم يسمون الوزير الأكبر النائب عن السلطانة كَلَكِي بفتح الكاف الأولى واللام، ويسمون القاضي فَنْدَيَارْقَالُوا (210)، وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف وألف وراء وقاف والف ولام مضموم، وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضي، وهو أعظمهم من الناس ‖ أجمعين، وأمره ممتثل كأمر السلطان وأشد، ويجلس على بساط في الدار، وله ثلاثُ جزائر يأخذ مجْبَاها لنفسه عادةُ قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة، ويسمون الخطيب هَنْدِيجَرِي (211)، وضبط ذلك بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مد

134/4

---

(206) حسب تاريخ القاضي حسن تاج الدين فإن هناك أختاً تحمل اسم رَادَافاتي ستتولى الحكم عام 781=782=1379/1380 وهو إسم محلي لمريم آتية الذكر.

(207) أنظر التعليق 199.

(208) حسب تاريخ القاضي حسن تاج الدين فإن محمد هذا سيتزوج رادَافاتي وسيخلفها في الحكم عام 781=1379 وسيظل في الحكم إلى عام 1383 = 785 حسب التاريخ المذكور.

(209) راجع التعليق السابق رقم 183.

(210) حول كلمة كَلَكِي أنظر التعليق 203 – القاضي يدعي فاديارو (Fadiyaru Kaloge-Fanu) حسب نصٍّ يرجع لعام 1834م. في عهد بيرار Byrard.

(211) هِنْدِ يجري (Hadegiri) حسب نصٍّ يرجع لتاريخ 1834 ويعني : مستشار خاص عام 1334، رئيس الخزينة في القرن التاسع عشر.



مجموعة صور من مالديف عندما زرتها 1990

وجيم مفتوح وراء وياء، ويسمون صاحب الديوان الفَامَلْدَاري، بفتح الفاء والميم والدال المهمل، ويسمون صاحب الاشغال مَافَاكَلُوا، بفتح الميم والكاف وضم اللام، ويسمون الحاكم فِتْنَايَك، بكسر الفاء وسكون التاء المعلوة وفتح النون والف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف ويسمون قائد البحر مَانَايَك (212)، بفتح الميم والنون والياء، وكل هؤلاء يسمى وزيراً، ولا سجن عندهم بتلك الجزائر، وإنما يحبس أرباب الجرائم في بيوت خشب هي معدة لا متعة التجار، ويجعل أحدهم في خشبة كما يفعل عندنا بأساري الروم (213). 135/4

ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقُّل حالي بها.

ولما وصلت إليها نزلت منها بجزيرة كَنَّلُوس (214)، وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة، ونزلت بدار رجل من صلحائها، وأضافني بها الفقيه عليّ، وكان فاضلاً له أولاد من طلبة العلم، ولقيت بها رجلاً اسمه محمد، من أهل ظفار الحُمُوض (215)، فأضافني، وقال لي : إن دخلت جزيرة المَهل أمْسَكَكَ الوزير بها فإنهم لا قاضي عندهم، وكان غرضي أن أسافر منها إلى المَعبر وسرنديب (216) وبنجالة، ثم إلى الصين، وكان قدومي عليها في مركب الناخودة عمر الهنّوري، وهو من الحجاج الفضلاء، ولما وصلنا كنّلوس أقام بها عشراً ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المَهَل بهديةٍ للسلطانة وزوجها، فأردت السفر معه، فقال : لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك، فإن شئت السفر منفرداً عنهم فدونك، فأبيت ذلك ! 136/4

وسافر فلعبت به الريح وعاد إلينا بعد أربعة أيام وقد لقى شدائد ! فاعتذر لي وعزم عليّ في السفر معه بأصحابي، فكنّا نرحل غدوةً فننزل في وسط النهار لبعض الجزائر، ونرحل فنبيت بأخرى، ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التَّيْم (217)، وكان الكردوي يسمى

(212) هناك مصادر أخرى تعطي لائحة لهذه الوظائف العليا حيث نجد فيها بعض هذه الألقاب التي يذكرها ابن بطوطة : هند يجري بمعنى رئيس الخزينة المالية في مالداري... شخصية سامية – مافاكالو... مستشار مَاناساك قائد عسكري كبير.
The Voyage of Francais Pyrard I, P. 210-11 C.F. Beckingham - p. 833 N. 40.

(213) لقطة تاريخية هامّة حول الطريقة التي كان الأسرى الافرنج يعيشون عليها أيام عهد بني مرين أثناء احتكاكاتهم بجيرانهم في الجزيرة الإيبيرية، الخشبة المشار اليها كانت بمثابة فلق ... تربط فيها الأرجل... إضافة إلى الأيدي على ما أوقفني عليه الزميل الأستاذ محمد لطفي . البحث العلمي عدد 40 ...

(214) كان على ابن بطوطة أن يصل إلى جزر مالديف في بداية شهر دجنبر 1343.

(215) يراجع ج I ,205 ,II ,214-196.

(216) القصد إلى ساحل المعبر وساحل سيلان اللذين سيزورهما الرحالة المغربي.

(217) راجع التعليق 159.

بها هلالاً، فسلم عليَّ وأضافني، وجاء إليَّ ومعه أربعة رجال، وقد جعل إثنان منهم عوداً على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات (218)، وجعل الآخران عوداً مثله وعلقا منه نحو عشر من جُوز النَّارجيل، فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فأخبرت أنهم صنعوه 137/4 على جهة الكرامة والاجلال !

ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان، وهو رجل فاضل من خيار النَّاس فأكرمنا وأضافنا، وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التَّلَمْدي، وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهَل حيث السلطانةُ وزوجها، وأرسينا بمرساها، وعادتهم أن لا ينزل أحد عن المرسى إلا بإذنهم، فأذنوا لنا في النزول، وأردت التوجه إلى بعض المساجد فمنعني الخُدام الذين بالساحل، وقالوا : لا بد من الدخول إلى الوزير، وكنت أوصيت الناخودة أن يقول إذا سئل عني : لا أعرفه ، خوفاً من إمساكهم إياي. ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرّفا بخبري واني كنت قاضيا بدهلي.

138/4 فلما وصلنا إلى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه، وجاء القاضي عيسى اليمني فسلَّم علي وسلمت على الوزير، وجاء الناخوذة ابراهيم (219) بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمى بثوبٍ منها، ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر كذلك ورمى بجميعها. وسُئل عني فقال : لا أعرفه. ثم أخرجوا إلينا التنبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم، وأنزلنا بالدار وبُعث إلينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الأرز وتدور بها صحافٌ فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك.

ولما كان بالغد مضيت مع الناخودة وقاضي عيسى اليمني لزيارة زاويةٍ في طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب (220) وعدنا ليلاً، وبعث الوزير إليَّ صبيحة تلك الليلة كسوةً وضيافة 139/4 فيها الأرز والسمن والخليع، وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القُرْبَاني، بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والف ونون وياء، ومعنى ذلك ماء السكر، وأتو بمائة الف ودَعة للنفقة.

---

(218) كانت هذه عادة عندهم للتشهير بالتكريم للرجال المهدي اليهم، هذا ويوجد لهذا "العُود" اسم خاص في العربية الفصحى : الموسعة.

(219) يظهر أنه هو نفسه الناخوذة الذي سماه ابن بطوطة قبل هذا بعُمر.

(220) زاوية الشيخ نجيب توجد في منطقة لُونُوزيار Lonu Ziyare بالعاصمة مالي MALE. كانت البناية شيدت ذكرى للشيخ، لكنها اختفت اليوم ولعلها تحولت إلى مسجد.

– القُرباني (Hakurpani) كلمة سينهالية – او انها Gurapanya من أهل سنكريتي، وتعني ماء السكر الاسمر الغير المكرر.

وبعد عشرة أيام قدم مركبٌ من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفونني، فعرَّفوا خدَّام الوزير بأمري، فزاد إغتباطاً بي وبعث عني عند استهلال رمضان، (221) فوجدت الأمراء والوزراء وأُحضِر الطعام في موائد، يجتمع على المائدة طائفة، فأجلسني الوزير إلى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفَامَلْدَاري والوزير عمر دَهَرَد ومعناه مقدم العسكر (222)، وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ، ويشربون بعده عسل النَّارجيل مخلوطاً بالأفاويه، وهو يهضم الطعام.

140/4 وفي التاسع من رمضان مات صهر الوزير زوج بنته، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها، فردَّها أبوها لداره، وأعطاني دارها وهي من أجمل الدور، واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدَم (223)، فأذن لي في ذلك، وبعث إليَّ خمساً من الغنم، وهي عزيزة عندهم لأنها مجلوبة من المعْبر والمُلَيْبار ومَقْدَشَوْ، وبعث الأرز والدجاج والسمن والابازير، فبعثت ذلك كلَّه إلى دار الوزير سليمان مانَايك (224)، فطبخ لي بها فأحسن في طبخه وزاد فيه، وبعث الفرش وأواني النحاس، وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير، واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة، فقال لي : وأنا 141/4 أحضر أيضا فشكرته وانصرفت إلى داري، فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة، فجلس في قبة خشب مرتفعة، وكان كل من ياتي من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فأخذها الفقراء.

وقُدِّم الطعام فأكلوا ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم أخذوا في السماع والرَّقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خمدت !

ذكر بعض إحسان الوزير إلي

ولما تمت الليلة إنصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن، فقال لي : هذا 142/2 البستان لك، وسأعمر لك فيه داراً لسكناك فشكرت فعله، ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال لي خديمه : يقول لك الوزير إن أعجبتك هي لك وَإلاَّ بعث لك جارية مرهتية،

(221) كان مبدأ رمضان يوافق 16 يناير 1344.

(222) لم يضبط ابن بطوطة هذا العَلَم، وكان ذلك على خلاف عادته، فهل المقصود بيل دَاهَرَا أحد الوزراء الثلاثة ...

(223) القصد إلى قدم ادم في سيلان، على ماسيأتي.

(224) المَانَايك يعني الاميرال.

وكانت الجواري المَرهتيات تُعجبني، فقلت له : إنما أريد المرهتية ! فبعثها لي وكان إسمها قُل اسْتان، ومعناه زهر البستان، وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبتْني، وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه (225)، ثم بعث إلي في غد ذلك بجارية مَعْبرية تسمى عنبري (226).

ولمَّا كانت الليلة بعدها جاء الوزير إليَّ، بعد العشاء الأخيرة، في نفرٍ من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران، فسلمت عليه، وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته، فألقى أحد الغلامين بين يديه لُقْشَة وهي شبه السَّبَنيَّة(227)، وأخرج [143] منها ثياب حرير وحقاً فيه جوهر وحلي، فأعطاني ذلك وقال لي : لو بعثته لك مع الجارية، لقالت : هو مالي جئت به من دار مولاي والآن هو مالك فأعطه إياها ! فدعوت له وشكرته وكان أهلاً للشكر رحمه الله.

ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك

وكان الوزير سليمان مَانَايك قد بعث إلي أنْ أتزوج بنته، فبعثتُ إلى الوزير جمال الدين مستأذناً في ذلك فعاد إلي الرسول وقال : لم يعجبه ذلك، وهو يحب أن يزوجك بنته إذا إنقضَت عدتها، فأبيتُ أنا ذلك وخفت من شؤمها لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول ! وأصابتني أثناء ذلك حُمَّى مرضت بها، ولا بد [144] لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يُحمَّ (228)، فقوى عزمي على الرحلة عنها، فبِعث بعض الحُلي بالودع، واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة.

فلما ذهبتُ لوداع الوزير خرج إليَّ القاضي، فقال : الوزير يقول لك : إن شئت السَّفر فأعطِنا ما أعطيناك وسافر ! فقلت له : إن بعض الحلي اشتريتُ به الودَع، فشأنكم وإياه، فعاد إلي فقال : يقول إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع ! فقلت له : أنا أبيعه وأتيكم بالذهب، فبعثت إلى التجار ليشتروه مني فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا، وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه !!

ثم بعث إلي أحد خواصه، وقال : الوزير يقول لك : أقِمْ عندنا ولك كل ما أحببت، فقلت في نفسي : أنا تحت حكمهم، وإن لم أقم [145] مختاراً أقمت مضطراً فالإقامة باختياري أولى!

(225) اللغة الوطنية الأساسية لمالديف الآن تدعى الديفيهية (Divehi) أما في الماضي فكانت هناك لغة الأيلو وهو اللفظ الذي كانت تعرف به اللغة السنهالية القديمة (لغة سريلانكا) واللغة السنسكريتية أيضا، ومع دخول الاسلام إلى المالديف بواسطة أبي البركات المغربي تأثرت اللغة المالديفية باللغتين العربية والفارسية ... والجدير بالذكر أن اللغة الرسمية الآن للدولة هي الديفيهية. عن الوثائق الوطنية المالديفية.

(226) تكثر تسمية الجواري بالعنبر على ما كان معروفا في المغرب في بداية القرن...

(227) لقشة أو بقشة وهو الصّواب كلمة فارسية : قطعة مربعة من الثوب توضع فيها الملابس وتسد من أطرافها الأربع تماماً على نحو السبنية عندنا في المغرب نسبة إلى سَبَن محلة ببغداد تنسج فيها أزُر سود للنساء، كنما يقول القاموس. النعيمي : ألفاظ من رحلة ابن بطوطة، مجلة المجمع العراقي.

(228) يتعلق الامر بالحمى المعروفة هكذا بحمى مالديف التي تسمى (Male Ons) : لة : (Una) بالسنهالية تعني حمًّى،

وقالت لرسوله : نعم : أنا أقيم معه فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني، فلما دخلت إليه، قام إليَّ وعانقني، وقال : نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنّا ! فاعتذرتُ له، فقبل عذري، وقلت له: إن أردتم مقامي فأنا أشترط عليكم شروطاً، فقال : نقبلها فاشترط، فقلت له : أنا لا أستطيع المشي على قدمي، ومن عادتهم أن لا يركب أحد هنالك إلا الوزير، ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبتُه يتبعني الناس رجالاً وصبياناً يعجبون مني حتى شكوت له، فضربت الدُّنْقُرة، وبُرّح في الناس أن لا يتبعني أحد، والدُّنقرة بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء شبه الطست من 146/4 النحاس، تضرب بحديدة فيُسمع لها صوت على البعد، فإذا ضربوها حينئذٍ يبرَّح في الناس بما يراد، فقال لي الوزير : إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندنا حصان ورَمْكة، فاخترْ أيهما شئت، فاخترت الرمكة، فأتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة فقلت له : وكيف أصنع بالودع الذي إشتريته؟ فقال : ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة، فقلت له : على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك، فقال : نعم، فبعثت حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان، وبعثوا معه رجلاً يسمى الحاج عليّاً، فاتفق أن هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقَرِيّة (229) ! وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ثم 147/4 خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد وقدم على صاحبي أبو محمد بعد سنة وقد زار القدَم وزارها مرة ثانية معي.

ذكر العيد الذي شاهدته معهم.

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلي بكسوة وخرجْنا إلى المصلى، وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى وفُرشت الثياب فيها وجُعِلت كَتاتي الودع يمنةً ويسرةً، وكل من له على طريقه دار من الامراء والكبار قد غرس عندها النخل الصّغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز، ومدَّ من شجرة إلى أخرى شرائط، وعلَّق منها الجوز الأخضر، ويقف صاحب الدار عند بابها فإذا مر الوزير 148/4 رمى على رجليه ثوْباً من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودَع الذي يجعل على طريقه أيضا، والوزير ماشٍ على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز، وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور، وفي رجليه النَّعل وجميع الناس سواه حفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه، والعساكر أمامه وخلفه، وجميعهم يكبّرون حتى أتوا المصلَّى فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفةٍ فركب فيها الوزير وخدم له الأمراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة، ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لان ذلك لا يفعله إلا الملوك.

---

(229) القَرية على وزن الهَدية (وليس القربة بالباء كما قرأه جميع الناشرين : عود يجعل في عرض الشراع من أعلاه (انظر لسان العرب ويرد ذكر القَرِية عند الحديث عن قطع الاسطول.

ثم رفعه الرجال وركبتُ فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء ووقف العبيد بالتّرسة والسيوف والعصى، ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم أتِي بصفحةٍ صغيرة فيها الصندل المُقاصرى (230)، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطّخوا بالصندل.

149/4

ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ، أهدي لهم من كَوْلَم، وهو ببلاد المُلَيْبار كثير، فأخذ الوزير بسردينة وجعل يأكلها، وقال لي : كلْ منه فإنه ليس ببلادنا ! فقلت : كيف أكله وهو غير مطبوخ ؟ فقال : إنه مطبوخ، فقلت : أنا أعرف به فإنه ببلادي كثير !!

ذكر تزوجي وولايتي القضاء

وفي الثاني من شوال (231) اتفقت مع الوزير سُليمان مَانَايك على تزوج بنته، فبعث إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فأجاب إلى ذلك، وأحضر التّنبول على العادة والصندل، وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان، فاستُدعي فلم يات، ثم استُدعي ثانية فاعتذر بمرض البنت، فقال لي الوزير سرّاً : إن بنته إمتنعت وهي مالكة أمر نفسها، والناس قد اجتمعوا فهلْ لك أن تتزوج ربيبة السلطانة زوجة أبيها وهي التي ولده متزوج بنتها؟ فقلت له : نعم، فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة، ودفع الوزير الصداق ، ورُفعت إليَّ بعد أيام، فكانت من خيار النساء، وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجتُ عليها تطيّبني وتبخر أثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغيُّر(232).

150/4

ولما تزوجتها أكرهني الوزير على القضاء وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه يأخذ العُشُر من التركات إذا قسمها على أربابها، فقلت له : إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة، ولم يكن يحسن شيئاً، فلما وُلّيت اجتهدت جهدي في إقامة رسوم الشرع، وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا ! فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلّقين، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلِّق حتى تتزوج غيره، فحسمت علة ذلك، وأوتى إليَّ بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممن فعل ذلك فضربتُهم وشهَّرتُهم بالأسواق وأخرجت النساء عنهن ثم اشتددت في إقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر

151/4

152/4

(230) حول الكتاتي ج كُتَّى انظر ج. IV ,122 وحول المُقاصري يراجع ج III ,250-319.

(231) هذا التاريخ يوافق 6 بيراير 1344.

(232) أخطأ التراجمة عندما ترجموا (تزوجت عليها) بما يقتضي (تزوجت بها) المقدمة.

صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهّرته، وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدتُ أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك !

نكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين إلى السويد وما وقع بيني وبينه.

وكنت قد تزوجت ربيبته : بنت زوجته، وأحببتها حبّاً شديداً، ولما بَعَث الوزير عنه وردَّه إلى جزيرة المَهَل، بعثتُ له التُّحَف وتلقيتُه ومضيت معه إلى القصر فسلَّم على الوزير، وأنزله في دار جيدة فكنت أزوره بها، واتَّفق أن اعتكفتُ في رمضان فزارني ‖ جميع الناس إلا وهو، وزارني جمال الدين فدخل هو معه، بحكم الموافقة، فوقعتْ بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا إليَّ أخوالُ زوجتي : ربيبته، أولادُ الوزير جمال الدين السنجرى، فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله وأن مالهم باقٍ بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم.

153/4

وكانت عادتي إذا بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعةَ كاغد مكتوبة أو غير مكتوبة، فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي، وإلاَّ عاقبته، فبعثت إليه على العادة، فأغضبه ذلك وحقدها لي، وأضمر عداوتي، ووكَّلَ من يتكلَّم عنه، وبلغني عنه كلام قبيح!

وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن ‖ يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين. وخدمتُهم أن يوصلوا السبابة إلى الارض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم، فأمرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد، وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك، فزادت عداوته.

154/4

وتزوجت أيضا زوجةً أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود (233) حفيد السلطان أحمد شنورازة، ثم تزوجت زوجةً كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها. وهي أحبهن إلّي فلما ‖ صاهرت من ذكرته هابني الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا مني لأجل ضعفهم وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم وتولَّى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة.

155/4

(233) السلطان داود من المحتمل أن يكون القصد إلى السلطان داود بن يوسف الذي تملَّك من عام 701-706=1301-1306 والذي أشار إليه تاريخ ماليديف.

ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك.

واتفق في بعض الأيام أن عبداً من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته إلى الوزير واعلمته أن عنده سُرّية من سراري السلطان يزني بها، فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السُّرية فوجدوا الغلام نائماً معها في فراشٍ واحد وحبسوهما، فلما أصبحتُ وعلمت بالخبر توجهتُ إلى المشور وجلست في موضع جلوسي ولم أتكلم في شيء من أمرها، فخرج إليَّ بعض الخواص، فقال، يقول لك الوزير ألك حاجة ‖ فقلت : لا ! وكان قصده أن أتكلم في شأن السُّرّية والغلام إذ كانت عادتي أن لا تقع قضية إلا حكمت فيها، فلما وقع التغير والوحشة قصَّرتُ في ذلك، فانصرفت إلى داري بعد ذلك. وجلست بموضع الأحكام، فإذا ببعض الوزراء، فقال لي : الوزير يقول لك : إنه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السُّرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع، فقلت له : هذه قضية لا ينبغي أن يكون الحكم فيها الا بدار السلطان، فعدتُ إليها، واجتمع الناس وأحضرت السرية والغلام فأمرت بضربهما للخلوة، وأطلقت سراح المرأة وحبستُ الغلام وانصرفتُ إلى داري، فبعث الوزير إليَّ جماعة من كبراء ناسه ‖ في شأن تسريح الغلام، فقلت لهم : أتشفعون في غلام زنجيٍّ يهتك حرمة مولاه وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلامٍ له ؟ وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهي أشد وقعاً من السياط وشهَّرته بالجزيرة وفي عنقه حبل.

فذهبوا إلى الوزير فأعلموه، فقام وقعد واستشاط غضباً وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عني فجئتُه وكانت عادتي أن أخدم له فلم أخدم. وقلت : سلام عليكم ثم قلت للحاضرين: اشهدوا عليَّ أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه ! فكلمني الوزير فصعدتُ وجلست بموضعٍ أقابله فيه‖ وجاوبته أغلظ جواب، وأذَّن مؤذن المغرب، فدخل إلى داره وهو يقول : ويقولون إني سلطان وها أنا ذا طلبتُه لأغضب عليه فغضب علي !

وإنما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحققوا مكانتي عنده وإن كانوا على بعد منه، فخوفُه في قلوبهم متمكّن، فلما دخل إلى داره بعث إليَّ القاضي المعزول وكان جرّيء اللسان، فقال لي : إن مولانا يقول لك : كيف هتكت حرمته على رؤوس الأشهاد ولم تخدم له ؟ فقلت له : إنما كنت أخدم له حين كان قلبي طيّبا عليه، فلما وقع التغيُّر تركت ذلك، وتحية المسلمين إنما هي السلام (234)، وقد سلَّمت ! فبعثه إلي ثانيةً فقال : إنما غرضك السفر عنَّا فأَعط صدقات النساء وديون الناس ‖ وانصرفْ إذا شئت، فخدمت له على هذا

156/4 157/4 158/4 159/4

(234) يعني قول : السلام عليكم.

القول، وذهبت إلى داري فخلَّصت ممَّا علي من الدِّين، وكان قد أعطاني في تلك الايام فرش دارٍ وجهازها من أواني نحاس وسواها وكان يعطيني كلَّ ما أطلبه ويحبني ويكرمني، ولكنه غيَّر خاطره وخُوِّف مني! فلما عرف أني قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ما قاله وتلكأ في الإذن لي في السفر، فحلفت بالأيمان المغلظة أن لا بدَّ من سفري ونقلت ما عندي إلى مسجدٍ على البحر وطلَّقت إحدى الزوجات وكانت إحداهن حاملاً فجعلت لها أجلاً تسعة أشهر إن عدت فيها، وإلا فأمرها بيدها، وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان

160/4 شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ‖ مُلوك (235)، وزوجتي الأولى التي بنتُها أخت السلطانة، وتوافقت مع الوزير عمر دَهَرَد والوزير حسن، قائد البحر على أن أمضي إلى بلاد المعبر، وكان ملكها سِلْفِي (236)، فآتي منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه وأنوب عنه فيها وجعلتُ بيني وبينهم علامة رفع أعلامٍ بيض في المراكب، فإذا رأوها ثاروا في البر !!

ولم أكن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغيُّر، وكان الوزير خائفاً مني، يقول للناس : لا بدَّ لهذا أن يأخذ الوزارة، إما في حياتي أو بعد موتي، ويكثر السؤال عن حالي، ويقول : سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها عليَّ، وكان يخاف من سفري

161/4 لئلا أتي بالجيوش من بلاد المعبر، فبعث إليَّ أن أقيم حتى ‖ يُجهز لي مركباً فأبيت، وشكت أخت السلطانة اليها بسفر أمها معي، فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك ! فلما رأت عزمها على السفر قالت لها : إن جميع ما عندك من الحلي هو من مال البندر، فإن كان لك شهودٌ بأن جلال الدين وهبه لك وإلا فرديِّه ! وكان حلْيا له خطر، فردَّته إليهم، وأتاني الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا مني الرجوع، فقلت لهم : لولا أني حلفت لعدت، فقالوا : تذهب إلى بعض الجزائر ليبرّ قسمك وتعود، فقلت لهم : نعم، إرضاءً لهم.

فلما كانت اللَّيلة التي سافرت فيها أتيتُ لوداع الوزير فعانقني وبكى حتى قطرت

162/4 دموعه على قدمي، وبات تلك اللَّيلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفاً أن يثور عليه أصهاري ‖ وأصحابي ! ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير عليّ، فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة وأحبتْ الرجوع، فطلَّقتُها وتركتها هنالك، وكتبت للوزير بذلك لانها أمّ زوجة ولده، وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل، وبعثتُ عن جارية كنت أحبها، وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم !!

---

(235) أنظر التعليق 164 حول جزيرة MALUKKU.

(236) سِلْفِي كما نقول في المغرب سَليفي : أي متزوج أخت زوجتي، هذا وقد كان ابن بطوطة سمّى الوزير حسن باسم سليمان...

ذكر النساء ذوات الثدي الواحد

وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأةً لها ثدي واحد في صدرها، ولها بنتان : إحداهما كمثلها ذات ثدي واحد والأخرى ذات ثديين إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه، فعجبت من شأنهن !

163/4 ووصلنا إلى جزيرةٍ من تلك الجزائر صغيرة ليس بها إلا دارٌ واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد ونخيلات نارجيل، وقارب صغير يصطاد فيه السمك، ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر، وفي جزيرته أيضاً شجيرات موز. ولم نر فيها من طيور البر غير غُرابَيْن خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطتُ - والله - ذلك الرجل ووددت أنّ لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها إلى أن ياتيني اليقين !

ثم وصلت إلى جزيرة ملّوك حيث المركب الذي للناخوذة إبراهيم وهو الذي عزمت على السفر فيه إلى المعبر فجاء اليَّ ومعه أصحابه وأضافوني ضيافة حسنة، وكان الوزير قد كتب لي أن أعطَى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بُسْتُوراً (237) من الكودة وهي الودع، وعشرين قدحاً من الأطْوان وهو عسل 164/4 النارجيل وعدداً معلوماً من التنبول والفوفل والسمك في كلّ يوم.

وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوماً وتزوجت بها امرأتين، وهي من أحسن الجزائر، خضِرة نضِرة، رأيت من عجائبها أن الغصن يقتطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة، ورأيت الرمان بها لا ينقطع، له ثمر بطول السنة.

وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره فأرادوا امساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره، فوقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا إلى المَهَل ولم ندخلها، وكتبت إلى الوزير مُعلما بذلك، فكتب أن لا سبيل لأخذ السلاح، وعدنا إلى ملوك وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين (238) 165/4 وفي شعبان من هذه السنة (239) توفي الوزير جمال الدين رحمه الله، وكانت السلطانة حاملاً منه فولدت أثر وفاته، وتزوجها الوزير عبد الله.

وسافرنا، ولم يكن معنا رايس عارف، ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثةُ أيام، فسرنا نحن تسعة أيام وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان، ورأينا جبل سرنديب

---

(237) انظر ج. IV - 122 تعليق 189 - حول ظاهرة النّساء ذوات الثدي الواحد انظر المقدمة.

(238) يوافق 26 غشت 1344، ويتعلق الأمر بالتاريخ الأول المضبوط الذي أعطاه منذ مغادرته لدهلي، وعليه فإن الأحداث الواقعة بين هذين التاريخين تقتضي على الأقل سنة تكميلية.

(239) توافق دجنبر 1344، أنظر أيضاً التعليق رقم 202.

فيها ذاهباً في السماء، كأنه عمود دخان (240)، ولما وصلناها قال البحرية : إن هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التّـجــار إلى بلاده آمنين، إنما هذا مــرسى في بلاد السلطان أيْرِي شكَرْوَتي، وهو من العتاة المفسدين، وله مراكب تقطع في البحـر فخـفنا أن ننزل بمرسـاه، ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق، فقلت للناخودة : أنزلني ‖إلى السـاحل وأنا 166/4 آخذ لك الأمـان من هذا السلطان ! ففعل ذلك وأنزلني بالساحل، فأتانا الكفار، فقالوا : ما أنتم ؟ فأخبرتهم أني سِلف سلطان المعبر وصاحبه، جئت لزيارته، وان الذي في المركب هدية له فذهبوا إلى سلطانـهم فاعلموه بذلك فاستدعاني فذهبت له إلى مـدينة بَطَّالة (241)، وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها، وهي حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب وجميع سواحلها مملوءةٌ بأعواد القِرفة تاتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الرَّوابي ويحملها أهل المعبر والمُلَيْبار دون ثمن إلا أنهم يـهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه (242)، وبين بلاد المَعْبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة، وبها أيضـا

---

(240) جبل سرنديب هو الذي يوجد فيه أثر قدم سيدنا أدم، وسرنديب هـو الإسم العربي الفارسي القديم لسيلان (المأخوذ من أصل سَنْسكْري Sinhala divipa ثم عوّض بكلمة سيلان أو سيلون Ceylon . وقد كانت جزيرة سيلان على ذلك العهد موزعة على عدة مماليك مملكة التأميل في الشمال : مملكة جفنة وتمتد نحو الجنوب والساحل الغربي، و(مملكة سنهاله) التي كانت تتجه نحو وسط الجزيرة – أريَا شكْرَ ڤارْتي (Arya Chakravarti) الذي يسـميـه ابن بطوطة : (أيْرِي شكَرْوتي) هو ملك للتـاميل عرَف عنه الشـيء القليل وكـان على قـيـد الحـيـاة عـام 769=1368 ... وفي تعليق لي بعنوان : (ابن بطوطة في سيريلانكا) بمناسبة حركات التاميل أكدت حضور الرحَّالة المغربي في أثناء الاصطدامات التي كانت تنشب بين الفترة والأخرى بين مملكة (جفْنة) التأميلية وبين مملكة سنهالة، وهو ما يؤكد أن مذكرات ابن بطوطة على ما أسلفنا أصبحت حجة لاصول الخلافات الدُوَّلية المطروحة اليوم !!

Vernon L.B. Mendis : Currents Of Asian History / Colombo 1981 P. 172-182-337.

– د. التازي : ابن بطوطة في سيرلانكا، جريدة العَلَم المغربية، 8 نونبر 1988.

(241) بطَّالة، القـصـد إلى بّوطالام (Puttalam) على السـاحل الغـربي الشـمـالي لجـزيرة سـيـلان... انظر الخريطة...

(242) كانت القرفة المنتوج الأساس الذي تصدره سيلان على ذلك العهد فقد كانت مطلوبة جداً في أوربا وكذلك في بلاد الشرق الاوسط ومن هنا قرأنا عند تتبع التاريخ الدولي للاسلام عن السفارة التي توجه بهـا العـاهل السنهـالي بْهُو ڤـانَيْكا بَاهو الاول (BHUVANEKABAHU) (683هـ 1284م) إلى ملك مصر للاطمئنان على استمرار تزويد البلاد بهذا المنتوج من مملكة سنهالا. (يلاحظ ذكر اسم ملك مصر محرّفا) – مصدر سابق B. Mendis : Currents Of Asian History P. 422

Stéphane T. III P. 255 Note 242.

167 من خشب البقَّم كثير، ومن العود الهندي المعروف بالكَلَخي إلا أنه ليس كالقَماري والقَاقُلي (243) وسنذكره.

ذكر سلطان سيلان

وإسمه أيْري شَكَرْوَتي، بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح فكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء، وهو سلطان قوي في البحر، رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار، وصَلَتْ إلى هنالك، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليَمَن فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه، فلما يئسوا من إنتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن !

168 ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام إلي وأجلسني إلى جانبه وكلَّمني بأحسن كلام، وقال : ينزل أصحابك على الآمان ويكونون في ضيافتي إلى أن يسافروا، فإن سلطان المَعْبَر بيني وبينه الصحبة، ثم أمر بإنزالي، فأقمت عنده ثلاثة أيام في إكرامٍ عظيم متزيِّدٍ في كل يوم، وكان يفهم اللِّسان الفارسي، ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد.

ودخلتُ عليه يوماً وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده، وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره، فقال لي : هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها؟ فقلت له : نعم، رأيته بجزيرة قيس، وجزيرة كِشم التي لابن السَّوامِلي (244)، 169 فقال: سمعت بها، ثم أخذَ حباتٍ منه فقال : أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه ؟ فقلت له : رأيت ما هو دونها، فأعجبه ذلك ! وقال : هي لك، وقال لي : لا تستحي واطلب مني ما شئت، فقلت له : ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة : قدم أدم عليه

---

(243) يتعلق الامر بعود البخور (Bois D'Aloès) الذي يعرفه المغاربة جيّداً، والذي يُعرف برائحته الطيبة، وهو في الأصل إفرازة من : (Aloexylum Agallochum) أو (CÂY DÔ) ناتجة عن مرض ! ويُستورد من أسيا الجنوبية الشرقية، وقد نص بعضهم على نوعية العود القماري والعود القاقُلي رابطاً الاتِّصال بين قمارة (الكامبودج) وبين قاقلة (ماليزيا) انظر ج. IV - 240 هذا وان تسمية الكَلَخي يحتمل أنها آتية من الكلمة الاغريقية (Agalocon) ؟ يراجع IV ,242.

(244) أولاً ينبغي قراءة كِشم بدل كش وهو مايوجد في مخطوطة 2399- عز الدين عبد العزيز بن ابراهيم السوامِلي، خلف والده كسيّد على جُزُره : قيس والبحرين وكشم (Kishm) على ضفاف الخليج الفارسي حوالي 710=1310- ممتلكات هذا السيد ستؤول إلى قطب الدين تِهمْتَن سلطان هرمز الذي احتلَّها بين الزيارة الأولى والثانية لابن بطوطة لهذه الجزيرة - حول جزيرة قيس يراجع ج II,237-244.

السلام يسمّونه : بابا، ويسمون حواء ماما (245)، فقال : هذا هيِّن ! نبعث معك مَن يوصلك، فقلت : ذلك أريد، ثم قلت له : وهذا المركب الذي جئتُ فيه يسافر آمناً إلى المعبر وإذا عدت أنا بعثتَني في مراكبك، فقال : نعم.

فلما ذكرتُ ذلك لصاحب المركب قال لي : لا أسافر حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك، فأخبرت السلطان بذلك، فقال : يقيم في ضيافتي حتى تعود، فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم، وبعث معي أربعةً من الجُوكية الذين عادتهم ‖ السفر كلَّ عام إلى زيارة القدم، وثلاثة من البراهمة، وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد، وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير. 170/4

ونزلنا ذلك اليوم على وادٍ جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران، ثم رحلنا من هنالك إلى مَنَار مَنْدَلِي، وضبط ذلك بفتح الميم والنون وألف وراء مسكّنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مفتوح ولام مكسور وياء، مدينةٌ حسنة هي آخر عمالة السلطان (246)، أضافنا أهلها ضيافةً حسنة، وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك يأتون بها أحياء ويأتون بالارز والسمن والحوت والدجاج واللبن.

ولم نر بهذه المدينة مسلماً غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا، ورحلنا إلى بَنْدرْ سَلَاوَات (247)، وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المهمل واللام والواو، والف وتاء معلوة، بلدة ‖ صغيرة، وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه، وبها الفيلة الكثيرة إلا أنها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ أبي عبد الله بن خفيف، رحمه الله، وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم، وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم، فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله ما ذكرناه في السَّفر الأول (248) من قتل الفيلة لأصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره، صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دُورهم ويطعَمون معهم، ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم، وهم إلى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشدَّ تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير. 171/4

---

(245) يعني آدم وحواء.

(246) مِنّار مندلي (Minnari Mandel)، وتقع على طرف لِسانٍ شمال بوطّالَم (Puttalam) على بعد نحو عشرة أميال..

(247) القصد إلى (Chilam) دائما في اتجاه الجنوب على الساحل.

(248) انظر ج. 491 - 79 - 80 - 82 – هذا وما يزال هذا التعاطف ظاهراً إلى اليوم حيث نجد أن السكان يساعدون التجار العَرَب ويؤثرونهم على إخوتهم التّجار البوذيين في الصين ! وقد ترجم بيكينگام السِّفر الأول بكسر السين على انه السفر الثاني (بفتح السين – انظر التعليق 170).

172/4 ثم وصلنا ▒ بعد ذلك إلى مدينة كُنكَار (249)، وضبط اسمها بضم الكاف الأولى وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد، وبناؤها بين جبلين على خور كبير يسمَّى خور الياقوت، لأن الياقوت يوجد به، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوُش (250) بشينين بينهما واو مضموم. وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القَدَم فلما قطعت يده ورجله صار الأدِلاءَ أولادُه وغلمانه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ! وحكمُ كفار الهنود أنه مَن ذبح بقرة ذبح كمثلها أو جُعل في جلدها وحرق، وكان الشيخ عثمان معظما عندهم فقطعوا يده ورجله وأعطوه مجْبَى بعض الأسواق ▒ . 173/4

ذكر سلطان [كُنكَار]

وهو يعرف بالكُنار (251) بضم الكاف وفتح النون وألف وراء، وعنده الفيل الأبيض، لم أر في الدنيا فيلاً أبيض سواه، يركبه في الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة، واتفق له أن قام عليه أهل دولته وكحلوا عيْنَيه وولُّوا ولده وهو هنالك أعمَى.

ذكر الياقوت

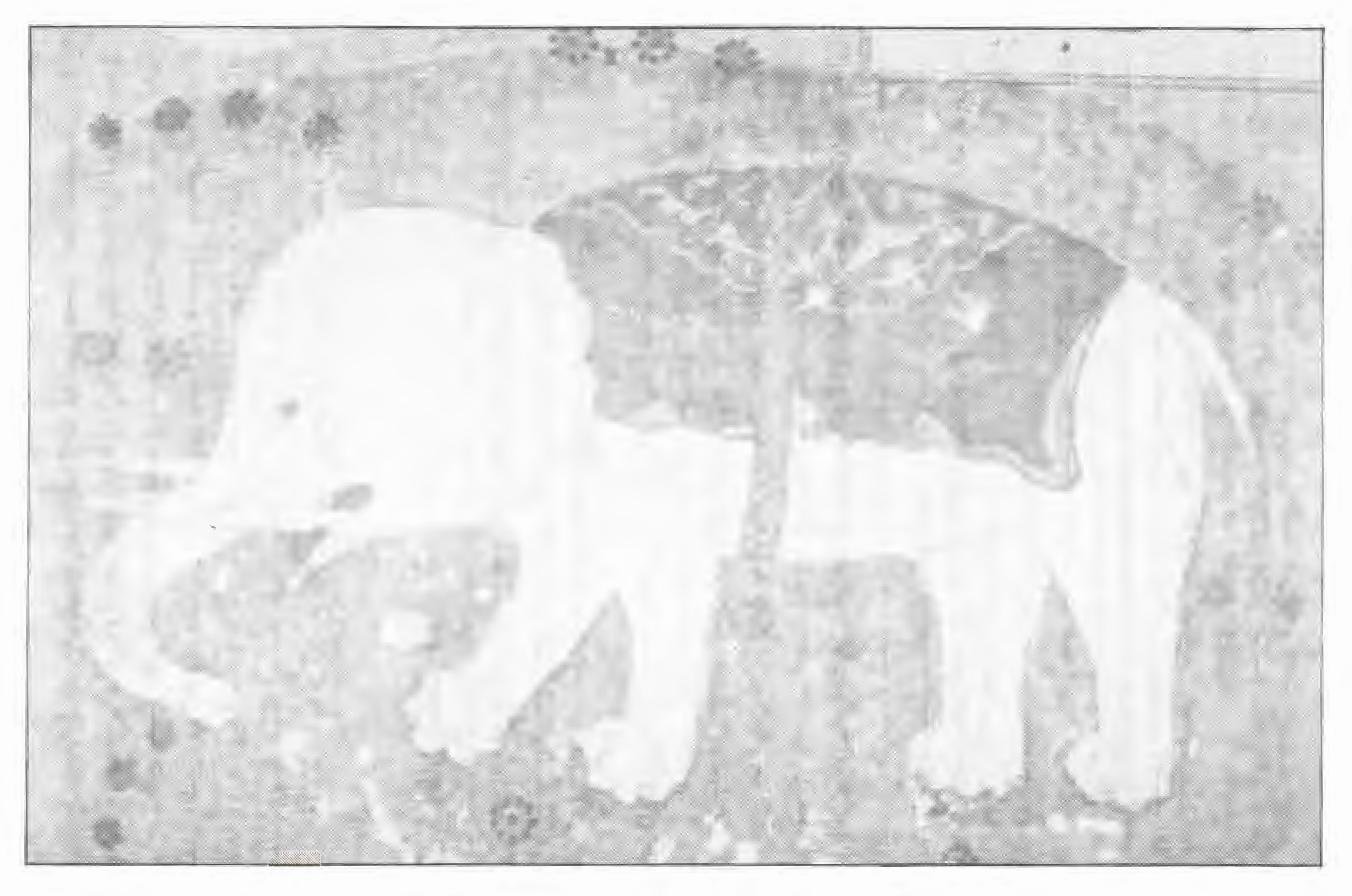
والياقوت العجيب البَهرمان (252) انما يكون بهذه البلدة، فمنه ما يخرج من الخور، وهو عزيز عندهم، ومنه ما يحفر عنه. وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها، وهي متملّكة فيشتري الانسان القطعة منها، ويحفر عن الياقوت فيجد أحجاراً بيضاء مشعَّبة، وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها ▒ فيعطيها الحكّاكين فيحكّونها حتى تنفلق عن أحجار 174/4

(249) كُنكَار ربَّما كان القصد إلى (Kurungala) تقع في داخل البلاد، وهي عاصمة دولة السنهاليين منذ تاريخ 1248. 683 وفيها كان يقيم ملوكهم.

(250) الشاوش كلمة تركية تعني الحارس أو المساعد.

(251) كُنَار ربما كان الأمر يتعلق بلقب من أصل سنْسكري (Kunwar) (أمير)... وعن السلطان الذي سملوا عينيه فإن القصد إلى فيجَايَابَّاهُو الخَامس (Vijayabahu V) الذي تملك من عام 1333 إلى 1344 وولده هو بْهوُ فانايْكَابَاهُو الرَّابع (Bhuvanaikabahu IV) 1553-1344 = 754-745 وهو الذي حوَّل عاصمته إلى كامبُولا (Gampola) التي تقع أيضا في داخل الجزيرة. كان على ابن بطوطة أن يزور كُورُنْكَالا (Kurunegala) حوالي منتصف شهر شتنبر 1344 أوائل جمادى الأولى 745.

(252) البَهْرمان (L. Escarbouches) نوعٌ من الياقوت الأحمر الفاتح، ويوجد في هذه الجزيرة الياقوت الجيد الذي لا يوجد مثله في العالم كله. وكذلك يوجد هنا النوع الأصفر الذي يُسمى في الاصطلاح، الطوبَّاز Topazes والنوع الأزرق الذي يسمى SAPHIR .



الفيل الأبيض نقلا عن القزويني في كتابه عجائب المخلوقات – الجمعية الملكية الأسيوية–

الياقوت، فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق ويسمونه النَّيْلَم (253)، بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف.

وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فَنَمٍ، بفتح الفاء والنون، فهو للسلطان يُعطي ثمنه وياخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه، وصرف مائة فنَم ستة دنانير من الذهب.

وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلْنَه في أيديهن وأرجلهن عوضاً من الأسورة والخَلاخيل (254)، وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن، ولقد رأيتُ على جبهة الفيل الأبيض (255) سبعة أحجار منه، كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة، ورأيت عند السلطان أيْرِي شكَرْوَتي سُكُرجة ‖ على مقدار الكف من الياقوت، فيها دهن العود فجعلت أعجبُ منها فقال إن عندنا ما هو أضخم من ذلك. 175

ثم سافرنا من كُنَكَار (256) فنزلنا بمغارةٍ تعرف باسم أسطا محمود اللّورِي، بضم اللام، وكان من الصالحين، واحتفر تلك المغارة في سفح جبلٍ عند خورٍ صغير هنالك، ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخُور بُوزْنة (257)، بالباء الموحدة وواو ونون وهاء، وبُوزنة : هي القُرود.

ذكر القرود

والقُرودُ بتلك الجبال كثيرة جدّاً وهي سود الألوان لها أذناب طوال ولذكورها لِحى كما هي للآدامِيين (258)، وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أنَّ هذه القرود لها ‖ مقدم تتبعه 176

(253) إذن هناك البهرمان (الأحمر) والاصفر الطّوبَّار، والأزرق السفير، وهو النّيلم وهذا تعبير سنسكري يعني الازرق.

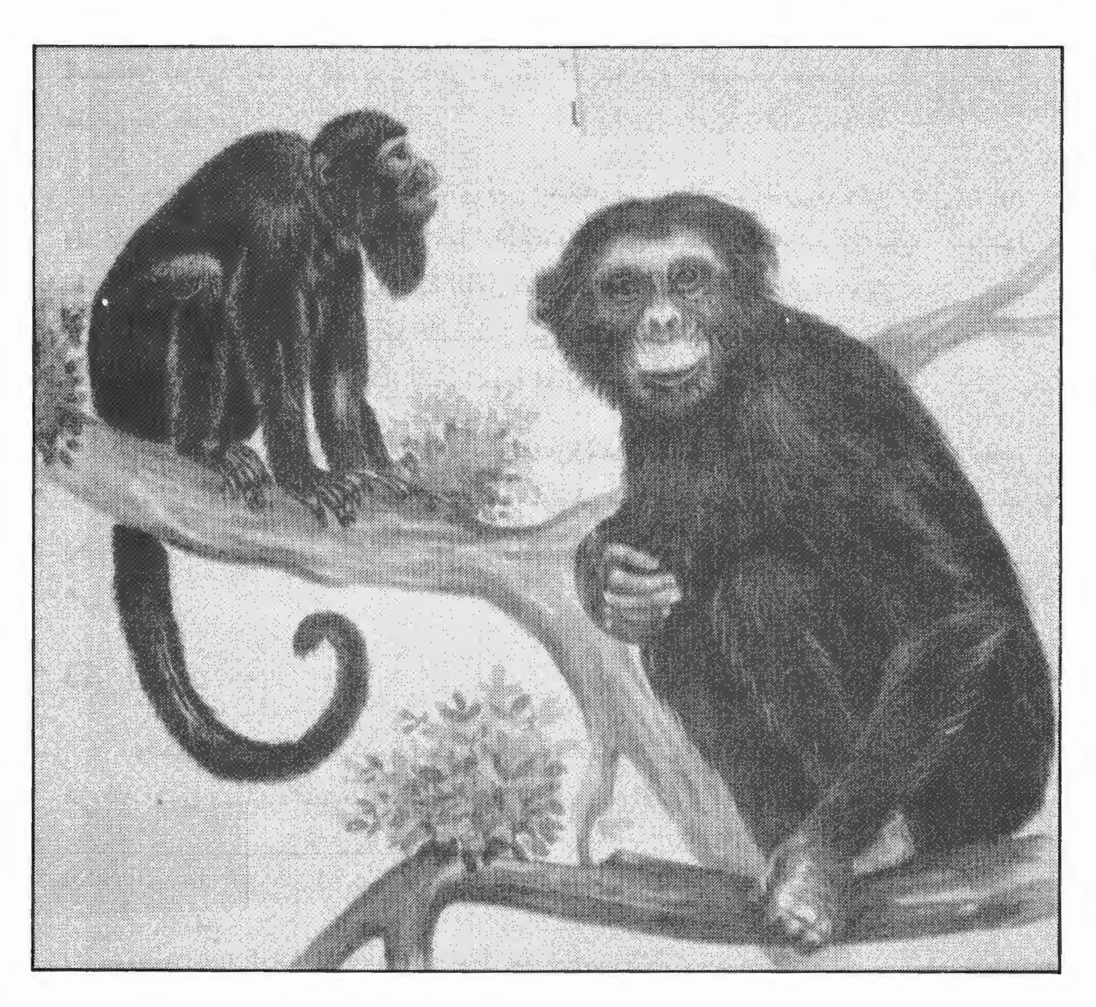
(254) يختص إسم الخلاخيل بالحلّي الذي يجعل عند عراقيب الأرْجُل ج. خلخال.

(255) الفيل الأبيض رمز للسلطة العليا في تلك الأيام
S. Paranavitana in University of Ceylon HIstory of Ceylon I. PT 2. P. 640

(256) إبتداء من كُورُونْكالا (Kurunegala) إلى جبل قَدَم آدم فإن المسافة تصبح سهلة الاتباع.

(257) بُوزنة : يعني بالفارسية القرد. المسافة بين كُورُونا كالاً (Kurunegalla) وبين جبل آدم، تتمُّ في قلب الجزيرَة، وهناك انحراف يمر عبر خور يظهر أنّه يصعب احتماله. ينبغي أن نفهم أن كلمة خليج تعني منفذاً أو صهريجاً على مايظهر.

(258) يتعلق الامر بنوع من القردة : يعرف بالقردة المقدسة للهند، وهي كثيرة في سيلان، لها شعر رمادي فضي، لكنَّ قوائمها ووجوهها سود، تعيش جماعات جماعات وهي تحترم جدّاً الهيرارشية فيما بينها ! واذكر أنني كلفّت بترجمة هذه القطعة يوم 9 يناير 1952 وأنا طالب بمعهد الدراسات العليا.



أنواع من القرود

كأنه سلطان يشد على رأسه عصابة من أوراق الأشجار ويتوكأ على عصا ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصى بأيديها وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كلَّ يوم، وتاتي القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها، ثم ياتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة.

وأخبرني بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدي مقدمها وهي تضرب بعض القرود بالعصى ثم نتفت وبره بعد ضربه، وذكر لي الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصبيَّة لا تستطيع الدفاع عن نفسها ‖ جامعها ! وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها، قال : ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلْناه ! 177/4

ثم كان رحيلنا إلى خور الخيْزُران، ومن هذا الخور أخْرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتتين اللّتَيْن أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة حسبما ذكرناه في السفر الأول (259).

ثم رحلنا إلى موضعٍ يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة، ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر، وكان من الصالحين، ثم رحَلْنا إلى مغارة السَّبيك، بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف، وكان السَّبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك ‖. 178/4

ذكر العَلَق الطيار

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزُّولُو (260)، بضم الزاي واللام، ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء فإذا قرب الإنسان منه وثب عليه، فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير ! والناس يسْتعدُّون له الليمون، ويعصرونه عليه فيسقط عنهم ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معد لذلك.

ويُذكر أن بعض الزوار مرَّ بذلك الموضع فتعلقت به العَلَق فاظهر الجلد ولم يعصر

(259) يراجع II 80-81 – بيكينگام يترجم السِّفر بالسَّفَر ؟!

(260) الزُّلُو : الكلمة فارسية، ويتعلق الامر بنوع صغير من العلق الذي يعيش في سيلان، ويعرف Mzik هذا العَلَق باسم Haemoddella Ceylanica قائلا أن هذا العلق أصغر وأشهر علق يمكن أن يكون خطيراً... Beckinghim T.N P. 352 – Note 16. وهذا غير العلق الطبّي (Sangsue) الذي تستعمله المستشفيات الأوربية، والذي نجد له ذكراً في المواد التي تصدر من المغرب إلى انجلترا مثلا – انظر د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج. 65,10 حول المكي القباج الذي كان له حقّ احتكار هذه التجارة.

عليـها الليـمون فنزف دمـه ومـات، وكـان اسـمـه بابا خـوزي بالخـاء المعـجم المضـمـوم والزاي، وهنالك مغارة تنسب اليه.

179/4 ثم رحلنا إلى السبع مغارات ثم إلى عقبة إسكندر، ثم مغارة الاصفهاني ▒ وعين ماء وقلعة غير عامرة، تحتـها خـور يعرف بغُوطَة گاه عـارفان، وهنالك مـغـارة النارنج، ومغارة السلطان وعندها دَرْوَازَة الجبل أي بابه.

ذكر جبل سرنديب (261).

وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر، وبيننا وبينه مسيرة تسع، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا، قد حال بيننا رؤية أسفله وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق، والأزاهير الملونة، والورد الأحمر على قدر الكف، ويزعمون أن في ذلك الورد كتابةً يقرأ منها إسم الله تعالى وإسم رسوله عليه الصلاة والسلام، وفي الجبل طريقان إلى القَدَم : احدهما ▒ يعرف بطريق بابا والآخر بطريق ماما يعنون آدم وحواء عليهما السلام، فاما طريق ماما فطريق سهل، عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر وأما طريق بابا فـصـعب وعْر المرتقى. وفي أسـفل الجـبل، حـيث دروازتُه، مـغـارة تنسب أيضـا لاسكندر وعين ماء.

180/4

ونحت الأولون في الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتادَ الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسَّك بها من يصعده (262)، وهي عشر سلاسل : ثنتان في أسفل الجبل حيث الدوروازة، وسبع متوالية بعدها، والعاشرة هي سلسلة الشهادة لان الانسان إذا وصل اليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط، ثم إذا جاوزت هذه ▒ السلسلة وجدت طريقاً مهملا، ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخِضِر (263) سبعة أميال، وهي في

181/4

---

(261) قمة جبل آدم التي تبلغ 243 .2 ميتر ليست هي أعلى جبال في سيلان، هذا وان الطابع المقدس الذي اتخذه الجبل جعله معتبراً سواء عند البوذيين الذين يرون فيه أثراً لقدم بوذة أوعند المسلمين الذين يرون فيه أثراً لآدم الذي هبط من الجنة على هذا الجبل ويذكر أن حواء زوجة آدم نزلت في جدة بالجزيرة العربية ،وقد ورد في "أخبار الصين والهند" التي جُمعت سنة 237 : "وفي أرضها جبل يدعى الرَّهون وعليه هبط آدم عليه السلام وقدمه في صَفَا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر : في رأس هذا الجبل قدمٌ واحدة... وحول هذا الجبل معدن الجوهر ... وفي هذه الجزيرة مَلِكان... نشر هذا الكتاب J. Sauvaget باريز 1948 .BECKINGHAM IV.P 854 N°22

(262) السلاسل ما تزال إلى الآن موجودة ... وقد ادى ماركو پولو وصفاً للموضوع على هذا النحو.

(263) حول الخَضِر، انظر ج. I - 195 - 234 وج. II ,19 - 232 - 349 - 369 وج. IV - 61



«... ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا رؤية أسفله»

موضع فسيح، عندها عين ماء تنسب اليه، ملأى بالحوت ولا يصطاده أحد، وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبتي الطريق، وبمغارة الخِضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القَدَم.

ذكر القدم

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا أدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضعٍ فسيح وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً، وطولها أحد عشر شبراً، وأتى إليها أهل الصين قديماً فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام ‖ وما يليه (264) وجعلوه في كنيسةٍ بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد. 182/4

وفي الصخرة حيث القدم، تِسعُ حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر، فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر! ولم نجد بها إلا يسير حُجَيراتٍ وذهبٍ أعطيناها الدليل.

والعادةُ أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام ياتون فيها إلى القدم غدوة وعشيا، وكذلك فعلنا.

ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما، فنزلنا بمغارة شَيْم، وهو شِيت بن أدم عليهما السلام، ثم إلى خور السمك، ثم إلى قرية كُرْمُلَة، بضم لكاف وسكون الراء وضم الميم، ثم إلى قرية جَبَرْكَاوان، بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون ‖ ثم إلى قرية دِلْ دِينوَه، بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث، ثم إلى قرية أتْ قَلَنْجَةْ (265)، بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح، وهنالك يشتي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف. 183/4

---

(264) حسب ما رواه ماركو بولو عام 1284 فإن الخان الأعظم بعث بسفارة إلى سيلان نجحت في أن تنقل معها إلى خان باليك (بيكين) ضرسين وشعرات. وبعض المواد وآنية خضراء منحوتة من حجر محفوظ في الجبل، ويعتقد أن هذه المواد كانت ملكا لبوذا أو آدم هذا وسنرى أن ابن بطوطة يخلط بين شيم ولد نوح وشيت ولد آدم.

(265) لم تُمكّنا استشارة خريطة لسيلانCylon ولو أنها من مقياس 1/63000 من تحديد مضبوط لهذه الامكنة المذكورة من قبل ابن بطوطة، قرية كُرمُلة – جَبَر كاوان – دِل دِينَوَه – أت قلنجة. اللهم اذا قلنا أن (ادِل دَينوة) تعني دينيايا (Denyaya) في إقليم الجنوب. وقلنا إن (أَتْ قلنجة) يمكن أن تكون أتنلوو (Anttenluwo) في الخريطة التي وضعها فرانسوا فالاتيجينس (François Valentijim's) حوالي عام 1686...



المكان المقصود من سائر الديّانات

وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل وعند أصل الجبل في هذا الطريق دَرَخْتْ رَوَان، ودَرَخْت هي بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة، ورَوَان بفتح الراء والواو وألف ونون، وهي شجرةٌ عادية لا يسقط لها ورق، ولم أر من رأى ورقها، ويعرفونها أيضا بالماشية (266) لان الناظر اليها من أعلى الجبل يراها بعيدةً منه قريبة من أسفل الجبل، والناظر اليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك !

ورأيت هنالك جملةً من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل اليها ألبتَّة ولهم ‖ أكاذيب في شأنها من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخا وذلك باطل ! وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت، وماؤه في رأى العين شديد الزرقة. 184/4

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِينَوَر، وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مد ونون وواو مفتوحين وراء، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار (267)، وبها الصنم المعروف بدِينَوَر في كنيسة عظيمة فيها نحو الآلف من البراهمة والجُوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود، ويغنين كلَّ ليلة عند الصنم ويرقصن، والمدينة ومجابيها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة، ومن يرد عليها، ياكلون من ذلك، والصنم من ذهب على قدر الأدمي، وفي موضع العينين منه ياقوتتان ‖ عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين. 185/4

ثم رحلنا إلى مدينة قالي (268)، بالقاف وكسر اللام، وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينَوَر، وبها رجلٌ من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضع، ورحلنا إلى مدينة كَلَنْبُو (269) وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو، وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها، وبها يسكن الوزير حاكم البحر جَالَسْتي (270) ومعه نحو خمسمائة من الحبشة.

---

(266) يعني التي تمشي : تتقلَّب العينُ عند النظر اليها...

(267) دِينَوَر القصد إلى دُونْدْرَه وليس إلى المدينة الشهيرة (دينور) الموجودة في كردستان، جنوب شرقي كرمان شاه حيث كان الصّنم المعروف فِشنو (Vishnu) الذي هدم عام 1587 من لدن البرتغاليين.
انظر ج II، ص 105
Gibb : Ibn Battûta in Asia and Africa P. 365 - Bechingham P. 855 - Note 27.

(268) قالي (Galle) توجد على الساحل في غرب دُونْدْره سالفة الذكر ميناء نشيط على ذلك العهد، وهو معروف بتصدير الأحجار الكريمة. انظر الخريطة.

(269) كَلَنْبُو : (Colombo) على الساحل الغربي، وهي العاصمة الحالية للجزيرة، ونحن مدينون لابن بطوطة في معرفة ضبط النطق بها على ذلك العهد على نحو ما نرى بالنسبة للنطق بدهلي بَدَل دلهي الحالية – وان وجود جالية إسلامية بالمدينة يرجع بدون شك لدورها كمركز لتصدير القرفة، وستصبح بعد سنوات خاضعة للتأميل ولكنها سترجع عام 770=1368 للسنهاليين.

(270) كلمة جالسْتي ليست علماً شخصيا ولكنها – كما يرى أحد المعلقين من المنطقة : لقب تشريف ووظيف: أمير قائد.

ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بَطَالة، وقد تقدم ذكرها، ودخلنا إلى سلطانها الذي تقدم ذكره، ووجدت الناخودة ابراهيم في انتظاري، فسافرنا بقصد بلاد المَعْبر، وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المراكب ولم يكن لنا رايس عارف.

186/4 ثم وصلنا إلى حجارةٍ كاد المركب ينكسر فيها، ثم دخلنا بحراً قصيراً فتجلَّس المركب، ورأينا الموت عياناً، ورمى الناس بما معهم وتوادعوا وقطَّعنا صاري المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب، وكان بيننا وبين البر فرسخان، فأردت أن أنزل في المعدية، وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي فقالا : أتنزل وتتركنا ؟ فآثرتهما على نفسي وقلت : انزلا انتما والجارية التي أحبها، فقالت الجارية : إني أحسن السباحة، فأتعلق بحبل من حبال المعدية وأعوم معهم، فنزل رفيقاي وأحدهما محمد بن فرحان التوزري، والآخر رجل مصري، والجارية معهم والأخرى تسبح، وربط البحرية في المعدية حبالاً وسبحوا بها، وجعلت معهم ما عزَّ 187/4 علي من المتاع والجواهر والعنبر، فوصلوا إلى البر سالمين لأن الريح كانت تساعدهم.

وأقمت بالمرْكب ونزل صاحبه إلى البر على الدَّفة وشرع البحرية في عمل أربع من المعادي فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت إلى المؤخر وأقمت به حتى الصباح، وحينئذ جاء إلينا نفر من الكفار في قارب لهم، ونزلنا معهم إلى ساحل ببلاد المعبر، فأعلمناهم أنَّا من أصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته، فكتبوا اليه بذلك، وهو على مسيرة يومين في الغزو، وكتبتُ أنا إليه أعلمه بما اتفق علي، وأدخَلنا أولئك الكفار إلى غيضةٍ فأتونا بفاكهة تشبه البطيخ يثمرها شجر المُقل (271)، وفي داخلها شبه قطن فيه عسيلة 188/4 يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التّل (272) وهي تشبه السكر وأتوا بسمك طيب.

وأقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقَمَر الدين معه جماعة فرسان ورجال وجاءوا بالدولة وبعشرة أفراس فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب وإحدى الجاريتين، وحملت الأخرى في الدولة، ووصلنا إلى حصن هَرْكَاتو (273)، وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف وألف وتاء معلوة مضمومة وواو.

(271) المُقل ثمر شجر الدَّوم أو شجر المقل، والدَّوم من فصيلة النَّخليات ساقه مشعبة يستخرج من ثماره نوعٌ من الدبس.

(272) تَل : كلمة من أصل سنسكري (Tala) وهو يطلق على الشجر كما يطلق على ثمرها (Hyphaena Thebaica).

(273) باللغة التاميلية نجد أن كلمة (aru-Kadu) وتعني ستَّ غابات ولا يمكن أن يكون القصد إلى Arcote كما تصوَّرها الناشران الفرنسيان 188,4).

- Gibb Selec, P. 365 Chap IX N° 1

وبتنا به وتركت فيه الجواري وبعض الغلمان والاصحاب ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان.

ذكر سلطان بلاد المعبر

وهو غياث الدين الدامغاني، وكان في أول أمره فارساً من فرسان الملك مجير (274) بن أبي الرجا أحد خدام السلطان محمد، ثم خدم الأمير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولى الملك، وكان يدعى سراج الدين قبله، فلما ولى تَسمَّى غياث الدين، وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي، ثم ثار بها صهْري الشريف جلال الدين أحسن شاه (275)، وملك بها خمسة أعوام، ثم قُتل ووُلِّي أحدُ أمرائه، وهو علاء الدين أُدَيْجِي (276) بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم، فملك سنة ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ لهم أموالاً كثيرة وغنائم واسعة وعاد إلى بلاده، وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

189/4

واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغْفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهمٌ غَرب، فمات من حينه فولّوا صهره قطب الدين (277) ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوماً وولى بعده السلطان غياث الدين (278) وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كنت متزوجاً أختها بدهلي.

190/4

(274) حو الملك مجير بن أبي الرجاء، يرجع إلى ج. III - 230 - 318 وج. IV - 5 - 6

(275) من المهم أن نسجل هنا أنه لا يعرف التاريخ الغابر لسَلطَنة مُثْرة (Madura) إلا من خلال هذه المعلومات الاصيلة التي أوردها ابن بطوطة والتي تؤيدها بعض القطع النقدية. جلال الدين أحسن ثار عام 734=1334 (دائماً حسب إفادة ابن بطوطة) وبعد الحركة الغير الموفقة لمحمد ابن تُغْلُق نجح في تكوين سلْطنة في أقصى الجنوب الهندي وحكم إلى سنة 739=1339 - تزوج ابن بطوطة بابنته عندما كان في دهلي - حول مُثْرة (Madura) أنظر (V.L.B. Mendis) في كتابه (+Currents) ص 453/219/84/70 سالف الذكر.

(276) علاء الدين أُدَيْجي حكم - ودائما حسب مرويات ابن بطوطة - من عام 739=1339 إلى سنة 741=1341. وكان عليه أن يتقاتل مع آل بانديا (Pandya)، الدولة المحلية القديمة التي تحتفظ دائما بقِسْم من البلاد. Beckingham IV, P, 858 N° 2.

(277) حسب القطعة النقدية التي ظهرت في وقته فإن السلطان هو قطب الدين فيروز شاه.

(278) غياث الدين محمد شاه الدغماني 1341-1344.

ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا إلى قربٍ من منزله بعث بعض الحجاب لتلقِّينا وكان قاعداً في برج خشب وعادتهم بالهند كلِّها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خُفّ، ولم يكن عندي خف، فأعطاني بعض الكفار خفاً، وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءةً منهم !(279) ودخلت على السلطان فأمرني بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين، وأنزلني في جواره في ثلاثةٍ من الأخبية، وهم يسمونها الخِيام وبعث بالفرش وبطعامهم، وهو الأرز واللحم.

191/4

وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا، ثم اجتمعت به بعد ذلك، وألقيت له أمر جزائر ذيبة المَهل وأن يبعث الجيش اليها فأخذ في ذلك بالعزم وعيّن المراكب لذلك، وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم وفوض إليَّ في عقد نكاح مريم (280) أخت السّلطانة وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر، وقال لي يكون رجوعك بعد خمسة أيام، فقال له قائد البحر خُواجة سَرْلَك : لا يمكن السفر إلى الجزائر إلاّ بعد ثلاثة أشهر من الآن، فقال لي السلطان : أما إذا كان الأمر هكذا فامض إلى فتَّن حتى (281) حتى نقضي هذه الحركة ونعود إلى حضرتنا مُتْرَة (282) ومنها تكون الحركة فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجواري والأصحاب.

192/4

(279) ذكرني هذا يوم 13 / 5 / 1963 وقد طلب الوزير أحمد بلافريج من مولاي الأمين ابن زيدان أن يعيرني طربوشه لأتسلم أوراق اعتمادي سفيرا إلى بغداد وكنت أنسيته، أي الطربوش !

(280) عوض (مريم) توجد كلمة (جميع) في النسخ الباريزية جميعها، وفي مخطوطة تونسية كذلك ولا نرى لها معنى ظاهراً، والصواب ما ورد في مخطوطة مولاي العباس (الخزانة الملكية، رقم 3030 ص 612)، وما ورد في مخطوطة (الخزانة العامة رقم 2399) والوارد فيهما كلمة (مريم) وهو بالفعل اسم أخت السلطانة التي تعرف أيضا باسم (Radafati)، راجع التعليق رقم 206 سالف الذكر.

(281) نظرا لوفرة المواقع التي تحمل إسم فتَّن (بيطّنام Patano) فإنه من الصعب أن يحدد المرء موقع فتَّن هذه، وإن الميناء الرئيسي للمعبر حتى بداية القرن الرابع عشر كان هو كافيريبطنام (Kaveripattanam) الواقع على أحد أطراف وادي كاڤيري (Kaveri)، وقد هدم بفعل طوفان وقع على هذا العهد، يتعلق الأمر إما بهذه المدينة أو بمدينة ناكابَاتّنام (Nagappattinam) الواقعة أكثر إلى الجنوب أنظر الخريطة – راجع التعليق 275. – ويستغرب السير گيب من عدم ذكر ابن بطوطة لميناء كايَل Kayal (ماركو بولو : كايل (Cail) الذي يقع جنوب تُوتيكورين (Tuticorin) والذي كان أهم محطة تجارية على ذلك العهد – أنظر الخريطة.

(282) حول مُترة التي تحمل في الخرائط اسم (Madura) راجع التعليق 275 والتعليق 281 وقد قلنا أن افادات ابن بطوطة عن هذه المملكة، ولو أنها لم تعمر طويلا، كانت افادات أصيلة...

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان.

وكانت الأرض التي نسلكها غيضةً واحدة من الأشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فأمر السلطان أن يكون مع كل واحدٍ مَن في الجيش مِن كبير وصغير قادوم لقطع ذلك، فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من عدوة النهار إلى الزوال، ثم يوتي بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى، ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشى وكلّ من وجوده من الكفار في الغيضة أسروه، وصنعوا خشبة || محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه يحملها ومعه امرأته وأولاده ويوتي بهم إلى المحلة ! 193/4

وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سوراً من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكَتْكَر، بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء، ويصنعون على دار السلطان كَتْكَراً ثانياً ويصنعون خارج الكَتْكَر الأكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار باللّيل ويبيت عندها العبيد والمشاؤون، ومع كل واحدٍ منهم حزمة من رقيق القصب، فإذا أتى احد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلاً أَوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده، فعاد اللّيل شبه النهار، لكثرة الضياء وخرجت الفرسان في اتباع الكفار، فإذا كان عند الصباح، قُسِم الكفار الماسورون بالأمس أربعة أقسام وأوتى || إلى كلّ باب من أبوابر الكَتْكَر بقسم منهم فركزت الخشب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم، ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهم إلى تلك الخشبات ويذبح الأولاد الصغار في حجورهن ويتركون هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضةٍ أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك ! 194/4

وذلك أمرٌ شنيع ما علمته لأحدٍ من الملوك وبسببه عجل الله حَيْنه ! ولقد رأيته يوماً والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا وقد أوتي بكافرٍ معه امرأته وولده سنُّه سبع فأشار إلى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه، ثم قال لهم وَزْنِ أُوٍ وَبَسِرِ أُو (283) معناه : وابنه وزوجته فقطعت رقابهم، وصرفت بَصَري عنهم || فلما قُمت وجدت رؤوسهم مطروحة بالأرض ! وحضرت عنده يوماً وقد أتِي برجلٍ من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فإذا بجماعةٍ من الزبانية قد استلوا سكاكينهم، فبادرت القيام، فقال لي : إلى أين ؟ فقلت : أصلِي العصر، ففهم عني وضحِك، وأمر بقطع يديه ورجليه، فلما عدت وجدته متشطحاً في دمائه ! 195/4

(283) تهجى هذه العبارات الفارسية بالحروف اللاتينية : VA ZAN - i U VA PESAR-i U.

ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الإسلام

وكان في ما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بَلاَّل دِيَوْ (284)، بفتح الباء الموحدة ولام وألف ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة وواو مسكن، وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة ألف، ومعه نحو عشرين الفاً من المسلمين أهل ‖ الذعارة وذوى الجنايات والعبيد الفارين، فطمع في الاستيلاء على بلاد المَعْبر، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثاني لا خيْر فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كُبَّان (285) فهزمهم ورجعوا إلى حضرة مُتْرَة، ونزل الكافر على كُبَّان وهي من أكبر مدنهم وأحصنها وحاصرها عشرة أشهر ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة عشر يوماً، بعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان ويتركوا له البلد، فقالوا له : لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك، فوعدهم إلى تمام أربعة عشرة يوماً، وكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على النَّاس يوم الجمعة، فبكوا، وقالوا : نبيع أنفسنا ‖ من الله، فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا، فالموت تحت السيوف أولى بنا ! فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤوسهم وجعلوها في أعناق الخيل، وهي علامة من يريد الموت، وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة، وكانوا ثلاثمائة، وجعلوا على المَيْمَنَة سيف الدّين بها دور، وكان فقيهاً ورعاً شجاعاً، وعلى المسيرة الملك محمد السّلحدار (286)، وركب السلطان في القلب ومعة ثلاثة آلاف، وجعل الثلاثة آلالاف الباقين ساقةً لهم، وعليهم اسد الدين كَيْخَسْرُو الفارسي، وقصدوا محلَّة الكافر عند القايلَة، وأهلها على غرة، وخيلهم في المَرْعى فأغاروا عليها، وظن الكفار أنهم سُرَّاق ‖ فخرجوا اليهم على غير تعبئة وقاتلوهم، فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شرَّ هزيمة، وأراد سلطانهم أن يركب وكان ابن ثمانين سنة، فأدركه ناصر الدين بن أخي السلطان الذي وَلِي الملك بعده، فأراد قتْله، ولم يعرفه، فقال له أحد غلمانه : هو السلطان، فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه في الظاهر حتى جَبَى منه الأموال والفِيلة والخيل، وكان يعده السراح، فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه، ومُلِئ جلدُه بالتبن، فعلِّق على سور مُتْرة، ورايتُه بها معلقاً !

ولنعد إلى كلامنا فنقول : ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينة فَتَّن، بفتح الفاء والتاء المثناة المشددة ونون وهي كبيرة حسنةٌ على الساحل، ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبّة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام ‖ يصعد اليها على طريق خشب مسقّف، فإذا جاء

196/4

197/4

198/4

199/4

---

(284) بلال دِيَو الثالث (BALLALA III) آخر سلطان لَهَوْزَالا Hoysala سنة 1992 1342-1992=691-742.

(285) القصد إلى كُونَّانور كوبّان Konnanur - Koppam وتقع في أقصى جنوب ولاية أندرابراديش (AN- DRA PRADESH) أنظر الخريطة.

(286) ظابط مكلَّف بحراسة الأسلحة.

العدوُّ ضموا إليها الأجفان التي تكون بالمرسى، وصعدها الرجال والرماة فلا يصيبُ العدوّ فرصة.

وبهذه المدينة مسجدٌ حسن مبنى بالحجارة، وبها العنبُ الكثير والرّمان الطيب، ولقيت بها الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء المولّهين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم، ومعه سَبُعٌ ربَّاه يأكُلُ مع الفقراء ويقعد معهم، وكان معه نحو ثلاثين فقيراً، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها!

وأقمت بمدينة فتنَّ، وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحدُ الجوكية حبوباً للقوة على الجماع، وذكروا أن من جملة أخلاطها ‖ بُرادةَ الحديد، فأكل منها فوق الحاجة فمرِض ووصل إلى فَتَّن فخرجت إلى لقائه وأهديتُ له هديةً فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجة سرور، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعيّنة للسفر إلى الجزائر، وأراد أن يعطيني قيمة الهدية، فأبيت، ثم ندمت ! لانه مات فلم آخذ شيئا ! وأقام بفَتن نصف شهر ثم رحل إلى حضرته. 200/4

وأقمتُ أنا بعده نصف شهر، ثم رحلت إلى حضرته، وهي مدينة مُتْرَة، بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء، مدينة كبيرة متسعة الشوارع، وأولُ من اتخذها حضرة صهريَّ السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلي، وأحسن بناءها، ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتاً ذريعاً فمن ‖ مرض مات من ثاني يوم مرضه، أو ثالثه (287) وإن أبطأ موته فإلى الرابع، فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضاً أو ميتا. واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر، ولقد جاءت إليَّ في بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعها ابن لها سنُّة ثمانية أعوام نبيل كيّس فطِن فشكت ضعف حالها فأعطيتها نفقة، وهما صحيحان سويَّان. فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كَفَناً، وإذا به قد توفى من حينه. 201/4

وكنت أرى بمشور السلطان حين مات، المئين من الخدم اللاتي أُوتى بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهن مريضات قد طرحن انفسهن في الشمس ‖ 202/4

ولما دخل السلطان مُتْرة وجد أمه وامرأته وولده مرْضى فأقام بالمدينة ثلاثة أيام، ثم خرج إلى نهرٍ على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت إليه في يوم خميس فأمر بإنزالي إلى جانب القاضي فلما ضُربت لي الأخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض، فمن قائل : إن السلطان مات ومن قائل : إن ولده هو الميت، ثم تحققنا ذلك، فكان

(287) يتعلق الأمر على ما يظهر بالطاعون الذي ظهر في المنطقة على ذلك العهد.

الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد في مرضه وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان !

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافي عنه

203/4 وفي الخميس الثالث توفيّ السلطان غياث الدين وشعرت بذلك ‖ فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة، ولقيت ناصر الدين بن أخيه الوالي بعده خارجاً إلى المحلة قد وُجّه عنه، إذ ليس للسلطان ولد، فطَلَبني في الرجوع معه فأبيت، وأثَّر ذلك في قلبه وكان ناصر الدين هذا خديماً بدهلي قبل أن يملك عمُّه فلما ملك عمه هرب في زيّ الفقراء إليه فكان من القدر ملكه بعده.

ولما بويع مدحتْه الشعراء فأجزل لهم العطاء وأول من قام منشداً القاضي صدر الزمان فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة. ثم الوزير المسمَّى بالقاضي فأعطاه ألفي دينار دراهم، وأعطاني أنا ثلاثمائة دينار وخلعة، وبث الصدقات في الفقراء والمساكين، ولما خطب الخطيب أول خطبةٍ خطبها ‖ باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق الذهب والفضة، 204/4 وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختمون القرآن على قبره كلَّ يوم، ثم يقرأ العشَّارون(288)، ثم يوتي بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كلَّ إنسان على قدره، وأقاموا على ذلك أربعين يوماً ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة.

وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أنْ عزل وزير عمه وطَلَبه بالأموال، ووَلِي الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمُّه إلي وأنا بفتَن ليتلقاني، فتوفى سريعاً فولى الوزارة خواجة سرور قائد البَحر، وأمر أن يخاطبَ بخواجة جهان، كما يخاطب الوزير بدهلي، ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة.

205/4 ثم إن ‖ السلطان ناصر الدين قتلَ ابن عمته المتزوّج بنت السلطان غياث الدين وتزوَّجها بعده، وبلغه أن الملك مسعوداً زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا، وقتل الملك بهادور، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء.

وأمر لي بجميع ما كان عيَّنه عمه من المراكب برسم الجزائر، ثم أصابتني الحمى القاتلة هنالك، فظننت أنها القاضية، وألهمني الله التمر الهندي، وهو هنالك كثير فأخذت نحو

(288) لا يعرف شيء أزيد عن ناصر الدّين المذكور هنا- كل ما نعرف أن قطع العُملة الأولى لخلفه عادل، شاه ترجع لتاريخ 1356=757 - كلمة (العشارين) تعني الذين يتلون عشرة احزاب من القرآن الكريم، ويلاحظ هنا عادة اقامة الذكرى كلَّ سنة للمتوفَّى...

رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته، فأسهلني ثلاثة أيام، وعافاني الله من مرضي، فكرهت تلك المدينة، وطلبت الإذن في السفر، فقال لي السلطان : كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غيرُ شهر واحد ؟ أقِمْ حتى نُعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم، فأبيت، وكتب

206/4 لي إلى فَتَّن لأسافر في أيّ مركب أردت، وعدت إلى فتَّن فوجدت ثمانيةً من المراكب تسافر إلى اليمن، فسافرت في إحداها، ولقينا أربعة أجفان فقاتلتنا يسيراً ثم انصرفت، ووصلنا إلى كَوْلَم وكان فيَّ بقيّة مرض فأقمت بها ثلاثة أشهر (289) ثم ركبت في مركب يقصد السلطان جمال الدين الهِنّوري فخرج علينا الكفار بين هِنَّور وفاكَنَور.

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هِنّور وفاكَنور (290) خرج علينا الكفار في إثنى عشر مركباً حربية، وقاتلونا قتالاً شديداً، وتغلبوا علينا فأخذوا جميع ما عندي مما كنت

207/4 أدَّخره للشدائد وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان، وأخذوا ثيابي والزَّوادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء ولم يتركوا لي ساتراً خلا السَّراويل ! وأخذوا ما كان لجميع الناس ! وأنزلونا بالساحل، فرجعت إلى قَالقوط فدخلت بعض المساجد، فبعث إلي أحد الفقهاء بثوبٍ وبعث القاضي بعمامة، وبعث بعض التجار بثوب آخر.

وتعرفتُ هنالك بتزوُّج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين، وبأن زوجتي التي تركتها حاملا ولدت ولداً ذكراً فخطر لي السفر إلى الجزائر، وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبد الله، ففتحت المصحف فخرج لي : تتنزَّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا (291)، فاستخرت الله وسافرت، فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر

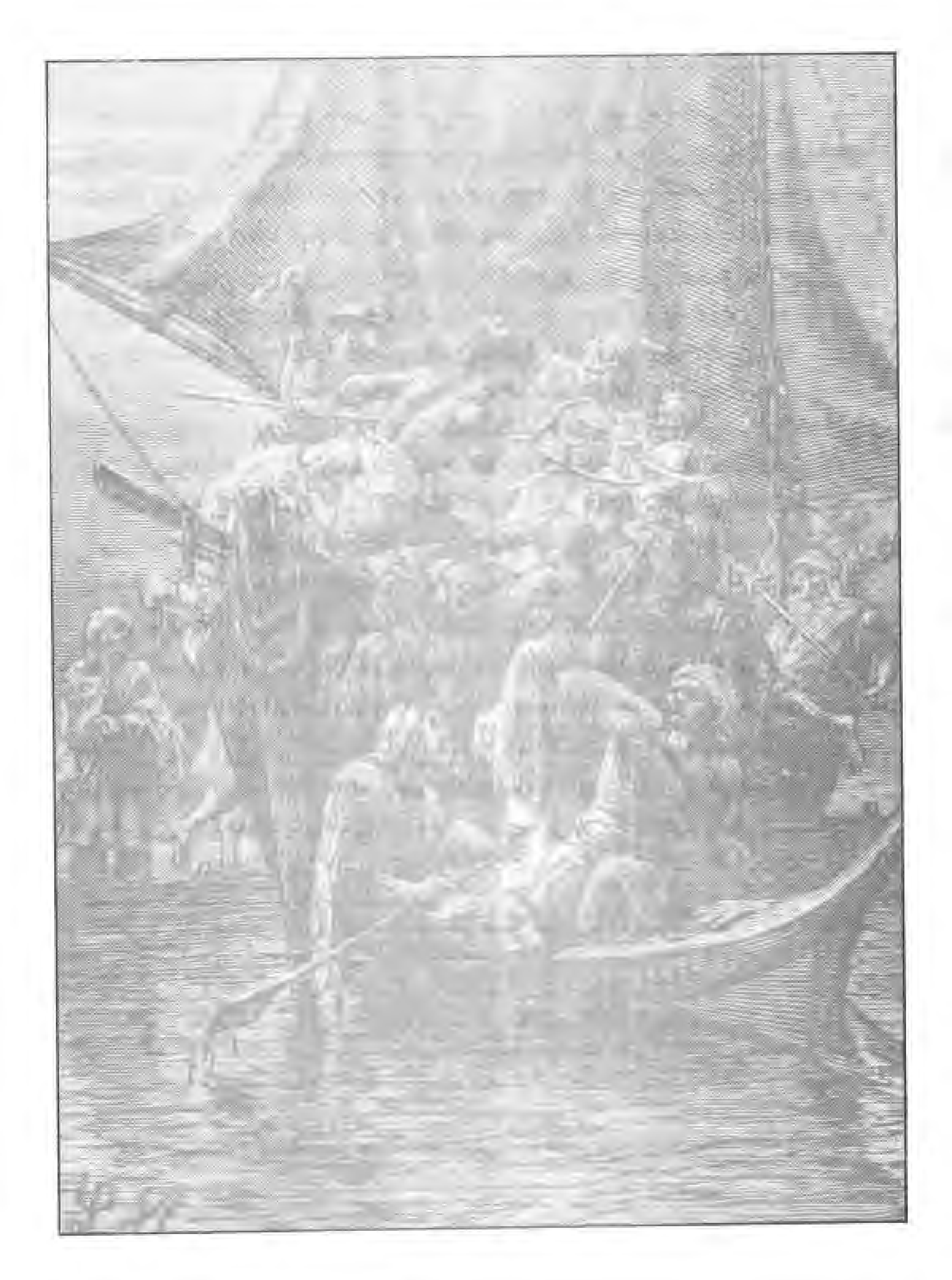
208/4 ذيبة المَهَل، ونزلت منها بكَنَّلوس (292)، فأكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوي، وأضافني

---

(289) كان على ابن بطوطة أن يصل إلى كَوْلَم (Quilon) في بداية شهر يناير 1345 وهو التاريخ الذي يصادف بداية شهر رمضان 745 ولذلك فقد كان عليه أن يمضي رمضان وعيد الفطر والأضحى. وهذا العيد الأخير كان يوافق أبريل من نفس السنة.

(290) القصد إلى نيطران Nitran جزيرة الحمام أو Pigeon Island بين هِنّور (Honavar) وباركور -Bac canore. ويقول يول Yule إنها على بعد 25 ميلاً جنوب أونور Onore التي هي هِنَور (Hinawr) ولا ننسى أنه سلب مرة أولى بين حدود السند والهند...

(292) التاريخ اللاحق يدفع بنا إلى التفكير في الوصول لذيبة المهل (مالديف) حوالي منتصف ربيع الثاني 746 غشت 1345 الأمر الذي يستدعي مقاماً لفترة شهرين ونصف في قالقوط.



رسم للقراصنة بريشة بينيط L. Benett

وجـهـز لي كندرة، ووصلت بعـد ذلك إلى هُلُلّي (293) وهي الجـزيرة التي تخـرج السلطانة وأخواتها اليها برسم التفرّج والسباحة،ويسمون ذلك التَّبَحُّر، ويلعبون في المراكب ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها، ووجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وأمها التي كانت زوجتي فجاء الخطيب إليّ وأتوا بالطعام.

ومرّ بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي، فسأل عن حالي وعمَّن قدم معي، وأُخبر أني جئت برسم حمل ولدي، وكانت سنه نحو عامين (294) وأتته أمه تشكو من ذلك، فقال لها : أنا لا أمنعه من حمل ولده، وأذِن لي في دخول الجزيرة، وأنزلني بدارٍ تقابل بُرج قصره ليتطلّع على حالي، وبعث إلي بكسوة كاملة وبالتُّنبول وماء الورد على عادتهم، وجئت بثوبَيْ حرير للرمى عند السلام فأخذوهما، ولم يخرج الوزير إليَّ ذلك اليوم، وأُتي إليَّ بولدي فظهر لي أن تعجيل السفر أولى، فطلبتُ الإذن في ذلك فاستدعاني الوزير ودخلت عليه وأتوني بالثوبين الذين أخذوهما مني فرميتهما عند السلام على العادة، وأجلسني إلى جانبه، وسألني عن حالي، وأكلت معه الطعام وغسلت يدي معه في الطست، وذلك شيء لا يفعله مع أحد، وأتوا بالتنبول، وانصرفت، وبعث إلي بأثواب وبساتي (295) من الودع، وأحسن في افعاله وأجمل.

209/4

210/4

وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثاً وأربعين ليلة، ثم وصلنا إلى بلاد بَنْجَالَة، وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح، وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز، ولم أر في الدنيا أرخص أسعاراً منها لكنها مظلِمة، وأهل خرسان يسمونها دُوزَخَسْت بورِ نعمت (296) معناه : جهنم مَلأى بالنعم، رأيت الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلاً دهلية بدينار فضي (297)، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم، ودرهمهم كالدرهم النُّقرة سواء، والرطل الدِّهلي عشرون رطلاً مغربية، وسمِعْتهم يقولون أن ذلك غلاء عندهم.

---

(293) هلُلّي هي بالذات الجزيرة التي أصبحت مطاراً دولياً للجمهورية، وفيه نزلتُ العاصمة مالي ومنه أقلعت – د. التازي : أقدم نقش عربي في مالديف، مصدر سابق.

(294) يلاحظ على الرحالة المغربي أنه – إذا ما قبلنا هذا التأكيد منه فيما يتصل بالعامين – سيجب علينا أن نتصرف في تاريخ زيارته الثانية لمالديف على الأقل بسنة واحدة وهو الأمر الذي يضع ليس فقط مشكلة استعمال الزمن طوال هذه السنة الاضافية بين السَّفَر الأول والثاني بل سيجعل السفر إلى الصين من المستحيل، سيما ونحن نعلم أن الرجوع إلى الجزيرة العربية حدد في شهر أبريل 1347 ذي الحجة 747 - STEPHANE - III P. 280.

(295) بساتي جمع بُسْتو وهو مبلغ مائة الف من الودع الذي نعرف أنه عملة أهل مالديف راجع التعليق رقم 189.

(296) تهجية هذه العبارة بالحروف اللاَّتينية (Duzakhast PUR NI^cMA)

(297) انظر ج. III - 106 - 167 وانظر كذلك ج. III - 290 رطل واحد لدهلي يعادل عشرين رطلاً مغربياً أي ثمانية كيلو غرام.

وحدثني محمد المصمودي المغربي، وكان من الصالحين، وسكن هذا البلد قديماً، ومات عندي بدهلي، أنه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم، وأنه كان يشتري الأرز في قشره، بحساب ثمانين رطلاً دِهلية (298) بثمانية دراهم، فإذا دقه خرج منه خمسون رطلاً صافية وهي عشرة قناطير، ورأيت البقرة تباع بها للحَلْب بثلاثة دنانير فضة، وبقرُهم الجواميس، ورأيت الدَّجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم، ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين، ورطل السكر بأربعة دراهم، وهو رطلٌ دِهلي، ورطل الجلاَّب بثمانية دراهم، ورطل السمن بأربعة دراهم، ورطل السيرج بدرهمين، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيّد الذي ذرعه ثلاثون ذراعاً يباع بدينارين، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينارٍ من الذهب واحدٍ وهو دیناران ونصف من الذهب المغربي (299) واشتريت بنحو هذه القيمة جاريةً تسمى عاشورة، وكان لها جمال بارع واشترى بعض أصحابي غلاماً صغير السن حسناً اسمه لؤلؤ بدينارين من الذَّهب.

211/4 — 212/4

وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سُدْكَاوان، وضبط اسمها بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم (300)، ويجتمع بها نهر الكَنْكُ الذي يحج إليه الهنود ونهر الجون (301) ويصبان في البحر، ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكْنوتي (302).

---

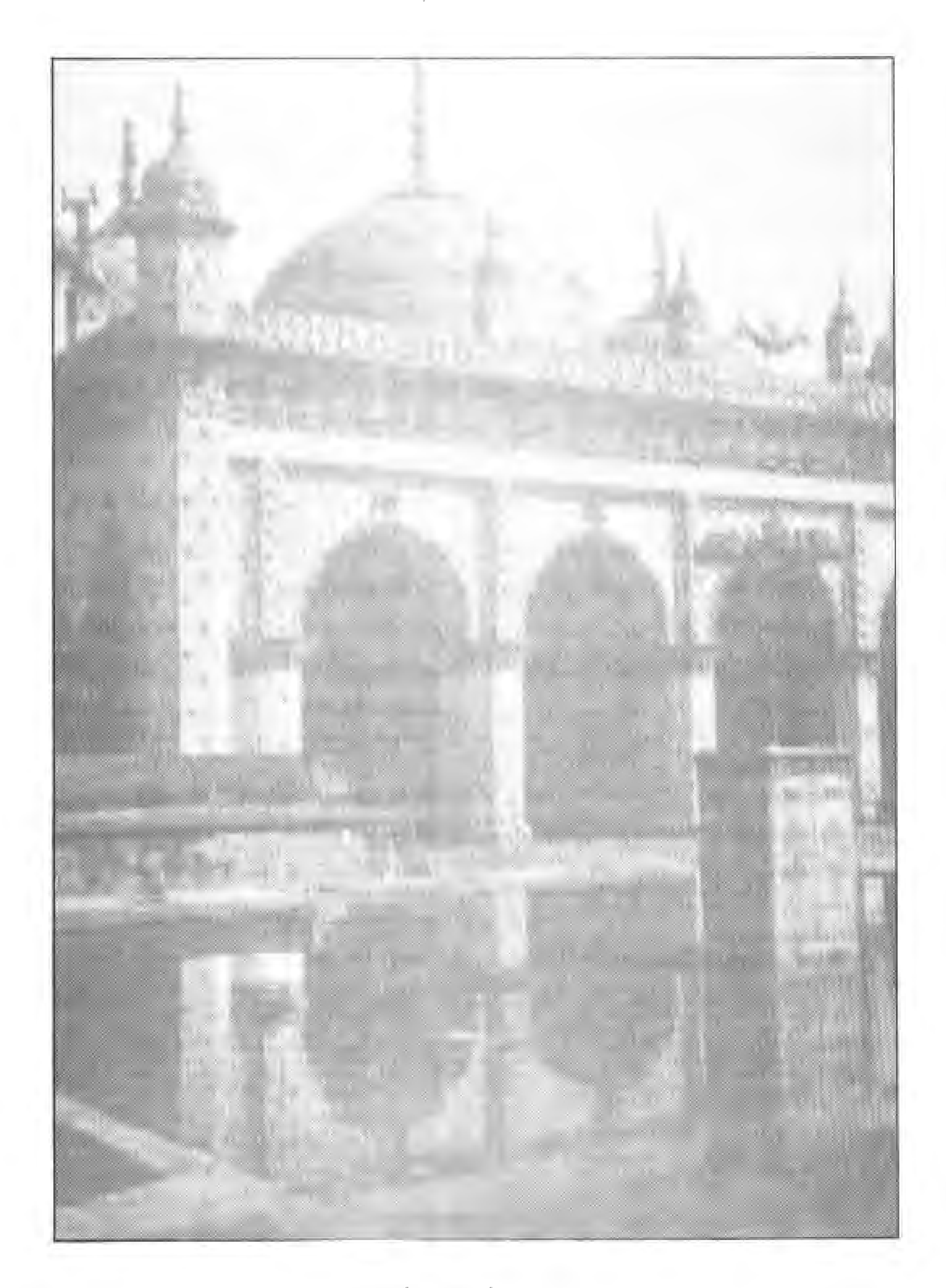
(298) إذا قمنا بمقارنةٍ بين المحاصيل، فسنجد أن البقرة تعادل 600 كـ.غ من الأرز، و 192 دجاجة و 12 خروفا و 48 كـ.غ. سكر و 48 كـغ. سمن، و 96 ليتر زيت و 5، 22 ميتر من القطن، وهكذا نلاحظ الفرق بين المنتوجات الأولية (الرز – اللحم – بالنسبة للسكر والزبد).

(299) إذا كان الأمر يتعلق بتنكة فإنها تساوي دينارين ذهبيين في المغرب، هذا وقد ظل ابن بطوطة يردد الحديث عن الرغبة الجنسية التي لم يكن في استطاعته أن يحمي نفسه من الاشتغال بها في غربته !!
– د. التازي : ابن بطوطة والحاسَّة الجنسية ... ضمن المحاضرة التي ألقيت بطنجة يوم 1981/4/10 بدعوة من الجمعية الثقافية والاجتماعية لحوض البحر المتوسط.

(300) هناك مدينتان تقربان من هذا الاسم : الأولى (SATGAON) على نهر هو غلي (Hooghly) في الجهة الغربية للدلتا جنوب كالكوتا (Calcutta) . ميناء هندوسي إسلامي لكنه ترك في القرن السادس عشر الميلادي، والمدينة الثانية : (Chittagong) في الجهة الشرقية للدلتا جنوب شرق داكا (DHAKA) وهناك مبررات ترجح كفة المدينة الثانية : (شيطًا غونك) فهي المدينة الوحيدة التي تقع في خليج البنغال على ساحل البحر الاعظم "(المحيط الهندي) – أنظر خريطة بنغلاديش الحالية.
Beckingham IV P. 868 - Note 3.

(301) نهر الجون (Jun) : جومْنا (DJUMNA) يمثل هنا (BRAHMAPUTRA). و في الحقيقة أن التقاء مجرى الكانج والجون يتحقق أكثر في الشمال الغَرْبي، ولكن من أن تكون هذه النقطة قريبة من ساطْگاون – انظر التعليق السابق.

(302) اللكنوتي (La Khanouti) الاسم القديم لمدينة گوْر Gaur، عاصمة المسلمين حكّام البنغال بعد فتحها عام 600=1204، خرائبها ما تزال علي مقربة من مَلْدَه Maldah هذا الاسم يرجع لأحد الأقاليم الثلاثة للبنغال يغطي المساحة بين الكانج وبين بْراهما بوتْرا Brahmaputra - ج. III - 174 - 210



البنجال جهنَّم ملأى بالنِّعم !

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان فخر الدين (303) الملقب بفَخْرة، بالفاء والخاء المعجم والراء، سلطان فاضل محبٌّ في الغرباء 213/4 وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بَلبَن وهو الذي وَلي ولدُه معزُّ الدين الملك بدهلي، فتوجه لقتاله والتقينا بالنَّهر، وسُمّي لقاؤهما لقاء السَّعدين، وقد ذكرنا ذلك (304) وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة فأقام بها إلى أن توفي.

وولى ابنه شمس الدين إلى أن توفى فولى ابنه شهاب الدين، إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بها دور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تُغلق فنصره وأخذ بَهَادُور بور أسيراً، ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على أن يقاسمه مُلكه، فنكث عليه فقاتله حتى قتله، وولَّى على هذه البلاد صهراً له فقتله العسكر، واستولى 214/4 على ملكها علي شاه (305)، وهو إذ ذاك ببلاد اللَّكنَوْتي، فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مَوْلَى لهم، خالف بسُدكاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه علي شاه، فإذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخْرالدين على بلاد اللَّكنوتي في البحر لقوته فيه، وإذا عادت الأيام التي لامطر فيها اغار على شاه على بنجالة في البر لقوَّته فيه.

حكاية [الفقير شيْدا]

وانتهى حبُّ الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحدهم نائباً عنده في الملك بسُدْكَاوَان، وكان يسمى شَيْدا، بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينهما ياء أخر الحروف 215/4 وخرج إلى قتال عدوٍّ له فخالف عليه شيْدا وأراد الاستبداد بالملك، وقتل ولداً للسلطان فخر الدين لم يكن له ولد غيره (306) ! فعلم بذلك فكرَّ عائداً إلى حضرته ففر شَيْداً ومن تَبعه إلى

(303) بعد قمع ثورة غياث الدين بهادر. ضلَّ بهرام خان الغلام المتبَنَّى لمحمد بن تغلق كحاكم على بلاد البنغال الشرقية في سُونار گاون (Sonargaon) إلى أن توفي حوالي عام 737=1337 وقد أعلن خلَفه الاستقلال عام 738=1338 تحت إسم فخر الدين مبارك شاه 1338-1349 - ولدُه وخلفُه اختيار الدين غازي أقصى عن الحكم عام 1352 من لدن شمس الدين إلياس الذي وحَّد سائر بلاد البنغال.

(304) راجع - الجزء III، 175، 177، 178

(305) أنظر التعليق السابق رقم 302. في الحقيقة فخر الدين عليٌّ قام بالثورة على الأقل سنة قبل علاء الدين علي.

(306) مع ذلك فإنه يظهر أنه هو ولده الذي خلفه عام 1349=750 - أنظر التعليق رقم 303.

مدينة سُنُرْكَاوَان، وهي منيعة (307)، فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره فخاف أهلها على أنفسهم فقبضوا على شَيَدًا وبعثوه إلى عسكر السلطان، فكتبوا إليه بأمره، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه، وقتل بسببه جماعةٌ كبيرة من الفقراء.

ولما دخلتُ سُدْكَاوَان، لم أر سلطانها ولا لقيته لأنه مخالف على ملك الهند فخفت عاقبة ذلك، فسافرت من سُدْكَاوان بقصد جبال كَامَرُو، وهي بفتح الكاف والميم وضم الراء، وبينها وبين سُدكاوان مسيرة شهر(308).   216/2

وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضا ببلاد التُّبَّت (309) حيث غزلان المِسك.

وأهل هذا الجبل يشبهون الترك، ولهم قوة على الخدمة، والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم، وهم مشهورون بمعاناة السّحر، والاشتِغال به، وكان قصدي بالمسير إلى هذه الجبال لقاء وليٍّ من الأولياء بها، وهو الشيخ جلال الدين التّبريزي (310).

ذكر الشيخ جلال الدين.

وهذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة، وهو من المعمِّرين أخبرني، رحمه الله، أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتْله (311)، وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات ابن مائة وخمسين، وأنه   217/2

---

(307) سونُورگاوان أو سُونَاركانُو أو سُونِير كُونگ ، مدينة في البنغال على بعد 15 ميلا جنوب داكًا كانت احدى العواصم الاسلامية وقد أعطت اسمها لأحد الأقاليم الثلاث للبنغال Satgan، وفيها سيجد المركب الذي سيوصله إلى جاوة بعد 40 يوماً من السفر.

(308) كـامَـرُو، الكلمـة من أصل سنسكري KAMARUPA، قسْم من ولاية أصَّام ASSAM يقع بين بهوتان وبنغلاديش. ألحقت أصَّام بمملكة الهند عام 653 هـ 1256 م.

(309) بلاد التُّبَّت (Tibet) تتصل فعلاً بالصين تقع بينها وبين بُهوتان (Bhutan) وهي كما نعرف دولة من آسيا الوسطى تحيط بها الجبال الشامخة : وهي دولة دينية عاصمتها لاسَا يراجع ج III ص439..

(310) يظهر أن ابن بطوطة – وقد طال به العهد – خلط بين الشيخ جلال الدين التبريزي المتوفى عام 642=1244 ، ولم يزر أصام (ASSAM) ، وبين الشيخ شاه جلال الذي هو من أصل تركستاني وهو الذي شارك على ما ترويه الأخبار في افتتاح سيلهت (Sylhet) الواقعة في الشمال الشرقي من البنغال الحالية المحتلة عام 1304، هذا الشيخ توفي عام 1347=747 ولم يكن ابن بطوطة وحْده ممن التبست عليه الشخصيات فان البنغاليين بدورهم يقعون في هذا الخطأ...
Ross E Dunn : The Adventur Es of IBN Battuta LOnden 1986 - P. 293 Note 26.

(311) يعني سنة 656=1258 عندما اجتاح المغول بغداد.

كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر، إلا بعد مواصلة عشر، وكانت له بقرة يفطر على حليبها، ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طُوالاً خفيف العارضين، وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم.

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم : إني أسافر عنكم غداً إن شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو، فلما صلَّى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبْراً محفوراً ‖ عليه الكفن والحنوط، فغسلوه وكفنوه وصلُّو عليه ودفنوه به رحمه الله. 218/

كرامة له أيضا

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح المغرب فاستقبلوه، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ولم يكن عنده علمٌ بشيء من أمري، وإنما كوشف به.

وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت إلى زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها، وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته، ويأتون بالهدايا والتُّحف فيأكل منها الفقراء والواردون، وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرةٍ ‖ يُفطر على حليبها بعد عشرٍ كما قدمناه، ولمّا دخلتُ عليه قام إلي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري، فأخبرته، فقال لي : أنت مسافر العرب !فقال له من حضر من أصحابه : والعجم ياسيدنا ! فقال : والعجم، فأكرموه فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام(312). 219/

حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له.

ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيت عليه فرَجية مرعز، فأعجبتني وقلت في نفسي : ليت الشيخ أعطانيها، فلما دخلت عليه للودا ع، قام إلى جانب الغارِ وجرَّد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة، فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلْبس ‖ تلك الفرجية وإنما لبسها عند قدومي، وأنه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربي، ويأخذها منه سلطان كافرٌ ويعطيها لأخينا برهان الدين الصَّاغرجي، وهي له وبرسمه كانت، فلما أخبرني 312/

(312) يلاحظ شعور ابن بطوطة بالاعتزاز والفخر – حول الشيخ الصاغرجي يراجع ج III ص 220.

الفقراء بذلك، قلت لهم : قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم، وانصرفت عن الشيخ.

فاتَّفق لي بعد مدةٍ طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت إلى مدينة الخَنْسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام، وكانت الفرجية عليَّ فبينا أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره عليَّ فاستدعاني، وأخذ بيدي، وسألني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه، فأردت الانفصال، فمنعني وأدخلني على ‖ السلطان فسألني عن سلاطين الإسلام فأجبته ونظر إلى الفرجية فاستحسنها، فقال لي الوزير : جرِّدْها ! فلم يمكنني خلاف ذلك، فأخذها وأمر لي بعشر خلعٍ وفرسٍ مجهز ونفقة، وتغيَّر خاطري لذلك، ثم تذكرت قول الشيخ : إنه يأخذها سلطان كافر، فطال عجبي من ذلك !

221/4

ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخَان بَالِق، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجيةُ عليه بعينها فعجبت من ذلك وقلَّبتها بيدي، فقال لي : لِمَ تُقلِّبها وأنت تعرفها ؟ فقلت له : نعم هي التي أخذها لي سلطان الخَنْسا، فقال لي : هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي، وكتب إليَّ أن ‖ الفرجية تصلك على يد فلان، ثم أخرج ليَّ الكتاب، فقرأتُه وعجبتُ من صدق يقين الشيخ، وأعلمتُه بأول الحكاية، فقال لي : أخي جلال الدّين أكبر من ذلك كلِّه ، هو يتصرف في الكون، وقد انتقل إلى رحمة الله، ثم قال لي : بلغني أنه كان يصلي الصبح كلَّ يوم بمكة وأنه يحج كلَّ عام لانه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد فلا يُعرف أين ذهب.

222/4

ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبَنق (313)، وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النّون وقاف، وهي أكبرُ المدن وأحسنُها يشقها النَّهر الذي ينزل من جبال كَامَرو، ويسمى النهر الأزرق (314) ويسافر فيه إلى بنجالة وبلاد اللّكنوتي، وعليه النواعير والبساتين‖ والقرى يمنةً ويسرة - كما هي على نيل مصر وأهلها كفار تحت الذمة يوخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك.

223/4

وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوماً بين القرى والبساتين فكأنما نمشي في سوق من الأسواق وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة، وفي كلّ مركب منها طبل فإذا التقى

(313) حَبَنْق هي التي تسمى اليوم هاڤانك تيلاً (Havang Tila) وقد خربت، تقع على بعد عشرة أميال تقريبا جنوب (Habiganj) في سيلهت (Sylhet).

(314) النهر الأزرق يظهر أنه نهر مغْنا : (Maghna) الذي يمرّ على مقربة من دَاكًا... انظر الخريطة هذا وكلمة النول الآتية من المفردات الحضارية التي استعملها ابن بطوطة بمعنى (حق المرور) Nolis.

المركبان ضرب كلٌّ واحدٍ طبلَه وسلَّم بعضهم على بعض، وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يوخذ بذلك النهر من الفقراء نَوْل، وأن يعطي الزاد لمن لا زاد له منهم وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطى نصف دينار.

وبعد خمسة عشر يوماً من سفرنا في النَّهر كما ذكرناه وصلْنا إلى مدينة سُنُرْكَاوان (315)، وسُنُر بضم السين المهمل والنون وسكون الراء، وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شَيْدَا ‖ عندما لجأ إليها، ولما وصلناها وجدنا بها جُنكاً يريد السَّفر إلى بلاد الجاوة (316)، وبينهما أربعون ويوماً، فركبنا فيه، ووصلنا بعد خمسة عشر يوماً إلى بلاد البَرَهْنَكَار (317)، الذين أفواههم كأفواه الكلاب، وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء، وهذه الطائفة من الهَمَج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقَّفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر، وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير.

224/4

ورجالهم على مثل صُوَّرنا الا أن أفواههم كأفواه الكلاب ! وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمالٌ بارع ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعْبة من القصب منقوشة معلقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق ‖ الشجر، ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بَنْجَالة، والجاوة ساكنون في حارةٍ على حدة، أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك، ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه (318)، وأنهم لا يزنون وإذا زنا أحدٌ منهم فحدُّ الرجل أن يصلب حتى يموت ! أو ياتي صاحبه أو عبده فيصلب عوضاً منه ويسرح هو، وحدّ المرأة أن يامر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحداً بعد واحد بحضرته، حتى تموت ويرمون بها في البحر ! ولأجل ذلك لا يتركون أحداً

225/4

(315) حول سُنُركاوان أنظر التعليق السابق رقم 307.

(316) ليس القصد إلى جاوة ولكن إلى سومطرة كما هو الغالب في الاستعمال الجغرافي العربي أما جاوة فهي التي عبَّر عنها بمُلْ جاوة = Beckingham IVP. 873 N°18.

(317) البَرَه نَكار (Barah Nakar) من الجائز أن يكون القصد إلى جزر أندامان (Andaman) نيكُوبار Nicobar فهاته الجزر هي الرئيسية في أرَاكان (ARAKAN) التابعة لبورما على مقربة من أو جزيرة نيگري Negarais بيْدانْ كلام ابن بطوطة يفهم منه أن البَرَه نكار اسم لشعب وليس إسما لموقع جغرافي كما يعتقده كثير من المعلقين.

GIbb Selec 367 - Becknham p : 874 Not 1.

(318) في حديثه عن المنطقة قال الادريسي (ق 1 ص 78) "... واذا أراد الرجل أن يتزوج إمرأة لم يزوجها له أهلها حتى يقتل رجلاً وياتي يقحف رأسه...! ولو قتل خمسين رجلاً زُوج خمسين امرأة وشهد له أهل بلده بالبأس والنجدة... وهم عراة لا يستترون... وكذلك نساؤهم... وهم لا يستترون في النكاح بل ياتونه جهاراً ولا يرون بذلك بأسا وهؤلاء قوم مناكير الوجوه... مشوهون جداً...

من أهل المراكب ينزل إليهم إلا إن كان من المقيمين عندهم، وانما يبايعون الناس ويشارونهم
226/4 على الساحل ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لانه ‖ بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفاً على نسائهم لانَّهنَّ يطمحن إلى الرجال الحسان ! والفيلة كثيرة عندهم، ولا يبيعها أحد غير سلطانهم ثم تشتري منه بالأثواب، ولهم كلام غريب لا يفقهه إلاَّ من سَاكَنهم وأكثر التردد اليهم، ولما وصلنا إلى ساحلهم أتو إلينا في قوارب صغار، كل قارب من خشبة واحدة منحوتة، وجاءوا بالموز والتنبول والفوفل والسمك.

ذكر سلطانهم

وأتى الينا سلطانهم راكباً على فيل عليه شبه بردعة من الجلود، ولباس السلطان ثوبٌ
227/4 من جلود المعزى، وقد جعل الوبر إلى خارج، وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير‖ ملونات، وفي يده حرْبة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة، فبعثنا إليه هديةً من الفلفل والزنجبيل والقِرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبة المَهل وأثواباً بنجالية وهم لا يلبسونها، إنما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم !

ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جاريةٌ ومملوكٌ وثياب لكسوة الفيل وحلْي ذهبٍ تجعله زوجته في محْزمها وأصابع رجليها، ومن لم يُعط هذه الوظيفة صنعوا له سحراً يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك !

حكاية [كيف يعاقب الزناة]

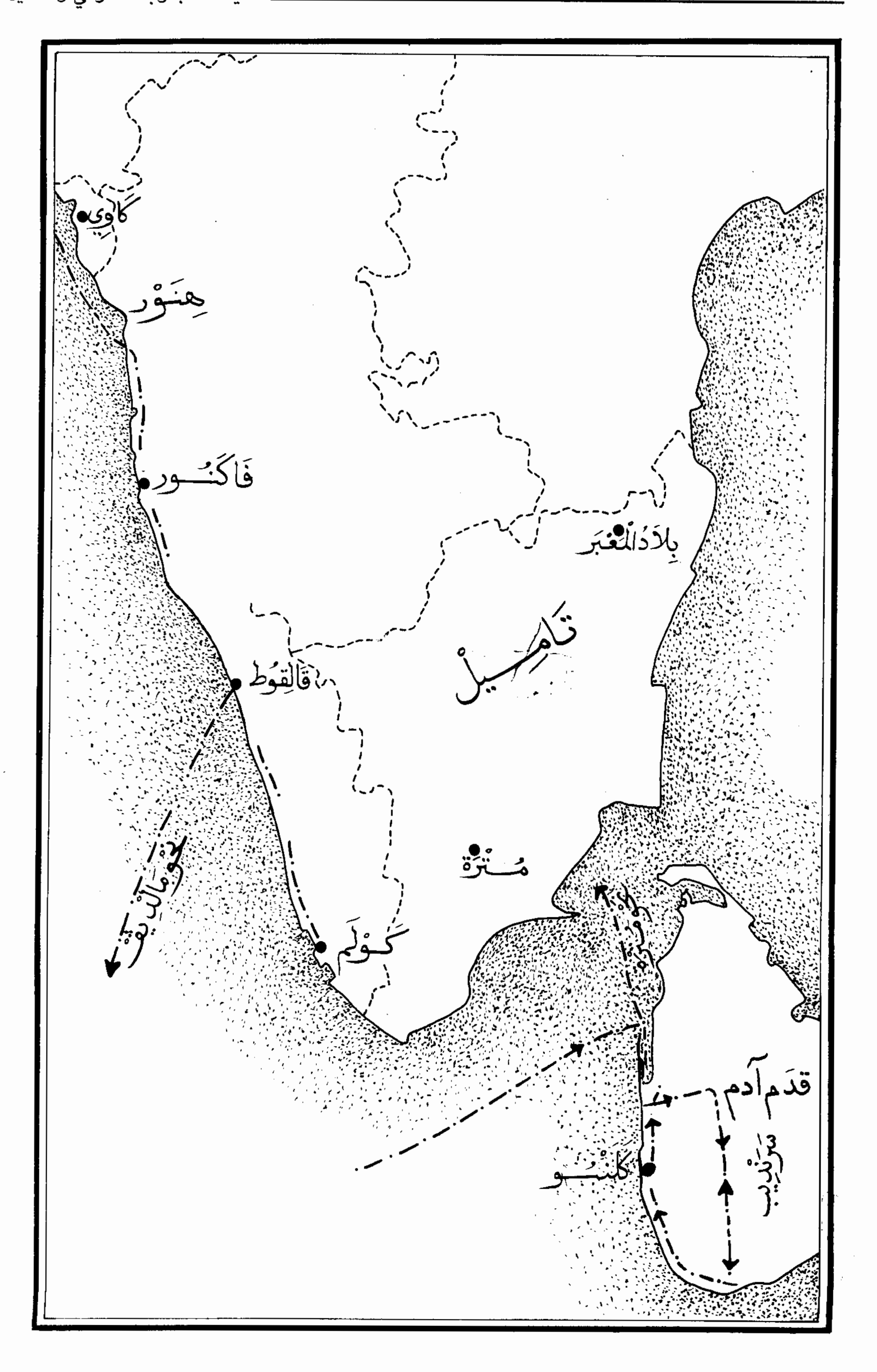
واتفق في ليلةٍ من ليالي إقامتنا بمرساهم أن غلاماً لصاحب المركب ممن تردد إلى
228/4 هؤلاء الطائفة نزل من المركب ‖ ليلاً وتواعد مع امرأةٍ أحدِ كبرائهم إلى موضع شبْه الغار على الساحل، وعلم بذلك زوجُها فجاء في جَمْعٍ من أصحابه إلى الغار فوجدهما به، فحُملا إلى سلطانهم فأمر بالغلام فقُطعت انثياه وصلب ! وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ! ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى، وقال : إنا لا نجد بداً من إمضاء أحكامنا، ووهب لصاحب المركب غلاماً عوض الغلام المصلوب.

الفصل الخامس عشر

آسيا - الجنوب الشرقي - والصين

- من بلاد البَرَهْنكار إلى الجاوة
- في بلاد الصين
- من الزيتون إلى الخنسا
- مدينة الخنسا
- بلاد الخطا ومصرع القان واختيار قرَاقُرُم عاصمةً
- العودة على بلاد طوالسي
- الحديث عن الرّخ
- حضوره إعراس ولد الملك الظاهر





كاوي
هنور
فاكنور
بلاد المعبر
تاميل
قالقوط
مترة
كولم
قدم آدم
سرنديب
كلنبو

ثم سافرنا عن هؤلاء، وبعد خمسةٍ وعشرين يوماً وصلنا إلى جزيرة الجاوة (1)، بالجيم، وهي التي ينسب إليها اللُّبان الجاوي (2)، رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة، وأكثر أشجارها النارجيل (3) والفوفل والقرنفل والعُود الهندي (4) والشَّكِي والبَرْكي (5)‖ والعَنْبَة والجُمون (6) والنارنج الحلو، وقصب الكافور، وبيعُ أهلها وشراءهم بقطع قصدير، وبالذهب الصيني التّبر غير المسبوك، والكثيرُ من أفاويه الطيب التي بها إنما هو ببلاد الكفار منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك. 229/4

ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعَنبة والسمك، وعادتهم أن يهدوا ذلك للتُّجار فيكافئهم كلُّ إنسان على قدره، وصعد إلينا أيضا نائب صاحب البحر (7) وشاهد مَن معنا من التُّجار وأذن لنا في النزول إلى البرِّ فنزلنا إلى البندر، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بها دُورٌ يسمّونها السَّرْحَى(8) بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل، وبينها وبين البلد أربعة أميال.

ثم كتب بُهْرُوز نائب صاحب البحر إلى السلطان ‖ فعرفه بقدومي، فأمر الأميرَ دَوْلَسة بلقاءي والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازى وتاج الدين الإصبهاني وسواهم من الفقهاء، فخرجوا لذلك، وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه، فركبت وركب أصحابي ودخلنا إلى حضرة السلطان وهي مدينة سُمُطْرَة بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب. 230/4

---

(1) يطلق اسم الجاوة عموماً على أرخبيل الملايو، وهناك الجاوة الصغرى التي هي سُمَطرة المحاذية للجاوة الكبرى أو الجاوة بدون نعت، يبدو أن ابن بطوطة وصل هذه الناحية في يناير 1346 - د. وان حسين عزمي، د. هارون : الدعوة الاسلامية في ماليزيا، 1405=1985 - د. التازي : ت.د.م 7 ,311.

(2) سياتي الحديث عن اللُّبان : IV ص 240.

(3) يبرع السُّمُطريون في استعمال لبّ نواة النارجيل على ما نقرأه عند وِليام مارسدن (W. Marsedn) في كتابه (Histoire de Sumatra).

(4) حول القرنفل ترقَّب IV ,240 وحول العود الهندي أيضا ترقب كذلك IV ,241.

(5) ورد ذكر الشكي والبركي عند الإدريسي في النزهة (ق، 84) وقد تقدم الحديث عنها III، 126-127.

(6) يعرفها گيب هكذا Eugenia Jambolana : فاكهة صغيرة الحجم حلوة المذاق وقد انتقد ترجمة الناشرين الفرنسيين ...

(7) يعلق فيرّان على أن القصد من نائب البحر إلى شاه بندر المكلف بالميناء والذي يتوصل بالواجبات ويقدم الواردين إلى الحاكم Relations de voyages et textes gographiques arabes, persans et turcs relatifs a l'Extrême-orient, II p. 439, 1914.

(8) لم نتمكن من تحديد معنى اللفظ ويذكر گيب انه ربما كان هناك تحريف لان حرف الحاء لا يوجد في الملايا - معلوم أن دولة الاسلام استقرت في شمال سُمُطرة قبل نهاية القرن السابع الهجري، حيث كانت تحتوي على مدينة فاساي PASAI وسُمطرة، وقد تغلب الإسم الثاني وأعطى أخيراً إلى الجزيرة بكاملها.

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر (9)، من فُضَلاء الملوك وكرمائهم، شافعي المذهب، محبّ في الفقهاء، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة، وهو كثير الجهاد والغزو، ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه، وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد، يخرجون معه تطوعاً، وهم غالبون على من يليهم من الكفار، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح.

231/4

ذكر دخولنا إلى داره وأحسانه إلينا

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحاً مركوزةً عن جانبي الطريق هي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا، فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمّى عُمدة المُلك، فقام الينا وسلَّم علينا وسلامهم بالمصافحة، وقعدنا معه، وكتب بطاقةً إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان، فأتاه الجواب على ظهرها، ثم جاء أحد الفتيان ببُقْشة، والبقشة : بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم، هي السَّبَنِية، فأخذها النائب بيده وأخذ بيدي وأدخلني دويرة يسمونها فرْدَخانة على وزن زرْدخانة (10)، إلا أن أولها فاء وهي موضع راحته بالنهار، فان العادة أن ياتي نائب الساطان إلى المشور بعد الصبح ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة، وكذلك

232/4

(9) السلطان المُسلم الأول لسُمطرة هو الملك الصالح الذي توفى عام 696=1297، وابتداءً من هذا التاريخ، وفي أثناء القرن الرابع عشر تولّى عددٌ من الأمراء الذين خَلَفوا الملك الصالح... ومن ابرز هؤلاء يوجد الملك الظاهر ملك سُمُطْره الذي أقام عنده الرحالة المغربي سنة 1345 أو 1346 والذي اقتبس لقبه على ما يظهر من الملك الظاهر بَيْبَرس.

Sumatra, Histoire des Rois de Pasey, Traduite du Malay et annotée par Aristide Marre, PARIS, 1974, p. 8-9.

Rapporten van den oudheidkun diger drenst in Mederlandsch-Indie.

1913. Beckingham vol 4 p. 877.

وأشكر بهذه المناسبة زميلي المستشرق الهولاندي فان كونينكسفِيلد (Van Koningsveld) على مساعدته حول ما كتبه الهولانديون الذين كانوا بتلك الجهات...

– الإسلام في أرخبيل الملايو، تأليف د. رؤوف شلبي 1395=1975 صفحة 92.

(10) البُقشة : كلمة تركية، والسَّبَنِية نسبة إلى سَبَن محلة ببغداد تصنع فيها الثياب انظر ج. IV - 142 تعليق 227 وفردخانه : كلمة فارسية، فسَّرها ابن بطوطة أما عن زَرْدَخانة فستاتي IV ,404.

الوزراء والأمراء الكبار، وأخرج من البُقشة ثلاث فوط إحداها من خالص الحرير والأخرى حرير وقطن والأخرى حرير وكتان، وأخرج ثلاثة أثواب يُسمّونها التَّحْتانيات من جنس الفوط، وأخرج ثلاثةً من الثياب مختلفة الاجناس تسمى الوسطانيات، وأخرج ثلاثة أثواب من الآرمك 233/4 ‖ أحدها أبيض، وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض السراويل على عادتهم، وثوباً من كل جنس، وأخذ أصحابي ما بقي منها.

ثم جاءوا بالطعام أكثره الأرز، ثم أتو بنوعٍ من الفقاع، ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف، فأخذناه وقمنا، وقام النائب لقيامنا، وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دارٌ بناؤها بالخشب، مفروشة بقطائف قُطن يسمّونها المُخْمَلات، بالميم والخاء المعجم، ومنها مصبوغٌ وغير مصبوغ، وفي البيت أِسرّة من الخيْزُران، فوقها مُضربَّات من الحرير، ولحف خفاف ومخاد يسمونها البَوَالِشْت، فجلسنا بالدار ومعنا النائب، ثم جاء الأمير دَوْلَسَة بجاريتين 234/4 ‖ وخادمين، وقال لي : يقول لك السلطان : هذه على قدْرنا لا على قدر السلطان محمد (12) ! ثم خرج النائب وبقي الأمير دَوْلَسَة عندي وكانت بيني وبينه معرفة لأنه كان ورد رسولاً على السلطان بدهلي، فقلت له : متى تكون رؤية السلطان؟ فقال لي : إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاث ليذهب عنه تعب السفر، ويثوب اليه ذهنه، فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم وتأتينا الفواكه والطرف مساءً وصباحاً، فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دولسة، فقال لي : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصَّلاة فأتيت المسجد، وصليت به الجمعة مع حاجبه 235/4 ‖ قَيْرَان، بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء.

ثم دخلت إلى السلطان فوجدت القاضي أمير سيّد والطلبة عن يمينه وشماله، فصافحني وسلَّمت عليه، وأجلسني عن يساره، وسألني عن السلطان محمد، وعن أسفاري فأجبته، وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي، ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر، فلما صلاها دخل بيتا هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه، وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي المسجد يوم الجمعة ماشياً ثم لبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن.

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

236/4 ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه، والعادة عندهم أنه اذا ‖ ركب

---

(11) المخملات : تعني على ما يبدو نوعا من الزرابي الوثيرة – بالشت كلمة فارسية تعني الوسادة وسيمُر بنا استعمال كلمة بالشت بمعنى 25 قطعة نقدية ترقبْ ج. IV ,260 تعليق 43.

(12) القصد إلى العاهل الهندي محمد شاه ابن تغلق سلطان دهلي سالف الذكر...

السلطان الفيل ركب من معه الخيل وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة، ويكون أهل العلم عن يمينه، فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور، فنزلنا حيث العادة ودخل السلطان راكباً وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفاً، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب، ووزراؤه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم، ثم صفّ الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم، وكذلك تفعل كل طائفة، ثم صفّ الشرفاء والفقهاء، ثم صفالنُّدماء والحكماء والشعراء، ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك، ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس، ورُفع فوق ‖ رأسه شطر مرصَّع، وجعل عن يمينه خمسون فيلاً مزينة، وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضاً مائة فرس وعن شماله مثلها، وهي خيل النوبة، ووقف بين يديه خواص الحجاب، ثم أتى أهل الطرب من الرِّجال، فغنّوا بين يديه وأُتي بخيل مجلَّلة بالحرير لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة فرقصتِ الخَيْل بين يديه ! فعجبت من شأنها، وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند، ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره وانصرف النَّاس إلى منازلهم. 237/4

ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك.

وكان له ابن أخ متزوج ببنته فولاّه بعض البلاد، وكان الفتى يتعشق بنتاً لبعض الأمراء ‖ ويريد تزوجها، والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجلٍ من الناس : أمير أو سوقي أو سواه، بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد أن يستأمر السلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها فان أعجبتْه صفتُها تزوجها وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤن. والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف، ولما استامر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان بعث السلطان مَن نظر اليها وتزوَّجها واشتد شغف الفتى بها، ولم يجد سبيلاً إليها. 238/4

ثم إن السلطان خرج إلى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه إلى سمُطرة ودخلها اذ لم يكن عليها سور حينئذ وادَّعَى الملك وبايعه بعضُ الناس وامتنع آخرون، وعلم عمّه بذلك فقفل عائداً إليها فأخذ ابنُ أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر وأخذ الجارية التي تعشَّقها وقصد بلاد الكفار بمُل جاوة، ولهذا بنَى عمُّه السور على سمُطْرة، وكانتِ (13) إقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوماً ثم طلبتُ منه السفر

(13) قد يكون من المفيد أن يقوم المرء بمقارنة هذا النص مع الذي ورد في كرونيك مُلُوك فاساي (PASAI) الذي حَسَبَ ما ورد فيه، نجد أن السلطان أحمد قَتَل، بدافع الغيرة اثْنين من أولاده كانا يتنافسان على التزوج من أميرة جاوة ! في أعقاب هذا الحادث انتحرت الاميرة المذكورة، وقام والدها بتخريب العاصمة سمُطرة... وحول (مُل جاوة) انظر التعليق آتي رقم 15 .

إذْ كان أوانه (14)، ولا يتهيَّأ السفر إلى الصين في كل وقت، فجهَّز لنا جُنْكاً وزوَّدنا وأحسن وأجمل جزاءه الله خيراً، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجُنك، وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة.

240/4 ثم وصلنا إلى مُل جاوة (15) بضم الميم، وهي بلاد الكفار وطولها ▒ مسيرة شهرين وبها الأفاويه العطرة، والعود الطيب القاقلي (16) والقَماري، وقاقلة، وقَمَارة من بعض بلادها، وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللُّبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهِندي وانما معظم ذلك بمُل جاوة ولْنذكر ما شاهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه.

ذكر اللُّبان

وشجرة اللُّبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخُرْشُف وأوراقها صغارٌ رِقاق، وربّما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة، واللُّبان صمغية تكون في أغصانها، وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار (18) ▒ . 241/4

ذكر الكافور

وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ، ويكون الكافور في داخل الأنابيب، فإذا كُسرت القصبة وُجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور، والسرُّ العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يُذْبح عند أصولها شيء من الحيوان وإلا لم يتكون شيء منه!!

والطيّبُ المتناهي في البُرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح، وهو المسمى

---

(14) الاشارة إلى الريح الموسمية التي لها وقت خاص ينبغي التحرك فيه.

(15) (مُل جَاوة) استوقف هذا العَلم الجغرافي معظم المهتمين بخط سير ابن بطوطة... ويرى يول ان مُلْ جاوة تعني شبه جزيرة مالاي MALAY (ماليزيا) لكن تيبّيط دحض هذا الرأي Tibbetts : Astudy of Arabc Text, Leiden and London 1979.

(16) قاقلة ورد ذكر هذا الموقع عند الجغرافيين العرب ويرى مصدر صيني انها تقع في ساحل إقليم Tenasserim. المفترض أن ابن بطوطة زاره وهو في طريقه إلى سُمُطرة...

(17) قمَارة (خمير) تعنى في الغالب كامبوديا، تاريخها في هذا العهد غير معروف كما ينبغي، ولهذا فانه من المتعذر القول : هل أنها تابعة لجاوة أو جزيرة مَلَاي، ويرى تيبّيط أن الحكم الجاوي على اقليم تيناسيريم (Tenasserim) وكامبوديا هو تخيّل - كما يحتمل - من البلاد الجاوي وقد تصادف سفر ابن بطوطة مع هذا الامتداد الجاوي في المنطقة - نذكر أخيرا اننا في المغرب نعيش مع ترديد اسم (قمار) كلما بخَّرنا بالعود القماري !.

(18) انظر التعليق 98، II 214

عندهم بالحَرْدَاله... (19) هو الذي يُذبح عند قصبه الآدمي، ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار.

ذكر العود الهندي

242/4 وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر ‖ البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كلَّ العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة، وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها، وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملّك وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك، والمتملك منه ما كان بقاقلة وهو أطيب العود، وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب، ومن القماري صنفٌ يطبع عليه كالشمع، وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهراً فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه ‖ . 243/4

ذكر القرنفل

وأما أشجار القرنفل فهي عاديةٌ ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام، وليست بمتملكةٍ لكثرتها ! والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان، والذي يسمّيه أهل بلادنا نُوّار القرنفل هو الذي يسقط من زهره، وهو شبيه بزهر النَّارنج، وثمر القرنفل هو جوز بُواَ المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب، والزهر المتكون فيها هو البَسْبَاسة، رأيت ذلك كله وشاهدته (20).

---

(19) هنا في معظم النسخ بياض بعد كلمة الحردالة تاتي بعده جملة تبتدئ هكذا : هو الذي يذبح ... وقد حذفت هذه الجملة من بعض النسخ الأخرى - الحردالة من أصل هندي HARTAL وتعني الرهج الأصفر.

هذا وقد ورد تعليق علمي كتبه مارسدن (MARSDEN) يصحح المعلومات التي أتى بها ابن بطوطة، ويتلخص التعليق في أن الشجرة التي تنتج الكافور (CAMPHOR)، تعادل في طولها وعظمها أكبر الاشجار... بما أن الكافور له طبيعة يابسة، فإنه لا يخرج من الشجرة على نحو ما يخرج الصمغ، وان العلماء بخبرتهم الطويلة يعرفون عن إمكانية احتواء الشجرة لمادة الكافور بضربها بعصي، وفي حالة ما إذا وجدوا أنها تتوفر على المادة، شقوها قطعاً صغيرة بنحو إسفين واستخرجوا الكافور من بين الفجوات والفرج... هذا وفي طريقي من كُوالا لامبُور إلى مُلاكا 15 مارس 1988 وقفتُ عند غابة كثيرة لأشجار الكافور حيث استمتعت بما تحدث به ابن بطوطة عن الكافور في هذه المناطق.

(20) معلومات ابن بطوطة تحتاج إلى مراجعة في نظر بعض المعلقين وهكذا فإن الاعتقاد الشعبي في الهند الشمالية ينسب القرفة ونُوار القرنفل وجوز الطيب - ونذكر هذا أولاً بأول - إلى القِشرة، والى الزهرة، والى الثمر لنفس الشجرة الواحدة ، فالبسباسة إذن ليست هي الزهر ولكنها غشاء الجوزة - هذا وهناك قشر لشجرة قريبة من شجرة القرنفل تدعى قرفة لان لها رائحةً قريبة من القرنفل تستعمل أيضا كتابل من التوابل... تذكرني هذه التعقيبات في مقدمة منتقي البيلوني وهي تقول : وبعض ما نقله قد يخالف ما ذكره غيره كما في وصفه بعض ما شاهده من عقاقير الهند فان بعضه مخالف لما ذكره الأطباء في وصفها والظن بالشيخ الصّدق"

ووصلنا إلى مرسى قاقله فوجدنا به جملة من الجُنوك معدة للسرقة، ولمن يستعصى عليهم من الجنوك، فإن لهم على كلّ جنك وظيفةً، ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقُلة وهي 244/4 ║ بقافين أخرهما مضموم ولامها مفتوح، وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة! وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندي يُوقدونه في بيوتهم، وهو بقيمة الحطب عندنا، أو أرخص ثمناً، هذا اذا ابتاعوا فيما بينهم، وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوبٍ من ثياب القطن، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير.

والفيِلةُ بها كثيرة جداً، عليها يركبون ويحملون، وكلّ إنسان يربط فيَلته على بابه وكلُّ صاحب حانوت يربط فيله عنده، ويركبه إلى داره وتحمل، وكذلك جميع أهلُ الصين والخِطا 245/4 على مثل هذا الترتيب (21) ║ .

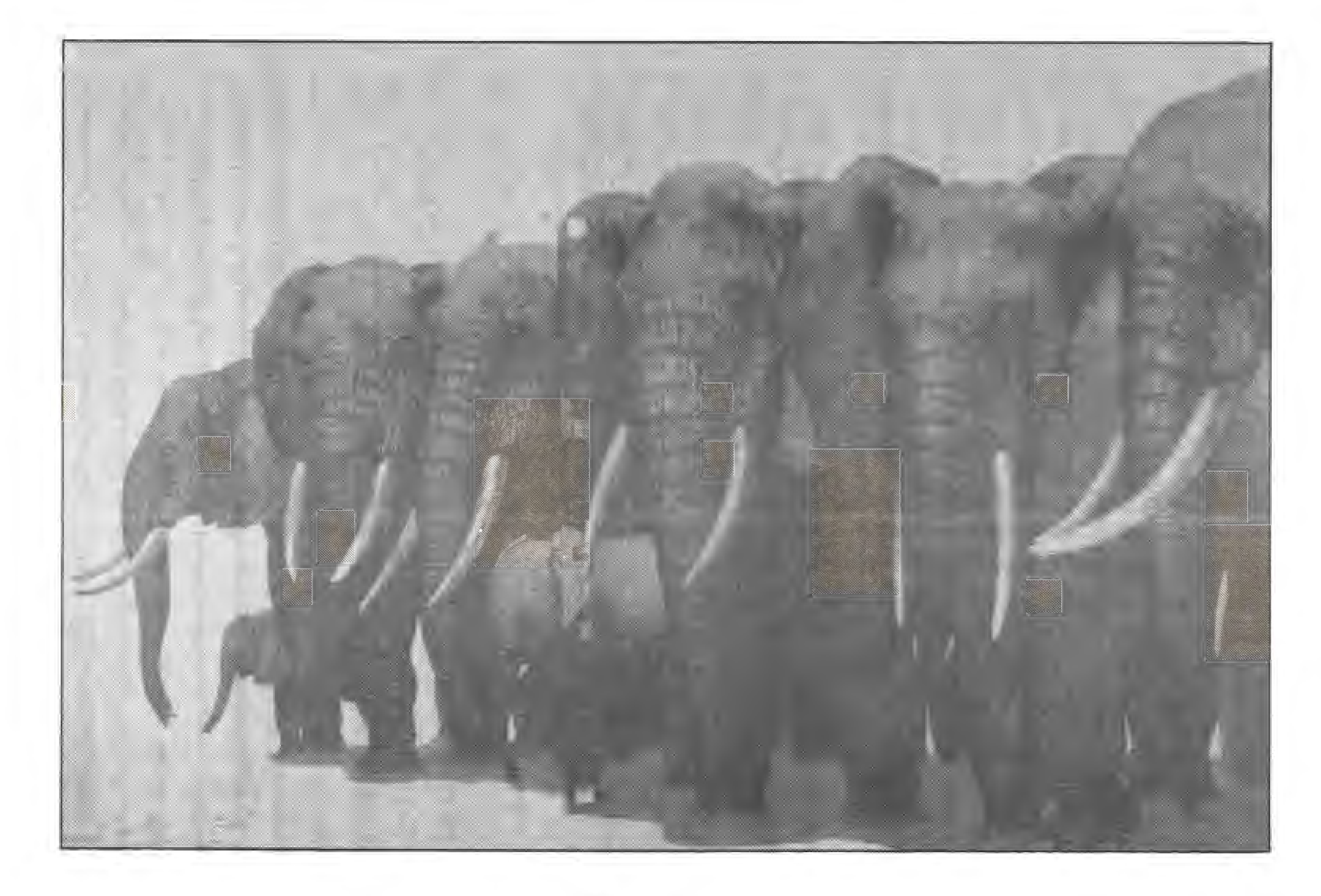
ذكر سلطان مُلْ جَاوة

وهو كافر رأيته خارج قصره جالساً على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط، ومعه أرباب دولته والعساكر يُعرضون عليه مُشاة، ولا خيلَ إلا عند السلطان، وانما يركبون الفيلة، وعليها يقاتلون، فعرف شأني، فاستدعاني فجئتُ وقلت : السلام على من اتبع الهدى، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام ! فرحَّب بي، وأمر أن يُفرش لي ثوب أقعد عليه، فقلت للترجمان : كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال : هكذا عادتُه يقعد على الأرض 246/4 تواضعاً، وأنت ضيف، وجئتَ من سلطانٍ كبير، فيجب إكرامك، فجلست ║ وسألني عن السلطان، فأوجز في سؤاله، وقال لي : تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام، وحينئذ يكون انصرافك.

ذكرى عجيبة رأيتها بمجلسه

ورأيت في مجلِس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسَفّر قد وضعه على رقبة نفسه، فوقع رأسه لحدة السكين وشدّة امساكه بالارض، فعجبتُ من شأنه، وقال لي السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له : ما رأيت هذا قط ! فضحك، وقال : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبَّتنا !! وأمر به فرفع وأحرق، وخرج لإحراقه النواب وإرباب الدولة

(21) حديث ابن بطوطة عن استعمال أهل الصين والخِطا للفيل على نحو ما هو في الهند، حرك بعض المعلقين الذين قالوا : ان الفيل انما يستعمله المغول (الحكام في الصين) للأغراض الحربية واحيانا في بعض الجهات الجنوبية، بلاد الخطا (Cathey) التي تعني شمال الصين لم تكن تابعة لحكم دولة سونك الى أن اتم قوبيلاي Qubilai فتحه للبلاد كلها – السَّرقة هنا تعني القرصنة.



عن الفيلة بمرسى قاقلة

247/4 والعساكر والرعايا ▓ وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه وعظّموا لأجل فعله! وأخبرني من كان حاضراً في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به كان تقريراً لمحبته في السلطان، وأنه يقتل نفسه في حبّه كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه، وجدّه نفسه في حب جده !

ثم انصرفت عن المجلس وبعث إلي بضيافة ثلاثة أيام. وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما إلى البحر الكاهل (22) وهو الراكد، وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرضٍ تجاوره، ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع إتساعه، ولأجل هذا البحر تتبع كلَّ جُنك من جنوك الصين ثلاثةُ مراكب كما ذكرناه، تجذف به فتجرُّه، ويكون في الجُنك مع ذلك ▓ نحو عشرين 248/4 مجدافا كباراً كالصَّواري يجتمع على المجداف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها، ويقومون قياماً صفين كل صفٍّ يقابل (23) الآخر، وفي المجداف حبْلان عظيمان كالطوانِيس (24) فتجذف إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذف الطائفة الأخرى، وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان، وأكثر ما يقولون : لَعْلَى لَعْلَى.

وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوماً، وعجبت البحريّة من التسهيل فيه، فإنهم يقيمون فيه خمسين يوماً إلى أربعين وهي أنهى ما يكون من التَّيسير عليهم.

ثم وصلنا إلى بلاد طَوَالسي، وهي بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل، وملكُها هو المسمى بطَوالسي (25)، وهي بلادٌ عريضة، ومَلكها يُضاهي ملك الصين وله

---

(22) نَعَت ابن بطوطة هذا البحر بالكاهل وهو نعت فارسي يعني الراكد كما قال والقصد على ما أرى إلى المحيط الهادي كما نعته الجغرافيون فيما بعد... وقد تحدث الادريسي في هذه المنطقة عن البحر الزفتي لان ماءه كدِر...

(23) يراجع IV, 91-92...

(24) (الطوانيس) بالنون عوض الباء التي يستشكلها دوزى، والطوانيس تعني الدَّبابيس.

(25) تحديد بلاد طوالسى (Thaoâlicy) كانت وما تزال محلَّ نقاش متواصل بين المهتمين بالرحلة، وينبغي في رأي نيكولاس زافرا (N. Zafra) رئيس قسم التاريخ بجامعة الفيليبين أن تكون طواليسي بمملكة شامبًّا (Champa) بالهند الصينية، ومما يذكر في هذا الصدد أن كلمة طاوَال (Taval) تعني لقباً يعطي للأمراء والنبلاء في شامبًّا، وفي الباحثين كهنري يول (H. Yule) من يرى أنها سولو (Sulu) جنوب غربي الفيليبين، ومنهم كالاستاذ جوزي ريزال (Jose Rizal) من يرى كذلك أنها توجد في لوزون (Luzon) بالفيليبين وفي الباحثين مَن قال : ان (طواليسي) كانت توجد باليابان! وأذكر بهذه المناسبة، أن الوزير الأول المغربي السيد احمد عصمان "فوجي" وهو يزور اليابان عام 1976 عندما سمع الوزير الياباني السيد طاكيو ميكي T. Miki يرحبُّ به قائلا : يسعد اليابان ان تستقبل في شخصكم المغربي الثاني بعد الزيارة التاريخية التي قام بها مسيو ابن بطوطة لبلادنا.!!

وأرجو بهذه المناسبة أن أشكر الزميل الفيليبيني الأخ قيصر أديب مَا جُول (CESAR ADIB MAJUL) من جامعة الفيليبين على مراسلته منذ تاريخ 2 نونبر 1976 التي لخصت لي بعض ما يمكن أن يقال في هذا الصدد، – د. التازي : تاريخ دخول الاسلام للفيليبين، محاضرة ألقيتها في مانيلاً يوم الاربعاء 11 يونيه 1980. وكنت أرافق في هذه الرحلة المستشار أحمد ابن سودة...

الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شيء. وأهل هذه البلاد عبدة أوثان، حسان الصورة، أشبه الناس بالترك في صورهم، والغالب على ألوانهم الحمرة، ولهم شجاعة ونجدة، ونساؤهم يركبن الخيل ويحسّن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء، وأرسينا من مراسيهم بمدينة كَيْلُوكَرِي، وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وكاف مفتوح وراء مكسور، وهي من أحسن مدنهم وأكبرها (26) وكان يسكن بها ابن ملكهم (27)، فلما أرسينا بالمرسي جاءت عساكرهم ونزل الناخوذة إليهم، ومعه هدية لابن الملك، فسألهم عنه، فأخبروه أن أباه ولاّه بلداً غيره، وولى بنته بتلك المدينة وإسمها أُرْدُجَا (28) بضم الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم ▒ .

250/4

ذكر هذه الملكة

ولما كان اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كَيْلُوكَرِي استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب، والكَرَاني (29) وهو الكاتب، والتجار والرؤساء، والتّنديل وهو مقدم الرجال (30)، وسپاه سالار وهو مقدم الرماة، لضيافةٍ صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخودة مني أن أحضر معه، فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم فلما حضروا عندها، قالت لهم : هل بقى أحد منكم لم يحضر ؟ فقال لها الناخودة : لم يبق إلا رجلٌ واحد بَخْشِي،

(26) تتبع كلام ابن بطوطة عن التنافس المستمر بين ملك طوالسى وبين ملك الصّين الذي يوحي ربّما بأنّ بلاد طواليسى تعنى بلاد اليابان الحالية، وحديثه عن احدى مراسي طوالسى كذلك يعبّر عن وجود طائفة من المراسي يكوّن مرسى كَيْلوكَرى (Kaylukari) إحداها... وعلى نحو ما قلناه في التعليق السابق وجدنا أن عدداً من البلاد ترشح لكي تدخل في اطار طوالسى وهكذا فعلاوة على ما ذكر قبل، هُناك سِيليبس (Celebes) وطونكان والكامبودج الخ ومن حق الباحثين أن يزيدوا الموضوع دراسة وتنقيبا وان يدخلوا في الاعتبار عدد الايام والليالي التي تذكر كأمد لقطع المسافات...

Gibb : Selections p. 366 Beckingham 385.

(27) اختلفت الآراء كذلك حول موقع كيلو كري في الجنوب الشرقي لآسيا، ويجعلها الاستاذ يامَا مُوطو Yamamots وكأنها نقل عربي لكلمة Klaung Garai التي لها علاقة بما شيّده ملك شامبًا مما يحمل هذا الاسم.

C.F. Beckingham : The Travels : IV P. 885 N° 27.

(28) تعليقا على الاميرة أُورْدُجَا يسلك المعلقون طرائق قدداً، سيما وقد ورد في أوصافها ولغة حديثها ما سنقف عليه سيما أيضا وقد مرَّ هذا الاسم بنا عندما كان ابن بطوطة يتحدث عن الملكة رقم 4 من زوجات السلطان أوزبك خان ... ويرى بعض المعلقين أن الكلمة آتية من لقب أهل بروناي : (Urdana Raja). ونحن نعرف عن الوجود النّسوي المتميز في تلك المناطق التي لا تخلو من سلطانة أو حاكمة أو فارسة إلى الآن على ما رأيته رؤياعيْن وأنا أُلقي محاضرتي على جمع كبر من فضليات السيدات في مانيلا يوم الأربعاء 11 يونيه 1980 كما قلت في التعليق 25– Times Journal 12-6-1980 .

(29) الكِراني، تقدم هذا التعبير (198, II) وهو يؤدي إلى الآن في البنغال معنى كاتب المصالح العمومية.

(30) التَّنديل : ربما كان القصد إلى عريف الملاحين والنوتية لأن كلمة تنديل (Tindal) تستعمل في الهند بهذا المعنى والرُّجال ج. راجل : المشاة ، عبارة سبه سلار كلمة فارسية تعني قائد الجيش.

وهو الفقيه بلسانهم (31)، وبخشى بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسْر الشين المعجمين، وهو لا ياكل طعامكم، فقالت : ادعوه ! فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة، فقالوا : أجب الملكة ! فأتيتُها وهي بمجلسها الاعظم وبين يديها || نسوة بأيديهن الأَزِمَّة يعرض ذلك عليها، وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها وقد جلس تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفرشٌ بالحرير وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل، وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغارٍ كالخوابي والقلال والبواقيل أخبرني الناخوذة أنها مملوؤة بشرابٍ مصنوع من السكر مخلوط بالأفاويه يشربونه بعد الطعام، وأنه عطر الرائحة حلو المطعم يفرج ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة.

251/4

فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية : حَسن مِسَن يَخْشي مِسَنّ معناه : كيف حالك كيف أنَّك ؟ وأجلستْني على قربٍ منها، وكانت || تحسن الكتاب العربي، فقالت لبعض خدامها : دَوَاهْ وَبَتَكَ كاتُور، معناه : الدواة والكاغد، فأُتي بذلك فكتبت : بسم الله الرحيم الرحين، فقالتْ : ما هذا ؟ فقلت لها تنْضَري نَامْ، وتَنْضَري بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء، ونامْ بنون وألف وميم ومعنى ذلك : اسم الله، فقالت خُشن (32) ومعناه جيّد. ثم سألتْني من أي البلاد قدمت؟ فقلت لها : من بلاد الهند، فقالت : بلاد الفلفل؟ فقلت : نعم ! فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها، فأجبتها، فقالت : لا بد أن أغزوها وأخذها لنفسي، فاني يعجبني كثرة مالها وعساكرها ! فقلت لها : افعلي ! وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز وبجاموستين وعشرٍ من الضأن وأربعة أرطال جلاَّب وأربعة مَرْطَبَانات (33)، وهي || أوانٍ ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعِنْبا، كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر.

252/4

253/4

(31) بخشي (Bakshi) : إذا انطلقنا من الاصل السنسكري فإن الكلمة كانت هي الاسم الذي يعطي من لدن الترك والمغول للرهبان البوذيين.. توجد في المخطوطة المصححة عندنا كلمة الفقيه واضحة عوض القاضي في النسخة المترجمة - الأزمة ج زمام، السجل - العبارة التي قالتها الأميرة أورْدُجا سبق وأن قيلت له من لدن السلطان طرِمَشرين 33, III.

(32) كلمة تنضَري محرفة غالباً من كلمة تنْري (TANRI) وكلمة خشن تحريف لكلمة حُوش (HOS).

(33) مرطَبن : أواني خزفية تصنع في بيرمانيا، وقد ورد في كتابات باربوزا (BARBOSA) التعريف بهذه "المرطبانات" التي يقول عنها إنها جِرار من الخزف المتين والجميل، وان المسلمين يفضلونها، وهم يصدرونها من هذا المكان في مقابلة بخَور جاوة...

وأخبرني الناخودة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجَوارٍ يقاتلن كالرِّجال وأنها تَخرج في العساكر من رجالٍ ونساء فتُغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الأبطال، وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتالٌ شديد وقُتل كثير من عسكرها وكادوا يهزمون، فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره، وجاءت برأسه على رمح فافتكَّه أهله منها ▌ 254/4 بمالٍ كثير، فلما عادت إلى أبيها، ملَّكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها. وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول : لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم !

ثم سافرنا عن بلاد طوالسي

فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً، والريح مساعدة لنا، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين، وإقليم الصين متَّسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك إقْليم من أقاليم الأرض ويخترقه النهر المعروف بآب حَياة (34)، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضا نهر السَّبر، كاسم النهر الذي بالهند، ومنبعه من جبالٍ بقرب مدينة خَان بالِق تسمى كُوهِ بُوزْنه ▌ 255/4 معناه جبل القرود، ويمرُّ في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين وتكتنفه القُرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر إلا أن هذا أكثر عمارةً، وعليه النواعير الكثيرة.

---

(34) يلاحظ أن ابن بطوطة في هذه الأخريات من رحلته لم يبق على النسق الذي عهدناه منه في معظم تنقلاته السابقة من ذكر للتواريخ وتدقيق للموقع الجغرافي، لا ندري هل لما أخذ يحسه من رغبةٍ في العودة إلى وكره أم لأن ذاكرة الرحالة خانته بعد تلك السنوات الطوال في زيادة هذه البلاد التي لم يعرف لسان قومها ولم يكن يشعر فيها بما كان يشعر به وهو في البلاد الأخرى مما يعبر عنه قوله "إن خاطره كان شديد التغيّر... فكان يلازم بيته ولا يخرج إلا لضرورة" (282, IV) أمْ وهذا مهم إن الأمر يتعلق بابن جزي الذي كان على ما عرفنا – على حال من الاستعجال يفسّره لنا أنه لم يتجاوز ثلاثة شهور في جمع الرحلة التي استمرت زهاء ثلاثين سنة ! مهما يكن فقد دفع ذلك "الصنيع" من ابن بطوطة بعض المعلقين إلى القول بانه لَم يضعْ قدمه على أرض الصيّن بل ان ما حكاه عنها ربما كان يعتمد فيه على حكايات بعض التجار !! لقد لا حظوا عليه منذ البداية حديثه عن النهر الذي قال إنه يخترق اقليم الصين وقال إنه يحمل اسم آب حياة أو السرو على نحو اسم النهر الذي في الهند (437, 355 III-6, II) يضاف إلى هذا أنهم لا يعرفون جبلا قرب بيكين يحمل اسم جبل القرود إلى آخر ما قيل... ومع كلّ ذاك فاننا لم نعدم وجود باحثين امثال هاميلتون كيب ممن اتسعت آفاقهم للدفاع عن ابن بطوطة !... وكلّ الذين تحدثوا من أهل الصين عن ابن بطوطة لم يخامرْهم الشك في إنه زار بلادهم... ولعل من الطريف أن نسمع أن الرئيس شوان لاي عندما قام بزيارة المغرب أواخر 1963 اعرب عن الرغبة في زيارة ابن بطوطة باعتباره من أبرز الشخصيات التي يرجع لها الفضل في تقديم الصين لعالم الإسلام والعروبة.

وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصريَّ بل يفضله ! والأعناب والإجاص وكنت أظن أن الاجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الإجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب، يشبه بطّيخ خوارزم وأصفهان، وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جداً ولم أر قمحا أطيب منه وكذلك العدس والحمص ▌. 256/4

ذكر الفخار الصيني

وأما الفخار الصّيني فلا يصنع منها إلا بمدينة الزيتون (35) وبصين كَلان (36)، وهو من تراب جبالٍ هناك تقِدُ فيه النار كالفحم، وسنذكر ذلك، ويضيفون إليه حجارةً عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً، ثم يخمرونه فالجيّد منه ما خُمّر شهراً كاملاً ولا يُزاد على ذلك، والدّون ما خمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً، ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار!

ذكر دجاج الصين

257/4 ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً ▌ أضخم من الإوز عندنا (37) وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا، وأما الإوز عندهم فلا ضخامةَ لها، ولقد اشترينا دجاجةً فأردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمةٍ واحدةٍ فجعلناه في برمتين.

ويكون الدّيك بها على قدر النّعامة وربّما انتتف ريشه فيبقى بضعة حمراء، وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لي صاحبه : إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه، فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك.

---

(35) الزيتون كان هذا الموقع في صدر الأعلام الجغرافية التي استنجدتُ فيها بزملائي أعضاء الوفد الصيني في المؤتمر العالمي لتنميط الأعلام الجغرافية (نيويورك) وقد بعث إلى البروفيسور دوكسيانگمينك Du Xiangming مدير معهد البحث الطوبّوغرافي في بيكين بالمعلومات التالية : الزيتون : التي عرفت عند بعض المعلقين تحت اسم تسوتونك (Tseu-Thoung) هي التي تحمل اليوم اسم : قانزهو Quanz-hou، وقد ترجم الاسم الذي استعمله المعلقون المشار اليهم في كلمة صينية يمكن تهجيتها هكذا Citong الذي هو الاسم المنتحل لقانز هو... انظر ملحق المراسلات

(36) كلمة صين كلان – وهي *بالذات صين الصين : كان جواب الأستاذ المذكور عنها بما يلي* : صين كلان مرادف لكلمة Guangzhou وهي كانطون Canton... هذا و اذكر أن سليمان التاجر يسمى هذا العَلَم الجغرافي باسم (خانفو) الذي كان يترجم إلى كانطون. اخبار الصين والهند جمعت سنة 237 باريز 1948.

(37) معلومات يعززها ما سجله أودوريك أوف بُورْدينون (Odoric of Prodenone) معاصر ابن بطوطة Beckingham IV p. 889 - Not 5.



بمتحف كينشيهوانك تقف على هذه الصور من الفخّار

ذكر بعضٍ من أحوال أهل الصين.

وأهل الصين كفارٌ يعبدون الاصنام ويُحرقون موتاهم كما تفعل الهنود (38)، وملك 258/4 الصين تَتَري من ذرية تنكيز خان (39)، وفي كلِّ مدينة من مدن الصين مدينةٌ للمسلمين ينفردون بسكناهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظَّمون محترمون، وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكِلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون في مطعمٍ ولا ملبسٍ، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرةً وعليه جبة قطنٍ خَشِنة.

وجميع (40) أهل الصِّين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة، ولكل واحدٍ منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون : هو الرِّجْل الثالثة!!

والحرير عندهم كثيرٌ جداً لان الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤنة 259/4 ولذلك كثُر وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولو لا التُّجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير.

وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره، ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتماً، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشرة سمَّوه : السَّتِي، بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلوة، وهو بمعنى الكارمي بمصر (41)، ويسمون

(38) في الفصلةٍ التي تحمل عنوان (أخبار الصّين والهند التي أشرتُ إليها في التعليق 36) والتي ترجمها وعلق عليها جان سوفاجي باريز 1948، حديث عن أن أهل الصين يُدفنون في اليوم الذي ماتوا في مثله من قابل إلى آخر ما ذكروه ولم يتحدث عن عادة الإحراق التي تحدث عنها ماركوبولو في منطقة هانكز هو : الخنساء عند ابن بطوطة...

(39) كان الامبراطور الذي يحكم الصين على ذك العهد يحمل اسم طوغون تيمور Toghon Temur الذي تملك من عام 733-1333 – 771-1370، وهو الامبراطور الأخير من الدولة المغولية (Yüan) كان هو الثامن من المنحدرين من جنكيزخان وقد أُقصي عن الصين بتاريخ 1368 – بدر الدّين : العلاقات بين العَرب والصين طبعة أولى 1950 القاهرة ص 207. جامع التواريخ لرشيد الدّين.
Beckingham : The Travels... P. 889 N° 7.

(40) يبدو أن ابن بطوطة كان يتحدث عن محيط معيّن من الصين والافقد عرف أهل الصين بمطبخهم الثريّ الرفيع... كما عرفوا بأناقتهم في اللباس وتميزهم...
Jacques Gernet : la vie quotidienne en Chine à la veille de l'invasion mongole 1959 - P. 138-52.

(41) الاسم سَتِي من أصل هندي (Chetty) وتعني أحد أعضاء طبقة اجتماعية تهتم بالتجارة جنوب الهند وحول الاكارم انظر تعليقنا ج. IV ,49.



جانب من سوقهم في بكين حيث يباع كل شيء...

القطعة الواحدة منها برْكَّالة (42)، بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام.

ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون

260/4 وأهل الصين لايتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه وانما بيعُهم وشراءهم بقطع كاغد، كل قطعة منها قدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالِشت (43)، بباء موحدة وألف ولام مكسور وشين معجم مسكن وتاء معلوة، وهو يمعنى الدينار عندنا (44) وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دارٍ كدار السكّة عندنا فأخذ عوضها جُدُداً ودفع تلك، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها (45)، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قِبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أميرٌ من كبار الامراء، وإذا مضى الانسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيءٍ لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالِشت

261/4 ويشتري به ما أراد .

ذكر التراب الذي يُوقِدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين (46) والخطا (47) إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطَّفَل عندنا

(42) الكلمة من أصل فارسي (PARGALA) وتعني القطعة والجزء...

(43) بالشت كلمة فارسية وتعني في الأصل الوسادة أو الكيس وقد استعملت للقطعة الذهبية أو الفضية، ويلاحظ من الآن انتشار اللغة الفارسية في الامبراطورية الصينية وفي البلاط كذلك، وقد خصص ماركو بولو فصلا للحديث عن العملة.

(44) البالشت – كنت مضطرا إلى أن ألتجأ بتاريخ 1995/6/12127 لسفارتنا في بكين بعد أن استنفذتُ كل الوسائل وقد قام صديقنا الأستاذ السفير عبد الرحيم بن عبد الجليل باستشارة المتخصصين من أمثال الأستاذ الجامعي تْشوكاي Zhu kaï . ويذكر التقرير الذي توصلت به شاكراً أن العملة الورقية الوحيدة التي كانت متداولة في الفترة التي قضاها الرحالة المغربي في الصين أي في عهد دولة يُوان (Yuan) نوعان : BAO CHAO و JIAO CHAO ... وقد تكون كلمة بالشت تحريفا لـ BAO CHAO التي تعني النقد النفيس (يذكر أن البالشت في اصطلاح المغول قطعة ذهبية معينة المقدار كما في (فرهنك آنندراج).

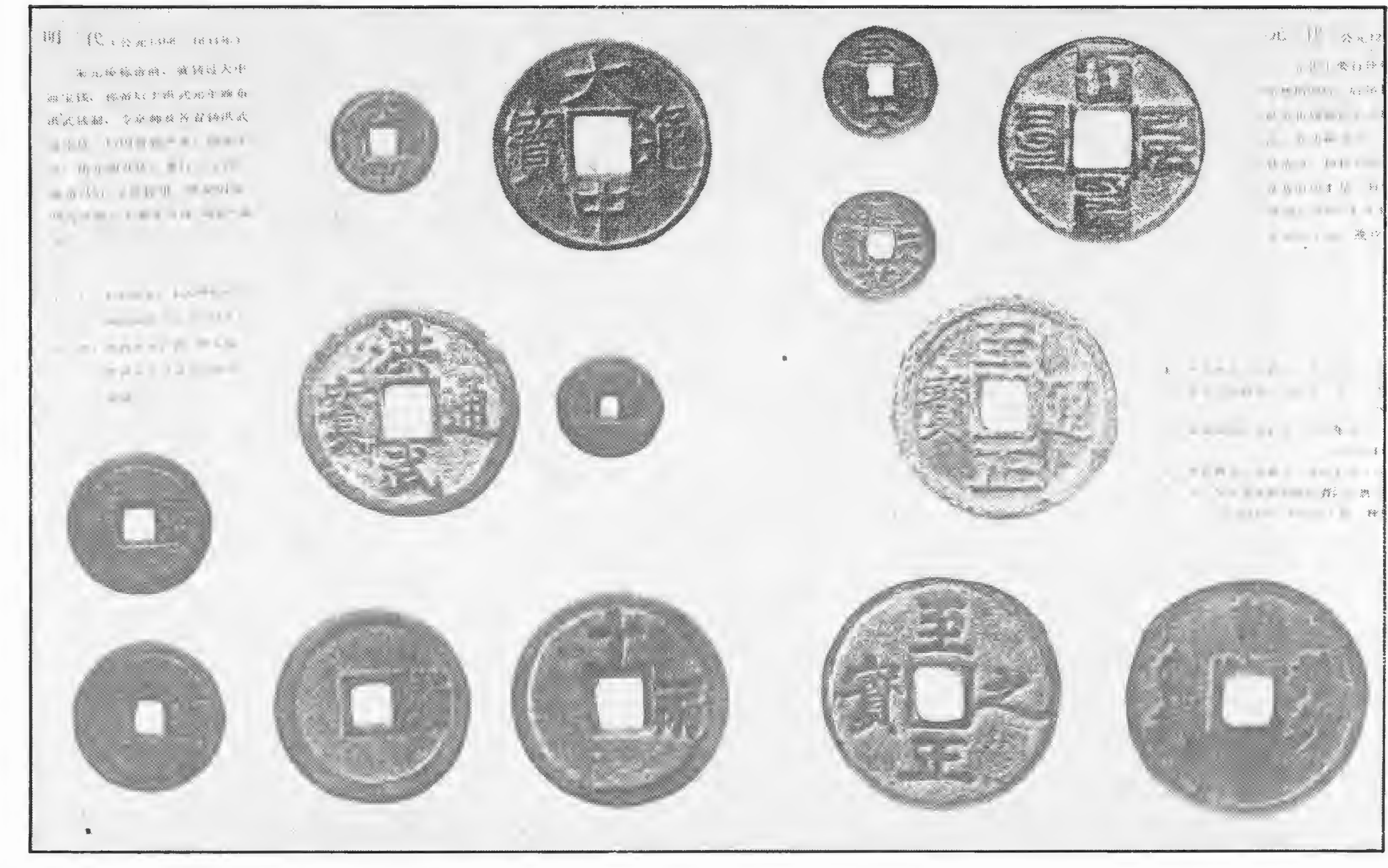
ويقول التقرير : أن الإسم الكامل لهذه العملة ZHI YUAN TONG XING BAO CHAO بمعنى نقد نفيس متداول في عهد الامبراطور. تراجع الملاحق

وقد زودنا السفير بأحسن صورة لهذه العملة عن كتاب حول تاريخ النقود بالصين...

(45) نفس المعلومات يرددها ماركو بولو بإضافة أن تكلفة التبديل تقتضي دفع ثلاثة في المائة.

(46) يقصد بالصين هنا القسم الجنوبي من البلاد في مقابلة القسم الشمالي الذي يحمل اسم بلاد الخطا... وهكذا فكلما ذكر الصين مجردة فإن قصده إلى الجنوب...

(47) كلمة الخطا (Cathay) التي تعطي للصين الشمالي كما قلنا – كلمة مستعملة من لدن الأوربيين في القرن الثالث عشر إلى السادس عشر الميلادي، ربما كانت آتية من إمارة بروطو مونغول (Proto- mongole) المنتمين إلى (ki-an) التي حكمت من عام 907 إلى عام 1122، وفي الروسيا نجد أن الصين تُسمَّى دائما قطاي (Kitay).



عملة صينية من القرن الرابع عشر (انظر التعليق رقم 44 من ج 4 ص 260)



نماذج من العملة الصينية على عهد زيارة ابن بطوطة للصين

ولونه لون الطَّفَل، تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم، وإذا صار رماداً عجنوه بالماء وييبّسوه وطبخوا به ثانية، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى، ومن هذا التُّراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون إليه حجارةً سواه كما ذكرناه (48).

ذكر ما خصوا به من إحكام الصناعات

262/4 وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدهم إتقانا فيها (49)، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم. فان لهم فيه اقتداراً عظيماً، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قطُّ مدينةً من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق!

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررتُ على سوق النَّقاشين ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي، ونحن على زيّ العراقيين فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغدٍ قد ألصقوه بالحائط، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة 263/4 صاحبه لا تخطئ شيئا من شبهه، وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادةٌ لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فرارَه عنهم بعثوا صورتَه إلى البلاد وبُحث عنه فحيثُما وجد شبه تلك الصورة أخذ.

قال ابن جزي : هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قضية سَابور ذي الاكتاف ملك الفرس، حين دخل إلى بلاد الروم متنكِّراً، وحضر وليمةً صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الأواني فنظر إليها بعض خُدَّام قيصر فانطبعت على صورة سابور، فقال للملكه : إن

(48) يخلط ابن بطوطة هنا بين تراب الفحم وبين الصلصال الذي يصنع منه البّورسُلين، والحقيقة - على ما يلاحظ - ان المادتين تمتزجان حتى تصنع منهما المادة التي تصمد للاحتراق...

(49) وردت مثل هذه الشهادة لدى تاجر عربي من أهل القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي. اقرأ الاستطراد الذي ذكره ياقوت في معجم البلدان (مادة الصين) عن رحلة أبي دُلف مِسْعر بن مهلهل الخزرجي (تـ 390 = 1000 م) لبلاد الترك والصّين والهند.

معجم البلدان تحقيق فريد عبد العزيز الجندي... دار الكتب العلمية بيروت 1410 هـ 1990 م

هذه الصورة ‖ تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس، فكان الأمر على ما قاله، وجرى فيه ما هو مسطورٌ في الكتب (50).

ذكر عادتهم في تقييد ما في المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السَّفر صعد اليه صاحب البحر وكتَّابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية، وحينئذ يباح لهم السفر فإذا عاد الجُنك إلى الصين صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فإن فقدوا أحداً ممن قيدوه طلبوا صاحب الجُنك به، فإما أن ياتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه، وإلاَّ أخذ فيه، فإذا ‖ فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفسيراً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه، ويجلس حُفَّاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم، فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجُنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن (51)، وذلك نوعٌ من الظلم مارأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه، وهو أن من عثر على سلعةٍ له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرماً، ثم رفَع السلطان ذلك لما رفع المغارم.

265/4

ذكر عادتهم في منع التجار عن الفساد.

266/4

وإذا قدم التاجر ‖ المسلم على بلدٍ من بلاد الصين خُيّر في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيَّن، أو في الفندق، فإن أحب النزول عند التاجر حُصر ماله وضُمّنه التاجرُ المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف، فإذا أراد السفر بُحث عن ماله، فان وُجدَ شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضُمِّنه، وان أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه، فإن أراد التَّسري اشترى له جاريةً وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق، وانفق عليهما.

(50) يتعلق الامر بالعاهل الساساني شابور الثاني SHAPUR II (309-379م) المعروف بصراعاته ضد ملوك الرّومان أصحاب القسطنطينية. الحكاية التي رواها ابن بطوطة توجد في تاريخ الساسانيين الذي ألفه المؤرخ الفارسي ميرخوند. وتتمة الحكاية هي أن شابور خيط إلى جلد حمار وأودع في السجن! وقد لقب بذي الأكتاف لأنه كان يثقب أكتاف معارضيه ويعلقهم منها بحبل حتّى لايعود أحد للمعارضة.!!

(51) يقدم لنا أودوريك دوبوردونون (O. DE PRODENONE) إشاراتٍ مماثلة هذا ويلاحظ استعمال كلمة (المخزن) بمعنى الدولة والحكومة على ما هو المصطلح المغربي...

267/4 والجواري رخيصاتُ الأثمان إلا أن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم ▒ وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم، غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضاً منه إن اختاروه، وكذلك إن أراد التزوُّج تزوَّج، وأما إنفاق ماله في الفساد فشيءٌ لا سبيل له إليه! ويقولون : لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فانَّها أرض فسادٍ وحسنٍ فائتٍ!!

ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الانسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة اشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل 268/4 ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن ▒ به في جماعةٍ من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع مَن يبيت به من المسلمين وخَتَم عليها، وأقفل باب الفندق عليهم فإذا كان بعد الصبح، جاء ومعه كاتبه فدعا كل انسان باسمه، وكتب بها تفسيراً، وبعث معهم من يوصّلهم إلى المنزل الثاني له وياتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم، وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق.

وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد وخصوصا الدجاج والإوز، وأما الغنم فهي قليلة عندهم.

269/4 ولْنعد إلى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا اليها ▒ مدينة <u>الزَّيتون</u> (52)، وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها، وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكَمْخَا، والأطلس (53)، وتعرف بالنسبة إليها، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنْبَالِقِية، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا

---

(52) نلاحظ أن ابن بطوطة على نحو الاسلوب الذي اتبعه عندما قدم بلاد الهند، قبل أن يفصل حركته فيها قام هنا بتقديم للصين قبل أن تنزل مراكبه بها... وهكذا فقد تحرك من طوالسى وسار سبعة عشر يوماً في اتجاه الجنوب الشرقي للصين حيث وجدناه ينزل ميناء مدينة الزيتون (Quanzhou) حالياً في اقليم (fujian) بمضيق طايوان على الخط 24°,53 شمالاً والخط 118,13 شرقا مقابلة لهذه الجزيرة ومن المعلوم أن هذه المدينة تعتبر نقطة الانطلاق التجاري البحري مع المحيط الهادئ - تعليق 35 (ملاحق)

(53) يذكر يول أن كلمة ساطان Satin واردة أصلا من زيتون، من خلال الكلمة الإيطالية القديمة ZETTANI.

(54) يُلخص ابن بطوطة المسالك المائية الصينية كلّها في النهر الأعظم الذي هو مزيج "متخيل" بين النهر الأصفر Yellow River وبين القناة الكُبرى التي تربط بيكين مع الخنساء : Hangzhou أمّا نهر جِينْكيانك (Jinjiang)، فهو قليل الأهمية ومصبّه عند مدينة (Quanshow) يراجع التعليق السابق رقم 34.

أو هو أعظمها، رأيتُ به نحو مائة جُنك كبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرةً، وهو خُور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنَّهر الاعظم.

وهذه (54) المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض، وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا (55)! وبهذا عظمت بلادهم، والمسلمون ساكنون بمدينةٍ على حدة. وفي يوم وصولي ‖ إليها رأيت بها الامير الذي توجه إلى الهند رسولاً بالهدية، ومضى في صحبتنا وغرق به الجُنك، فسلَّم علي وعرف صاحبَ الديوان بي (56) فأنزلني في منزل حسن، وجاء إليَّ قاضي المسلمين تاج الدين الأَردُويلي وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الإصفهاني، وهو من الصلحاء وجاء إليَّ كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استدنْتُ منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملةً، حافظُ القرآن مكثر للتلاوة.

270/4

وهؤلاء التُّجار لسكناهم في بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا : جاء من أرض الإسلام، وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا ‖ كواحدٍ منهم.

271/4

وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني، له زاوية خارج البلد (57)، وإليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي إسحاق الكازروني (58)، ولما عرف صاحب

---

(55) الحديث عن المقارنة بين نظام (الفيلات) في الصين وسجلماسة حيث الدار وسط الحديقة يدعونا إلى الالتفات للعلاقات المغربية الصينية، وهو الموضوع الذي عالجتْه الندوة التي حضرناها في بيكين في يونيه 1988. ذ. رضوان ليولين روى : (جامعة بيكين) العلاقات الصينية المغربية في العصور القديمة، - د. التازي : في العلاقات المغربية الصينية، هل كانت زيارة ابن بطوطة لبيكين رداً على زيارة وانغ دايوان لطنجة؟ جريدة العلم المغربية، 7 غشت 1988. - التاريخ الدبلوماسي للمغرب 6 ص 247.

(56) نلاحظ أن ابن بطوطة هنا أخذ يستعيد ذكرياته ويتفقد أصحابه فيما يتصل بالمهمة التي عهد بها اليه سلطان الهند لدى ملك الصين، ويتجلى واضحاً أن مدينة الزيتون كانت بالفعل ملتقى دوليا على مضيق طايوان هذا وإن مجموع الشخصيات التي ذكرها ابن بطوطة هنا في مدينة الزيتون (Quanzhou) من أصل فارسي، هذا ومـاتزال إلى الآن قرية بضواحي المدينة تحمل إسم قرية الفُرس. ونعلم من خلال المصادر التاريخية الصينية بأن المدينة كانت تتوفر على جالية فارسية قوية، ولذلك فإن اللغة الفارسية بالصين على ذلك العهد كانت سائدة على ما قلناه، ولا بد أن تستوقفنا هنا كلمة "الديوان" المستعملة في المغرب وخاصة عند الموانئ المفتوحة في وجه المراكب التجارية الأجنبية - الكلمة يقال إنها من أصل إيطالي Dogane أو فرنسي Douane، ويقصد بها مكتب الجمارك (ومن هنا جاءت التوصّية بابن بطوطة !) وقد تحدثنا عن هذه المصطلحات في التاريخ الدبلوماسي للمغرب.

(57) لا بد أن نذكِّر هنا بما ورد في (I ,37 - 38) من أن برهان الدين الأعرج قال لابن بطوطة وهو ما يزال بالاسكندرية : أراك تحب السياحة، فقال نعم ولم يكن حينئذ خطر بخاطره زيارة الهند والصين، فقال له برهان الدين : لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخي فريد الدّين بالهند وأخي ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين وإذا بلغتهم فسلم عليهم... ولم أزل أجول، يقول ابن بطوطة، حتى لقيت الثلاثة...

(58) يعتبر هذا الشيخ عند العامة ممن يتوسل بهم عند الخوف من أخطار البحار كما سلف في الجزء II ,90... على نحو الشيخ اليابُري بمدينة الرباط - د. التازي مؤتمر يابرة (البرتغال) 1982.



البيوت محاطة بالحدائق على نحو ماكان بسجلماسة

الديوان أَخباري كتب إلي القان، وهو ملكهم الأعظم (59)، يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني إلى بلاد الصين وهم يسمونها صين (60) كلان، لأشاهد تلك البلاد، وهي في عمالته بخلال ما يعود جواب القان، فأجاب إلى ذلك، وبعث معي من أصحابه من يوصلني.

وركبتُ في النَّهر في مركبٍ يشبه أجفان بلادنا الغزْوية إلاَّ أن الجذَّافين يجذفون فيه قياماً، ومعهم، في وسط المركب الركابُ في المقدم والمؤخر، ويظلِّلون على المركب بثيابٍ تصنع من ‖ نباتٍ ببلادهم يشبه الكتان، وليس به، وهو أرقُّ من القنب. 272/4

وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوما (61) وفي كل يوم ترسو عند الزوال بقرية نشتري بها ما نحتاج إليه ونصلّي الظهر ثم ننزل بالعشي إلى أخرى وهكذا إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كَلان بفتح الكاف، وهي مدينة صين الصّين، وبها يصنع الفخار، وبالزيتون أيضاً، وهنالك يصب نهر آبِ حَيَاة في البحر، ويسمونه مجمع البحرين (62)، وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقاً، ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين، وإلى الهند واليمن، وفي وسط هذه المدينة كنيسةٌ عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل بابٍ أسطوان ومصاطب ‖ يقعد عليها الساكنون بها، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العُميان وأهل الزَّمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة، وكذلك فيما بين الأبواب كلّها وفي داخلها المارستان للمَرْضى والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الاطباء والخدام. 273/4

وذُكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسّب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا حال له، وعمَّر هذه الكنيسةَ بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وما اليها من القرى والبساتين وقفاً عليها، وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة، وهم يعبدونها.

---

(59) كان الحاكم الاعظم في ذلك العهد طوكون تيمور (Togon TImur) انظر التعليق 39 هذا وكلمة القان تؤدي في التركية معنى لقب (الخاقان)...

(60) صين كلان وصين الصين Guangzhou كانطون انظر ملحق المراسلات

(61) يلاحظ بعض المعلقين على سفر ابن بطوطة من مدينة الزيتون التي تقع كما قلنا على مضيق طايوان، إلى مدينة صين كلان (كانطون) فيذكرون بان المحطات التي ذكرها على ذلك النهر لفترة 27 يوما غير صحيحة، القناة الكبرى غير موجودة في المنطقة فهل هناك فوالت من مذكراته؟ أو تساهل في تلخيصها؟ يراجع التعليق 34.

(62) الواقع أن الأمر لا يتعلق بالنهر الأصفر، ولكن يتعلق بنهر بي جيانك Bei Jiang راجع التعليق رقم 34.



كانطون في القرن السابع عشر

وفي بعض جهات هذه المدينة (63) بلدة المسلمين، لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض ‖ وشيخ، ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمور المسلمين كلّها راجعة اليه، وقاض يقضي بينهم. وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوي الاموال الطائلة، وأقمت عنده أربعة عشر يوماً، وتُحَفُ القاضي وسائر المسلمين تتوالى عليَّ، وكلّ يوم يصنعون دعوةً جديدة ويأتون اليها بالعشَّارين (64) الحسان والمغنين. وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سدّ ياجوج وماجوج (65) ستون يوماً فيما ذكر لي، يسكنها كفار رحَّالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم (66) ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافَر إليها. ولم أر بتلك البلادِ من رأى السد ولا مَن رأى مَن رآه ‖ .

274/4

275/4

حكاية عجيبة

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخاً كبيراً قد أناف على مائتي سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب، ولا يُحْدِث، ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها

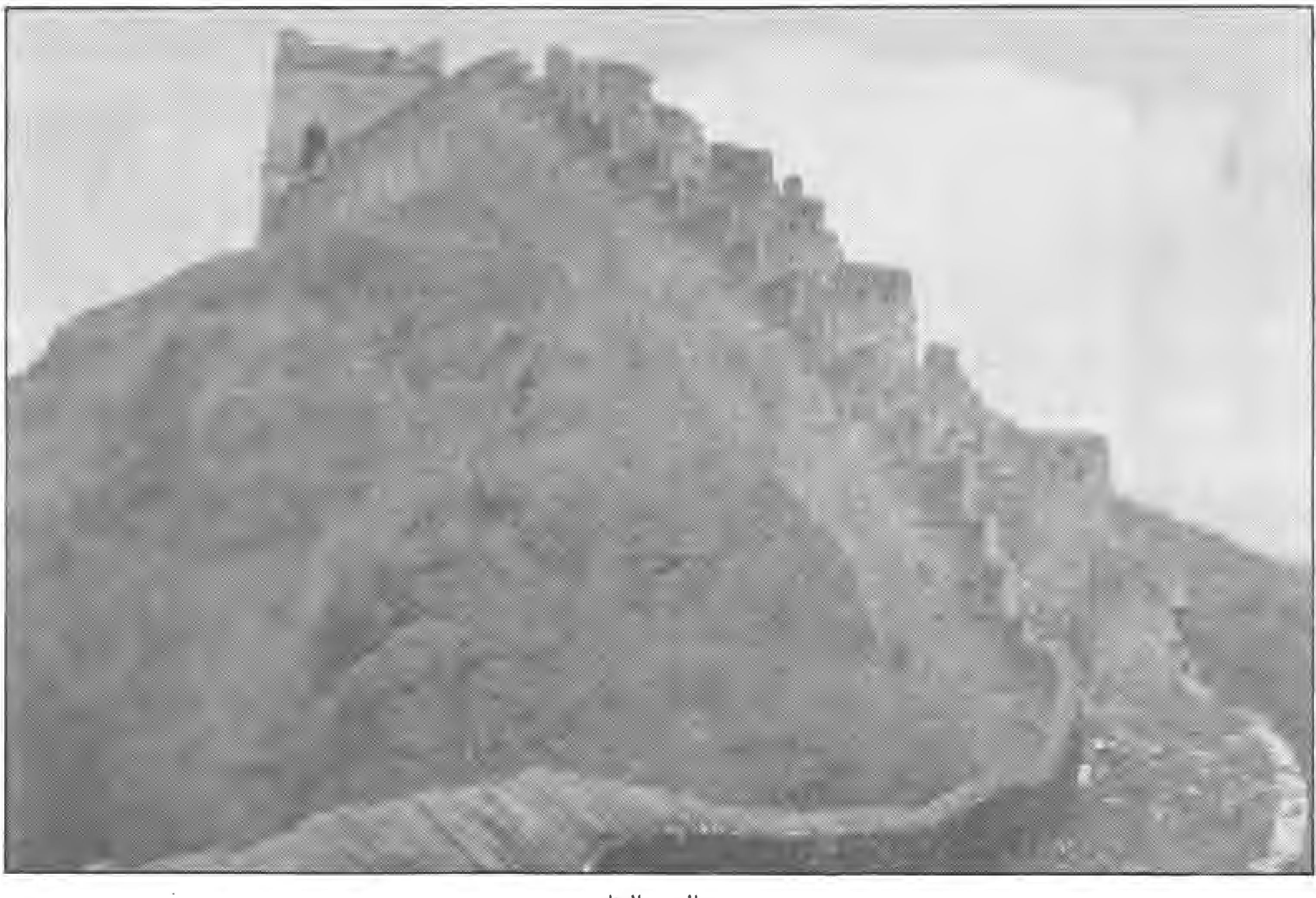
---

(63) تعرضت (كانطون) لعدة تغييرات ولذا فانه لا يوجد أثر لهذه الكنيسة التي تحدث عنها ابن بطوطة.

(64) السنجاري نسبة إلى سنجار التي تقع ضمن الجزيرة الفراتية، وقد كانت عاصمة لفرع من أسرة أتابك زنكى من عام 1170 إلى 1220م - انظر III ,241-42 أما العشارون فهم القُراء الذي يوزعون تلاوة القرآن على عشرة أقساط كما أسلفنا التعليق 288 الفصل الرابع عشر ولا أرى وجها لتعسّف التراجمة!

(65) تذكر الرواية أن سدَّ ياجوج وماجوج شيد من لدن ذي القرنين ليحمي العالم المتمدن من هجمات الشمال ويقع هذا السد حسب مدْرَكات المعاصرين اليوم على مقربة من الدربند DERBENT التي تقع على الخط 42,03 شمالا والخط 48,18 شرقا غرب بحر قزوين، وقد سمعنا عنه ونحن نقوم عام1974 بزيارة لباكو التي تقع جنوبا. ويحكى ابن خُرداذْبَة في المسالك والممالك أن الخليفة الواثق بالله بعث سفيره سلام الترجمان ليقف على حقيقة هذا السد وانه أي السفير عاد - بعد أن ساعده صاحب السرير بتقرير إلى الخليفة حول الموضوع، ومن المهم أن نذكر هنا أن هذا السد التبس على كثير من الناس ومنهم ابن بطوطة بسور الصين العظيم (La grande Muraille) الذي بناه تسين شي هوانگ تي مؤسس الامبراطورية الصينية عام 221- 211 قبل الميلاد، وقد زرناه في صيف 1988... ومن تمام الفائدة أن نحيل على تفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (تونس 1984) وحسب إفادة زميلنا في أكاديمية المملكة المغربية نيل أرْمسترونغ الذي صعد القمر فإن سور الصين هو الشيء الوحيد من صنع الإنسان الذي ظهر لهم من القمر !!

(66) يتحدث ماركو بولو عن أن شعب مملكة فُوجو Fuju ياكل لحم البشر وينسب هذا غالبا إلى القبائل البدائية بيد أن هذا لا يعْدوا أن يكون زعما بالنسبة لأهل الصين والمغول والتُبَت... ولا بد مع هذا أن نلاحظ أن نمط المطبخ الصيني الذي يحتوي على بعض المواد الغذائية التي لا يستسيغها الذوق الأوربي والتي قد تكون محرمة على المسلمين في بعض الأحيان من شأن كل ذلك أن يسهل نسبة بعض أهل الصين في الماضي إلى أكلة لحوم البشر ! انظر ج. IV ، 428 حول أكل البشر في افريقيا...



سور الصين العظيم

يتعبد فيه، فتوجهت إلى الغار، فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة، عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلّمت عليه فأمسك بيدي وشمَّها، وقال للترجمان : هذا من طَرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر !! ثم قال لي : لقد رأيتَ عجباً، أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالساً بين الاصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب؟ فقلت : نعم! فقال : أنا هو ! فقبّلت يده، وفكّر ساعة، ثم دخل الغار فلم (276/4) يخرج إلينا، وكأنه ظهر منه النَّدم على ما تكلَّم به، فتعجبنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بَوَالِشْت من الكاغد (67)، فقال : هذه ضيافتكم، فانصرفوا. فقلنا له : ننتظر الرجل، فقال : لو أقمتم عشْر سنين لم تروه، فإن عادته إذا إطلع أحدٌ على سرٍّ من أسراره لا يراه بعده، ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك، فعجبتُ من ذلك وانصرفتُ، فأعلمت القاضي وشيخ الاسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته، فقالوا : كذلك عادته مع من ياتي اليه من الغرباء ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان! والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو. وأخبروني أنه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين (277/4) سنةً ثم قدم عليها منذ سنة، وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التُّحَف على أقدارهم، ويأتيه الفقراء كلّ يوم فيعطي لكل أحد على قدره، وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر! وأنه يُحدث عن السنين الماضية، ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول : لو كنت معه لنصرته، ويذكر الخليفتين عُمَر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب بأحسن الذكر ويثنى عليهما ويلعن يزيد ابن معاوية ويقع في معاوية.

وحدثوني (68) عنه بأمورٍ كثيرة، وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال : دخلت عليه بالغار فأخذ بيدي فخيل لي أني في قصرٍ عظيم وأنه قاعد (278/4) فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في أنهار هنالك وتخيّلت أني أخذت تفاحة لآكلها. فإذا أنا بالغار وبين يديه، وهو يضحك مني وأصابني مرض شديد لازمني شهوراً فلم أعد إليه.

وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم، ولكن لم يره أحدٌ يصلي، وأما الصيام فهو صائم أبداً، وقال لي القاضي ذكرتُ له الصلاة في بعض الأيام، فقال لي : أتدري أنتَ ما أصنع؟ إن صلاتي غير صلاتك ! وأخباره كلّها غريبة، وفي اليوم الثاني من لقائه سافرتُ راجعاً إلى مدينة الزيتون، وبعد وصولي إليها بأيام جاء أمر القان بوصولي إلى (279/4) حضرته على البر

(67) راجع التعليق رقم 43 - 44 من هذا الفصل.

(68) تشير هذه الخصوصيات التي أشار اليها ابن بطوطة في حديثه عن شيخ صين كلان إلى موقف وسط بين الشيعة والسُّنة، فهو أي الشيخ يذكر الخليفتين عمر وعلي باحسن الذكر.. وهو يلعن اليزيد
Beckingham IV, p S 98 - Gibb : Travels I P. 46 N° 140.



تذكار يخلد وصول البعثة الإسلامية للصين

والكرامة (69) إن شئتُ في النهر والاّ ففي البر فاخترت السفر في النهر فجهزوا لي مركبا حسنا من المَراكب المعدة لركوب الأمراء، وبعث الأمير معنا أصحابه ووجه لنا الامير والقاضي والتجار المسلمون أزواداً كثيرة، وسرنا في الضيافة نتغدَّى بقريةٍ ونتعشى بأخرى، فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قَنْجَنْفُو (70)، وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الاخر وضم الفاء وواو. مدينةٌ كبيرة حسنةٌ في بسيط أفيح، والبساتين محدقة بها فكأنها غوطةُ دمشق، وعند وصولنا خرج إلينا القاضي وشيخ الاسلام والتجار

280/4 ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب ‖ وأتونا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدينا، لم يركب معنا غير القاضي والشيخ، وخرج أمير البلد وخدامه، وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم، ودخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الاول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسُمّارها ويسمون البَصْوَانان (71) بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون والف ونون، ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنودُ المُركبون والامير الحاكم على البلد، ويسكن داخل السور الثالث المسلمون، وهنالك نزلنا عند شيخِهم ظهير الدين القُرْلاني، بضم القاف وسكون الراء، ويسكن داخل السور الرابع الصينيون، وهو أعظم المدن الأربعة ومقدار ما بين كلّ باب منها والذي يليه

281/4 ‖ ثلاثة أميال وأربعة ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه.

حكاية [قَوام الدّين السبتي]

وبينما أنا يوماً في دار ظهير الدين القرْلاني إذا بمركب قَوام الدين السَّبْتي، فعجبت من إسمه ! ودخل إليَّ، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لي أني أعرفه، فأطلت النظر

(69) يلاحظ بعض المعلقين أنه من البعيد أن تكون الدعوة قد وجهت إلى ابن بطوطة لأنه لا يمتلك أية حجة على أنه يحمل صفة سفير. ونعتقد أن تقديم ابن بطوطة من لدن السفير الصيني الذي كان في الهند والذي صادفه في مدينة الزيتون يمكن أن يكون حجة على أنه مبعوث من ملك الهند.

(70) كما فعلتُ في الأعلام الجغرافية الصينية الأخرى التي أشكلت علي، فقد استنجدت بالمركز الوطني الصيني للخريطة فتلقيت من زميلي الأستاذ دوشيان مينگ Du Xiangming مدير المركز ما يلي : ان قان جان فو لا تتفق الآراء حول موقعها في الصين بيد أن الرأي السائد أنها تقع بين مدينة الزيتون Quanzhou وبين الخنسا، (Hangzhou)... أنظر ملحق المراسلات.

(71) حراس اللّيل والكلمة فارسية (Pashanan) نلاحظ مرة أخرى هيمنة اللغة الفارسية في المحيط الصيني.

إليه فقال : أراك تنظر إلي نظر من يعرفني، فقلت له : من أيّ البلاد أنت ؟ فقال من سبتة ! فقلت له : وأنا من طنجة ! فجدد السَّلام عليَّ وبكى حتى بكيت لبكائه !! فقلت له : هل دخلت بلاد الهند ؟ فقال لي : نعم دخلت حضرة دهلي، فلما قال لي ذلك تذكَّرت له، وقلت : أأنت البشري؟ قال : نعم ! وكان وصل الى دهلي مع خاله أبي القاسم المُرسى وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه، من حداق الطلبة، يحفظ الموطأ (72) وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاث آلاف دينار وطلب منه الإقامة عنده فأبى، وكان قصدُه بلاد الصين فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة.

أخبرني أن له نحوَ خمسين غلاماً، ومثلهم من الجواري وأهدى إلي منهم غلامين وجاريتين وتُحفاً كثيرة، ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان، (73) فيا بعد ما بينهما ! وكانت إقامتي بقَنْجَنْفُو خمسة عشر يوماً، وسافرت منها، وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تُعجبني، بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها، فمتى خرجت عن منزلي رأيت ‖ المَناكير الكثيرة، فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلا لضرورة، وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأنّي لقيت أهلي وأقاربي ! 283/4

ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشْري أنْ سافر معي لما رحلت عن قَنْجَنْفُو أربعة أيام حتى وصلت إلى مدينة بَيْوَم قُطْلُو (74)، وهي بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو، مدينةٌ صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة، وليس بها للمسلمين إلا أربعة من الدور، وأهلها من جهة الفقيه المذكور، ونزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النَّهر على العادة نتغدَّى بقرية ونتعشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوماً منها إلى ‖ 284/4

(72) إذا ما استثنيْنا مجموع الفقه للإمام الشهيد زيد بن علي فإنالموطا هو أول كتاب في الفقه الاسلامي... من تأليف الامام مالك بن أنس عمدة المذهب المالكي على ما هو معلوم...

(73) انظر ج. IV ,376 - 377.

(74) يبدو أن الأمر لا يتعلق باسم لموقع جغرافي ولكنه علم على اسم لقائد تركي تترى (بيان Bayan) قطلو، أي بيان (المحظوظ) . وهو أي (بَيَان) الذي استعمل عند ابن بطوطة وكأنه علم على مكان (كيب : مختارات ص 371 تعليق 1) اسمٌ لأحد الجنرالات الأساسيين الذين اسهموا في فتح جنوب الصين... وهناك (بيان) آخر كان وزيراً للامبراطور طوغون تيمور الذي كانت زيارة ابن بطوطة تصادفه Beckingham IV, P. 900.

مدينة الخنسا (75)، واسمها على نحو إسم الخنساء الشاعرة، ولا أدري أعربي هو أم وافق العربي؟ وهذه المدينة أكبرُ مدينة رأيتها على وجه الأرض، طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل، وهي على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين، كلُّ أحد له بستانه وداره، وهي منقسمة إلى ستّ مدن سنذكرها، وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها أفخر الدين وشيخ الاسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصري، وهم كبراء المسلمين بها (76) ومعهم علم أبيض والاطبال والأنفار والابواق وخرج أميرها في موكبه. ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور، ومحدق بالجميع سور واحد، فأول مدينةٍ منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم، حدثني القاضي وسواه أنهم اثنا عشر الفاً في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم.

285/4

وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود (77)، ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس، وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصّين، وبتنا عنده الليلة الثانية.

---

(75) يذكر الناشران الفرنسيان أن القصد حاليا إلى (Hang-Tchou-fou) ويقتصر بيكينگام على كلمة (Hang-Chou)، وقد أفادني الزميل البروفسور دوكسيانگينك بأن مدينة الخنسا، هي بالذات التي تعرف حاليا باسم هانگز هو HANGZHOU، ويفيد الأستاذ المذكور في مراسلته بتاريخ 11 غشت 1994 أن اسم الخنسا، ترجم عن كلمة صينية قديمة يمكن تهجيتها هكذا جينگشي، وهو الاسم المنتحل لكلمة هانكز هو HANGZHOU... انظر ملحق المراسلات أما عن الشاعرة الخنساء فهي تماضر بنت عمر الرياحية السليمية... أكثر شعرها رثاء وكان لها أربعة أبناء شهدوا القادسية فقتلوا جميعا أدركها أجلها عام 24 هـ 645.

(76) حديث ابن بطوطة عن حضور الإسلام بالصّين يذكرنا بما ورد في مذكرات الرحالة البندقي ماركوبولو الذي أقام كما قيل في الصين سنوات عديدة، فقد تحدث طويلا عن تأثير العرب والمسلمين وهو الذي روى قصة الأمير العربي أحمد Acmat وكان هو الذي يلي الامبراطور في نفوذه الواسع وكانت الجالية العربية والاسلامية المقيمة في العاصمة (Cambaluc) تتمتع بنفوذ عظيم إلى آخر الحديث الطويل الذي أورده ماركو بولو.

MARCO Polo : le devisement du monde (la découverte 1994)
T. I p. 219 - 220 - 121 - 222 - 223 - 224

(77) من خلال الحديث عن باب اليهود في مدينة الخنساء يظهر أنه كانت هناك جالية لليهود وهذه من المعلومات التي يظهر أن ابن بطوطة يستأثر بها دون المصادر الأولى لتاريخ الصين، هذا وحول وصف ابن بطوطة لهذه المدينة نلاحظ أن بعض المعلقين كانوا يجدون أن في تلك الشهادة غرابة ! وقد قال روس دان Rosse Dun على الخصوص إنها شهادة فيها خلل وإن ابن بطوطة لم يستطع وصف هذه المدينة هذا علاوة على اجتيازه القناة واستطاعته أداء مهمته الدبلوماسية التي عهد بها اليه لدى الامبراطور طوغون تيمور...

Ross E. Dum : The Adventures of IBN Battuta p. 260 - Beckingham : The travels T VI P 901 N°45.

وفي اليوم الثالث دخلْنا المدينة الثالثة، ويسكنها المسلمون، ومدينتهم حسنةٌ وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري، وكان أحد التُّجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها، وعُرفت ‖ بالنسبة اليه وأورث عقبه بها الجاه والحرمة، وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية، حسنةُ العمارة لها أوقاف كثيرة، وبها طائفةٌ من الصوفية، وبَنَى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمةً وعدد المسلمين بهذه المدينة كثيرٌ وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً فكنا كل يوم وليلة في دعوةٍ جديدة، ولا يزالون يحتفلون في أطعمتهم ويركبون معنا كلَّ يوم للنزهة في أقطار المدينة. 286/4

وركبوا معي يوماً فدخلنا إلى المدينة الرابعة وهي دار الإمارة وبها سكنى الامير الكبير قُرْطَيْ. ولما (78) دخلنا من بابها ذهب عني أصحابي ولقيني ‖ الوزير وذهب بي إلى دار الامير الكبير قُرطَيْ فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي (79) ما قد ذكرته. 287/4

وهذه المدينة منفردةٌ لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي أحسن المدن الستّ، ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتي فيه القوارب الصّغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد، وفيه السفن للنّزهة، والمشور في وسط هذه المدينة، وهو كبيرٌ جدّاً، ودار الإمارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات، وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب. وأخبرني الأمير قُرْطَيْ أن عددهم الفٌ وستمائة معلّم، كل واحدٍ منهم ‖ يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم أجمعون عبيد القَان، وفي أرجلهم القيود، ومساكنهم خارج القصر، ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج على بابها، ويُعرضون كلَّ يوم على الأمير مائةً مائةً، فان نقص أحدهم طُلب به أميره! 288/4

وعادتهم أنه اذا خدم احدهم عشر سنين فُكَّ عنه قيده، وكان يخيّر النَّظرين إما أن يُقيم في الخدمة غير مقيد، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها، وإذا بلغ سنّهُ خمسين عاماً أعتق من الأشغال وأنفق عليه، وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو

(78) قُرْطَى يعرّفُ على أنه هولا طاي (Hu-la-T'ai) الذي كان قد عيّن نائبَ مستشار لاقليم شيانك شي Chiang-che عام 1329 بعد أن كان فيما قبل في نفس المنصب في هُوكوانگ Hu-Kuang.
Beckingham IV, 902 N° 47 .

(79) يلاحظ أن الذي اعطاه الفرجية كان سمي جلال الدّين التبريزي وليس الشيرازي IV ,219، وما بعدها...

نحوها من سواهم، ومن بلغ ستين سنة عَدّوه كالصّبي فلم تجر عليه الاحكام (80) ! والشيوخ

289/4 بالصين يعظمون تعظيماً كثيراً ويسمى أحدهم أطا، ومعناه الوالد .

ذكر الامير الكبير قُرطَيْ

وضبط إسمه بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء، وهو أمير أمراء الصين أضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمُّونها الطُّوَى (81)، بضم الطاء المهمل وفتح الواو، وحضرها كبار المدينة وأتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام، وكان هذا الامير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده، وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام، وبعث ولدَه معنا إلى الخليج فركبنا في سفينةٍ تشبه الحرَّاقة، وركب ابن الامير في أخرى ومعه اهل الطرب وأهل الموسيقى، وكانوا يغنون بالصّيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الامير معجباً بالغناء الفارسي فغنوا شعراً منه وأمرهم بتكريره مراراً حتى حفظتُه من أفواههم (82) وله

290/4 تلحين عجيب وهو .

تَادِلْ بمِهْرَتْ دَادِه أمْ دَرْ بَحْرِ فِكْرِ اُفْتَادِه أمْ

جُوْنْ دَرْنَمَازْ اِيستاده كَويي بِمِحْرابم دري (82)

واجتمعتْ بتلك الخليج من السفن طائفةٌ كبيرة لهم القلاع الملونة ومِظَّلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش، وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون، وعُدنا بالعشى الى دار الامير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغَنُّوا بأنواع من الغناء العجيب.

---

(80) ورد في اخبار الصين والهند التي جُمعت سنة 237 سالفة الذكر أن المرء اذا بلغ ثمانين سنة لم توخذ منه جزية وأجرى عليه من بيت المال وهم يقولون "أخذنا منه شابّا ونجري عليه شيخا" !!
J. Sauvaget : Relation de la chine et de l'Inde Paris 1948 p. 21.

(81) لفظ الطُّوى بمعنى الضيافة تقدم ج. III ص. 40 ولعل الكلمة صينية كما يقول النُعيمي..

(82) هذا بيت واحدٌ وليس بيتين كما تصور النساخ قاطبةً وتبعهم طبعاً سائر الناشرين!!، والشعر لسعدى الشيرازي (ت 621-291) من قصيدة مشهورة له ومطلعها :

آخَرْ نِكاهِي بَازْكَن وَقْتِيْ كِهْ بَرْمَا بِكْذَرى

يا كِبْرْ مَنْعَتْ مِيْكُنَدْ كَرْدُوْسْتَانْ يَادْ آوَرِي ؟

ايرج أفشار : ياددا شتهاي قزويني، تهران 1337 – محمد علي فروغي : كليات سعدي تهران 1346 – بدر الدّين حيّ حسيني الصيني : العلاقات بين العرب والصين 1370=1950 ص 302 محمود حقيقت كاشاني : پابه باي ابن بطوطة ، كردش... أشكر بهذه المناسبة معالي د. علي أكبر ولايتي... ود. هادي شريفي وذ. جعفر شهيدي... ومكتبة جامعة طهران وسفارة إيران بالمغرب.



لقطات من ضريح سعدي في شيراز عن مجموعة آثار معْماري - سازمان جغرافيا نيروهاي مسلح

حكاية المشعوذ

291/4 وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة، وهو ‖ من عبيد القان، فقال له الامير : أرنا من عجائبك ! فأخذ كرة خشب لها ثقب، فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد، فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير أمر متعلّما له فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً فأخذ سكيناً بيده كالمعتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا! ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض، ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ثم بجسده ثم برأسه، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم، فقبّل الأرض بين يدي الامير، وكلمه بالصيني، وأمر له الامير بشيء، ثم إنه أخذ 292/4 أعضاء الصبي ‖ فألصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سوياً ! فعجبت منه، وأصابني خَفَقَان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك، فسقوني دواءً أذهب عني ما وجدت.

وكان القاضي أفخر الدين إلى جانبي فقال لي : والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو، وإنما ذلك شعوذة !

وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي أكبر المدن يسكنها عامة الناس، وأسواقها حسان وبها الحُذّاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية، ومن عجيب ما يصنعون بها أطباقاً يسمونها الدّست (83)، وهي من القصب وقد ألصقت قطعه أبدع 293/4 إلصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق، وتكون هذه الأطباق عشرة ‖ واحداً في جوف آخر رقّتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافاً، ومن عجائبها أن تقع من العلوّ فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغيّر صباغها ولا يَحُول، وتُجلب من هنالك إلى الهند وخُراسان وسواها.

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلةً في ضيافة أميرها، وبالغد دخلنا من باب يسمى كَشْتِي بانان إلى المدينة السادسة، ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون، ويدعون دَادْ

(83) إحالةٌ على 187, I نقول ... من معاني الدست أيضا، واللفظُ فارسي، رقعة الشطرنج، ويقولون فلان حسن الدّست شطرنجي حاذق، واذا خاب أحدهم قيل : تم عليه الدست، قال ابن شرف القيرواني :
خَلَتِ الدُّسُوتُ مِنَ الرخا * خ ففرزنتْ فيها البيادق !!
ويذكر دوزى من معاني الكلمة العرش والبساط - د. النعيمي : الفاظ من رحلة ابن بطوطة مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد 24-1974.



رسم للسحرة بالصّين عام 1681 عن بيكينگام في المجلد الرابع للترجمة الإنجليزية

كَارَان والإصبّاهية وهم الرُّماة والبِيَادَة، وهم الرُّجَّال (84)، وجميعهم عبيد السلطان، ولا يسكن معهم سواهم، وعددهم كثير.

294/4 وهذه المدينة على ساحل ‖ النَّهر الأعظم بتنا بها ليلةً في ضيافة أميرها، وجهَّز لنا الأمير قُرْطَيْ مركباً، بما يحتاج اليه من زاد وسواه، وبعث معنا أصحابه برسم التَّضييف، وسافرنا من هذه المدينة، وهي آخر أعمال الصين، ودخلنا إلى بلاد الخِطا (85)، بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل وهي أحسن بلاد الدنيا عمارةً، ولا يكون في جميعها موضعٌ غير معمور فإنه إن بقى موضع غير معمور طُلب أهله أو من يواليهم بخراجه، والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخِنْسا إلى مدينة خَان بالِق، وذلك مسيرة أربعةٍ وستين يوماً، وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان خاطراً غير مقيم، لأنها ليست بدار مقام، وليس بها مدينة ‖ مجتمعة (86)، وإنما هي قُرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر، ولَمْ أَر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنْبار إلى عانة. وكنا كلَّ ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا إلى مدينة خان بالِق، وضبط اسمها بخاء معجم والف ونون مسكن وباء معقودة وألف ولام مكسور وقاف، وتسمى أيضا خانِقو (87)، بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو، وهي حضرة القَان، والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخِطا، ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم، وكتِب إلى أمراء البحر

295/4

---

(84) يلاحظ أن كل هذه المفردات ليست صينية ولكنها فارسية : كشتي بانان، دُودْ كاران، وإصباهية وبياده، وهذا ما يؤكد هيمنة الفرس على الشارع الصيني... كما يلاحظ أن ترجمه ابن بطوطة لهذه الكلمات في محلّها ومع هذا فإن من المفيد أن نعرف أن الضرب بالرمح أهم عنصر في الحياة الحربية بالنسبة للمغول والترك.. وقد علق البروفيسور فرانك على باب المدينة البحرية بما يفيد أن ابن بطوطة يستأثر بهذه المعلومات.

Beckingham P. 205 N° 55.

(85) الخِطَا شمال الصين، ويذكر أن الصين في القرن العاشر للميلاد كانت موزعة على قسمين : الجنوب الذي كان يحكم ،ابتداء من الخنساء Hang-Zhou، من لدن دولة سونك (Sung)، والقسم الثاني الشمال المحكوم على التوالي من لدن ليا و Liao ثم دولة الصّين وقد اتمّ المغول احتلالهم للصّين عام 1234 ولدولة سونگ عام 1279 – وعن استعمال ابن بطوطة لكلمة الصّين نلاحظ أنه أحيانا يقصد بها الامبراطورية الصينية كلّها وأحيانا يقصد إلى الجنوب فقط .

(86) كانت حكاية ابن بطوطة المتعلقة بعدم وجود أية مدينة على طول ضفاف هذا النهر من مدينة الخنسا (Hang-Zhau) إلى يكين على مدّة 64 يوماً... كانت مدعاةً للشك من قبل بعض المعلّقين وكأنهم يحكمون بالحاضر على ما كان في الغابر !!

(87) ورد في الرسالة التي توصلنا بها من المركز الوطني الصيني للخرائط أن خان بالق هو بالذات بيكين واصل الكلمة (هانبلي) وهو الاسم التاريخي لبكين في القرن الرابع عشر... هذا ولا أدري عن صلة كلمة خانقو بكلمة خانفو التي وردت في أخبار الصين والهند التي جمعت سنة 237 يراجع التعليق رقم 36 – اما الأنبار وعانة فمدينتان على نهر الفرات بينهما نحو 120 ميلا...

بخبرنا، فأذنوا لنا في دخول مرساها فدخلناه، ثم نزلنا إلى المدينة، وهي من أعظم مدن
296/4 الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصّين في كون البساتين داخلها، وإنما هي كسائر البلاد
والبساتين بخارجها، ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة، حسبما نذكره.

ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغَرْجي، وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه، فأخذ الدنانير وقضى بها دينه، وأبى أن يسير إليه (88) ! وقدم على بلاد الصين فقدَّمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان.

ذكر سلطان الصين والخِطا الملقب بالقان.

والقان عندهم سِمة لكل من يلي الملك : مُلك الأقطار، كمثل ما يسمى كلُّ من ملك بلاد اللُّور بأتابك (89)، واسمه بَاشاي (90) بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسُكون الياء،
297/4 وليس للكفار على وجه الأرض مملكةٌ أعظم من مملكته .

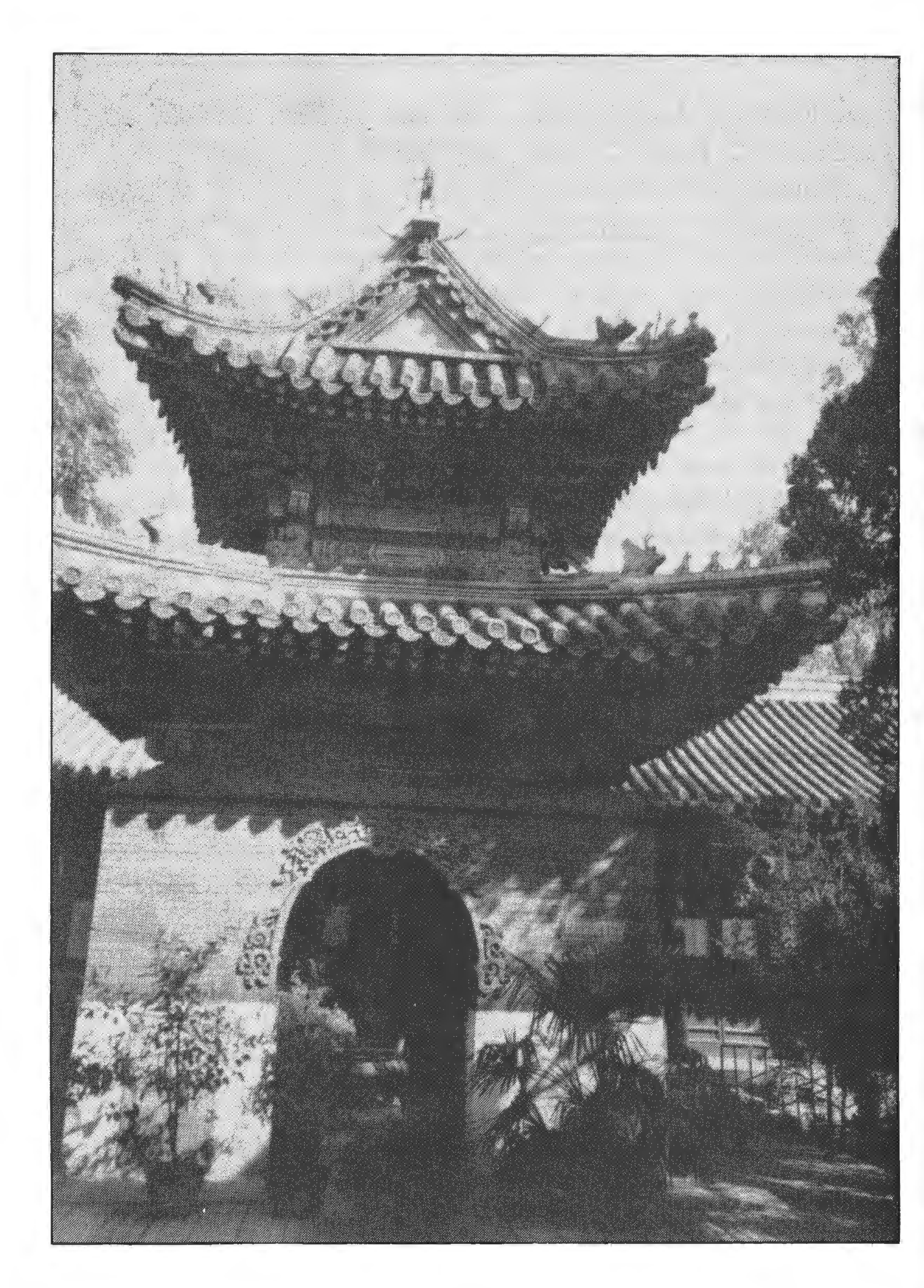
ذكر قصره [القان]

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه، وأكثر عمارته بالخشب المنقُوش، وله ترتيبٌ عجيب، وعليه سبعة أبواب فالباب الأول منها يجلس به الكُتْوال، وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره، وفيها المماليك البَرْدَدَايَة، وهم حفاظ باب القصر، وعددهم خمسمائة رجل، وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم الف رجل، والباب الثاني يجلس عليه النِّزدَارية، بالنون والزاي، وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة، والباب الرابع يجلس عليه التِّغْدَارية بالتاء المثناة والغين المعجم، وهم أصحاب السُّيوف والترسنة. والباب الخامس فيه
298/4 ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة، فالسَّقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، ويسمون ذلك الموضع المسند، وبين يدي الوزير دَواةٌ عظيمة من الذهب، وتقابل هذه السقيفة سقيفةُ كاتب السر، وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل، وعن يمين الوزير سقيفة كتّاب الأشغال، وتقابل هذه السقائفَ سقائفُ أربعُ إحداها تسمى ديوان الإشراف يقعد بها المشرف، والثانية سقيفة ديوان المُسْتخرج وأميرها من كبار الامراء، والمستخرج هو ما يبقى قِبَل العمال، وقِبَل الأمراء من إقطاعاتهم، والثالثة ديوان الغوث، ويجلس فيها أحد الامراء

(88) يراجع (III ص 255) الحديث عن برهان الدّين الصاغَرجي.

(89) يراجع II ص 31 دلالة أتابك : كلّ من يلي بلاد اللور...

(90) يظهر أن الكلمة تحريف للفارسية بَادشاه Padshah الامبراطور المغولي على ذلك العهد كما نعرف هو طوغون تيمور (Toghon Temür).



بنايات صينية

الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقته مظْلمة استغاث بهم، والرابعة : ديوان البريد يجلس فيها أمير الإخباريين، والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه ‖ الجَنْدَارية وأميرهم الأعظم، والباب السابع يجلس عليه الفتيان، ولهم ثلاث سقائف : إحداها سقيفة الحُبْشان منهم، والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصّينيين، ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين (91).

299/4

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان بالق وجدنا القان غائباً عنها إذْ ذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز (92) القائم عليه بناحية قراقُرُم وبِش بالغ من بلاد الخِطا (93) وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة.

وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغَرجي أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود، اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج، كل فوج ‖ منها عشرة آلاف فارس، وأميرهم يسمى أمير طومان (94) وكان خواصُّ السلطان وأهل دخلته خمسين ألفاً زائداً إلى ذلك، وكانت الرَّجالة خمسمائة الف، ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلْعه لأنه كان قد غيَّر أحكام اليَساق (95)، وهي الأحكام التي وضعها تنكيز خان جدّهم الذي خرب بلاد الإسلام، فمضوا إلى ابن عمه القائم، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه وتكون مدينة الخِنسا إقطاعاً له فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل (96).

300/4

وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك، فزيّنت المدينة وضربت الطبول والابواق والأنفار وأستعمل اللعب والطرب مدة شهر ثم جيئ بالقان المقتول وبنحو مائة من

(91) كل هذه التفاصيل الدقيقة بما تشتمل عليه من كلمات فارسية معروفة المعنى، وكلّ تلك الافادات التي قدمها الرجل عن الصّين كانت محلَّ تعقيب من بعض المعلقين الذين "تهمَوا" ابن بطوطة بأنه أطلق العنان لخياله! وكأني بهم يكررون الموقف الذي اتخذه ابن خلدون عندما قصد الوزير بن ودرار وأراه إنكار أخبار ابن بطوطة لما استفاض في الناس من تكذيبه... لقد قال له الوزير المذكور : إياك أن تستنكر مثل هذا لمجرَّد انك لم تَرَه !!

(92) يعلّق بعضهم على هذه المعلومة بأنه لا يوجد اسم «لامبراطور في دولة يوان Yuan ولا في خانات المغول يحمل اسم فيروز... الذي هو اسم فارسي ونحن نقول : هذه معلوماة استأثر بها ابن بطوطة فلتسمع !

(93) حول قراقرم عاصمة المغول يُراجع 50, III.

(94) يراجع 404, III

(95) يراجع 40, III.

(96) يبدوا أن هذا التمرّد المتحدث عنه على أنه وقع من فيروز، يبدو أنه التبس على ابن بطوطة بأحد الاشتباكات التي وقعت بين الأمراء المغول وبعض الزعماء اثناء السنوات التي عاشتها الدولة...

301/4 المقتولين بني عمه وأقاربه وخواصه فحُفر للقان ناوُوس (97) عظيم، وهو ‖ بيتٌ تحت الأرض، وفُرش بأحسن الفرش، وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب، والفضة وجعل معه أربع من الجواري، وستة من خواص المماليك، ومعهم أواني شراب، وبُني باب البيت وجعل فوقه التُّراب حتى صار كالتّل العظيم، ثم جاءوا بأربعة أفراس فأجاروها عند قبره حتى وقفت ونصبوا خشباً على القبر وعلقوها عليه بعد أن دخَّلوا في دُبُر كلّ فرس خشبة حتى خرجت من فمه، وجُعِل أقارب القان المذكورين في نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم وصلّبوا على قبور كبارهم، وكانوا عشرةً، ثلاثة من الخيل على كل قبر، وعلى قبور الباقين فرساً (98) فرساً.

302/4 وكان هذا اليوم يوماً ‖ مشهوداً لم يتخلف عنه أحد من الرّجال ولا النساء المسلمين والكفار، وقد لبسوا أجمعين ثياب العزاء وهي الطيالسة البِيض للكفار والثياب البيض للمسلمين، وأقام خواتين القان وخواصه في الأخبية على قبره أربعين يوماً، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة، وصُنعت هنالك سوقٌ يباع فيها ما يحتاجون اليه من طعامٍ وسواه.

وهذه الأفعال لا أذكر أمةً تفعلها سواهم في هذا العصر فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيُحرقون موتاهم، وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه احداً، لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم اذا مات ملكهم صنعوا له ناوُوساً، وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين ‖ من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب. 303/4

وأخبرني بعض كبار مسّوفة ممن يسكن بلاد كُوبَر مع (99) مع السودان واختصه سلطانهم، آنه كان له ولد، فلما مات سلطانهم أرادوا أن يُدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال : فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم وفديته منه بمال عريض ! ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار أن تكون حضرته مدينة قَرَاقُرُم، وضبطها بفتح القاف الأولى والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية،

---

(97) الناووس كلمة اغريقية يستعملها العرب كذلك للتعبير عن المقابر الخفية.

(98) من الممكن أن تكون هذه الحكاية تتعلق بجنازة احد الوثنيين المغول..

(99) سياتي الحديث مفضلا عن مسوفة الملثمين IV - 378-387-430 وحول كُوبَر كذلك ترقب ما يأتي IV 441.



صورة لطير خيالي يحمل الإنسان !

لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وما وراء النهر، ثم خالفت عليه الامراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن (100).

ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعَّرت الفِتن أشار عليَّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكُن الفتن، ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه وكتب لي بالضيافة، وسرنا منحدرين في النهر الى الخنسا ثم إلى قنْجَنْفُو، ثم إلى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر الى الهند (101)، وفي جملتها جُنْك للملك الظاهر صاحب الجاوة، أهله مسلمون وعرفني وكيله، وسُرَّ بقدومي، وصادفْنا الريحَ الطيّبة عشرة أيام، ولما قاربنا بلاد ‖ طوالسى تغيرت الريح، وأظلم الجو وكثر المطر، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس، ثم دخلنا بحراً لا نعرفه وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين فلم يتمكن ذلك وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أي البحار نحن !

305/

ذكر الرُّخ

ولما كان في اليوم الثالث والاربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً والريح تحملنا الى صوبه، فعجب البحرية، وقالوا : لسنا بقربٍ من البر، ولا يعهد في البحر جبل، وان اضطرتنا الريح اليه هلكنا، فلجأ الناس الى التضرُّع والإخلاص وجدَّدوا التوبة، وابتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، ونذر التجار ‖ الصدقات الكثيرة، وكتبتها لهم في زِمامٍ بخطي، وسكنت الريح بعض سكون، ثم رأينا ذلك

306/

(100) يلاحظ أنه طوال القرن الرابع عشر فان آسيا الوسطى : فيما بين الصين وبين الفرس، كانت أحيانا موحدة تحت حكم الخانات المنحدرين من شاغاطاي (Chaghatai) الولد الثاني لِجنكيز خان وأحيانا كانت موزعة بين اثنين أو ثلاثة من الأمراء غالبا في تلك الأسرة.
وعن تركستان التي ذكرها ابن بطوطة فإنه يقصد إلى موغُولْسْتان... هذا وابتداء من عام 1347 إلى 1363 فإن هذه كانت محكومة من لدن تغلق تيمور الذي يدعى أنه منحدر من شاغاطاي والذي احتل طرانسو كسانيا– لم يكن أحد من هؤلاء الأمراء ابنا لأخي طوغون تيمور الامبراطور المغولي للصين ولا ابن عمّ لفيروز

Beckingham, IV p 910 N° 72

(101) نرى ابن بطوطة يعود إلى مضيق طايوان ليأخذ طريق البحر مرةً أخرى عائداً من حيث أتى على خلاف العادة التي كان اعلن عنها في بداية الرحلة وهو في عبادان (21, III) من أنه لا يعود على طريق سلكها ما امكنه ذلك عاد إلى بلاد الهند، وهاهو يصادف جنكا للملك الظاهر سالف الذكر 230. IV وسنلاحظ من الآن ان الرحالة المغربي لا يكرر الحديث ولا التعريف بالمواقع التي سبق له أن علق عليها.

الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك، ورأيت البحرية يبكون، ويودع بعضهم بعضا. فقلت : ما شأنكم؟ فقالوا : إن الذي تخيلناه جبلاً هو الرّخ، وان رءآنا أهلكنا، وبيننا إذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال، ثم إن الله تعالى منَّ علينا بريح طيبة صرفتْنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته (102). وبعد شهرين من ذلك اليوم، وصلْنا إلى الجاوة، ونزلنا إلى سُمُطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاةٍ له وجاء بسبْيٍ كثير فبعث لي جاريتين وغلامين، وأنزلني على العادة وحضرت إعراس ولده مع بنت أخيه (103). 307/4

ذكر أعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجلوة، فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبراً كبيراً وكسوة بثياب الحرير، وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه وكلّهن باديات الوجوه ينظر اليهن كلُّ من حضر من رفيع أو وضيع. وليست تلك بعادةٍ لهن إلا في الأعراس خاصة.

وصعدتْ العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالاً ونساء يلعبون ويغنون، ثم جاء الزوج على فيل مزين، على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة (104)، والتاج على رأس العروس المذكور، عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والامراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزيَّنة، وعلى رؤوسهم الشواشي المرصَّعة وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله. 308/4

وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبَّل رجله وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلَّت يده (105)، وجلس إلى جانبها والخواتين يروّحن عليها، وجاءوا بالفوفل

(102) الحديث عن الرُّخ يذكّرنا كثيرا فيما يُحكى عن العنقاء التي قال عنها القزويني في عجائب المخلوقات إنها أعظم الطيور جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفار... خطفه ذات يوم عروسا مجلوة! فتوسل الناس إلى الله الذي أجلاه إلى بعض جزائر البحر المحيط.. وهي جزيرة لا يصل اليها الناس... وقد ورد في خريدة العجائب لابن الوردي (ت 749 هـ) ص 102 حديث عن جزيرة الرخ يقول: إن أحد المغاربة يحمل اسم عبد الرحمن المغربي، ويعرف بالصيني لأنه اقام به مدة طويلة، احضر معه قصبة ريشةٍ من جناح فرخ الرخ فكانت تلك القصبة تسع قربة ماء إلى آخر ما ذكره ابن الوردي ص 102 ...

(103) ينسب تاريخ ملوك فاساي (Paseï) للسلطان أحمد ثلاثين ولداً منهم زين العابدين الذي خلفه عام 761-791 = 1360-1389 انظر بيرازيموس III ص 346 تعليق 107.

(104) البوجة : تعني بالمغرب محفة العروس ويوحد باب من أبواب القصر الملكي بفاس يحمل اسم باب البوجات لأنه باب خاص بدخول الحريم والنسوة.

(105) يتعلق الامر بعادة ماليزية تهدف للاعراب عن التقدير المتبادل بين الزوجين أو بالحرى عن عدم الكلفة بين الطرفين...



لقطات من جاوة

والتنبول، فأخذه الزَّوج بيده وجعل منه في فمها ثم أخذت هي بيدها وجعلتْ في فمه، ثم أخذ الزوج بفمه ورقةَ تنبول وجعلها في فمها، وذلك كله على أعين الناس، ثم فعلت هي كفعله، ثم وُضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا. 309/4

ثم لما كان في الغد جَمَعَ الناس وجدَّدَ له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب.



لقطات من جاوة مع شكرنا لأم سليمان...

لقطات من سمطرة



رسم لقبْرية السلطان الملك محمد الظاهر(؟) وهذا نص مافيها :

«هذا قبر السعيد الشهيد المرحوم السلطان بن السلطان الملك الظاهر شمس الدنيا والدّين محمد بن الملك الصالح، توفي ليلة الأحد ثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة السادس والعشرين وسبعمائة من الهجرة النّبوية»

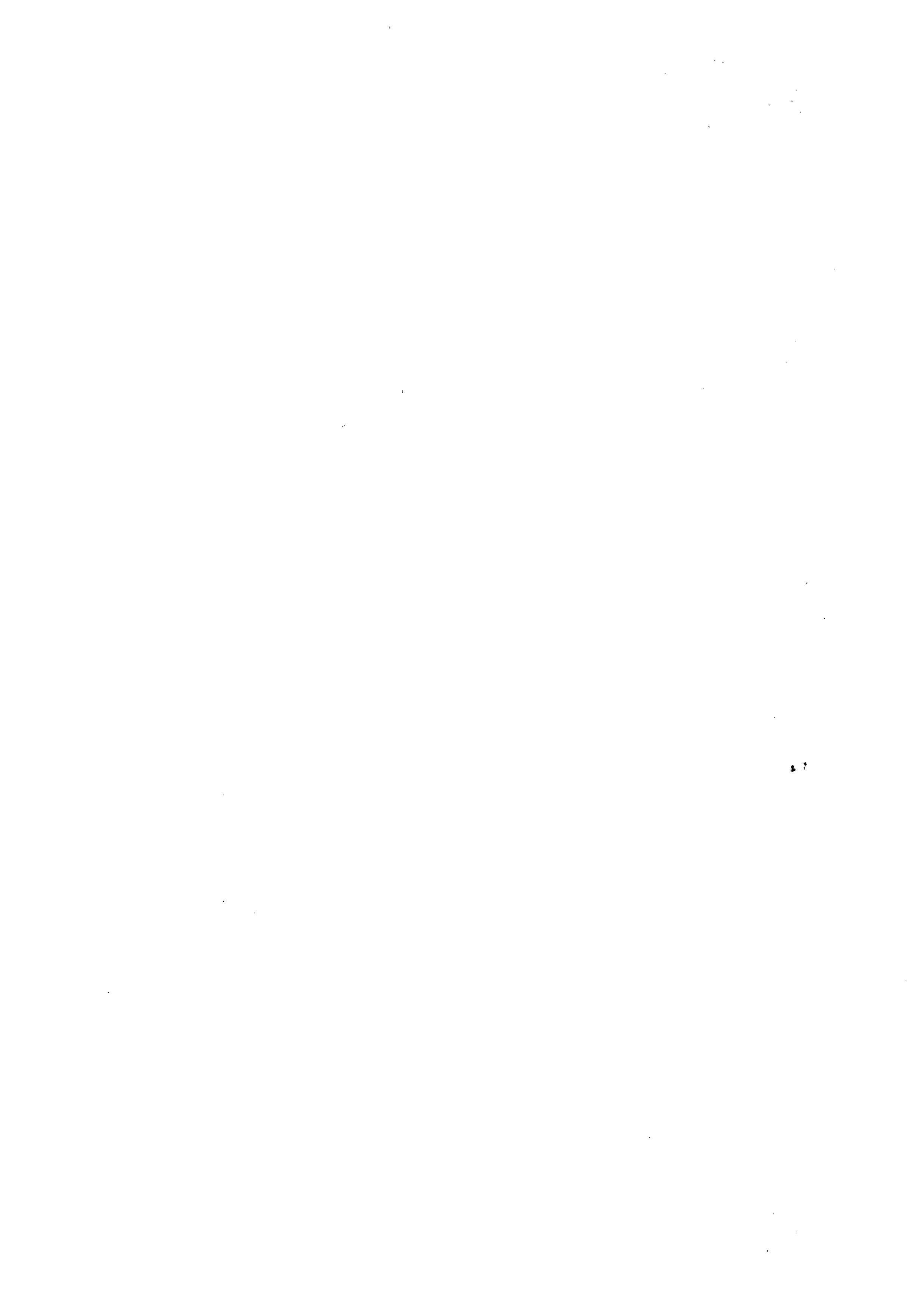
وبهذه المناسبة نجدد شكرنا للزميل فان كونينكسفيلد... عن الأصل من مكتبة (Bijgewerkte) جزء IV ص 230-307



الفصل السادس عشر

العودة إلى المغرب

- من الجاوة إلى قالقوط
- العدول عن فكرة الرجوع للهند
- أخذ الطريق إلى ظفار محرم 748 = يناير 1347
- من البصرة إلى دمشق
- من دمشق إلى القاهرة
- من القاهرة إلى الحجاز لأداء الحجة السادسة
- من الحجاز إلى مصر فتونس
- من تازة إلى فاس والمثول بين يدي السلطان أبي عنان
- ذكر بعض مآثر ومناقب أبي عنان




خان بالق
الخنساء
قنجنفو
الصين
الزيتون
صين الصين
برمانيا
لاوس
طايلاند
كامبودج
فيتنام
ماليزيا
ملكا
سنغفور
سومطرة



وأقمت بهذه الجزيرة (الجاوة) شهرين ثم ركبت في بعض الجُنوك وأعطاني السلطان كثيراً من العُود والكافور والقرنفل والصّندل، وزوّدني وسافرت عنه، فوصلت بعد أربعين يوماً إلى كَوْلم، فنزلت بها في جوار القَزْويني قاضي المسلمين، وذلك في رمضان، وحضرت بها صلاة العيد (1) في مسجدها الجامع، وعادتهم أن ياتوا المسجد ليلاً فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح، ثم يذكرون إلى حين ‖صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون.

310/4

ثم سافرنا من كَولم إلى قالقوط وأقمنا بها أياماً وأردت العودة إلى دهلي، ثم خفت من ذلك (2)، فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار، وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين (3) ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طأطأ.

ذكر سلطانها [ظفار]

ووجدت سلطانها في هذه الكرة الملك الناصر بن الملك المغيث الذي كان ملكاً بها حين وصولي إليها فيما تقدم (4) ونائبه سيف الدين عمر أمير جَنْدر (5) التركي الأصل. وأنزلني هذا السلطان وأكرمني.

ثم ركبت البحر فوصلت إلى مسقط، بفتح الميم، وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف ‖ بقُلب الماس (6) ثم سافرنا إلى مرسى القُرَيَات، وضبطها بضم القاف وفتح الراء

311/4

---

(1) يعني من عام 747 موافق 15 يناير 1347.

(2) كان ابن بطوطة يخاف من السلطان محمد بن تغلق الذي قد يتّهمه بالتقصير في أداء المهمة، وقد ذكرني حاله بحال الطبيب الصيدلي المعروف ابن البيطار الذي أقدم على الانتحار وقد خاف من بطش الملك الصالح الذي كان عهد اليه بمهمة عِلمية في مقابلة أموال سلّمها اليه على ما يقوله العُمري فوقع ابن البيطار في حب نصرانية اسمها مريم ببيت المقدس انستْه مهمته وصرف كل الاموال عليها حتى فوجئ ذات يوم بأن الملك الصالح يقوم بزيارة للمنطقة...!!
د. التازي : حياة ابن البيطار، بحث ألقي بجامعة حلب بمناسبة اسبوع العِلم الثالث والثلاثين بتاريخ 6-12 نونبر 1993 وصدر ضمن أعمال المجلس الأعلى - مطبعة دار الكتاب - سوريا 1995 .

(3) أول محرم 748 يوافق 13 ابريل مايه 1347.

(4) حول سلطان ظفار يراجع الجزء II 211-212.

(5) جَنْدر وجندار وتجمع على جنادره تردد ذكرها وخاصة (64, II - 127 - 151 - 174 - 175 - 198)... وأغلب الظن ان الكلمة مخففة من جند دار، وتعنى في الشرق الشرطي، وفي اليمن تعنى الحرس الملكي، وأمير جندار قائد الحرس... وعند ذكر القلقشندي لوظائف الدولة ذكر إمرة جاندار وانها تعنى ما يشبه الحجابة وهو المشرف على الزرد خانة (سجن خاص لكبار ورجال الدولة) التي هي أرفع قدراً في الاعتقالات ولا تطول مدتها فإمّا أن تبْرأ ساحته أو يقطع رأسه ! وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يرأس الزفّة (موكب السلطان)... وصاحبها مقدّم الف.

(6) قُلب الماس تقدمت الكلمة عند حديثه عن مالديف، ويشبه أبيرون في المغرب (IV ,112).



جانب من مدينة مسقط وقلعتها التاريخية



في الطريق إلى مَرْسَى كلباء



على متن المركب إلى هرمز

والياء آخر الحروف والف وتاء مثناة، ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّة، وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها، ثم إلى مرسى كَلْبة ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب، ثم إلى قَلْهات، وقد تقدم ذكرها(7) ، وهذه البلاد كلّها من عمالة هُرمز (8)، وهي محسوبة من بلاد عُمان،

ثم سافرنا إلى هُرمز وأقمنا بها ثلاثاً وسافرنا في البر إلى كَورَسْتان (9) ثم إلى اللاَّر ثم إلى خُنْج بال، وقد تقدم ذكر جميعِها (10)، ثم سافرنا إلى كَارْزِي (11)، وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاي، وأقمنا بها ثلاثاً ثم سافرنا إلى جَمَكَان، وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون، ثم سافرنا منها إلى مَيْمَن، وضبط اسمها بفتح الميم وبينهما ياء آخر الحروف مسكنة وآخره نون، ثم سافرنا إلى بسًّا (12)، وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهملة مع تشديدها، ثم إلى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا اسحاق على مُلكه إلا أنه || كان غائبا (13) عنها، ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين (14) قاضي القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به.

312

(7) ذكر ابن بطوطة هذه الموانئ على غير ترتيب كما فعل في السابق والواقع أن المتّجه نحو هرمز عليه أن يبتدئ بقلهات ثم القريات ثم مسقط (وبقرية السّيب : شبا) ثم كلباء التابعة اليوم لإمارة الشارقة على ماقلناه في ص II، 299 تعليق 118.

(8) يفيدنا ابن بطوطة هنا أن المدن التي ذكرها ومنها قلهات تابعة لعمالة هرمز ولو أنها معدودة من عُمان، واذا راجعنا التاريخ فسنجد أن ولاة قلهات أيضا كانوا أحيانا يحكمون في هرمز، ومعنى هذا أنه كان هناك مدّ وجزر حسب قوة الحاكم في الشمال أوالجنوب وهكذا فإن الأمير محمد القلهاتي حكم هرمز عام 1243 إلى عام 1277 و بعد وفاته استولى أحد عبيده الأتراك : إياز على السلطة 1291-1311 وعند وفاة هذا الأخير تسلمت زوجته بيبّي مريم الحكم حتى حوالي عام 1320 II, ت 120 – Note 100
Gibb : Travels II 396

(9) كَوْرَسْتان تقدمت في الجزء II, 239 كَوْراستان بألف بعد الراء خطأً .هناك قلنا انها تحمل في الخريطة الأيرانية اسم كهورستان... نقلت موسوعة (لغة نامه) اوصافها عن ابن بطوطة...

(10) انظر جزء II, 240-241.

(11) كارْزِي : أوكارزين مدينة قديمة تقع على الساحل الأيمن لنهر سَكّان أو مَنْد.

(12) يضع مستوفي جَمْكَان على بعد خمسة فراسخ جنوب كَوَر مِمَند (التي يسميها ابن بطوطة مَيْمَن) وبين كارزين – ميمند توجد في شرق المدينة الحالية التي تحمل اسم فيروزاباد... اما فاسا FASA التي وردت في تاليف أبي الفداء فانها تقع جنوب شيراز انظر موسوعة لغتنامه.

(13) حول أبي اسحاق : انظر ج II ص 64-72. عند عودة ابن بطوطة في صيف 1347=748 كان أبو إسحاق يخوض غارة ضد مبرز الدين محمد سلطان يزد.

(14) حول مجدّ الدين اسماعيل بن محمد بن خُذَاداد انظر ج II ,54-63-67-79-83, III, 254.

ثم سافرت إلى ماينِ (15)، ثم إلى يزد خاص (16)، ثم إلى كَليل (17)، ثم كُشك زَرَّ (18) ثم إلى إصبهان (19)، ثم إلى تُستَر (20)، ثم إلى الحُوَيزا (21) ثم إلى البصرة، وقد تقدم ذكر جميعها (22)، وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها وهي قبر الزّبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وحليمة السعدية وأبي بكرة، وأنس بن مالك، والحسن البصري وثابت البُناني ومحمد بن سيرين، ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله التسترى (23) رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ثم سافرنا من البصرة فوصلْنا إلى مشهد علي بن أبي طالب (24) رضي الله عنه وزرناه، ثم توجهنا إلى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك، ثم إلى الحِلة حيث مشهد صاحب الزمان (25) واتفق في بعض تلك الأيام أن وَلِيها بعض الأمراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك، ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الامير، فأصابت ذلك الوالي علةٌ مات منها سريعاً فزاد ذلك في فتنة الرافضة وقالوا : إنما أصابه ذلك لأجل منْعه الدابة فلم تمنع بعد !

313/4

ثم سافرتُ إلى صرصر (26)، ثم إلى مدينة بغداد، وصلتُها في شوال سنة ثمان

---

(15) حول ماين انظر ج II ص 52 حيث رسم هكذا : ما ين بياءَين اثنتين.

(16) حول يزد خاص (YAZDIKHWAST) انظر ج II, 51.

(17) انظر II, 50.

(18) تقدم ذكر كُوشكِ زر القصر الذهبي III, 329. ولكن في الهند – المكان المقصود هنا هو كوشكِ زرد (Kuski - ZARD) (القصر الأصفر)، هذا الاسم يظهر على الخرائط هكذا، ولكنه دوّن هكذا : كوشك –إ– زَر Kushk-e-zar في خريطة ايران التي اصدرتها مصلحة الخريطة التابعة لوزارة الدفاع، واشنطن D.C. 1984

(19) انظر الجزء II, 43 - 50

(20) انظر الجزء II, 23-29.

(21) القصد إلى الحويزاء (بالهمزة في الآخر) وقد تقدمت في الجزء II ص 93.

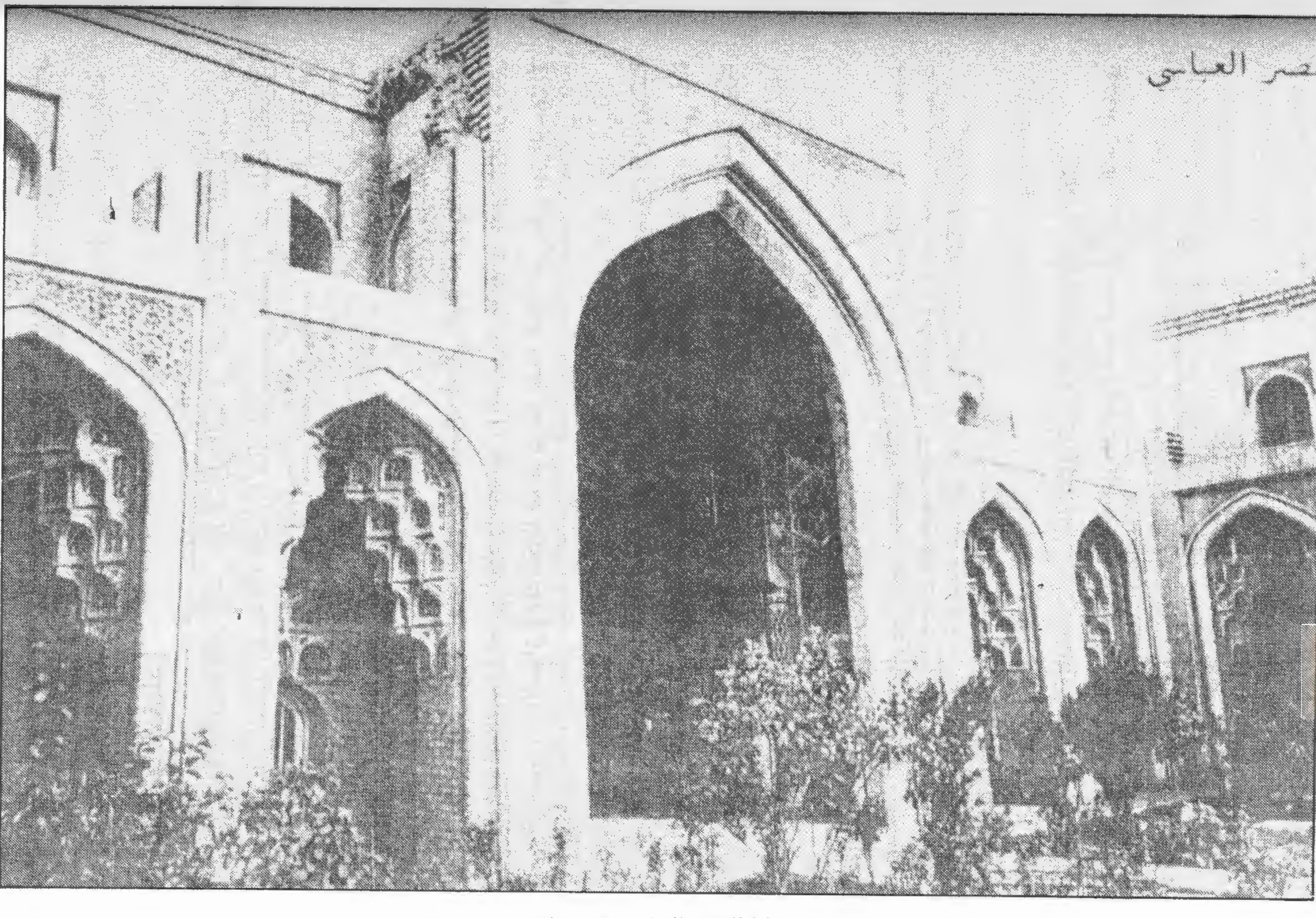
(22) الجزء II ص 8-16.

(23) كل هذه الشخصيات سبق الحديث عنها جزء II ص 14-15 باستثناء ثابت بن أسلم البُنَاني الذي يعتبر من المحدّثين الذين عاشوا في النّصف الأول من الثامن الميلادي = القرن الثاني الهجري – بُنَانة كانت حياً من أحياء البصرة.

(24) يراجع الجزء II ص 12 لتقف على وصف مشهد الإمام علي كرم الله وجهه.

(25) حول مسجد الكوفة يراجع ج II, 93-94... وحول مسجد الحِلة انظر II، ص 96-97...

(26) صرصر اسم لقريتين : صَرْصر العليا وصرْصر السفلى عند قناة عيسى.



بقايا القصر العباسي في بغداد
عن الدليل السياحي للعراق مع شكرنا للسفارة العراقية بالرباط

وأربعين (27)، ولقيت بها بعض المغاربة فعرَّفني بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء (28) جَبَر الله صدع الإسلام في ذلك ▌ . 314/4

ذكر سلطانها [بغداد]

كان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن بن عمَّة السلطان أبي سعيد رحمه الله (29) ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق، وتزوج زوجته دِلْشاد بنت دمشق خواجة بن الأمير الجُوبان حسبما كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن، وكان السلْطان حسن غائباً عن بغداد في هذه المدة متوجّها لقتال أتابك أفْرَاسيَاب صاحب بلاد اللور.

ثم رحلتُ من بغداد فوصلت إلى مدينة الأنبار، ثم إلى هيت، ثم إلى الحديثة ثم إلى عانة (30) وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها، والطريق فيما بينها كثير العمارة كأن الماشيَ، في سوقٍ من الأسواق ▌ وقد ذكرنا أنّا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين إلا هذه البلاد. 315/4

ثم (31) وصلت إلى مدينة الرَّحبة وهي التي تنسب إلى مالك بن طَوق (32)، ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام. ثم سافرنا منها إلى السَّخنة (33)، وهي بلدة حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى، وانما سميت السَّخنة لحرارة مائها، وفيها بيوت

(27) يوافق هذا التاريخ الهجري يناير 1348.

(28) وقعت هذه الكارثة كما نعلم يوم الاثنين 7 جمادى الثانية عام 741 = 28 نونبر 1340 كما أنّ سقوط الجزيرة الخضراء تمّ بعد ذلك بسنتين وقد عرف عنهما ابن بطوطة كما نرى بعد مضي بضع سنوات ونلاحظ في المقابل أن أخبار سقوط بغداد تليت على المنابر في مراكش. الذيل والتكملة للمراكشي.

(29) انظر الجزء II ص 119-123.

(30) انظر الجزء II ص 30-31.

(31) انظر IV ص 295 هذا ويلاحظ أن ابن بطوطة يخترق الجزيرة الفراتية ذات التاريخ الحافل...

(32) سميت كذلك : لان مالكا بن طوق بن عتَّاب الثغلبي هو الذي رمَّمَها قديماً في القرن الثامن الميلادي لتتميَّز عن المدن الأخرى التي تحمل الاسم.

(33) السُّخْنة : واحاتٌ تقع شمال شرق تدمر حوالي 35 ميلا من حلب عام 1939 .

للرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلاً ويجعلونه في السطوح ليبرد، ثم سافرنا إلى تَدمر(34) مدينة نبي الله سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن كما قال النَّابغة:

يبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَاحِ والعَمَد(35).

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام وكانت مدةُ مغيبي عنها عشرين سنةً كاملة، وكنت تركت بها زوجةً لي حاملا (36)، وتعرفت وأنا ببلاد 316/4 الهند أنها ولدت ولداً ذكراً فبعثت حينئذٍ إلى جده للأم وكان من أهل مكناسة (37) المغرب أربعين دينار ذهباً هِنْديا، فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكرَّة لم يكن لي همٌّ إلا السؤال عن وَلَدي، فدخلت المسجد فوقف لي نور الدين السخاوي إمام المالكية وكبيرهم (38)، فسلمتُ عليه، فلم يعرفني فعرَّفته بنفسي، وسألته عن الولد فقال : مات منذ اثنتي عشرة سنة، وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية (39)، فسِرتُ إليه لأسأله عن والدي وأهلي فوجدتُه شيخا كبيراً فسلمت عليه، وانتسبت له، فأخبرني أن والدي توفي مند خمسة عشرة سنة وأن الوالدة بقيد الحياة.

وأقمت بدمشق الشام بقية السنة (40) 317/4 والغلاء شديد والخبز قد انتهى إلى قيمة سبع أواقي بدرهم نقرة، وأُوقيتهم أربع أواقي مغربية، وكان قاضي قضاة المالكية إذ ذاك جمال

---

(34) تدمر هي التي تعرف في الرواية الأوربية (PALMYRE) .

(35) النابغة الذبياني هو زياد بن معاوية، شاعر جاهلي كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها... أحد أشراف الجاهلية، كان حظياً عند النعمان ابن المنذر حتى شبب في قصيدةٍ له بالمتجرّده (زوجة النعمان) لكن النعمان لم يلبث أن رضي عنه، أدركه أجله حوالي 18 قبل الهجرة عام 608 م. هذا وبداية البيت هكذا :

وخيس الجنَّ أني قد أذنتُ لهم   يبْنون تَدْمُرَ بالصُّفاح والعمد

من القصيدة التي يعتبرها بعضهم من المعلقات ومطلعها :

يادَارَ ميَّة بالعلياء فالسند   أقْوَتْ وطال عليها سَالَف الأبد !

أنظر ياقوت في كتابه معجم البلدان.

(36) لقد كان زار دمشق رمضان 726=326 ويلاحظ أنه لم يشر إلى زواجه عند حديثه عن مقامه الأول هناك – يراجع ج I ,253 تعليق 313 .

(37) من طرائف الرحلة أن نجد فيها مثل هذه الأخبار : زوجته الحفيدة لأحد أهل مكناسة بعد الفاسية والصفاقسية التي ربّما كانت تابعةً لطنجويّة تزوج بها قبل أن يرحل ؟!

(38) الحديث عن السَّخاوي تقدم ج I ,214 - 241 - 242 يلاحظ أن لقبه في المرجع الأول بدر الدّين مع انه نور الدّين، ونذكر ان ابن بطوطة في زيارته الأولى لدمشق أقام عنده.

(39) يراجع I ,218.

(40) يعني إلى آخر شهر مارس 1348... هذا وقد ردد بعضهم ما قيل عند مقامه الأول من أنه يبعد أن يأخذ تلك الاجازات في ذلك الأمد القصير، وهو كلام لا يلتفت اليه !!

الدين المسلاتي (41) وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القُونَوي، وقدم معه دمشق فعُرِفَ بها، ثم ولي القضاء، وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين ابن السُّبكي وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شاه (42).

حكاية [قتلى الخُبْز]

ومات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق وأوصى بمالٍ للمساكين، فكان المتولى لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كلَّ يومٍ بعد العصر، فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ومدّوا أيديهم إلى خبز الخبازين، وبلغ ذلك الامير أرغون شاه فأخرج زبانيَّته فكانوا حيث ما لقوا أحداً من المساكين قالوا له : تعال تاخذ الخبز ! فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك اللية، وركب من الغد، وأحضرهم تحت القلعة، وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وكان أكثرهم بُرّاءَ من ذلك، وأخرج طائفة الحرافيش (43) عن دمشق فانتقلوا إلى حمص وحماة وحلب، وذكر لي أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلا وقُتل. 318/4

ثم سافرت من دمشق إلى حمص ثم حَماة ثم المعرَّة ثم سَرمين ثم إلى حلب (44) وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رُغْطَى (45)، بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة.

---

(41) هو محمد بن عبد الرحيم بن علي بن عبد الملك... السَّلَمِي المسْلاتي الملقب بجمال الدين المالكي... سمع بالاسكندرية وبمصر والشام وولى نيابة الحكم بدمشق ثم ولى استقلالاً قضاء دمشق أكثر من عشرين سنة... كان حسن الشكل والبزة ظريفا... كان يتكلم في الأدبيات ويظهر العجائب في مقاماته الحجازيات والحلبيات... أدركه أجله بمصر في ثالث عشر ذي القعدة 771 بالقاهرة وهو والد القاضي سِرِّيّ الدين الذي تحول شافعيا. حول القُونوي انظر I , 214 .
- الدرر 4 ، ص 129. تحقيق محمد سيد جاد الحق 1967.

(42) أرغون شاه أو ارغون الصغير الكاملي نائب حلب، كان أحد مماليك الصالح اسماعيل رباه وهو صغير السن، كان جميلا جداً، فلما ولى الكامل حظى عنده وقدمه وأمَّره مائة (قائد المائة)... ولكنه لم يلبث وقد شعر بالتآمر ضده أن فر إلى مصر حيث تلقاه أهلها بالشموع... وانتهى أمره إلى الامتحان فأقام بالقدس بطّالًا، ومات به في شوال 758=1357، وقد التبس على الناشرَيْن الفرنسيَيْن (في الفهرس) بارغون شاه الدوادار الذي توفي بحلب ربيع الأول سنة 731-1330 فظناه واحداً... الدُّرر الكامنة ج I ص 375-374 بيكينگام ج. IV ، 917 تعليق 41 .

(43) الحرافيش ج حَرْفوش يراجع II ,86 التعليق 125 .

(44) حول الزيارة لهذه الأماكن راجع الجزء I ص 140-162 .

(45) يسميه يوسف ابن تَغْري بردي الحاج سيف الدّين اورقطاي بن عبد الله القفجق. وان النطق الصحيح للاسم هو كما يبدو أورُوَغطاي. كان حاكما – على التوالي – لصفد وطرابلس وحلب ثم نائب السلطنة بمصر ثم مرة ثانية حاكما لحلب، ادركه أجله سنة 757=1357 في طريقه إلى دمشق حيث نقل إلى هناك.. حول ترجمته انظر (المنهل الصافي) ج II ص 328 تعليق 378.

حكاية [الوباء المجتاح]

319/4 واتفق في تلك الأيام أن فقيراً يعرف بشيخ المشائخ ‖ وهو ساكن في جبلٍ خارج مدينة عَيْنتاب (46)، والناس يقصدونه وهم يتبركون به وله تلميذ ملازم له، وكان متجرداً عزَباً لا زوجة له، وقال في بعض كلامه : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن ! فشُهد عليه بذلك وثبت عند القاضي ورفع أمره إلى ملك الأمراء، وأوتي به وبتلميذه الموافق له على قوله، فأفتى القضاة الاربعة وهم شهاب الدين المالكي، وناصر الدين العديم الحنفي، وتقي الدين بن الصائغ الشافعي وعز الدين الدمشقي الحنبلي بقتلهما معاً، فقتلا !

وفي أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين (47)بلغنا الخبر في حَلَب أن الوباء وقع بغزة وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على ‖ الآلف في يوم واحد (48) ! فسافرت إلى 320/4 حمص فوجدت الوباء قد وقع بها، ومات يوم دخولي اليها نحو ثلاثمائة إنسان، ثم سافرت إلى دمشق ووصلتُها يوم الخميس، وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة إلى مسجد الأقدام حسبما ذكرناه في السفر الأول (49) فخفف الله الوباء عنهم فانتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربع مائة في اليوم !

ثم سافرتُ إلى عجلون (50)، ثم إلى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة بن عم عز الدّين قاضي القضاة بمصر (51) وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبه على الخطابة ألف درهم في الشهر.

---

(46) مدينة عيْنتاب مدينة كبيرة وواسعة توجد الآن في تركيا على بعد 55 ميلا شمال شرقي حلب، وقد ترسم في الخرائط السورية هكذا (INTAB) وربّما رسمت في الخريطة التركية ANTEP ويمكن أن نتصور من هذا الخلاف في كتابة الاعلام الجغرافية مدى ما يقع من تحريف في الأسماء الجغرافية – انظر الخريطة السورية والتركية...

(48) يتعلق الأمر بالطاعون الأسود الذي ضرب دول حوض البحر المتوسط والذي ترك وراءه ملايين الضحايا، واذا كان ابن بطوطة – كما سنرى – قد ردَّد صدى آثار هذا الوباء في مذكراته، فإن ابن خلدون الذي أتى الطاعون على والديه قد خصص فقرات باكية في مقدمته لما نزل بالعمران شرقا وغربا في المائة الثامنة بسبب هذا الطاعون الجارف الذي طوى كثيراً من محاسن العمران.. ابن خلدون المقدمة، بيروت 1956 ص 51.

(49) يراجع ج I، 226-227.

(50) يراجع I ,129.

(51) ج I ,88.

حكاية [نذر الخطيب]

321/4 وصنع الخطيب عز الدين يوماً دعوةً ودعاني فيمن دعاه إليها، فسألته عن سَبَبها؟ فأخبرني انه نذر أيام الوباء أنه إن ارتفع ذلك ومرَّ عليه يومٌ لا يصلي فيه على ميّت صنع الدعوة ! ثم قال لي : ولما كان بالامس لم أصلِّ على ميّت فصنعت الدعوة التي نذرت !!

ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقُدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله، فلم يبق منهم إلا القليل مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كَيْكَلْدِي العلائي، ومثل الصالح شرف الدين الخُشّي شيخ زاوية المسجد الأقصى.

ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي فأضافني ولم ألق بالشام ومصر مَن وصل إلى قدَم 322/4 آدم عليه السلام سواه ! ثم سافرتُ عن القدس، ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني. وشيخ المغاربة بالقدس (52) الصوفي الفاضل طلْحة العبد الوادي فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام، وزرناه ومن معه من الانبياء عليهم السلام، ثم سرنا إلى غزَّة فوجدنا مُعظمها خاليا من كثرة من مات بها في الوباء، وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الرُّبع وان عدد الموتى بها انتهى إلى الف ومائة في اليوم.

ثم سافرنا في البر فوصلتُ إلى دمياط ولقيت بها قطب الدين النقشُواني، وهو صائم الدهر، ورافقني منها إلى فارَس كُور وسَمَنّود (53)، ثم إلى أبي صير (54) بكسر الصاد المهمل وياء مد وراء ونزلنا في زاويةٍ لبعض المصريين بها.

---

(52) إذا كان ابن بطوطة قد اختصر الحديث عن المغاربة الذين كانوا يوجدون بكثرة أثناء زيارته الأولى لبيت المقدس عام 726 (125, I)، فإنه هنا يتحدث بصراحة عن (شيخ المغاربة) أي وكيلهم لدى مَن يعنيه الأمر. ومن المعلوم أنه يوجد بالقدس حيّ بكامله يحمل اسم المغاربة الذين كانو يرابطون هناك للدفاع عن بيت المقدس، وعلاوة على وثيقة على أوقاف المصمودي سنة 730 وأوقاف أبي مدين سنة 720 فقد وجدنا رسالة يرفعها عام 795 شيخ المغاربة بن عبد الوارث إلى كافل السلطنة في دمشق في اعقاب التجاء احد اليهود اليه ليتدخل لصالحهم في رفع الحجر الذي فرضه وإلى المدينة على تركة أحد اليهود...

د. التازي أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة المحمدية رقم الايداع القانوني -1401-1981 1981-81 التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 2 ص 262 مصدر سابق – الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب – طبع المعهد الفرنسي للدراسات العربية – دمشق 1995 ص 76.

(53) حول زيارة ابن بطوطة الأولى للخليل انظر I ,114-120 وحول غزه I,115-116 وحول دمياط (I ,60-64) وحول فارسَ كور يراجع I ,95 ولا يزال هذا معروفا بهذا الاسم...

(54) توجد عدة أمكنة في مصر تحمل اسم أبو صير، ولهذا الاسم صلة بالإلاه أوزيريس Osiris الذي كانت له مكانة خاصة في مصر الشمالية، وقد اخطا صطيفان عندما اعتقد أن القصد إلى أبو قير الذي يوجد على المتوسط شمال الاسكندرية ونَعته بيكنكام على أنه مدينة صغيرة على مقربة من طنطا والحقيقة أن القصد إلى (بوصيربَنَا) الذي يقع جنوب المحلة مباشرة، وهذا غير (بوصير الملق) الذي ينتسب إليه البوصيري صاحب البردة والذي يوجد جنوبا بمديرية بنو سويف انظر دائرة المعارف الإسلامية – التازي : حول الإمام البوصيري دفين القاهرة. العَلَم 26 شتنبر 1995 .

حكاية [الفقير الصائم]

323/4 وبينما نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلَّم وعرضنا عليه الطَّعام فأبى، وقال : إنما قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجداً وراكعاً، ثم صلَّينا الصبح، واشتغلنا بالذكر، والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام ودعاه، فلم يجبْه فمضى إليه فوجده ميّتا، فصلينا عليه ودفناه رحمة الله عليه!

ثم سافرتُ إلى المحَلة الكبيرة ثم إلى نحرارية ثم إلى أبيار، ثم إلى دمنهور (55)، ثم إلى الإسكندرية (56) فوجدت الوباء قد خف بها بعد أن بلغ عدد الموتى إلى ألف وثمانين في اليوم، ثم سافرت إلى القاهرة، وبلغني أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى أحد وعشرين ألفا في اليوم ! ووجدت جميع من كان بها من المشائخ الذين أعرفهم قد ماتوا

324/4 رحمهم الله تعالى .

ذكر سلطانها

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون ، وبعد ذلك خلع عن الملك وولي أخوه الملك الصَّالح(57).

ولما وصلت القاهرة وجدت قاضي القضاة عز الدين بن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة (58) قد توجه إلى مكة في ركب عظيم يسمونه الرَّجَبي لسفرهم في شهر رجب... وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقْبة أيْلة (59) فارتفع عنهم.

ثم سافرت من القاهرة، على بلاد الصعيد، وقد تقدم ذكرها. إلى عيذاب (60) وركبت منها البحر فوصلت إلى جدة (61)، ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها

(55) انظر I ,56-54-55 -49 حول الامكنة المذكورة.

(56) حول وصف ابن بطوطة للاسكندرية يراجع الجزء I ,27-47.

(57) إلى هذا الملك توجه صفيّ الدين الحِلي يحرضه على الحذر من المغول في قصيدة مطلعها :

لايمتطي المجد من لم يركب الخطرا * ولاينال العُلا من قدم الحذرا

السيد أحمد الهاشمي بك : جواهران 1347 = 1928 ص 748

(58) انظر الجزء I، ص 88.

(59) جزء I، 256.

(60) حول سفرته الأولى عبْر الصعيد إلى عيذاب يراجع I ص 94-111.

فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين (62) ونزلت في جوار إمام المالكية
325/4 الصالح الوليّ ‖ الفاضل ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل (63)، فصمت شهر رمضان بمكة وكنت أعتمر كلَّ يوم على مذهب الشافعي، ولقيتُ ممَّن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفي (64). وشهاب الدين الطبري (65)، وأبا محمد اليافِعي (66) ونجم الدين الأصُفوني (67) والحَرازي (68) وحججتُ في تلك السنة.

ثم سافرت مع الركب الشامي إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت قبره المكرم المطيبَ زاده الله طيبا وتشريفا في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما، وزرت مَن بالبَقيع (69) من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضي عنهم، ولقيت من الأشياخ أبا محمد ابن فرحون (70).

326/4 ثم سافرنا من المدينة إلى العُلاَ وتبوك، ثم ‖ إلى بيت المقدس، ثم إلى مدينة الخليل

---

(61) حول زيارته الأولى إلى جدة يراجع الجزء II ,156-158 .

(62) يوافق هذا التاريخ 16 نونبر 1348 .

(63) حول خليل إمام الموسم يراجع الجزء I ص 324 يراجع التعليق 155 .

(64) هو بالذات أحمد بن علي السجزي الحُسيني إمام الحنفية بمكة وبها أدركه أجله في رمضان 762=1361 الدرر الكامنة I ,236 – انظر الجزء I ص 352 – راجع التعليق رقم 192 تعليق رقم 192 .

(65) شهاب الدين الطبري عوض والده في القضاء، محمد بن محمد بن محبّ الدّين أحمد الطبري -1330 1260 ينتمي لأسرة الفقهاء والقضاة – يراجع I ,347-348 التعليق 187 .

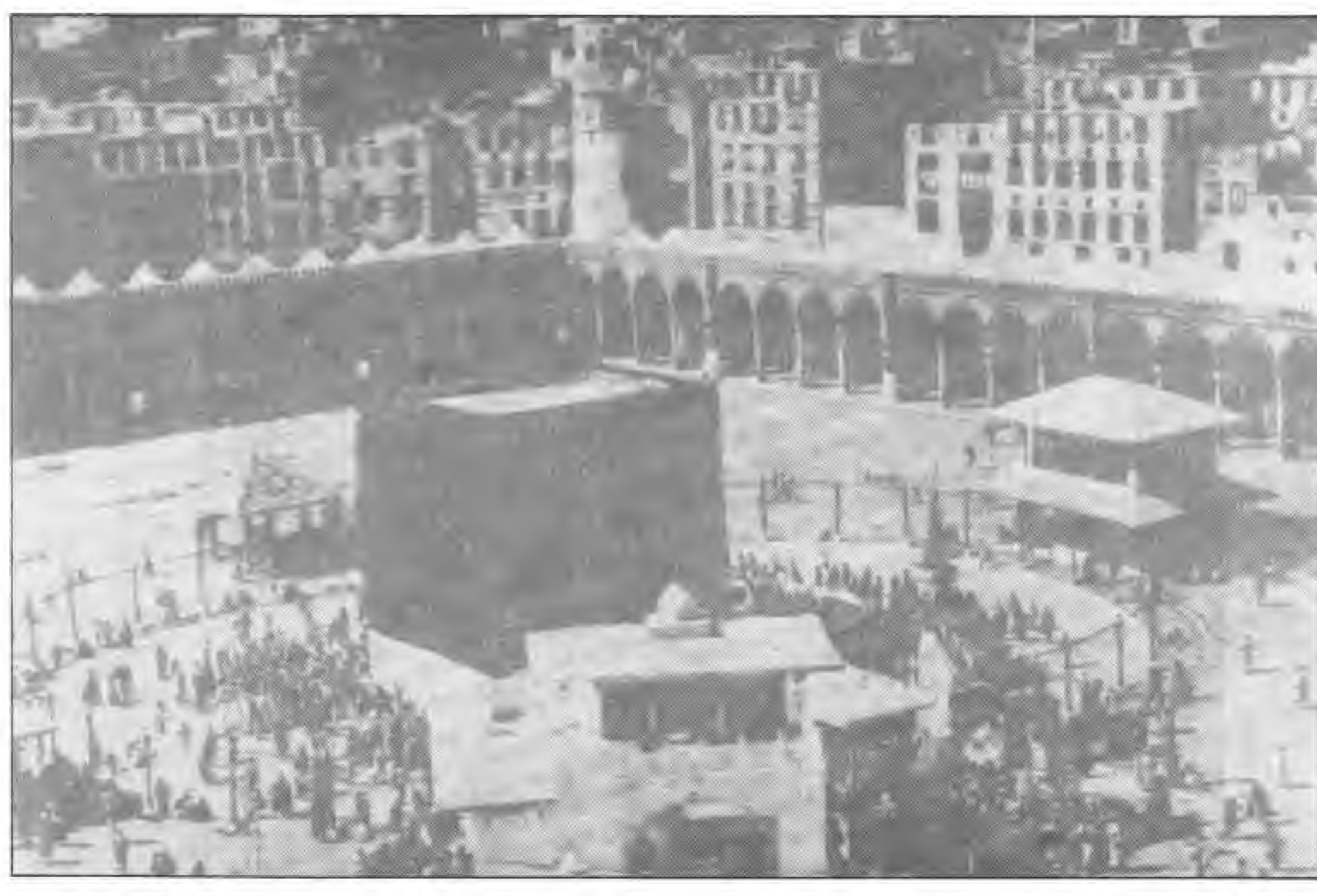
(66) اليافعي هو عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي الشافعي اليمني ثم المكي... أخذ باليمن عن البصال.. ثم جاور بمكّة ولازم مشايخ للعلم، ومن شيوخه نجم الدين الطبري... ورحل إلى القدس ودخل دمشق... كان كثير التصانيف، كثير الاحسان للطلبة إلى أن مات في 20 من جمادى الأخيرة عام 768=1362 – الدرر 2، ص 353-354.

(67) حول الأصفوني يراجع I ,356-357 وكذلك II ,150 – حيث ترجمناه في التعليق 294.

(68) الحَرازي لا يخلو إما أن يكون القصد إلى أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن العمري الحَرازي ولد ببلدة حراز باليمن عام 675 وقدم مكة فسمع بها عن جماعة... وانتهت اليه رياسة الفتوى وقد توفي بمكة عام 12 شوال 755... واما ان يكون القصد إلى ولده محمد المولود سنة 706 سمع عن الكثير... ثم حدَّث ودرس وأفتى ثم ولي القضاء بعد وفاة شهاب الدّين الطبري... ثم سعى عليه أبو الفضل النويري فولى عوضه القضاء سنة 63 ولزم الحرازي بيته حتى مات بمكة سنة 765 – الدّرر ج 1 ص 150-3 ص 438. – يلاحظ أن ابن بطوطة يحج حجته السادسة والأخيرة...

(69) لا يخفى أن القصد إلى المقبرة الشهيرة بالمدينة. انظر جزء I، ص 287 حيث ذكر اسماء بعض من تحتضنهم تلك التربة الطاهرة.

(70) حول ابن فرحون انظر ج I ص 277-278.



حجته للمرة السادسة

صلى الله عليه وسلم، ثم إلى غزة (71) ثم إلى منازل الرَّمل (72) وقد تقدم ذكر ذلك كلّه، ثم إلى القاهرة.

وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المومنين وناصر الدين المتوكّل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى قد ضمَّ الله به نَشْر الدولة المرينية (73) وشفى ببركته بعد إشفائها البلادَ المغربية، وأفاض الإحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام فتشوفت النُّفوس إلى المثول ببابه وأمَّلت لثم ركابه، فعند ذلك قصدتُ القُدوم على حضرته العلية مع ما شاقني من تذكار الأوطان والحنين إلى الأهل والخلان والمحبة في بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان .

327/4

بلادٌ بها نيطت عليَّ تمائمي
وأول أرضٍ مسَّ جِلدي ترابُها !

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة، وذلك في صفر سنة خمسين (74)، وسِرْت حتى نزلت بجربة، وسافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدوُّ عليه (75).

ثم سافرت في مركبٍ صغير إلى قابس فنزلت في ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان، وأبي العباس ابني مَكِّي (76) أميري جربة وقابس، وحضرت عندهما مولد رسول الله

(71) حول زيارته الأولى لهذه الاماكن ووصفه لها يراجع ج I، ص 114 (غزة) صفحة 115-121 (الخليل) ص 121-124 القدس ص 258 تبوك – 261 (العلا).

(72) يقصد بمنازل الرمل المنطقة الصحراوية التي تفصل بين غزَّة والقاهرة جنوب شرقي بلبيس...

(73) نذكر أن السلطان أبا الحسن والد السلطان أبي عنان، بعد أن استرجع تلمسان عام 737=1337، استرجع كذلك تونس عام 747=1347 موحِداً بذلك بلاد المغرب، على ماسنقرأه في التعليق اللاحق رقم 79 – يلاحظ سكوت ابن بطوطة عن زيارة الأميرة المغربية مريم لمصر 738 وقد تحدث الناس بها دهراً كما يقول ابن خلدون . التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ص 204 – بدائع الزهور 472

(74) أبريل – مايه 1349.

(75) أبو مروان أحمد بن مكي أصبح أميراً على جزيرة جربة بعد إجلاء الصقليين الغزاة عام 735=1335 وامتد حكمه فيما بعد إلى صفاقس – أخوه أبو العباس عبد الملك كان حاكما مستقلا لقابس... كانا معاً حليفين للعاهل المغربي أبي الحسن قبل أن يخذلاه في أعقاب فشله ويتحالفا مع أحد الأمراء الحفصيين...

(76) يشير ابن بطوطة هنا للقرصنة التي كانت رائجة على ذلك العهد في المنطقة، ويذكر السّير هاميلتون كيب أن الأمر يتعلق بصقلية التي احتل أميرها روجي دُوريا (Roger Doria) جربة عام 688 هـ 1289 م حيث بقيت الى عام 735 هـ 1335 م عندما استردها المسلمون. ولا بد أن لا ننسى أن لحكام جزيرة سردانية كذلك حساباً قديماً مع أهل تونس الذين كانوا قد استولوا على عددٍ من أهل هذه الجزيرة، وأقاموهم على مقربة من جلولا التي لا تبعد عن القيروان إلا بأربعة وعشرين ميلا في موقع ما يزال إلى اليوم يحمل إسم سردانية، وقد وقفتُ عليه... وإني لأغتنم هذه الفرصة لأجدد الشكر للذين يسرّوا لي تلك الزيارة. التازي : الحضور العَربي في جزيرة سردانية، بحث قدم لمجمع اللغة العربية، القاهرة مجلة المجمع ج 74 مايه 1994.



شارع في القاهرة بالأمس !

صلى الله عليه وسلم (77)، ثم ركبد. في مركب إلى سفاقس، ثم توجهت في البحر الى بُلِيانة، ومنها سرت في البر مع العرب، فوصلت بعد مشقّاتٍ إلى مدينة تونس والعرب محاصرون لها ‖. 328/4

ذكر سلطانها

وكانت تونس في إيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، علم الأعلام وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد القانت الأواب، الخاشع العادل أبي الحسن (79) بن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذي سارت الأمثال بجوده، وشاع في الأقطار أثر كرمه وفضله، ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل ابي سعيد بن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، علم الأعلام وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد القانت الأواب، الخاشع العادل أبي الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذي سارت الأمثال بجوده، وشاع في الأقطار أثر كرمه وفضله، ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل أبي سعيد بن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومُبدي آثار الجهاد ومعيدها ناصر الايمان الشديد ‖ السطوة في ذات الرحمن العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع أبي يوسف بن عبد الحق رضي الله عنهم أجمعين وابقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين. 329/4

(77) حديث ابن بطوطة عن حفلات عيد المولد النبوي بالديار المغربية حديث له دلالته فإن المملكة المغربية قررت بمقتضى مرسوم ملكي (ظهير) أن تجعل من هذا اليوم عيداً تقام فيه الاحتفالات في سائر المدن والقرى.
د. التازي : لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي؟ دعوة الحق العدد 277 جمادى الأولى عام 1410 دجنبر 1989 – وقد ترجم هذا البحث إلى اللغة البوسنوية من قبل الاستاذ الشهيد نياز شكريج، ونشر في مجلة Islamoska Misao Maj 1990.

(78) بُلْيانة توجد على مقربة من سفاقس كما يقول برونشفيگ Brunschvig وكان گيب يعتقد أن القصد إلى نابُل Nabeul ميناء صغير على بعد 30 ميلا جنوب شرقي تونس... Selections P. 375 N° 14.

(79) بويع ابو الحسن يوم 25 ذي القعدة 731 وكان مما حدث أثناء وجوده في تونس أن تمردت القيروان عليه وأشيعت وفاته فبايع الناس ابنه أبا عنان... وانتهى المطاف بأبي الحسن إلى هنتانة جنوب المغرب حيث قدم عليه محمد بن أبي عمرو التميمي حاجب ولده الذي طلب الرضا، فرضى عنه وكتب له بولاية العهد... وقد اعتل السلطان خلال ذلك فافتصد لاخراج الدم ثم باشر الماء بعضوه للطهارة فتورّم وهلك رحمه الله يوم 27 ربيع الأول 752 . ونَقَلَ ابنُه أبو عنان شِلوه إلى شالة بالرباط وكان ابن بطوطة صحبة الركب. ابن الأحمر : روضة النسرين – الزركشي تاريخ الدولتين... راجع التعليق 73 .

ولما وصلت تونس قصدتُ الحاج أبا الحسن الناميسى (80) لما بيني وبينه من مواتٍ القرابة والبلدية، فأنزلني بداره وتوجه معي إلى المشور فدخلت المشور الكريم وقبّلْتُ يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه، وأمرني بالقعود فقعدت، وسألني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبته وسألني عن ابن تيفَراجين (81) فأخبرته بما فعلتِ المغاربة معه، وإرادتهم قتله بالاسكندرية وما لقى من إذايتهم إنتصاراً ▒ منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه. 330/4

وكان في مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السّطي (82)، والامام ابو عبد الله محمد ابن الصّباغ (83) ومن أهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبد الرفيع (84) وأبو عبد

---

(80) الحاج أبو الحسن على بن الفقيه الصالح أبى زيد الناميسى كان من المكرمين عند أبي الحسن المريني، وهو من أسرة صنهاجية ظهر منها أعلام في العهدين : الموحدي والمريني، ومنهم أبو محمد عبد الله الناميسي الذي ولى قضاء شريش، وغرب من بلده طنجة إلى تونس سنة 641هـ ثم سرح سنة 647 هـ. انظر التكملة لابن الآبار : 525 – وجذوة الاقتباس 430 طبعة دار المنصور الرباط – والمسند الصحيح الحسن 295 .

(81) يعتبر ابن تيفْراجين قطّب الدائرة في الأحداث التي شاهدناها بالمنطقة، وهو من شيوخ الموحدين، حاجب لأبي يحيى أبي بكر، وهو الذي حثَّ في عهد خلف هذا الاخير، ابي العباس أحمد 1346-1347 = 747 هـ حث السلطان المريني أبا الحسن على استرجاع افريقية وأصبح وزيراً له وهو الذي سعا لخطبة الأميرة الحفصية لأبي الحسن وبعد نكسة القيروان غيَّر الموقف ! وأصبح مكلفاً من لدن الجانب الحفصي بحصار تونس، ولما فشل في مهمته، فرَّ إلى الاسكندرية، ولكنه عاد عام 1350=751 ليقوم بعزل الفضل السلطان الجديد للحفصيين ويعوضه بأحد اخوة هذا الاخير أبي اسحاق، وقد توفي عام 766=1364-1365.

(82) محمد بن سليمان السطي (نيل الابتهاج لأحمد بابا طبعة فاس 242) اختاره السلطان أبو الحسن لصحبته لتونس، وعند العودة غرق عام 750 في الحادثة الشهيرة مع ابن الصباغ والزواوي مُقرئ السلطان (نيل الابتهاج 45-146 وليس صحيحا أن عدد الغرقى من العلماء 400 وعدد المراكب الضائعة 600 ! كما قاله المقرى في الباب الخامس من القسم الثاني من النّفح، وتبعه بعضهم، منهم أنا في تاريخ القرويين ج. II ص 490 فقد عثرت على مراسلات دبلوماسية بين السلطان أبي الحسن و بين الملك بيدرو الرابع ملك أراغون من جهة وبين سلطان غرناطة من جهة أخرى تتحدث عن ضياع خمسة مراكب. الريحانة ج. I 427 - 530 وثائق أراغون رقم 99. ذ. التازي : تجربتي في تحقيق الوثائق الدبلوماسية المتعلّقة بالمغرب والأندلس، ندوة تحقيق التراث المغربي الأندلسي – كلية الآداب وجدة - 11 9 نونبر 1995 – أحمد عزّاوي : الغرب الإسلامي من خلال رسائله – اطروحة كلية الآداب الرباط السنة الجامعية 1995 - 1996 .

(83) هو محمد بن الصباغ الخزرجي الاندلسي ... اختاره السلطان فاستدعاه ولم يزل معه حتى هلك غريقا في حادثة الاسطول سالفة الذكر (نيل الابتهاج : ص 223).

(84) يقال إن ابن عبد الرفيع رمى بنفسه على ابن تاسكَرت – وكان مكينا في الدولة المرينية – وقال له : إن توسطت لي في خطة القضاء فاني أوليك عدْلاً بتونس، فلم يزل الآخر يتمثل إلى أن وقع الشرط ومشروطه، وقد توفي ابن عبد الرفيع سنة 766 – الزركشي : تاريخ الدولتين تحقيق محمد ماضور – المكتبة العتيقة تونس 1966 ص 88-102 الأبي : الاكمال، أطروحة عبد الرحمن عون ص 49. تونس



عملة السلطان أبي الحسن المريني الذي كان يقيم آنداك في تونس

الله بن هارون (85)، وانصرفت عن المجلس الكريم، فلما كان بعد العصر إستدعاني مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ الجلة أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التَّنَالفتي (86) وأبو حسون زيان بن آمْديون العلوي (87)، وأبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري (88) والحاج أبو الحسن الناميسي (89)، فسألني عن ملك الهند؟ فأجبته عما سأل، ولم أزل اتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس وكانت ستة وثلاثين يوماً. 331/

ولقيت بتونس اذا ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء أبا عبد الله الآبِلِي (89) وكان في فراش المرض وباحثني عن كثير من أمور رحلتي.

---

(85) كان محمد ابن هرون الكناني من رجال الفتوى في عهد السلطان أبي الحسن بتونس... وهكذا فبعد وفاة قاضي الجماعة محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري ذكر لقضاء الجماعة الشيخ الفقيه المفتي أبو عبد الله محمد بن محمد بن هارون الكناني... وحين لقب ابن هارون بالفتيا بقي مفتيا إلى أن مات بالوباء في عام خمسين وسبعمائة هو وزوجه في يوم واحد ! فَحُفِرَ لهما قبران متدانيان وحضر لدفنهما السلطان أبو الحسن المريني. الزركشي : تاريخ الدولتين ص 88 نيل الابتهاج ص 240 - 241

(86) كان التنالُفي نسبة إلى تنالفت ، من جلساء السلطان أبي الحسن وخواصه ووزرائه... وقد ورد ذكره في المسند لابن مرزوق الذي كناه أبا سعيد، ذكره في الباب 35 ص 174-369 من المسند تصحيح د. فيگيرا.

(87) زيان بن آمديون، هذا صهر للسلطان أبي الحسن وزرج أخته، كان من أقرب المقربين اليه، وكان يبعثه لتفقد المتشكين والمتظلمين في الأقطار البعيدة انظر الحديث عنه في المسند لابن مرزوق وخاصة في الباب الخامس والثلاثين في جلسائه... هذا ويقرأ الناشران الاثنان .D.S أمريون بالراء عوض الدّال الذي يوجد في باقي المخطوطات. بما فيها مخطوطات المسند لابن مرزوق ص 174-254-354.

(88) ابن سليمان هذا كان مكلفاً بالدفاع عن تونس ضد ابن تيفراجين عندما كان أبو الحسن نفسه محاصرا.

(89) يلاحظ أن الناشرين الفرنسيين الأولين قرآ :الأبُلي بضم الهمزة والباء (أُبُلّة العراق) عوض آبلة (AVILLA) بالأندلس ومن ثمت تبعهما سائر الناشرين بمن فيهم العرب...! ويعتبر الآبلي هذا من كبار الشخصيات المغربية والاسلامية وقد ترجم له أكثر من تاليف، وهو محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدري التلمساني المعروف بالآبلي... انتقل أبوه وعمه من الاندلس فخدما يغمراسن صاحب تلمسان... ونشأ محمد بن ابراهيم بتلمسان ومَال إلى محبة (التعاليم) يعني الرياضيات... ولما أخذ يوسف بن يعقوب تلمسان استخدمه ولما عادت تلمسان لأبي حمو أراد أن يكرهه على الوظيف ففر إلى فاس واختفى هناك عند خلوف اليهودي شيخ التعاليم فتبحّر فيها... ثم دخل مُراكش (710 هـ) فنزل على ابن البنّا شيخ المعقول والمنقول... وقد ضمه السلطان أبو الحسن لمجلسه العلمي... ويذكر ابن خلدون انه لازمه وأخذ عنه إلى أن توفى بفاس عام 757 وكان من غريب ما حكاه ابن خلدون عنه في المقدمة : أنه أي الآبلي حضر عند قاضي فاس أيام السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلى وقد عرض عليه أن يختار من بين المداخيل المخزنية لجرايته. فأجاب : من مكس الخمر !! فاستضحك الحاضرين من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك فقال : إذا كانت الجبايات كلّها حراماً فإني اختار منها مالا تتابعه نفس معطيه ! والخمر قل أن يبذُل فيها احدٌ ماله الا وهو طروب مسرور!! خصص له صاحب الابتهاج ترجمةً حافلة فلتراجع ص 244 - 245.

ثم سافرتُ من تونس في البحر مع القطلانيين فوصلنا إلى جزيرة سردانية (90) من جزائر الروم، ولها مرسى عجيب، عليه خشب كبار دائرة به، وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا بإذن منهم وفيها حصون دخلنا أحدها وبه أسواق كثيرة، ونذرت لله تعالى إن خلّصنا الله منها صوم شهرين متتابعين لأننا تعرفنا أنَّ أهلها عازمون على إتباعنا اذا خرجنا عنها ليأسرونا (91) ! ثمَّ خرجْنا عنها، بعد عشرٍ إلى مدينة تَنس (92)، ثم إلى مازونة (93)، ثم إلى مُستغانم، ثم إلى تلمسان فقصدت العُبادِ (95) وزرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه ونفع (96) به، ثم خرجت عنها على طريق ندرومة (97)، وسلكت طريق أخندقان (98) وبت بزاوية الشيخ إبراهيم.

332/4

(90) نزل ابن بطوطة في ميناء كاكلياري Cagliari، ويلاحظ أن الوصف الذي قدمه الرحالة المغربي للميناء المذكور يتفق مع الوصف الوارد في المرشد البحري الذي الفه ريتزو RIZZO وهو ما تأكد لَدَيَّ من خلال شهادات اساتذة الجامعة هناك عند زيارتي للجزيرة... – د. التازي الحضور العربي في جزيرة سردانية مجلة مجمع اللغة العربية – القاهرة ج 74 ذو الحجة 1414 – مايه 1994.

(91) ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة أن المملكة المغربية كانت قد أبرمت مع بعض قادة أوربا الجنوبية بمن فيهم حكّام سردانية التي كانت تابعة آنئذ لأرغون بتاريخ 5 شوال 739=15 أبريل 1337، اتفاقية للسلام والتعاون، وقعها السلطان أبو الحسن – وهو مقيم بتلمسان – لفترة عشرة سنوات شمسية على حد تعبير الاتّفاقية، ومن هنا يظهر أن تخوف ابن بطوطة كان في محله سيما والفترة انتهت سيما ايضا وقد سبق له وهو بجربة ان أشار لاستيلاء العدوّ على مركب... – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 1، ص 303/302، ج 7 ص 195/194.

(92) تَنَس بفتحتين والسين المهملة، أما النطق العامي بالجزائر، فهو بتاء ساكنة تتبعها نون مفتوحة ثم سين ساكنة، وهي من أقدم مدن المغرب الأوسط وتقع على ساحل البحر المتوسط على بعد 204 كـ.م. غربي العاصمة الجزائرية و 161كـ.م شرقي مدينة مستنغانم. المذكورة. – وقد أسس المدينة عام 272-875 م. بعض البحارة من مسلمي الأندلس... وقد تبعت لعدة دول عبر تاريخها...

(93) مازونة مدينة صغيرة على بعد 560 م غربي مدينة الأصنام اشتهرت في العصور السابقة بنشاط ثقافي كبير، وكانت مقراً لبايات الولاية الغربية في فترة العهد العثماني.

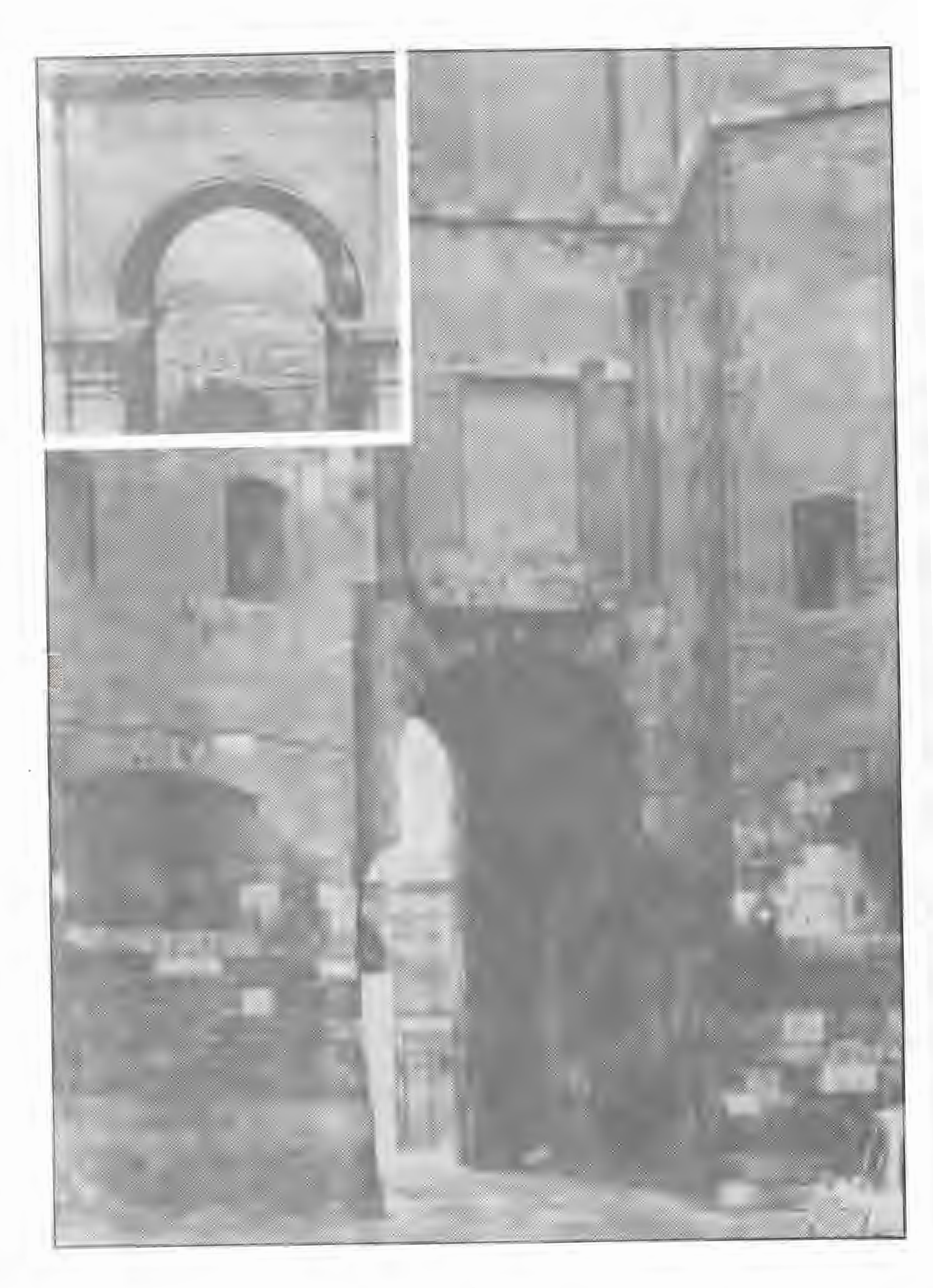
(94) مستغانم، مدينة قديمة تكرر ذكرها عند المؤرخين والرحالة القدامى من أمثال ابن بطوطة، وهي واقعة على شاطئ البحر على بعد 90 كـ.م. شرقي وهران وتعتبر من أهم مدن القطر الجزائري...

(95) العُبَّاد : قرية تقع شرقي تلمسان على مقربة منها وغالبا ما تدعى سيدي بومدين.

(96) هو أبو مدين شعيب بن الحسين أو الحسن، ولد على مقربة من اشبيلية وتوفي بتلمسان سنة 593=1196 – أخذ بفاس عن أمثال ابن حرزهم كما أخذ بالمشرق عن أمثال الشيخ عبد القادر الكيلاني. تخرج عليه جماعة من أمثال الشيخ عبد السلام بن مشيش، تعرض للأسْر من قبل الروم أثناء جهاده، بُنى ضريحه من قبل السلطان أبى الحسن المريني عام 1339-739، وكانت المقبرة تحتضن عددا من الرجال الموموقين وقد تحدث ج. مارسي عن المقبرة في كتابه عن الفن المعماري في الغرب الاسلامي 1954. يراجع التعليق 52 من هذا الفصل...

(97) ندرومة : مدينة واقعة في الشمال الغربي من تلمسان في أحد الطرق الواصلة بين هُنَين وتلمسان وتبعد عنها بـ 60 ك.م.

(98) لم نصل إلى تحديد طريق اخندقان وزاوية سيدي ابراهيم رغم استعانتنا بخريطة 000 00 1/2 ولكن هذه الخريطة أفادتنا من ناحية أخرى وجود موقعين يحملان اسم سيدي ابراهيم : الموقع الاول جنوب – غربي ندرومة، والثاني ابعد منها غربيَّها أقرب إلى الشمال غير بعيد عن الجزر الجعفرية المغربية.



صور من مدينة كالْيارِي – سردينية

ثم سافرنا منها فبيْنما نحن بقرب أزغْنغَان (99) خرج علينا خمسون راجلاً وفارسان، وكان معي الحاج بن قُريعات الطنجي وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر (100)، فعزمنا على قتالهم ورفعنا عَلَماً ثمَّ سالمونا وسالمناهم، والحمد لله.

ووصلتُ إلى مدينة تازَى (101) وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى.

ثم سافرت عن تازَى فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة إلى حضرة فاس فمثُلت بين يدي مولانا الاعظم الامام الاكرم أمير المومنين 333/4 المتوكل على رب العالمين أبي عنان (102) وصل الله علوّه وكبَتَ عدوه، فأنستْني هيبتُه هيبة سلطان العراق، وحسنهُ حسنَ ملك الهند، وحسن اخلاقه حسنَ خلق ملك اليمن، وشجاعتهُ شجاعةَ ملك التّرك، وحلمُه حِلْمَ ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوة.

وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر أبو زيان ابن ودرار (103)، فسألني عن الديار المصرية، إذْ كان قد وصل اليها، فأجبتُه عما سأل، وغمرني من إحسان مولانا أيده الله تعالى ما أعجزني شكره، والله وليُّ مكافأته.

---

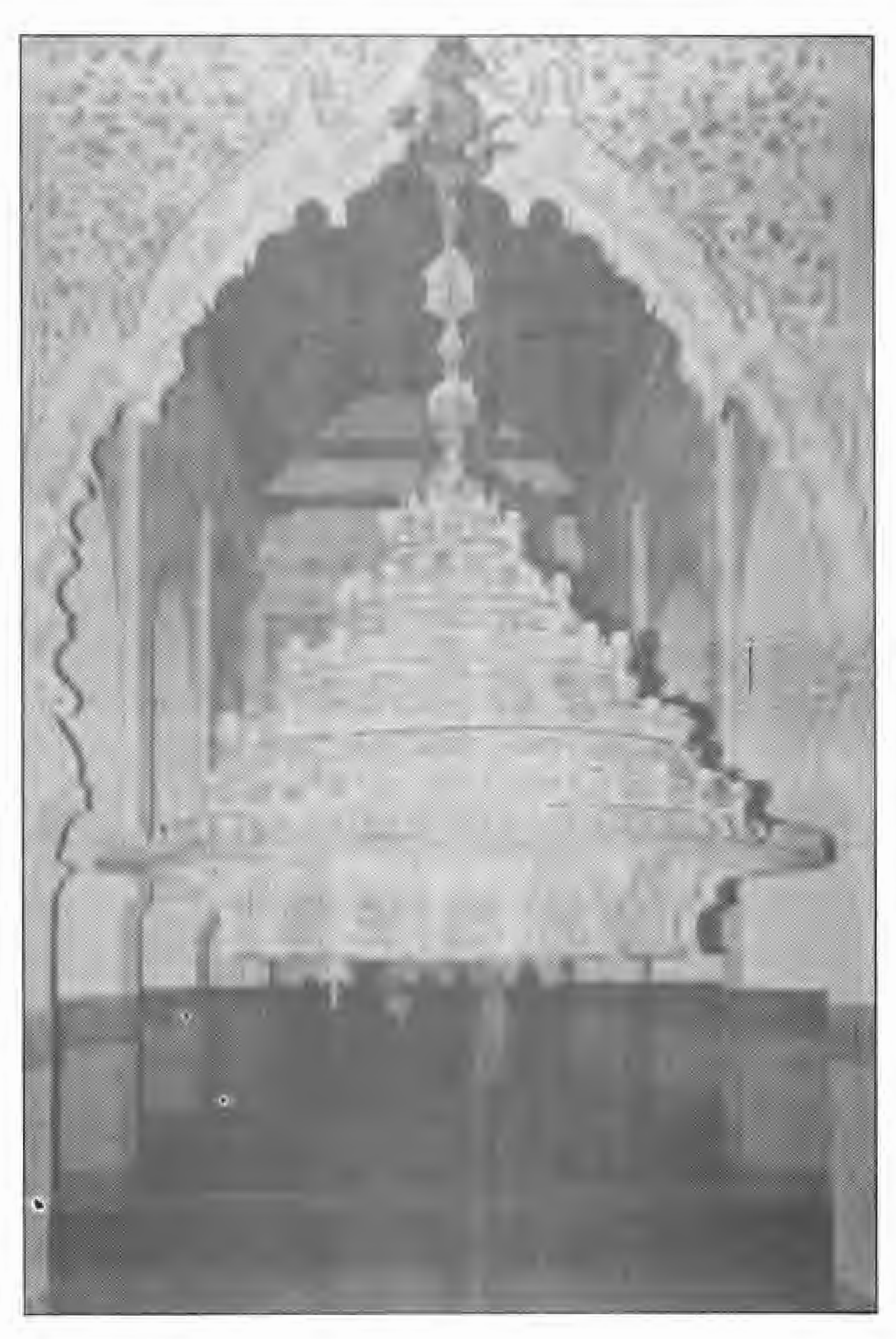
(99) أزغنغان : ورد في (وصف افريقيا) لابن الوزّان ان آيت أزغنغان قبيلة بربرية استقرت قريباً من الشاطئ بين مليلية ونهر ملوية. يلاحظ أن ابن بطوطة لم يحرك كلمة أزغنغان على ما جرت به عادته... تقع على بعد 15 كـ.م. جنوب مليلية.ذ التازي : نصيب الأعلام الجغرافية المغربية في رحلة ابن بطوطة ، بحث ألقيته في ندوة تاريخ الرباط ، نونبر 1995.

(100) لم أقف على تعريف لهذين الشخصين اللذين ينتميان إلى أسرة ابن قريعات... ولم ندر عمَّا يقصده بالاستشهاد في البحر.

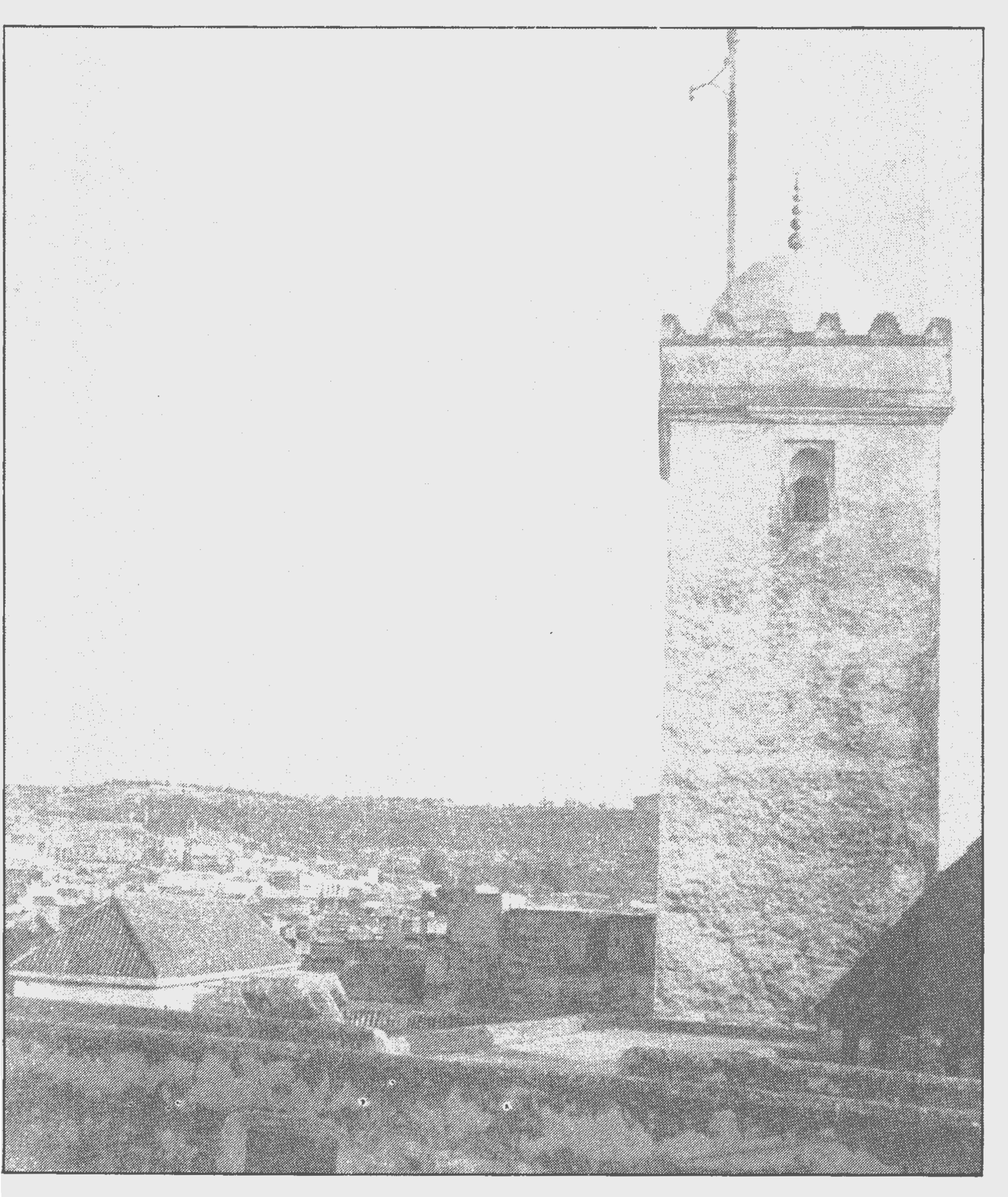
(101) تازة أو تازَى مدينة شرقي فاس على بعد نحو من 128 كـ.م يصلها بالبحر المتوسط طريق معبد يخترق جبال كزنّاية... مدينة من تاسيس المغاربة في القديم، كانت قاعدة مكناسة الشهيرة... وقد اتخذ الفاتحون المسلمون منها حصناً يحمي ظهرهم وينطلقون منه لأداء مهمتهم. كانت ولايتها من نصيب الامام داود بن ادريس عند تقسيم المملكة بين بني ادريس. وكانت محل تنافس بين الدول المتعاقبة على الحكم بالمنطقة. وقد نالت أيام بني مرين عناية فائقة فبنيت بها دار للامارة، وتعتبر ثالثة مدينة في المغرب تستحق أن تكون عاصمة كما يقول ابن الوزان ولما ظهرت الدولة العلوية بالمغرب استقر بها السلطان مولاي الرشيد في أيامه الأولى وبها عقد اول اتفاقية له مع فرنسا... وقد انتسب لهذه المدينة عدد من رجالات المغرب منهم القضاة والعلماء والأطباء والأدباء والسفراء، والوزراء والأولياء... التازي : رسائل مخزنية 1979.

(102) يلاحظ أن ابن بطوطة بمجرد ما وصل لفاس (6 نونبر 1949) وهي تحتفل بشعبانة مَثُل بين يدي السلطات أبي عنان : (وصلتُ فمثلت) الذي كان آنذاك قد استقر بمدينة فاس، بينما كان والده أبو الحسن ما يزال موجوداً بتونس...

(103) فارس بن ميمون ابن وُدرار الحشمي – وليس ابن وردار – شخصية سياسية هامة على العهد المريني، وقد تقدم التعريف به في المقدمة كشخصية يرجع لها الفضل في إنقاذ الرحلة من الضياع. ابن الأحمر : روضة النسرين المطبعية الملكية 1991 ص 39.



أنا الثريا التي تازا بيَّ افتخرت * على البلاد فما مثلي الزمان يرا
في عام أربعةٍ تسـعون تتبعـها * من بعد ستٍّ من المئين قد سطرا



اِسألوا التّاريخ عن أيــامها * كمْ عظيمٍ شَادَ من بنياتـهـا

وغدا يرْجُو رِضاها راكعـاً * يرتجي الحِكمةَ من أعلامِها !

من شعر د. التازي في جامعة القرويين بمناسبة عيدها المائة بعد الألف

وألقيت عصى التَّسيار ببلاده الشريفة بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان لان الفواكه بها متيسرة 334/4 والمياه والاقوات غير متعذّرة، وقل إقليم يجمع ذلك كله، ولقد أحسن من قال :

الغربُ أحسن أرضٍ ولي دليلُ عليه
البدْر يرقبُ منه والشمس تسعى إليه !

ودراهم الغرب صغيرة، وفوائدها كثيرة، وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحقُّ في ذلك، ولاح فضل بلاد المغرب، فأقول : إن لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم (104) نقرة، والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب، وبالمغرب يُباع اللّحم إذا غلا سعره ثمان عشرة أوقية بدرهمين، وهما ثُلث النقرة، وأما السَّمن فلا يوجد بمصر 335/4 في أكثر الأوقات والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يُلتفت إليه بالمغرب (105)، ولأن أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدورٍ راسيات، ويجعلون عليه السّيرج والبسِلاً (106)، وهو صنف من الجلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت، والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن، والبقلةُ الحمقاء يطبخونها كذلك، وأعين أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللّبن، والقُلقاسُ (107) يطبخونه، وهذا كله متيسّر بالمغرب لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك، وأما الخضر فهي أقلُّ الأشياء ببلاد مصر، وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام، وأما العنب فإذا كان رخيصاً بيع عندهم بثلاثة أرطال 336/4 من أرطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم إثنتا عشر أوقية.

وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمناً فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية، وإذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة، والإجاص يباع بحساب عشر أواقي بدرهم نقرة، وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس وهي درهم من دراهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير، وأما اللحم فيباع فيها

(104) يعني أن الدراهم حسنة جيّدة قوية– 18 أوقية تعادل تقريباً نصف كيلو و 120 درهم، دينار واحد ذهبي من 6 ,4 كرام ، وكل هذه المعلومات تؤيدها افادات العُمَري في مسالك الأبصار... Gibb, Selex. P. 375 Note 18.

(105) حديث طريف عن صحون مصر وقُدُورها الراسيات بما تحتوي عليه من عدسٍ وحمصٍ وجلبان وقرع وبقل وسيرج وزيت... أخّر كل هذا عن محله لأجل المقارنة.

(106) البَسِلاً : الكلمة من أصل إيطالي (Piselli) ولعل الاشارة إلى الطعمية والمدمَّس.

(107) القلقاس : تقدمت له كتابته بالصاد القلقاص 84, IV.

الرطل منه أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة. فإذا تأملت ذلك تبين لك أن بلاد المغرب
337/4 أرخص البلاد ‖ أسعاراً وأكثرها خيراتٍ وأعظمها مرافق فوائد.

ولقد زاد الله بلادَ المغرب شرفاً إلى شرفها وفضلاً إلى فضلها بإمامة مولانا أمير المومنين (108) الذي مد ظلال الأمن في أقطارها وأطلع شمس العدل في أرجائها وأفاض سحاب الإحسان في باديتها وحاضرتها وطهّرها من المفسدين وأقام بها رسومَ الدنيا والدين وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم، وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم.

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

338/4 أما عدله فأشهر من أن يُسطر في كتاب، فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته ‖ وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قِصصهنَّ بعد صلاة الجمعة إلى العصر ومن وصلت نوْبتها نودي باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة، فإن كانت متظلمة عجل إنصافها أو طالبة إحسان وقع إسعافها، ثم إذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفُعل مثل ذلك فيها.

ويحضر المجلسَ الفقهاءُ والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية، وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التّمام ويظهر فيه مثل هذا العدل، فان ملك الهند عيَّن 339/4 بعض ‖ أمرائه لأخذ القِصص من الناس وتلْخِيصها ورفعِها إليه دون حضور أربابها بين يديه ! وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه، وعن أهل الجرائم الكبار التي لا يعفو عن جرائمهم إلا من وَثِق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى : والعافين عن الناس (109).

قال ابن جزي : من أعجب ما شاهدتُه من حلم مولانا أيده الله أني <u>منذ قدومي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين</u> (110) إلى هذا العهد وهو أوائل عام سبعة <u>وخمسين</u>

---

(108) يراجع I ,5 تعليق 5.

(109) القرآن : السورة 3، الآية 133-134.

(110) آخر عام 753 يوافق 5 يبراير 1353 – وهذه لقطة هامة في حياة ابن جزي سجّلها بنفسه ولم يعتمد فيها على أحد غيره، إن ما تعرض له من إهانة من قبل ملكه في الأندلس كان اثناء عام 753 حيث نجده يتمكن من الالتحاق بالمغرب أواخر العام بعد أن تعرف سلفاً على ابن بطوطة لما زار هذا الاخير الديار الأندلسية...

340 (111)، لم أشاهد أحداً أمر بقتله إلا من قتله الشرع في حدٍّ من حدود الله تعالى : قصاص أو حرابة، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف (112)، ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الأعصار، ولا فيما تباعد من الأقطار.

وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والإقدام مثل يوم قتال بني عبد الوادي (103) وغيرهم، لقد سمعتُ خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم، فقال : هكذا وإلا فلا ! قال ابن جزي، لم يزل الملوك الأقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الاعادي، ومولانا أيده الله كان قتلُ الأسد عليه أهون من قتل الشاة على 341 الاسد، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بوادي النَّجارين من المعمورة (104) حوز سلا وتحامته الأبطال وفرت أمامه الفرسان والرجال برز إليه مولانا أيده الله غير محتفل به ولا متهيّب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خرَّ بها صريعاً لليدين والفم (105)، وأما هزائم الأعادي فإنما اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال، وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفرداً بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرُّعب في قلوب الأعداء 342 وانهزموا أمامه فكان من العجائب فرارُ الامم أمام واحد ! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (106)، والعاقبة للمتقين، وما هو إلا ثمرة ما يمتنُّ به، أعلى الله مقامه، من التوكل على الله والتفويض اليه.

---

(111) أول محرم 757 كان يصادف 5 يناير 1356 وهو التاريخ الذي أوشكت الرحلة فيه على نهاية تحريرها...

(112) لم يكن استعمال كلمة «انفساح البلاد واختلاف الطوائف» عبثاً من أبن بطوطة فإن المغرب امبراطورية فعلاً وهو نتيجة لذلك، يحتضن عدداً من الأمم وتلتقى عنده شتى الحضارات، وان القائد الذي يمكنه أن يحظى فعلاً بوفاق الكل لهو فعلا قائد يستحق التنويه !!

(103) الاشارة دون شك إلى معركة انكاد (بسيط وجدة) التي جرت في آخر ربيع الثاني من عام 753=15 يونيه 1353، وقد فصَّل ابن خلدون في عدد من المقاطع (ج 7، 252-598-626) الحديث عن هذه المعركة التي كانت السبب في انقراض امر بني عبد الواد ثانية على حدّ تعبيره وقد جلس أبو عنان لاستقبال الوفود الواردة سواء من تونس أو الأندلس... ونذكر أنه بهذه المناسبة جرى حديث ابن الخطيب مع أبي عنان حول واجب المصارحة التي ينبغي أن يتحلّى بها السفير. د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج I ص 235-7 ص 14-15 – ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان ج I-216

(104) غابة المعمورة تقع شمال مدينة سلا. و عن وادي النَّجارين يتساءل هل له صلة بوادي سلا أو وادي الرّمان كما يسميه المراكشي في المعجب راجع II ,431 .

(105) مثل عربي، وقد ورد ضمن شعر : "فخرّ صريعاً لليدين وللفم" مثل يضرب في الشماتة بالعدو الذي يتمنى أن يقع على فمه وعلى يديه !.

(106) القرآن : السورة 5، الآية 64-107 القرآن LY II الآية 21 – LX II الآية 4.

وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كلّ يوم بعد صلاة الصبح، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم،(107) فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفروع مذهب مالك رضي الله عنه، وكتب المتصوّفة وفي كل علم منها له القِدْح المعلى، يجلو مشكلاته بنور فهمه ويلقي نكته 343/4 الرائقة من حفظه، وهذا شأن الائمة المهتدين والخلفاء الراشدين، ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية، فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي خاصة، وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الآخرة والصبح في الجماعة، حتّى رأيت ملازمة مولانا – أيده الله – في العلوم كلّها في الجماعة، ولقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء (108).

344/4 قال ابن جزي : لو أن عالِماً ليس له شغل إلا بالعلم ليلاً ونهاراً لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم مع إشتغاله بأمور الأئمة وتدبيره لسياسة الأقاليم النائية ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحدٌ من الملوك ونظره بنفسه في شكايات المظلومين، ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة عِلم في أيّ علم كان، إلا جلا مُشْكِلَها، وباحث في دقائقها، واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها، ثم سما – أيده الله – إلى العِلم الشريف التصوفي ففهم إشاراتِ القوم وتخلق بأخلاقهم، وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعته، وشفقته على رعيته ورفقه في أمره كله، وأعطى للآداب حظاً جزيلا من نفسه 345/4 فاستعمل أبدعها منزعاً وأعظمها مَوقعا، وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة : روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبهما بخط يده الذي يخجل الرّوض حسناً، وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ولا رام إدراكه(109).

(107) القصد بمسجد القصر إلى المسجد الكبير الذي بناه يعقوب المريني عام 677 - 279 بفاس الجديدة والذي ظل إلى الآن يتوفر على الكراسي العلمية المشار إليها : التفسير الحديث – الفقه، التصوف، التازي : جامع القرويين – طبعة بيروت 1972 ج. II 399 و ج. III - 684 - 697

(108) القرآن : السورة 2، الآية 105 والسورة 3، الآية 74.

(109) كان ابن جزي يحكي عن حقائق شاهدها فقد بعث السلطان أبو عنان سنة 756-1355 أي قبيل الفراغ من كتابة الرحلة سنة واحدة بعث بهذه الرسالة والقصيدة اللتين كانتا من إنشاء سفيره أبي القاسم محمد بن يحيى الغساني البَرْجي الغرناطي.. وأعتقد أن أبا عنان استعرض في الرسالة أحوال البلاد وتحدث عن جهاده معتذراً بذلك عن عدم الوصول إلى تلك البقاع على نحو ماوقفنا عليه في رسائل مماثلة – ابن الخطيب : ريحانة الكتاب وقد جرت العادة كما قال ابن مليح في رحلته بقراءتها داخل الروضة ... ابن الخطيب : ريحانة الكتاب –الاحاطة د. التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب 219, 7.

ومَن تأمل التَّوقيعات الصادرة عنه (110) أيده الله تعالى وأحاط علماً بمحصولها، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها، وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها.

وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر فذلك ما لم يفعله احد 346/4 من الملوك غير السلطان أتابك أحمد (111)، وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المتستّرين من أهل البيوت !

قال ابن جزي : اخترع مولانا أيده اله في الكرم والصدقات أموراً لم تخطر في الأوهام ولا اهتدت اليها السلاطين، فمنها إجراء الصدقة على المساكين بكل بلد من بلاده على الدَّوام، ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضا، ومنها كون تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً متيسرا للانتفاع به، ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشائخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده، ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى، ومنها 347/4 التصدق بما يجتمع في مجابي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراماً لذلك اليوم، وقياماً بحقه، ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم (112) واجتماعهم لاقامة رسمه، ومنها إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء (113)، ومنها صدقته على الزَّمْنَى والضعفاء بأزواج الحرْث (114) : يقيمون بها

---

(110) حول التوقيعات والعلامات يراجع المجلد الأول من التاريخ الدبلوماسي للمغرب ص 302.

(111) حول أتابك أحمد الذي كان سلطان بلاد اللور والذي عمَّر أربعمائة وستين زاوية والذي نحت الطرق في الجبال والصخور وسوَّاها انظر ج II, 31-32.

(112) نذكّر بأن المملكة المغربية اتخذت من هذه المناسبة : مناسبة للاحتفال بعيد المولد منذ عهد بني مرين، وقد أصبح هذا العيد ضمن الأعياد الرسمية للمغرب، وإلى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق يرجع تاريخ الظهير الذي صدر إلى سائر عمال المغرب باقرار الاحتفال بعيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أواخر القرن السابع الهجري. د. التازي : لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي، يراجع التعليق 77.
د. التازي : الإلمام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام. دعوة الحق العدد 223 شوال 1402 – يوليه 1982، راجع التعليق 77 .

(113) يلاحظ أن عاشوراء تكتسي في المغرب صبغة ادخال السرور على الأهلين، وكأنَّ ذلك يرمز إلى تنسيتهم النكبة التي حلت بحفدة الرسول صلى الله عليه وسلم في كربلاء، وقد اعتاد الشيعة في المشرق أن يقوموا في هذه المناسبة بتظاهرات من شكل آخر تهدف إلى تحسيس الناس بتلك المناسبة الحزينة، ولكن الوسيلة تختلف، ففي المغرب يُفرحون الأطفال لتنسيتهم، وفي المشرق "يحرمونهم" من الوسائل الترفيهية لتذكيرهم أيضا !؟

(114) كل الذين تحدثوا عن أزواج الحرث عرباً وعجماً أخطأوا في معرفة القصد من هذا التعبير المغربي الأصيل، فتعبير (حرث زوجين) يَعني مساحة من الأرض على نحو الفدّان، وبعضهم قدرها بنحو 15 هكتار، والزوجان هنا ليس الذكر والأنثى كما فهم بعض التراجمة !! ولكن القصد بها الثوران أو البغلان اللذان يجران المحراث... فكان العاهل يعطي قطعا أرضية : مقدار حرث زوجين لكل فرد مع اعفاء الأرض الممنوحة من اللوازم الجبائية .وقد يكون العطاء أزواجا كثيرة وقد ورد هذا الاستعمال عند ابن مرزوق في المسند الصحيح الحسن، وأورد دوزي نموذجاً : «وهو يقف على أزواج له تحرث بفحص البلوط في ضيعته» أمر أن يجعل صاحب الخراج على كل زوج يحرث ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب – وكان قد جعل على كل زوج يحرث ثمانية دنانير وخفف عن الناس وأسقط عنهم ما وضع على الأزواج...وهكذا فترجمة التعبير ترجمة صحيحة : Paires de bœufs pour labourer la terre

أوَدَهم، ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطَّنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم، وتلك مكرمة لا يُعلم لها نظير، ومنها بناء المارستانات في كل بلد من بلاده، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء 348/4 لمعالجتهم والتصرف في طبّهم (115)، إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر كافى الله أياديه وشكر نعمه.

وأما رفعه للمظالم عن الرعية فمنها الرتَب التي كانت توخذ بالطرقات، أمر أيده الله بمحو رسمها وكان لها مجْبى عظيم فلم يلتفتْ إليه، وما عند الله خيرٌ وأبقى (116)، وأما كفه أيدي الظلام فأمرٌ مشهور، وقد سمعتُه أيده الله – يقول لعماله : لا تظلموا الرعية ! ويؤكد عليهم في ذلك الوصية.

قال ابن جزي : ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلا رفعه التَّضييف الذي كانت عُمَّال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرَّعايا، لَكَفَى ذلك أثراً في 349/4 العدل ظاهراً، ونوراً في الرفق باهراً، فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق ما لا يحيط به الحصر.

وقد صدر في أيام تصنيف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسْجونين ورفع الوظائف الثَّقيلة التي كانت توخذ منهم ما هو اللائق بإحسانهم والمعهود من رأفته، وشمل الأمر بذلك جميع الاقطار، وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوْرُه من القضاة والحكام ما فيه زاجر الظَّلَمة وردع المعتدين !

وأما فعله في معاونة أهل الاندلس على الجهاد ومحافظته على إمداد الثغور بالاموال والاقوات والسلاح وفتّه في عضد العدو بإعداد العدد وإظهار 350/4 القوة فذلك أمرٌ شهير لم يغب علمه عن أهل المغرب والمشرق ولا سبق إليه أحد من الملوك (117).

(115) لعل من هذه المارستانات المنتشرة في المغرب، ما ذكره ابن الخطيب في كتابه (نفاضة الجراب...) أنه حين دخل مدينة آسفي عام 761=1360 وجد بها المارستان الذي كان ناظره الشيخ أبو الضياء الجزيري أما مارستان فاس الذي كان بسوق الحنّاء بجوار العطارين وكان يحمل اسم سيدي فرج (هدم مع الاسف) فقد كان ناظره أبا فارس عبد العزيز القروي المتوفى 750 = 1350 وقد ذكره الشيخ بناني في حواشي الزرقاني عند قول الشيخ خليل في فصل غسل الميّت عند قوله (أو نُسي معه مال).. وقد تحدث ابن الوزان عن عدة مارستانات بفاس كانت في غاية الرونق والاتقان... عن مخطوطة حول الملاجئ الخيرية الاسلامية في الدولة الموحدية والمرينية للشيخ عبد الحي الكتاني انظر د. التازي المنشآت الصحية بالمغرب، مجلة مجمع اللغة العربية بعَمان دجنبر 1981.

(116) القرآن الكريم – سورة 28 الآية 60 وكذا سورة الشورى 42 الآية 36.

(117) حول المساعدة اللامشروطة التي كان يقدمها السلطان أبو عنان لأخيه أبي الحجاج ملك غرناطة يكفي أن نرجع لهذه الملفات الثقيلة من المراسلات المتبادلة التي كانت تجمع على أن مكاسب السلطان أبي عنان بالمغرب الكبير هي مكسب للقضية الأندلسية برمتها وكان الشاهد في كل هذا لسان الدين ابن الخطيب.. وسنقف في هذا الصدد على المشاورات التي كانت قائمة ودائمة بين غرناطة وفاس من أجل توحيد الموقف ازاء قشتالة، ومن الطريف أن نقرأ في لائحة الهدايا المتبادلة اسراباً من الخيول المغربية الذاهبة إلى الأندلس وأسرابا كذلك من انواع الصقور المهداة لأبي عنان الذي كان من أكبر هواة القنص بالصقر ابن الخطيب : ريحانة الكتاب مصدر سالف الذكر– د. التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ,90-96 ...

قال ابن جزي : حسْبُ المتشوف إلى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد النظر للمسلمين ودفاع القوم الكافرين ما فعله في فداء مدينة طرابلس إفريقية فإنها لما استولى العدوّ عليها ومد يد العدوان إليها ورأى أيده الله أن بَعْث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعد الاقطار كتب إلى خُدَّامه ببلاد افريقية أن يفدوها بالمال، ففديت بخمسين الف دينار من الذهب العين، فلما بلغه خبر ذلك، قال : الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا النزر اليسير، وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى افريقية، وعادت 351 المدينة إلى الإسلام على يديه (118)، ولم يخطر في الأوهام أن أحدًا تكون عنده خمسة قناطير (119) من الذهب نزراً يسيراً حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة، ومأثرةً فائقة قلَّ في الملوك أمثالها وعز عليهم مثالها.

ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله في الجهاد إنشاؤه الأجفان بجميع السواحل (120) واستكثاره من عُدَدِ البحر، وهذا في زمان الصلح والمهادنة إعداداً لأيام

(118) كانت مدينة طرابلس تعرضت عام 755=1354 للاحتلال من لدن الأميرال الجنوى فيليبّو دوريا Filippo Doria في أبريل 1355 = ربيع الأول 756. وهو مالم تفتْ الإشارة إليه من لدن ابن فضل الله العمري في موسوعته المسالك والممالك... ونرى من الفائدة أن نشير هنا لما أورده ابن خلدون (ج 6 ص 836) حول هذه الحادثة الخطيرة، فلقد عاث الجنويون في المدينة سلباً ونهباً، وهنا توسط أبو العباس أحمد بن مكي صاحب قابس لافتدائها من المغيرين وقد استعصى عليه ذلك لانهم طالبوا بدفع مبلغ من المال يقدر بخمسين الف مثقال من الذهب العين، وحتى لا يترك المدينة عرضة للاحتلال فكر في أن يفتح اكتتاباً يجمع بمقتضاه ما يمكن أن يساعد على تحرير طرابلس، لكنه عجز فعلاً عن أن يحصل على ما يحقق الرغبة، ومن هنا وردت فكرة الاستنجاد بالعاهل المغربي أبي عنان الذي كان يأمل أن يبعث بجيشه لولا بُعد تلك الاقطار... وقد هنأ سلطان غرناطة أبا عنان بهذه المبادرة الشجاعة، الريحانة لابن الخطيب تحقيق عنان 1980 ج. I ص. 324.

(119) معنى هذا الكلام أن القنطار من الذهب يساوي أيام ابن بطوطة عشرة آلاف دينار... وليس يعنى على كل حال ما يعنيه القنطار اليوم في استعمالنا !! وفي تاج العروس "والقنطار معيار، قيل : وزن أربعين أوقية من ذهب أو الف ومائتا دينار، وفي اللسان : ومائة دينار، وقيل مائة وعشرون رطلا أو ألف ومائتا أوقية، عن أبي عبيد : أو سبعون الف دينار، وهو بلغة بربر الف مثقال من ذهب أو فضة وقيل ثمانون الف درهم قاله ابن عباس، وقيل جملة كبيرة مجهولة من المال أو مائة رطل من ذهب وفضة إلى آخر الأقوال التي أوردها والقنطار كلمة معرَّبة من اللاتينية (كنتاله) وقيل من اليونانية (كنتار يوم).
د. النعيمي : الفاظ من رحلة ابن بطوطة مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد 24-1974.
– هذا ومن المفيد أن نذكّر هنا بما سبق أن قلناه عند حديثنا عن مخطوطة الأمير مولاي العباس وتعليقه على هذا الافتداء منظراً بافتداء الحكومة المغربية لتطوان – انظر د. التازي : رسائل مخزنية ص 29.

(120) تحدثت مصادر تاريخ المغرب بما فيها القصائد الشعرية عن الأسطول البحري على عهد ملوك بني مرين ومنهم السلطان أبو عنان، وفي ذلك يقول ابن أبي حجلة :

قطائعها مثل النجوم قلاعها * وغربانها قطع من الليل دامس
كان مجاذيف الغراب قوادم * يطير بها والنسر في الأفق كانس

يراجع الجزنائي في زهرة الآس عن ميناء خولان بضاحية فاس - Colin - Bulletin Décembre 1945

Dr TAZI : la presencia de la poesia en la historia del estrecho de gibraltar sociadad Espanola de Madrid. Estudios para la comunicion erja a Travès del estrecho de Gibraltar S.A. SECEGSA 1995

القرّة (121) وأخذاً بالحزم في قطع أطماع الكفار، واكد ذلك بتوجُّهه – أيده الله بنفسه – إلى جبال جاناتة (122) في العام الفارط، ليباشر قطع الخشب للانشاء، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء، ويتولّى بذاته أعمال الجهاد مترجيًّا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء. 352/4

رجع، ومن أعظم حسناته، أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة (123) البيضاء دار ملكه العلي، وهو الذي إمتاز بالحسن واتقان البناء وإشراق النُور وبديع التَّرتيب، وعمارة المدرسة الكبرى (124) بالموضع المعروف بالقَصر (125) مما يجاور قصبة فاس ولا نظير لها في المَعْمور اتساعاً وحسناً وإبداعاً وكثرةَ ماء وحسن وضع، ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخرسان ما يشبهها.

وعمارة الزاوية العُظمى (126) على غدير الحمِّص (127) خارج المدينة البيضاء، فلا

(121) القيرة : سمح ابن بطوطة لنفسه باستعمال هذا التَّعبير الإسباني (Guerra) ومن المعلوم أن هذا اللفظ كان جاريا على الألْسنة لشدّة الجوار مع قشتالة، وقد ظنّها البستّاني محرفةً عن كلمة الغزاة فاثبت هذه عوض القيرة !! وقد غفل د. عادل خلف عن هذه الكلمة في معجمه...

(122) جناته (JANATENE) تقع جنوب غرب مدينة الخميسات وكانت جبالها غنية بأشجار العرعار على ماهو معلوم انظر الخريطة وقد اخطأ موني (mauny) وفريقُه (1966) عندما جعلوها DJANET التي تقع غرب الجزائر كما أخطأ كيوك 1995 عندما جعلها جنوب غرب غات وقد ذكر بيكينكام بأن تحديد الموقع غير معروف والواقع ماقلناه إن شاء الله ! وإلى جناتة ينتسب عدد من العلماء والفقهاء. المنوني : نظم الدولة المرينية مجلة البحث العلمي 1964 . ذ. التازي : نصيب الأعلام الجغرافية المغربية من رحلة ابن بطوطة. الندوة العلمية لتاريخ الرباط – نونبر 1995.

(123) القصد بالمسجد الجديد إلى جامع الحمراء من فاس الجديد لأن التشابه القائم بين شكل زخرفته وزخرفة مدرسة أبي عنان مما يرجح هذا، ويحتوي على كرسيٍ للعلم وخزانة للكتب. التازي : جامع القرويين ج III – 683 - 689

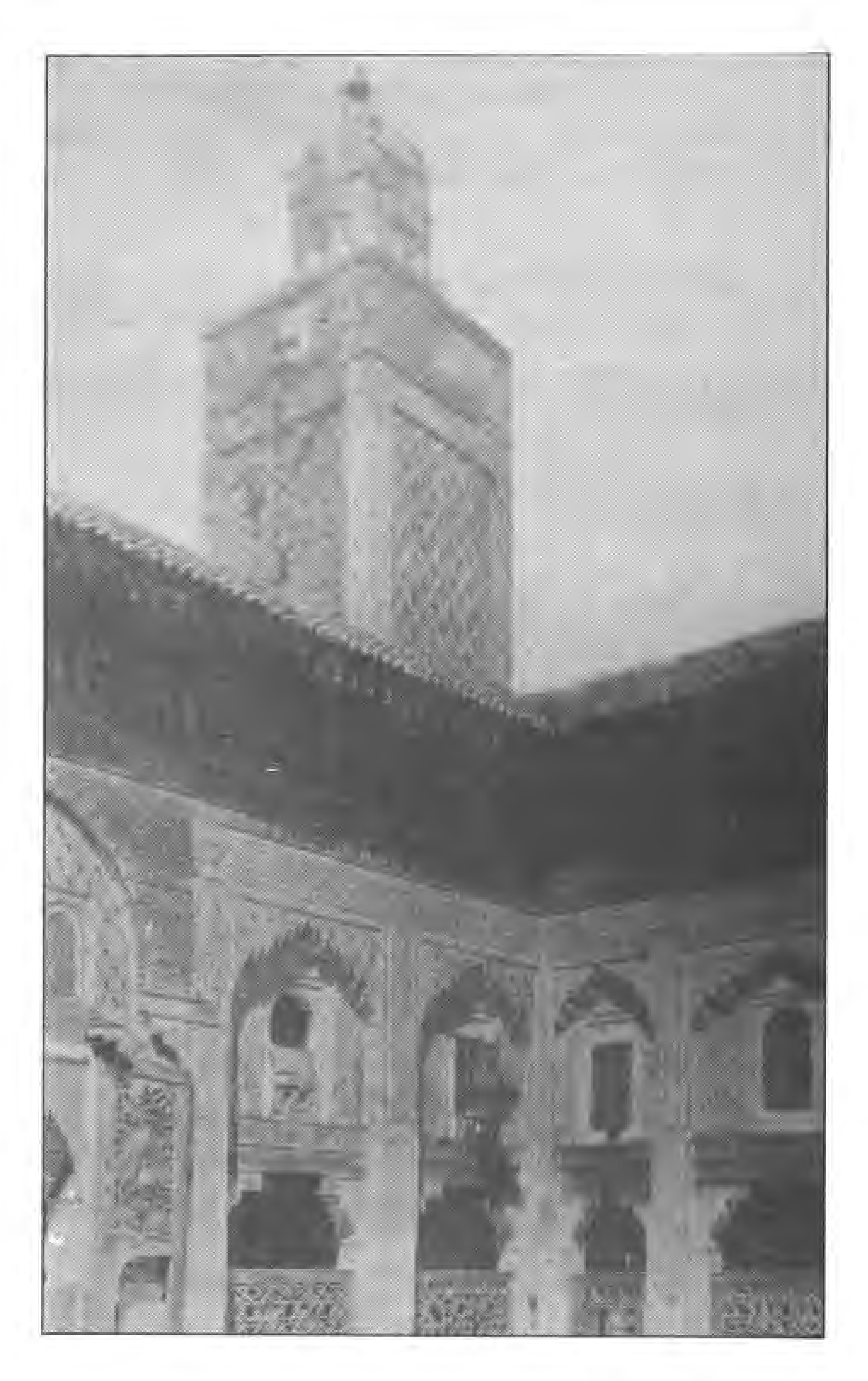
(124) تم بناء المدرسة البوعنانية عام 756=1355 قبل سنة من نسخ الرحلة – د. التازي : تاريخ جامع القرويين ج 2 ص 360 – تعليق 27 ص 589.

(125) هكذا كانت التسمية في القديم وقد هجر هذا الاسم اليوم وحل مكانه : الطالعة ومعلوم أن المدرسة تقع بين الطالعة الكبرى حيث الساعة المائية التي انشت عام 758 بعد انتساخ الرحلة.
BEL : INSCRI. DE FES P. 255

(126) الزاوية العظمى هي دون شك غير المدرسة الكُبرى وقد أسلفنا الحديث عنها باسهاب في 84,I فهناك نبهنا إلى أن جميع المعلقين من أمثال البروفيسور كيب ومن قبله وبعده التبست عليهم الزاوية هذه بالمدرسة، وهناك أعطينا وصفا دقيقا لما كانت عليه قبل أن تختفي عن الأنظار بفعل الزلازل وتقلبات الأحوال...وسنأتي في (الملاحق) على ماقيل عن هذه المعلمة الحضارية الكبرى.
انظر فيض العباب لابن الحاج النميري دراسة واعداد د. محمد بن شقرون. دار الغرب الاسلامي بيروت 1990 ص 206-218. المقري : أزهار الرياض ج 3 ص 196-197، الرباط 1978.

(127) القصد بغدير الحمص إلى وادي الجواهر على مانقرأه في (روضة النسرين) لابن الأحمر، ولفظ (حِمص) أطلق – كما يقول العمري في مسالك الأبصار – على جانب من فاس العليا، وقد أتى اسم حمص من اليهود الوافدين عليها من اشبيلية الذي تسمى حمصاً لنزول أهل حمص السوريين بها، وقد كانت راكبة على النهر وهي مشرفة على الجميع، ومن هنا نعرف خطأ الترجمة التي ضبطت الكلمة بكسر الحاء وتشديد الميم وترجمت حمص المدينة بالحمّص النبات : (Pois chiches) !

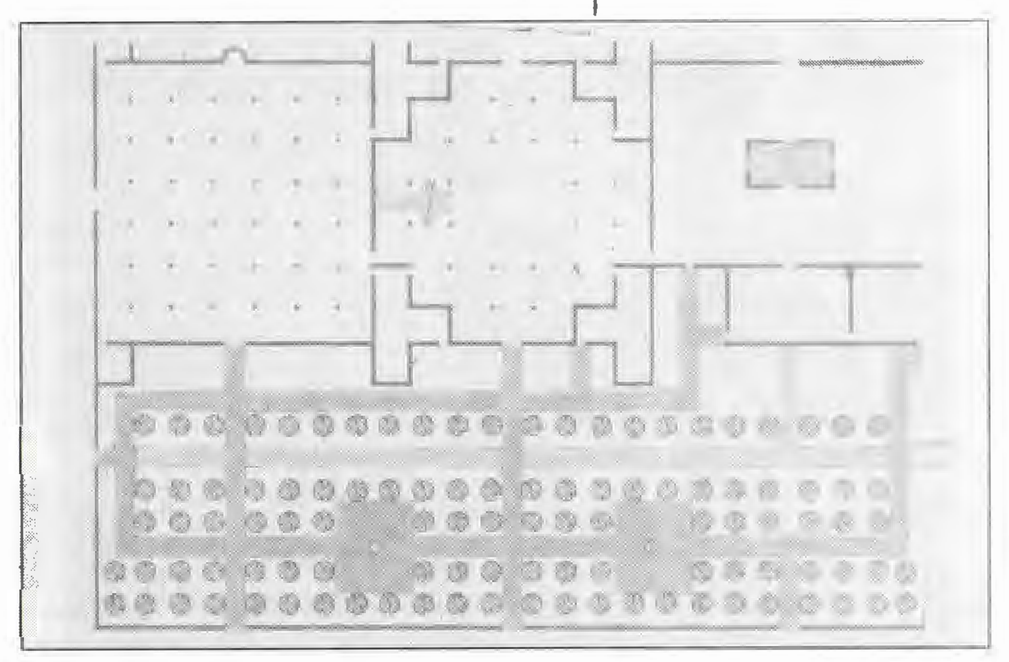
وحمصٌ لاتنس لَهَا تينَها * واذكُر مع التّين زياتينها



مدرسة أبي عنان

353/4 مثل لها أيضا في عجب وضعها وبديع صنعها، وأبدعُ زاوية رأيتها بالمشرق زاوية سِرياقص التي بناها الملك الناصر (128)، وهذه أبدع منها واشد إحكاما وإتقاناً والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ويكافئ فضائله المنيفة ويديم للاسلام والمسلمين أيامه وينصر ألويته المظفرة وأعلامه(129).

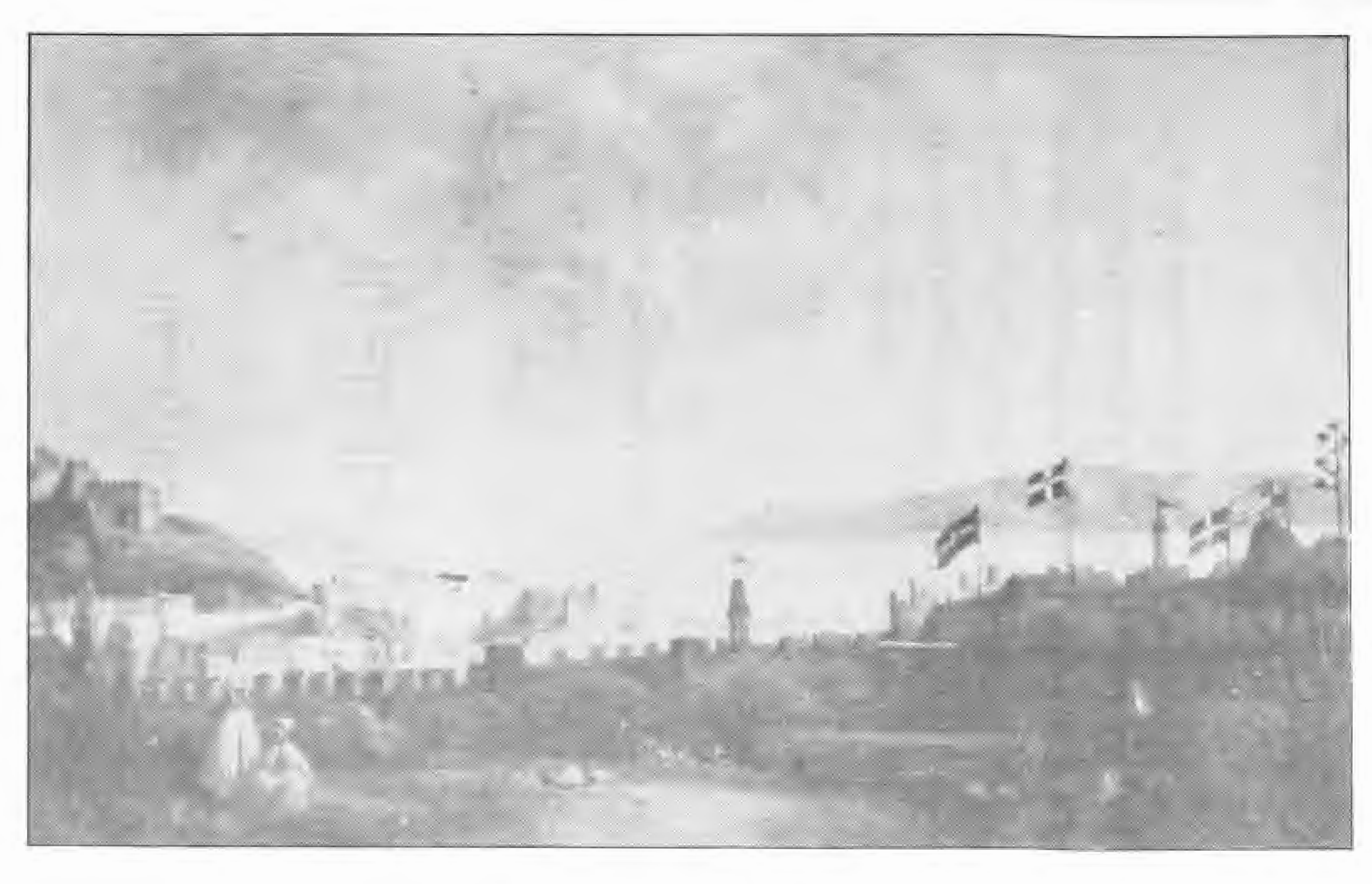
ولْنعد إلى ذكر الرحلة فنقول : ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام الكريم وعمَّني فضل إحسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت إلى بلدي طنجة وزرتها...



الزاوية العظمى كما تخيّلها سعيد لحميني فكيف تتخيلها أنت من خلال وصف ابن الحاج النميري ؟

(128) انظر ج I ص 84.

(129) مكّنتنا هذه الخاتمة من تسجيل لقطاتٍ تاريخية هامة أيام أبي عنان ومجالسه العلمية وطموحاته ومنشآته الحضارية الكبرى : المدارس العلمية والزاوية الكبرى ولولا ما تعرض له هذا الملك العظيم من مصير محزن في ذي الحجة 759-1358 لكان للدولة المرينية وجه أكثر إشراقاً، ويكفي أن نعرف أن العواصم المغربية لا تخلو من أثرٍ حضاري من آثار السلطان أبي عنان رحمه الله...



طنجة العاصمة الدبلوماسية للمغرب بالأمس القريب –رسم المتحف الوطني في ڤيينا–

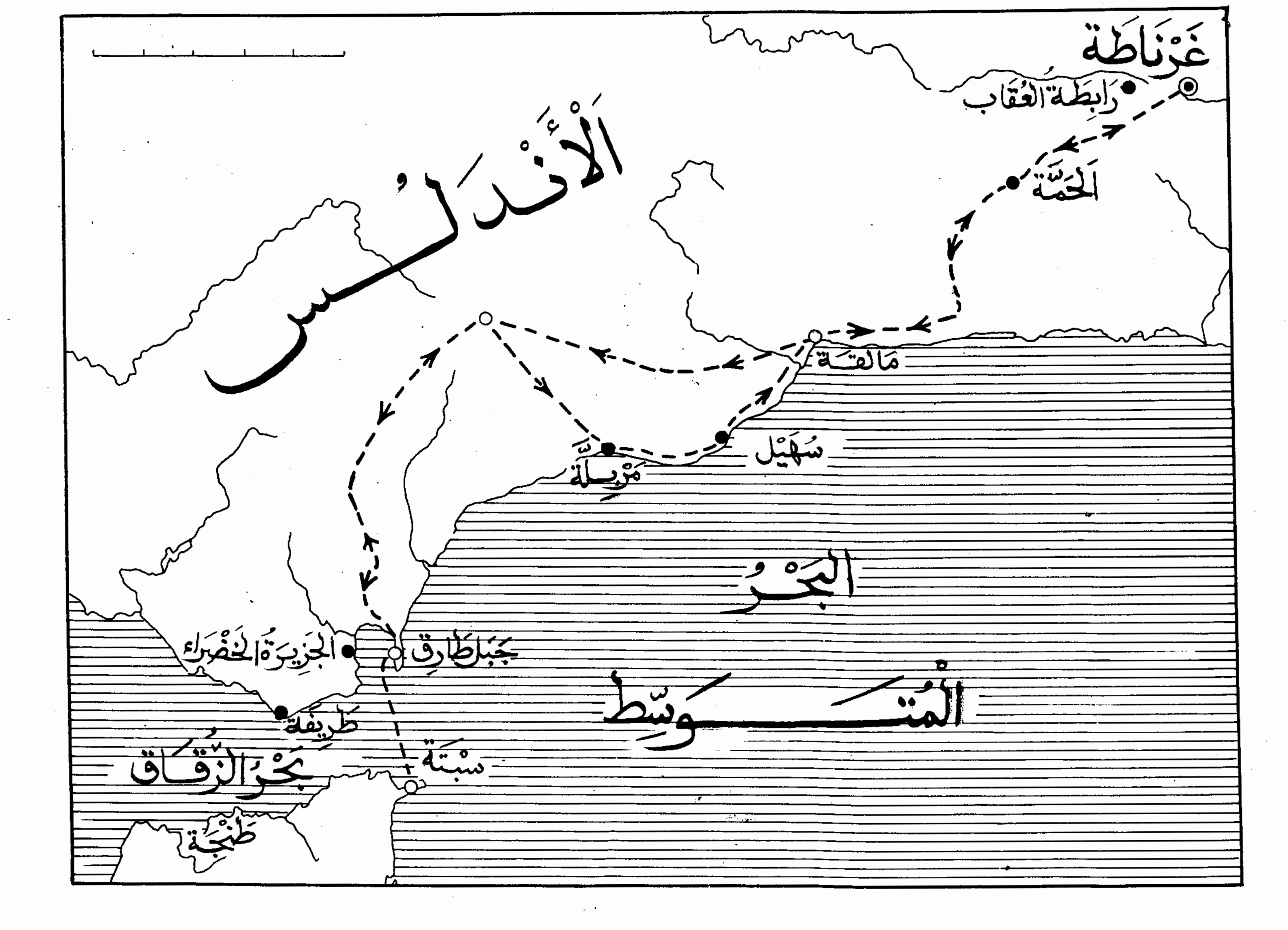


الفصل السابع عشر

الرحلة إلى الأندلس

- جبل الفتح في حديث ابن بطوطة
- اهتمام الدولة بالجبل
- المعمار في الجبل.. صورة مجسَّمة له بالقصر الملكي بفاس
- حضور الشّعر في الجبل
- الحديث عن رنده... ومربلة
- مالقة – الحَمّة
- غرناطة ومجالسها...
- التقاء ابن جزي بابن بطوطة لأول مرة !
- حديث عن العَجَم المستوطنين بالمدينة وإهمال لآثار الحمراء !!
- عودته للمغرب ومقامه بمدينة أصيلا ثم التحاقه بمدينة مراكش
- مصاحبة ابن بطوطة لركب أبي عنان الذي حمل شِلْو والده من مراكش لدفنه في شالة الرباط.




غَرْنَاطَة
رَابِطَةُ العُقَاب
الحَمَّة
الأَنْدَلُس
مَالقَة
سُهَيْل
مَرْبلَّة
البَحْرُ
المُتَوَسِّط
جَبَلُ طَارِق
الجَزِيرَةُ الخَضْرَاء
طَرِيفَة
سَبْتَة
بَحْرُ الزُّقَاق
طَنْجَة



وتوجهتُ إلى مدينة سبتة (1) فأقمتُ بها أشهراً وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله فأردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط، فركبت البحر من سبتة في شطّي (2) لأهل أصيلا (3)، فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى، حيث الأجر موفور للساكن والثواب مذخورٌ للمقيم والظاعن، وكان ذلك أثر موت طاغية الرّوم أدفونش (4) وحصاره الجبل عشرة أشهر، وظنه أنه يستولي على ما بقى من بلاد الاندلس للمسلمين فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذي كان أشد الناس خوفا منه.

وأول بلدٍ شاهدته من البلاد الأندلسية جبل الفتح (5) فلقيتُ به خطيبه الفاضل أبا زكرياء يحيى بن السراج الرُّندى (6) وقاضيه عيسى البربري، وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل، فرأيت عجائب ما بَنَى به مولانا أبو الحسن رضي الله عنه وأعد فيه من العُدد وما زاد على ذلك مولانا أيده الله، ووددت أن لو كنت ممَّن رابط به إلى نهاية العمر.

(1) تعتبر سبتة من أهم الثغور المغربية وانشطها، وقد ارتبط تاريخ المغرب الدّولي والحضاري بهذه المدينة التي تعتبر من اقليم تطوان وعندها تجهز طارق بن زياد للعبور إلى القارة الأروبية... هذا ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين من المهتمين برحلة ابن بطوطة يرى أن الرحالة المغربي قصد الأندلس في مهمة سياسية عهد بها اليه السلطان أبو عنان؟

(2) الشطي كلمة من أصل لاتيني، وتعني المركب الذي يحتوي على صاريَّين، ويهجى باللاتينية هكذا : Sajitta هذا وقد اهتم ليڤي بروڤنصال برحلة ابن بطوطة للأندلس معتمداً على مخطوطة الشيخ عبد الحي الكتاني التي تحمل في الخزانة العامة بالرباط (المغرب) اليوم رقم 2399، والتي تنقصها الأوراق الخاصة بالأندلس !!

E. Lévi-Provençal : Le voyage d'Ibn Battûta dans leRoyaume de Grenade (1350) Mélanges offerts à Wiliam Marçais par l'Institut d'Etudes Islamiques de l'Université de Paris 1950 P. 205-224.

H. T. Norris : Ibn Battutah's Andalu sian Journey, The Géographical Journal Vo C XXV Part 2, June 1959.

(3) تقع مدينة أصيلا بين العرائش وطنجة على المحيط الأطلسي ولها تاريخ حافل في العلاقات بين المغرب والجزيرة الايبيرية بالرغم من حجمها الصغير، وقد ورد في المثل المغربي : (أصيلا صغيرة ومحاينها كبار) أي متاعبها وأهوالها كبيرة.

(4) القصد إلى الفونس الحادي عشر، ملك قشتالة الذي توفي يوم 20 مارس 1350 = 10 محرم 751 أثناء محاصرته لجبل طارق - د. التّازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج، 7-87-89.

(5) جبل الفتح أو جبل طارق نسبة إلى طارق بن زياد أول قائد للجيوش العربية التي كانت صحبته، نزله في ربيع 711 = رجب 92 وقد عبر المضيق لفتح إسپانيا وقد انهزم أمامه في الصيف الموالي أوديريك العاهل القوطي، ومن ذلك الإسم وردت التسمية الأوربية Gibraltar وقد كان في أبرز المصادر المغربية الأصيلة التي تحدثت عن بنائه كتابُ تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين الذي ألفه ابن صاحب الصلاة في عهد الموحّدين، وقد حققه وعلق عليه - د. عبد الهادي التازي - طبعة ثالثة بيروت 1987 ص 84-88-83.

(6) القصد إلى الفقيه العالم الصلح الناصح أبى زكرياء يَحْيى بن أبِي العباس أحمد بن محمد بن حسن ابن يحيى بن عاصم القُسِّ (بضم القاف وكسر السين مهملا) النِّفْزي الحِمْيري الرندي الأصل الفاسي المولد والوفاة المعروف بالسراج، ترجمهُ ابن القاضي في جذوة الاقتباس فقال عنه : قلّما تجد كتاباً في المغرب ليس عليه خطّه!انتهت اليه رياسة الحديث وروايته توفي بفاس سنة 805-1403، ودفن مع أبي عبد الله سيدي محمد بن عباد رفيقه وصاحبه داخل باب الفتوح وقال في درة الحجال : له فهرستة وسماع عظيم، وقال في الروضة المقصودة : بنو السراج بيت علم ودين بالاندلس، وينسبُهم إلى حِمْير...



جبل طارق ... وكان يحتوي على رحى كانت هناك لطحن الأقوات بالريح...

قال ابن جزي : جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجاً في حُلُوق عَبَدة الاصنام حسَنَة مولانا أبي الحسن (7) رضي الله عنه، المنسوبة إليه، وقُربته التي قدمها نوراً بين يديه، محل عُدد الجهاد ومقر أساد الأجناد (8)، والثغر الذي افترَّ عن نصر الايمان وأذاق أهل الأندلس، بعد مرارة الخوف، حلاوةَ الأمان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَير (9) عند جوازه، فنسب إليه فيقال له : جَبَل طارق، وجبل الفتح، لان مبدأه كان منه.

35 وبقايا السور الذي بناه ومن معه باقيةٌ إلى الآن تسمى بسور العرب شاهدتُها أيام إقامتي به عند حصار الجزيرة (10) أعادها الله، ثم فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه، واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكه له عشرين سنة ونيفاً، وبعث إلى حصاره ولده الامير الجليل أبا مالك وأيده بالاموال الطائلة والعساكر الجرَّارة، وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر، وذلك في عام ثلاثة (وثلاثين) وسبعماية (11).

---

(7) شيد جبل طارق عام الخمْسات الثلات كما يقولون : 555 هـ – 1160 م من لدن الخليفة عبد المؤمن الموحدي، وقد احتل الجبل عام 1309-709 من قبل فيرديناند الرابع ملك قشتالة. وقد استرجعه أبو الحسن المريني عام 733=1333 وقام فيه بعدة أعمال ومنشآت كبرى... – ذ. التازي : الموحدون وجبل طارق من خلال مخطوطٍ قديم، مجلة الافاق، لسان اتحاد كتاب المغرب العربي يناير ، مارس 1963
T. Norris : The Early Islamic Settlement in Gibreltar, journal of Royal Anthropological institute XCI Pr2

د. التازي : التاريخ الپلوماسي للمغرب ج 7 ص 77.

(8) بني جبل طارق من لدن الموحدين ليكون محطَّتهم للتحكم في القارتين الافريقية والأوربية. قال ابن صاحب الصلاة : (عن سور العرب) "وأحكم البنَّاؤون فيه بناءً من القصور المشيَّدة والديار... ممّا هو عجيب في الآثار، وكما قيل : "الملوك تبنى على قدْرها من الأقدار" وربما لوعاينها المتقدمون من آل عاد بن شدَّاد لأقروا للموحدين بالعجز، وفضلوهم على الذين بنو القصر من سنداد... وكان الحاج يعيش المهندس قد صنع في أعلاه رحىً تطحن الأقوات بالريح... ابن صاحب الصلاة... ص 87-88.

(9) موسى بن نصير أبو عبد الرحمان فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز كان أبوه نصير على حرس معاوية، ونشأ موسى في دمشق وولي غزو البحر لمعاوية فغزى قبرس وبنى بها حصوناً... ثم غزا إفريقية وما وراءها من المغرب واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة وأمره بغزو شواطئ أوربا... له ترجمةٌ حافلة مليئة بالمفاخر... أدركه أجله بالمدينة المنورة عام 97=715.

(10) كان حصار الجزيرة من لدن الفونص الحادي عشر عام 742=1342 بعد انتصاره على السلطان أبى الحسن في طريف – التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ص 83-84،

(11) كان ذلك يوافق 1333، وقد كان الملك فيرديناند الرابع القشتالي استولى عليه منذ عام 709=1309... ومن المهم أن نذكر هنا أن هذه المناسبة هي التي نقل فيها ناقوس كان لكنيسة بالأندلس، نقل إلى فاس حيث ادخلت عليه تحسينات وعلق بالبلاط الأوسط بجامع القرويين في القبة الثامنة، وقد نقش عليه اسم الامير أبى مالك بن السلطان أبى الحسن وكان قد نقش عليه ظهره كلمات نقشت بالحروف اللاتينية.

د. التازي : تاريخ جامعة القرويين 2، ص 359-87 د – التاريخ الدبلوماسي للمغرب : ج 79.

ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه القَلَهُرَّة (12) العظمى بأعلى الحِصن وكانت قبل ذلك برجاً صغيراً تهدم بأحجار المجانيق، فبناها مكانه (13)، وبنى به دار الصناعة، ولم يكن به دار صنعة، وبنى السور الأعظم المحيط بالتُّربة الحمراء الآخذ من دار ‖ الصنعة إلى القُرمدَة ثم جدد مولانا أمير المومنين أبو عنان، أيده الله عهدَ تحصينه وتحسينه وزاد بناء السور بطرف الفتح، وهو أعظم أسواره غناءً وأعمها نفعاً وبعث إليه العُدد الوافرة والأقوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه حسن النية وصدق الاخلاص. 357/4

ولما كان في الأشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين (14) وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله وثمرةُ توكُّله في أموره على الله، وبَان مصداق ما أطّرد له من السعادة الكافية، وذلك أن عامَل الجبل، الخائن الذي خُتم له بالشقاء، عيسى بن الحسن بن أبي (15) منديل نَزَع يده المغلولة على الطاعة، وفارق عصمة الجماعة، وأظهر النفاق وجمع في ‖ الغدْران والشقاق، وتعاطى ما ليس من رجاله، وعمي عن مبدأ حاله السيء ومآله، وتوهَّم الناسُ أن ذلك مبدأ فتنةٍ تُنفق على إطفائها كرائم الأموال، ويستعد لاتقائها بالفرسان والرجال، فحكمت سعادةُ مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم، وقضى صدق يقينه بانخراق العادة في هذه الفتنة، فلم تكن إلا أيام يسيرة، وراجع أهل الجبل بصائرهم، وثاروا على الثائر، وخالفوا الشقيَّ المخالف، وأقاموا بالواجب من الطاعة، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق، وأُتي بهما مصفَّدين إلى الحضرة العلية فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين وأراح الله ‖ من شرّهما. 358/4 359/4

ولما خمدت نار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس ما لم يكن في حساب أهلها وبعث إلى جبل الفتح ولده الاسعد المبارك الأرشد أبا بكر المدعوّ من السمات

---

(12) رسم هذا اللفظ في بعض النسخ هكذا (القاهرة) وفي بعضها (المأثرة) وقد رسمتها نسخة الأمير مولاي العباس هكذا : القُلَهَرَّة أي القلعة الحرة أي (Calahorra) على نحو الإسم الموجود في قرطبة اليوم، ويفهم من بروفنصال الميل إلى هذا الاختيار الذي ربّما وجده أيضا في مخطوطة الكتاني !

(13) تذكر بعض التعاليق أن فيرديناند الرابع بنى دار صناعة أخرى على أسس دار الصناعة القديمة التي كانت من إنشاءات أبي الحسن لتحصين الجَبَل بعد سقوط الجزيرة الخضراء.
ويرى نوريس Norris أنَّ معظم البناء في السور من دار الصناعة إلى الساحة، كان فِيما بعد عام 1333=733 . هذا ومايزال اسم القلعة الحرة (Calahorra) رائجا إلى الآن في الجبل.

(14) آخر يوم من عام 756 كان 14 دجنبر 1355 .

(15) كان ابن أبي منديل حاكماً على جبل طارق منذ أن اكمل أبو الحسن بناء الجبل.. وقد وقف إلى جانب السلطان أبي الحسن ضدَّ ولده أبي عنان، وكان من كبار مستشاري بني مرين، لكنه لم يلبث أن انضم إلى أبي عنان بعد أن فقد الأمل، القصة المروية هنا من قبل ابن جزي حول "انتقاض عيسى" تتوافق مع التي حكاها ابن خلدون بتفصيل أكثر مع فارق أن هذا الأخير (ابن خلدون) يظهر منه أنه كان يتعاطف مع عيسى... – تاريخ ابن خلدون ج 7 ص 612 - 613. طبعة دار الكتاب اللبناني 1983.

السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى، وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكُفَاة الرجال وأدرَّ عليهم الارزاق ووسع لهم الإقطاع، وحرر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الإحسان.

وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أنْ أمر - أيده الله - ببناء شكلٍ يشبه شكل الجبل المذكور فمُثِّل أشكالُ أسواره وأبراجه وحُصُنه وأبوابه ودار صنعته، ومساجده ومخازن عُدَده وأهْرية زرعه، وصورةُ الجبل وما اتصل به من ‖ التربة الحمراء فصُنع ذلك بالمشور السعيد 360/4 فكان شكلاً عجيباً أتقنه إتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوقه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهمُّمه بتحصينه وإعداده، والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار وشتّ شمل عُبَّاد الصليب، وتذكرتُ حين هذا التقييد قول الأديب البليغ المفلق أبي عبد الله محمد بن غالب الرُّصافي البلنسي (16)، رحمه الله، في وصف هذا الجبل المبارك، من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن علي (17) التي أولها ‖ 361/4

لَوْ جئتَ نارَ الهُدى من جانب الطُّور

قبستَ ما شئت منْ عِلْمٍ ومن نور!!

(16) أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي أصله من رصافة بلنسية وإليها نسبته تحدث عنه غير مصدر من مصادر التاريخ الأندلسي، ويلقَّب بالرفَّاء لأنه كان يرفأ الثياب ترفعاً عن التكسب بشعره وعرفه المراكشي صاحب كتاب المعجب بالوزير الكاتب، أدركه أجله بمالقة يوم الثلاثاء 19 رمضان عام 572=1177 ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة طبعة ثالثة 1987 ص 110 تعليق 2 - الاحاطة II ص 505-506-507-515.

(17) عبد المؤمن بن علي هو مؤسس الدولة الموحدية، وهو في الواقع الذي جعل من جبل طارق شيئاً يذكر وسمّاهُ جبل الفتح وحكم المغرب من حدود مصر إلى المحيط الاطلسي بما في ذلك الاندلس... ولا بد من العودة إلى تاريخ ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة لنقرأ عن رحى الرِّيح التي أنشأها هناك وعن أنواع الفواكه والثمار التي أصبح الجبل يتوفر عليها على ما أسلفنا تعليق 8 - توفي عبد المومن عام 558=1162...

وفيها يقول في وصف الجبل، وهو من البديع الذي لم يسبق اليه، بعد وصفه السُّفن وجوازها (18).

حـــتى رَمـت جَــبَل الفــتْــحَين من جــبـل (19)

مـــعظَّم القَــدْر في الأجــيــال مـــذْكــور

مـن شـــــامخ الأنـف فـي ســــحْنائه طَلَس

لَه من الغَــيْم جــيْبٌ غـــيــر مـــزْرور

تُمـــسي النجـــومُ على إكليل مـــفْــرقِــه

في الجـــو حـــائمـــة مـــثلَ الدنانيـــر !

---

(18) هذه الإشارة هامة لما ورد في وصف الأسطول الموَحدي من القصيدة المذكورة ومنها قوله :

تسنَّم الفلك من شطّ المجاز وقد

نُودين : ياخير أفلاك العُلا سيري !

فسرن يحملن أمر الله من ملكٍ

بالله منتصر، في الله منصور !

لما تسابقن في بحر الزقاق به

تـركن شطَّيْه في شكٍ وتحيير

ذي المنشآت الجواري في أجِرّتها

شكل الغدائر في سدلٍ وتضفير

نجالها بين ايدٍ من مجاذفها

يغرقن في مثل ماء الورد مبخور !

كانَما عبرتْ تختال عائمة

في زاخر من ندى يمناه معصور

المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، هذا وقد كان العلاّمة دوزي الهولاندي أول من اهتم بالمعجب منذ أواسط القرن التاسع عشر ثم اهتم به فانيان وقد نشره محمد الفاسي، مطبعة الثقافة سلا المغرب ص 129 – 1357=1938، ثم سعيد العريان والعربي العلمي – البيضاء – دار الكتاب 1950 د. التازي : حضور الشعر في تاريخ الزقاق

La Presencia de la Poésia en la la Historia del Estrecho de Gibraltar (Bah al-Znqaq) P. 166 Historia del Paso del estrecho de Gibraltar (SECEGSA) 1995.

(19) وقع هنا بعض الخلْط لابن جزي في رواية الأبيات وقد وردت هكذا في المعجب للمرَّاكشي وفي أعمال الأعلام لابن الخطيب :

حتى رمت جبل الفتحين من كثب

بساطعٍ من سناه غير مبهور

للّه ما جبل الفتحين من جبل

معظم القدر في الاجيال مذكور !

وربّما مسحته من نوآئبها
بكلٍّ فضلٍ على فَوْدَيه مجرور
وأدرْدٌ من ثناياه بما أخذت
منه مقاحِمُ أعوادِ الدّهارير
مُحنّكٌ حَلَبَ الأيّام أشطرَهَا
وسَاقَها سوقَ حادِي العِير للعِير
مُقيَّدُ الخَطْو جوّالُ الخواطر، في
عجيبِ أمْرَيْه من ماضٍ ومنظُور
قد وَاصَلَ الصَّمتَ والإطراقَ مفتكراً
بادِي السَّكينة مغْبّر الأسارير (20)
كأنَّة مُكْمَدٌ مما تعبّدَهُ
خوفُ الوَعِيدَين من دَكٍّ وَتَسْيِير
أَخْلِقْ به ! وجبالُ الارض راجِفةٌ
أَنْ يطمئنَّ غداً من كلِّ محذُور !!

ثم استمر في قصيدته على مدح عبد المومن بن علي.

362/

قال ابن جزي : ولنعُد إلى كلام الشيخ أبي عبد الله، قال : ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رُندةَ وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجملِها وضعا(21)، وكان قائدَها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان ابن داود العسكري (22)، وقاضيَها ابن عمي الفقيه أبو القاسم

363/4

(20) في بعض النسخ المطبوعة للمعجب يوجد مغفر عوض مغبّر... هذا وتنبغي العودة إلى (تاريخ المنّ بالامامة) لابن صاحب الصلاة لاستيعاب ما قيل من الشعر في جبل طارق من لدن عددٍ من الشعراء، من أمثال ابن المنخل في بائيته وابن سيد الاشبيلي في لاميته وبائيته كذلك والقرشي الطليق في بائيته أيضا ومحمد بن صاحب الصلاة في قافيته..وأغتنم هذه الفرصة لأنوه بترجمة هذه القصيدة البديعة الصعبة في نفس الوقت إلى اللغات الأروبية...

(21) ينبغي أن نذكّر هنا – ونحن نتنقل مع ابن بطوطة من جبل طارق شمالاً إلى رُندة ثم النزول جنوباً من رندة إلى مربلة... ينبغي أن نذكر باتفاق ابرم بين ملك غرناطة وبين ملك فاس على أن يتنازل الأول للثاني على رندة ومربلة وجبل طارق... وهكذا فإن ابن بطوطة يتجول لحد الآن في أراضٍ مغربية ! ويلاحظ على الرحالة المغربي أنه لم يعط لمسجد رُنْدَة ما يستحقه من الوصف، وقد كانت رندةً عاصمةً لهذه الأقاليم المغربية.

(22) أبو الربيع سليمان يعد من وزراء السلطان أبى عنان وقد كان في صدر المقاتلين ضد الحفصيين عام 756=1355 – ابن الأحمر : روضة النّسرين المطبعة الملكية الرباط 1411=1991.

محمد ابن يحيى بن بطوطة، ولقيت بها الفقيه القاضي الاديب أبا الحجاج يوسف المُنْتَشاقري (23)، وأضافني بمنزله، ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق ابراهيم المعروف بالشندرُخ المتوفَّى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب، ولقيت بها جماعةً من الصالحين منهم عبد الله الصفار (24) وسواه.

364/4 وأقمت بها خمسة أيام، ثم سافرت منها إلى مدينة مَرْبلَة (25) ‖ والطريق بينهما صعبٌ شديد الوعورة، ومربلة بُليدة حسنة خصبة، ووجدت بها جماعةً من الفرسان متوجهين إلى مالقة، فأردتُ التوجه في صحبتهم، ثم إن الله تعالى عصمني، بفضله، فتوجهوا قبلي فأسُروا في الطريق، كما سنذكره، وخرجت في إثرهم فلما جاوزت حوز مربلة، ودخلت في حوز سُهيل (26) مررت بفرسٍ ميت في بعض الخنادق، ثم مررت بقفةِ حوتٍ مطروحة بالأرض، فرابني ذلك ! وكان أمامي برج الناظور، فقلت في نفسي : لو ظهر هاهنا عدوٌّ لأنذَر به صاحبُ البرج، ثم تقدمت إلى دارٍ هنالك فوجدت عليها (27) فرساً مقتولاً، فبينما أنا هنالك سمعت الصياح من خلفي، كنت قد تقدمت أصحابي فعدتُّ إليهم ‖ فوجدتُ معهم قائد حصن سُهيل، 365/4 فأعلمني أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها إلى البر، ولم يكن الناظور بالبرج، فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة، وكانوا اثنى عشر، فقتل النصارى أحدَهم وفر واحدٌ وأسِر العشرة، وقُتل معهم رجل حوّلت، وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض، وأشار عليَّ ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ليوصّلني منه إلى مالقة، فبتُّ عنده بحصن الرابطة المنسوبة إلى سُهيل، والأجفان المذكورة مرساة عليه، وركب معي بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة (28)، إحدى قواعد الاندلس وبلادِها الحسان، جامعة ‖ بين مرافق البر والبحر، 366/4

(23) نسبة إلى منتشاقرة Montejicar شمال غرناطة، شاعر ورد ذكره في المؤلفات المعاصرة ويعرف أيضا باسم الجذامي والرندي – المقري : نفح الطيب 5، 605 – 6، 135-138-139-145، 7، 512. ابن الخطيب الاحاطة ج 4 ص 377 – الدرر 5، 254.

(24) يظهر من هذا الوصف أن الرجل أوا أحد أبائه كان يتعاطى لحرفة الصفارين...

(25) مرَبلة (MARBALAT) تقع في الجنوب الشرقي من رنده على الساحل في منتصف الطريق بين جبل طارق ومالقه.

(26) سُهيل اسم الكوكب المعروف في اللغة اللاتينية نجم Canopus وحسب ياقوت في معجم البلدان فإنه لا يرى سهيل في عمل من أعمال الاندلس إلا منه وهو مافي النفح (I ,164) ومن هنا أخذ هذا الاسم... وهنا وادي سُهيل أيضا الذي ينتسب لأحد قُراه الإمام عبد الرحمن بن عبد الله السُّهيلي مصنف شرح السيرة المسمّى بالرَّوض الأنف... كان حصن سهيل يقع فيما يعرف اليوم بـ (فوين خير الله -Fuen girola) بين مربلة ومالقة، ويعتبر اليوم من المصطافات المقصودة – أشكر زميلي ذ. عبد الجليل فنجيرو على معلوماته القيمة...

(27) معظم النسخ ترسم عليه بدل عليها اما مخطوطة دوزي فقد حذفت فيها كلمة (عليه أو عليها)

(28) كانت مالقة على ذلك العهد هي ميناء مملكة غرناطة فهي منفذها على العالم الخارجي... وهكذا فقد انتقل ابن بطوطة من منطقة بني مرين إلى منطقة بني نصر...

كثيرة الخيرات والفواكه، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورُمَّانها المُرسى الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأما التين واللّوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب (29).

قال ابن جزي : وإلى ذلك أشار أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي في قوله وهو من مليح التَّجْنيس :

مالِقةٌ حـييتَ ياتينـها   فـالفُلْكُ مـن أجلِكِ ياتينها

نَها طبيبي عنكِ في علةٍ   ما لطبيبي عن حياتي نها ؟ !

367/ وذيَّلها قاضي الجماعة أبو عبد الله ابن عبد الملك (30) بقوله في قصد المجانسة

وحِمْصُ لا تنس لَهَاتِينَهَا   واذْكُر مع التِّين زَياتينها !

رجع، وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجلب منها، إلى أقاصي البلاد، ومسجدها كبير الساحة، شهير البركة وصحنه لا نظير له في الحسن، فيه أشجار النارنج البعيدة.

ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله بن خطيبها الفاضل أبي

---

(29) إشارة طريفة لبعض المواد : (التين واللوز والفخار المذهَّب الآتي الذكر) التي كانت تجلب من الغرب الاسلامي (مالقة) إلى أقصى بلاد المشرق، مما يكشف عما كان يربط بين الجناحين على الصعيد التجاري، وقد ورد في نفح الطيب للمقري : أن تين مالقة يضرب المثل بحسنه وانه يجلب حتى للهند والصين، وقيل إنه ليس في الدنيا مثله. نفح الطيب 1، ص 151-152.

(30) لاحظ المقري في نفح الطيب 1– 152 أن ابن جزي في ترتيبه لرحلة ابن بطوطة نسب البيْتين الأولين للخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي المالقي كما نسب التذْييل لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد الملك (يعني صاحب الذيل والتكملة)، وكانت هذه الملاحظة بعد أن نسب المقري البيْتين المذكورين لأبي الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي كما نسب تذييلهما للامام الخطيب أبي محمد عبد الوهاب المنشئ قال وفي بعض النسخ :

لا تنسَ لإشبيلية تينَها   واذكر مع التين زياتينَها !

وهو نحو الأول لأنَّ حِمْص هي إشبيلية لنزول أهل حمص من المشرق بها... وجاء في (الروض) أن الطلبة خرجوا للقاء أبي محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الانصاري لما ولي القضاء بمالقة، فأنشدهم هذين البيتين، ولا بدَّ لنا بعد هذا أن نشير لما ورد عند الشقندي حول تين مالقة الذي كان يباع في بغداد على جهة الاستطراف... وكان المسلمون والنصارى يسفّرون منه في المراكب البحرية ما لا يمكن حصره ! لقد أخذ الشقندى مرةً طريق الساحل من سهيل إلى بلش قدر ثلاثة أيام وتعجب فيما حوته هذه المسافة من تين... – المقَّري : نفح الطيب، تحقيق : د. إحسان عباس، دار صادر – ج 1 ص 151. ج 3، 219.

جعفر بن خطيبها وليّ الله تعالى أبا عبد الله الطنجالي (31) قاعداً بالجامع الأعظم، ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالاً برسم فداء الأساري الذين تقدم ذكرهم، فقلت له : الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم ! وأخبرته بما اتفق لي بعدهم، فعجب من ذلك، وبعث إلي بالضيافة رحمه الله ‖ وأضافني أيضا خطيبها أبو عبد الله الساحلي المعروف بالمعمَّم (31). 368/4

ثم سافرت منها إلى مدينة بلش (33) وبينهما أربعة وعشرون ميلا، وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب، وفيها العناب والفواكه والتين كمثل ما بمالقة، ثم سافرنا منها (34) إلى الحمَّة وهي بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على ضفة واديها، وبينها وبين البلد ميل أو نحوه، وهنالك بيتٌ لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء.

ثم سافرتُ منها إلى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الاندلس، وعروس مدنها، وخارجُها لا نظير له في بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل (35) وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنَّات والرياضات والقصور والكروم محدقة ‖ بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها عيْن (36) الدمع وهو جبلٌ فيه الرياضات والبساتين، لا مِثْل له بسواها. 370/4

(31) الطَّنجالي والقصد إلى أحمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف... الهاشمي الطنجالي من أهل مالقة... أخذ عن أبيه وعن مالك بن المرحل واجاز له جده أبو جعفر... كان قديم العدالة كثير الحياء، أدركه أجله في شوال 764 = 1363 - الدرر 1 ,192.

(32) الساحلي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الانصاري الساحلي... كان طبقة من طبقات الكفاة ظرفاً ورُواءً وعارضة وترتيباً تجلَّل بفضل شهرة أبيه الذي كان سفيراً في بعض الظروف، وبعض المخطوطات تنعتُه بالمُعمّر بدل المعمم وهو غير صواب أدركه أجله بمالقة ليلة النصف من شعبان 54-7-1353 الاحاطة ج 3 ص 191-192.

(33) بَلَّش Vélez، القصد إلى بلَّش مالقة، ويقع في شرقها على بعد 24 ميلا.

(34) ورد ذكر هذه الحمَّة كثيراً في المصادر التي تحدثت عن المنطقة، وخاصة منها نزهة الإدريسي ومسالك الأبصار للعمري معاصر ابن بطوطة الذي أدى عنها وصفا دقيقا... ومن تلك المصادر مخطوطة (الروض الباسم) في حوادث العُمر والتراجم تأليف الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي الملطي القاهري المتوفى 920=1514 ورقة 112 ب وقفت عليها في حاضرة الفاتيكان رقم Arabe 729 وكتب عنها المستشرق روبير برونشفيك 1936 (Larose Éditeurs).

(35) أطنب محمد بن عبد الوهاب الغسّاني سفير السلطان مولاي اسماعيل لدى الملك كارلوص الثاني 1102=1690 في وصف شنيل ... وقد ذكّره سحر هذا النهر الذي ينحدر من وادي آش فيما قالته حمدة الشاعرة الأندلسية الوادي آشية :

أباح الدمع أسراري بوادٍ
له في الحسن "آثار" بوادي !

(36) عين الدَّمع بقعة من ضواحي غرناطة كانت منتزهاً بديعاً اذ كانت تغص بالمروج والحدائق الغنّاء، وقد استمرت تحتفظ ببقية من سحرها القديم... ويشغل موقعها سطح تلال البيازين التي تطل على المرج وكانت تسمى عين الدَّمعة ويقال إن آخر ملوك غرناطة ذرفت دموعه وهو يودعها ! وقد تحرف هذا الاسم عند الاسبان إلى (Dinamar)، وقد ورد ذكرٌ (عين الدمع) في شعر كثير نذكر منه قول أبي البركات ابن الحاج البلفيقي وهو من شيوخ ابن الخطيب :

الأقل لعين الدمع يَهمي بمقلتي × لفرقة عين الدمع وقفاً على الدّم !

وقد ظهرت عين الدمع في خريطة بني نصر بغرناطة أنظر الصورة 3 من كتاب
Rachel Arié : l'Espagne musulmane au Paris 1993 Temps de Nasrides.

قال ابن جُزي : لو لا خشيتُ أن أنسب إلى العصبية لأَطلت القول في وصف غرْناطة، فقد وجدتُ مكانه ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه! ولله درُّ شيخنا أبي بكر محمد ابن أحمد ابن شبْرين السَّبتي (37) نزيل غرناطة حيث يقول : 371/4

رَعَى الله مِنْ غـرناطةٍ متبَّوأ
يُسُرُّ حزيناً أو يُجِير طَرِيدَا
تَبَرَّم مِنْهَا صَاحبي عِنْد مَا رَأى
مَسَارِحَهَا بالثَّلْجِ عُدْنَ جَلِيدا
هي الثَّغْرُ صَانَ الله مَن أَهلَت به
وَمَا خَيْرُ ثَغْرٍ لاَ يَكونُ بَرُودَا؟

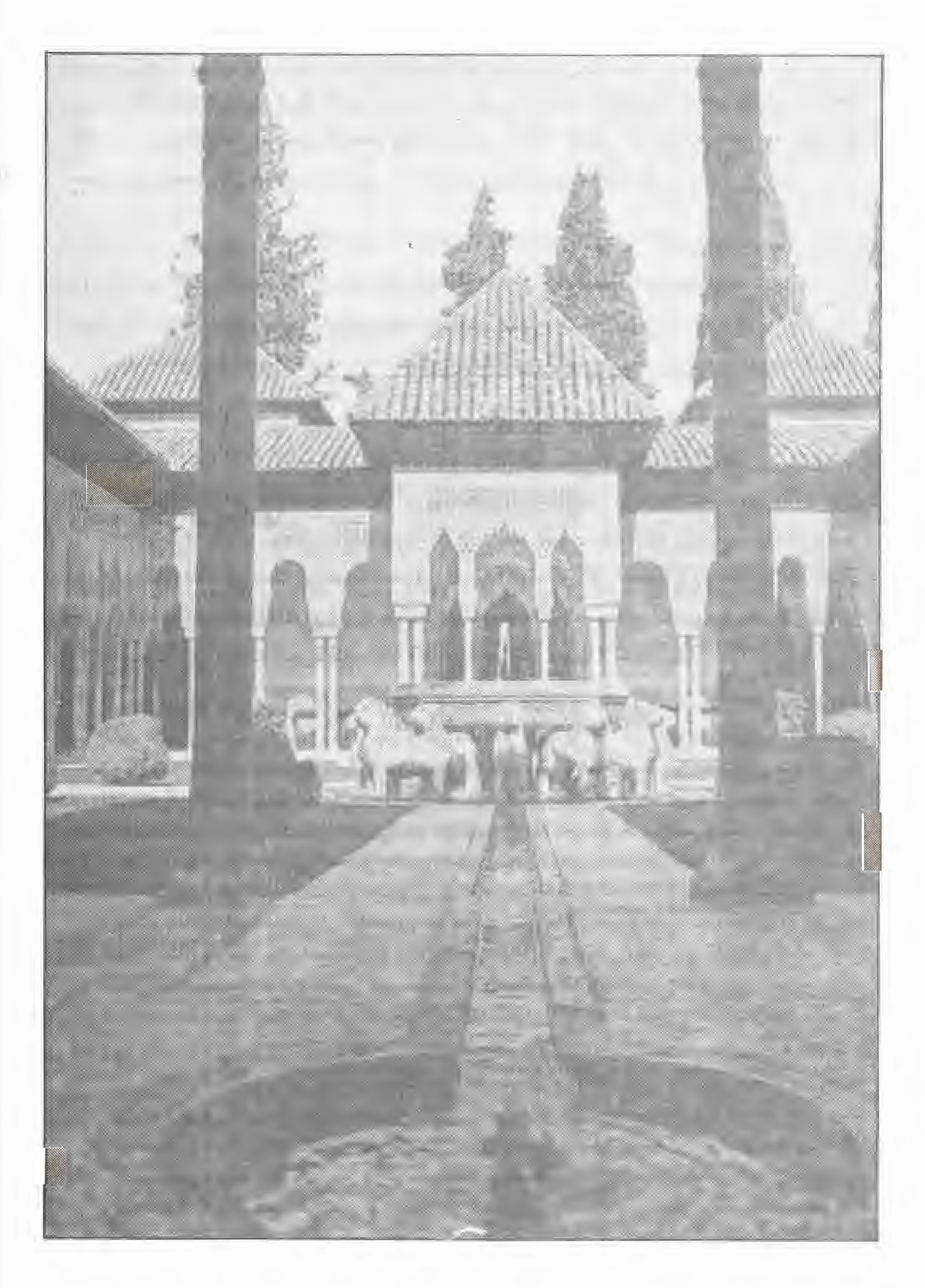
رجع، ذكر سلطانها

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي اليها السلطان أبو الحجاج يوسف بن السلطان أبي الوليد إسماعيل ابن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ولم ألقه بسبب مرضٍ كان به (38)، ويعثَتْ إليَّ والدتُه الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقتُ بها.

(37) معظم النسخ التي بين أيدينا ترسم (البُستي) نسبة إلى بُست (Bost) في أفغانستان التي ينسب إليها أبو الفتح البُستي صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها : (زيادة المرْء في دنياه نقصان)، وهناك نسخة تحمل رقم 2289 ومخطوطة بتونس تحمل رقم 5048 ترسم الكلمة : السبتي نسبة إلى سبتة، وقد اعتمدت الروايات الأوربية البستي، وجاء من بعد هذا اللذين إهتموا بالرحلة سواء في مصر أو لبنان أو المغرب فكتبوا البستي بتقديم الباء، وورد مع هؤلاء من تهربوا من ذكر هذا الاسم نهائيا ! وقد تجلى من خلال البحث أن القصد إلى السبْتي بتقديم السين ويتعلق الأمر بمحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ...ابن شبرين (بالباء بعد الشين لا الياء) من مواليد سبتة، وانتقل عند كائنة سبتة، فاستقر بغرناطة فارتسم بالكتابة السلطانية وولى القضاء بعدة جهات وتأثل مالاً وشهرة حتى جرى مجرى الاعيان من أهلها ... كان تاريخياً مقيداً محققاً لما ينقله وكانت له رحلة إلى تونس، وقد جرى ذكره في كتاب "التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى" لابن الخطيب ... وقد ترجم له كذلك لسان الدين في الإحاطة، وأتى بنماذج من شعره... أدركه أجله في السبت الثاني من شعبان 747 = 23 نونبر 1346 ودفن بباب ألبيرة.

(38) هو يوسف الأول (1333 - 1354 = 733 - 755) من الدولة النَّصرية وقد وصفه ابن الخطيب في الإحاطة (318, 4) بأنه... لباب هذا البيت وواسطة هذا العقد وطراز هذه الحلْبة...!! هذا ولم يفصح ابن بطوطة عن نوع المرض الذي كان يلم بالعاهل الغرناطي والذي يلاحِظ أن أحداً من المؤرخين لم يشر إليه ! ويبدو أن سلطان غرناطة الذي كان يطلب من أبي عنان تأجيل ملاحقه لوالده من مراكش فضَّل المرض الدبلوماسي لتجنب الاتصال بهذا الزائر...! وهكذا لم يتمكن رحالتنا من زيارة قصور الحمراء... ومن ثم لم يقدم لنا عنها وصفاً علي نحو ما اعتدنا منه عندما يزور معلمة من المعالم بل لم يكلّف نفسه عناء نقل بعض العبارات المنقوشة كما فعل مَن أتى بعده من أمثال الغزّال وابن عثمان في سفارتَيْهما لإسبانيا عندما نقلا علاوة على : (لاغالب إلاّ الله) الموجودة في كل مكان، مثل هذه الأشعار :

قصرٌ بديع الحسن والإحسان * لاحت عليه جلالة السلطان !



لقطات من الحمراء لم تثر انتباهه !

ولقيت بغرناطة جملةٌ من فضلاَئها : منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحُسيني السبتي(39) ، ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البيَّاني (40)، ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لبُّ (41)، ومنهم قاضي الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السَّلَمي (42) البَلفيقي، قدِمَ عليها من ألْمرية في تلك



(39) القصد إلى شخصية بارزة من ذرية الاشراف الصقليين الحُسَينيين الذين استقروا بسبتة بعد أن حلَّ بصقلية ما حل أواخر القرن الخامس الهجري، ولو كنت مكان ابن بطوطة لأضفت عبارة "الشهير ببلاد المغرب بالصقلي" على نحو ما فعل وهو يتحدث عن الشريف، بن نفيس الحُسيني الكربلائي قائلا : "الشهير ببلاد المغرب بالعراقي". وقد ترجم له لسان الدّين ابن الخطيب في الاحاطة ترجمة واسعة الا انه وقع خطأ مطبعي دون شك في جعله من الحَسَنيين بفتح الحاء بينما هُو الحُسيني، وقد ترجم له كذلك ابن فرحون في الدّيباج فضبطه بالحُسيني، ونَسَبَ إليه كل كمال مشيراً إلى أنه بعد أن عزل عن القضاء تحيّز للكراسي العلمية وتفرغ لإفادة الناس إلى أن أدركه أجله في غرناطة عام 760=1359.
ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة ج 4 ص 181 وما بعدها عام 1894 = 1974 – ابن فرحون : الديباج المذهب، المطبعة الحجرية لفاس ص 260-261 – القادري : لمحة البهجة العلية في بعض أهل النسبة الصقلية، تحقيق ونشر
Umberto Rissitano (Mélanges Islamologique T III ITALI)
– الطالب بن الحاج : الإشراف على بعض من حل بفاس من الأشراف، عند ذكر الفصيلة الخامسة الكاظميين بعد الفصل الرابع : الادارسة المحمديون الموسويون العريضيون طبعة حجرية.

(40) البيَّاني نسبة إلى بيانة (Baéna) يعتبر الإمام أبو عبد الله البياني بين الشخصيات الاندلسية التي فرضت نفسها على الذي ارخو للاندلسيين، وهكذا وجدنا اسمه في النّفح كاحد اساتذة القاضي ابي محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جزي (ج 5 ,540)، وكذا كأحد شيوخ الرئيس ابى يحيى بن عاصم... 148, 6.

(41) ابن لبّ ترجم له ابن الخطيب في كتابه الاحاطة ووصفه على انه حامل لواء التحصيل والاضطلاع بالمسائل.. اقرأ بالمدرسة النّصرية، في 28 رجب 754 – انظر الديباج 2 ,139-42 نيل الابتهاج ص 219.

(42) البلفِيقي نسبة إلى بلفيق (Velffique) بلدة بولاية ألمرية، كان مصدراً من المصادر حول ترجمة ابن بطوطة على ما نقرأه في الدرر – انظر الاحاطة 2 ص 143 – النفح 5 ,471 – الدرر 4 ص 155 الديباج II ,269 نيل الابتهاج 254. – وقد تقدم الحديث عنه راجع I، 20. III، 26.



لكي نأخذ فكرة عن صور القوم على ذلك العهد رأينا أن ننقل هنا جانبا من الرسوم المنقوشة في سقف إحدى قباب قصر الحمراء في غرناطة



جنة العريف – عن مجلة ابن بطوطة الإسبانية عدد 4/ G28006 – مدريد

الأيام فوقع الاجتماع به في بستان الفقيه أبي القاسم محمد بن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم (43) وأقمنا هنالك يومين وليلة (44).

قال ابن جزي : كنت معهم في ذلك البستان وأمتعنا الشيخ أبو عبد الله باخبار رحلته، وقيَّدتُ عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها واستفدْنا منه الفوائد العجيبة، وكان معنا جملةٌ من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المُجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجُذامى (45) ‖ وهذا الفتى أمره عجيب، فإنه نشأ بالبادية ولم يطلب العِلم ولا مارس الطِّلبة، ثم إنه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله : 372/4

يامَن اختار فؤادي منزلاً — بَابُه العَيْنُ التي تَرمُقهُ

فَتَح البَابَ سُهادي بَعْدَكُم — فـابْعَثوا طيفَكُمُ يُغْلِقُه

رجع، ولقيتُ بغرناطة شيخَ الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا علي عُمَر بن الشيخ الصالح الولي أبي عبد الله محمد بن المحروق (46)، وأقمت أياما بزاويته التي بخارج

---

(43) يبدو أن القصد إلى أبى عبد الله محمد بن محمد بن عاصم بن محمد بن أبي عاصم الأنصاري من أهل غرناطة ويعرف بابن عاصم، كان حسن الخط، وكتب بالديار السلطانية، كان ليّن العريكة طيب النفس سليم الصَّدر وولى الحسبة وناب عن صاحب القلم الاعلى ومن بعض قصائده :

شُيِّدت بملكك للهدى أركان
وسما به فوق السها أركان
والله أسعدنا بدَوْلتِك التي
هـي للعبـاد والبـلاد أمـان

وقلنا "يبدو" اعتماداً على ما ورده في هامش النسخة المطبوعة من الدرر من أنه توفى عام 774 وليس عام 743 ! – الدرر : ج 4، ص 294.

(44) حسب إفادة البلفيقي... فإن ذلك اللقاء تَمَّ في بستان بقرية نبلة – انظر ما نقله لسان الدين ابن الخطيب عن أبي البركات في الاحاطة ج III ص 273. فهو يزكى – إلى حد – معلومات ابن بطوطة.

(45) الجذامي هذا هو الذي نعته ابن حجر بأنه شاب فاضل وانه من الفلاّحين ببلدة غرناطة، وأنه يحوك الشعر بالطبع الذّكي الذي له كقوله :

ياسيّداً ودعتـه ومـدامعـي — تنهـلُّ من عيني يوم وداعه

ما سار شخصك عن محبّك انما — غيبت عن عينيه في اضلاعه !

وقد أورد ابن حجر كذلك نفس البيتين الواردين في الرحلة، باستثناء تبديل منزل بمسكن مات شهيدا في جمادى... عام 763 عن احدى وأربعين سنة وربع سنة – الدرر 1، ص 141-162.

(46) لم نقف على ترجمةٍ لأبي علي عمر ابن المحروق هذا في كتاب الاحاطة لابن الخطيب بالرغم مما احال عليه لسان الدين في الترجمة الواسعة لابن أخيه أبي الحسن عليّ آتي الذكر قريبا...

غرناطة، وأكرمني أشد الإكرام وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العُقاب، والعُقاب جبلٌ مطل على خارج غرناطة، وبينهما ‖ نحو ثمانية أمْيال وهو 373 مجاور لمدينة ألبيرة (47) الخربة، ولقيتُ أيضاً ابن أخيه الفقيه أبا الحسن علي بن أحمد المحروق(48) بزاويته المنسوبة لِلّجام، بأعلى رَبَض نَجد (49) من خارج غرناطة المتصل بجبل السَّبِيكة، وهو شيخ المتسبّبين من الفقراء.

وبِغرناطة جملة من فقراء العجم (50) استوطنوها لشبهها ببلادهم، منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندي، والحاج أحمد التَّبريزي، والحاج إبراهيم القُونَوي، والحاج حسين الخراساني والحاجان عليّ ورشيد الهِنديان وسواهم.

---

(47) يوجد في المخطوطات التي بين أيدينا كلمة (التيرة) بالتاء عوض (البيرة) (Elvira) الذي هو الصواب، وهي خربة كما يقول نتيجة – على ما يبدو – لمعركة البيرة التي شاهدتها المنطقة سنة 719=1319 بين الأندلسيين والقشتالين.

(48) أبو الحسن هذا ترجم له ابن الخطيب في الاحاطة ترجمةً واسعة (4 ,201-202) ونعته بشيخ الفقراء السَّفارة والمتسبّبة بالرباطِ المنسوب إلى جده حسن الشكل أصيل البيت، مُترفّع، حسن البزَّة... كان ممن امتحنوا من السلطان وقد عد مشايخه في لائحة طويلة، ويلاحظ أن لسان الذين ذكر في عنوان الترجمة انه تحدث عن عمه وجدّه...؟

(49) نَجْد : علم جغرافي لموقع بضواحي غرناطة، ويعتبر من أشرف وأطرف منتزهات العاصمة ليتفرج الناس ويصقلوا الخواطر بالتطلع في ظاهر البلد وهو ملاصق لجبل السبيكة... وقد قيل فيها الكثير في الشعر :

يامَن يحنّ إلى نجدٍ وناديها × غرناطةٌ قد ثوتْ نجدٌ بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها × عقيلة والكثيب الفرد جاليها

ومن شعر سليمان الكلاعي :

أَحِنُّ إلى نجدٍ ومن حَلّ في نجد × وماذا الذي يُغنى حنيني أو يُجدي ؟!

وقال احد الطارئين محمد الجبّائي :

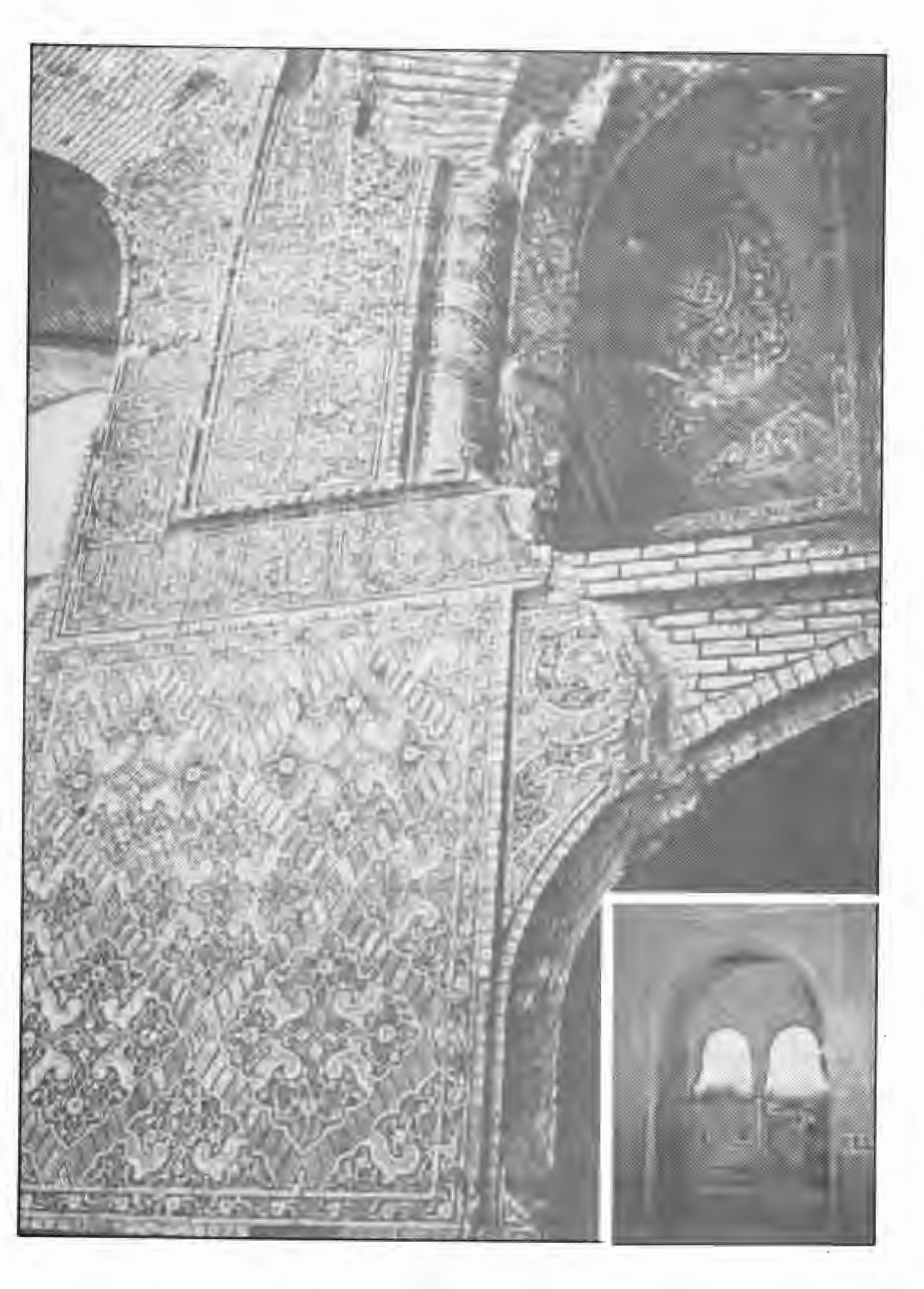
قضوا في رُبى نجدٍ ففي القلب مرساه × و غنّوا إن أبصرتمُ ثَمَّ مغناه !!

ومن شعره كذلك

سَرَتْ من رُبى نجد معطرة الرَّيّا × يموتُ لها قلبي وأونة تحْيَى !

الاحاطة II ,317-318. – المقري : نفح الطيّب III ,513 .

(50) لقطة هامة في تاريخ غرناطة تتحدث عن وجود جالية إسلامية من خارج المنطقة، ويتعلق الامر بطائفة من المسلمين من الذين وردوا على الأندلس من سمرقند وتبريز وقونية وخراسان والهند... وردوا على الأندلس كما كانوا يردون على أطراف المغرب منذ الفتح الاسلامي. وقد تضمنت بعض مصادر التاريخ الأندلسي والمغربي عدداً من أسماء المشارقة الذين اختاروا المقام بالمغرب إما للجهاد أو للانقطاع للتجارة، ونذكر من هؤلاء الصوفية فضل المعافري الذي أخذ عن غالب بن سيد بُونه الخزاعي المترجم في الإحاصة الذي كان ثار على سماع الالة الموسيقية المسمّاة الشبَّابة وقد توفي عام 733 كما نذكر سيدي السمرقندي دفين مراكش عام 776=1374 الإحاطة 4 - 239 .



حوار الحضارات : بين الأندلس وبلاد فارس...

ثم رحلت من غرناطة إلى الحمَّة، ثم إلى بلّش ثم إلى مالقة، ثم إلى حصن ذكوان وهو
/374 حصن حسن كثير المياه والاشجار والفواكه (51)، ثم سافرت منه إلى رُندة ثم إلى قرية بني رياح (52) فأنزلني شيخها أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي وهو أحد كرماء الرجال، وفضلاء الأعيان يطعم الصادر والوارد وأضافني ضيافةً حسنة.

ثم سافرت إلى جبل الفتح وركبت البحر في الجفن الذي جُزت فيه أولاً وهو لأهل أصيلا فوصلت إلى سبتة وكان قائدها إذا ذاك الشيخ أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه أبو محمد الزجندري(53).

ثم سافرت منها إلى أصيلا وأقمت بها شهورا (54)، ثم سافرت منها إلى مدينة سلا (55)، ثم سافرت من سلا فوصلت إلى مدينة مراكش (56)، وهي من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات، بها المساجد الضَّخمة كمسجدها الأعظم المعروف
/375 بمسجد الكُتْبيين (57) وبها الصومعة الهائلة العجيبة، صعدتها وظهر لي جميع البلد منها،

(51) حصن ذكوان، هو ما يعرف اليوم بكوين (Coin) المدينة الصغيرة التي تقع على بعد 40 كيلو ميتراً غربي مالقة في منتصف الطريق بين رندة ومالقة – النفح 4، 515-516.

(52) تقع قرية بني رياح بين رندة وجبل طارق لكنا لم نصل إلى تحديد موقعها بالضبط.

(53) كانت زيارتي لسبتة في 1996/11/29 مناسبة للرجوع إلى ترجمة هذا العالم الجليل الذي ينتسب إلى زُكُنْدَرْ (بسوس) وقد تجول عبر الأقطار المشرقية... تولى بعد سبتة قضاء مراكش وبها توفي عام 768هـ، أهمل بروفنسال ذكره وكذا بقية المعلقين ترجمه ابن الخطيب في النفاضة وقال عنه : «حسن الغفلة عن نصيب النفس» أما عن القائد فإن لأسرته ذكراً عند المنافسة على السلطة...

(54) لم نعرف بالضبط عدد الشهور التي قضاها في أصيلا وليس في سبتة كما يقول ذ. نورّيس ... (Norris) وربما كان هذا الانتظار في أصيلا بدافع الابتعاد عن العاصمة التي كانت تعيش فترة قلقة بسبب تدهور العلاقات بين السلطان أبي الحسن وولده السلطان أبي عنان الذي التحق بمراكش في طلب والده في صفر 751 = أبريل ماي 1350 على مايذكر الزركشي في كتابه (تاريخ الدولتين)

(55) بالرغم مما يظهر من أن مقامه بسلا كان عابراً الا أن ما حكاه وهو يزور (االقسطنطينية العظمى) (تركيا) . وهو يزور (بلخ) افغانستان يؤكد أنه لم ينس ذكر رباط الفتح في آسيا الصغرى ولم ينس جامع حسان وهو في خراسان – يراجع ج II - 432 ، ج . III - 59 يراجع بحثي حول نصيب الأعلام الجغرافية المغربية في رحلة ابن بطوطة، ندوة تاريخ الرباط نونبر 1995.

(56) يلاحظ أن ابن بطوطة بالنسبة للمواقع الجغرافية المغربية لم يبق له اهتمام بتحريكها وشكلها على نحو ماكان يفعل مع مواقع في البلاد الأخرى فهو لم يحمل نفسه عناء البحث في أن مراكش تشكل بضم الميم كما يقول قومٌ أو بفتحها كما يقول آخرون أم أنها ترسم على شكل ثالث كما فعله الأمير بُلُقين في مذكراته. ويلاحظ أن الترجمة الفرنسية أعطت لنفسها الصلاحية لترجمة كلمة (مراكش) بكلمة Maroc عكس الترجمة الانجليزية التي تميز بين اسم المغرب كبلد واسم مراكش كمدينة د. التازي : الأعلام الجغرافية في رحلة ابن بطوطة ، بحث قدم لمجمع القاهرة مارس 1996 – المنهل، جدة، مارس 1997.

(57) يبلغ علو صومعة الكتبيين 67 ميتر وما تزال شامخة إلى اليوم... وعندما نذكر منارة الكتبيين نذكر منارة حسان (بالرباط) ومنارة الخيرالدا (باشبيلية) مقرونة بها... فقد اقترن تاريخ بناء الثلاث باحداث هامة في تاريخ الدولة الموحدية حيث نلاحظ انها المساجد الثلاثة شيدت شكراً لله على ما أنعم به على الموحدين من ضروب النصر، وخاصة في وقعة الآرك التي ظلت حديث المؤرخين ردحاً من الزمان.

ذ– التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص 68.

وقد استولى عليه الخراب (58)، فما شبّهته إلا ببغداد إلا (59) أن أسواق بغداد أحسن، وبمراكش المدرسة العجيبة (60) التي تميَّزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهي من بناء مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه.

قال ابن جزي : في مراكش يقول قاضيها الامام التَّاريخي أبو عبد الله محمد ابن عبد الملك الأوسي (61) :

لله مراكشُ الغرَّاءُ من بَلَدٍ
وحبَّذَا أهلُها الساداتُ من سكن
إن حلَّها نازحُ الأوطان مغتربٌ
أسلَوْه بالأُنس عن أهلٍ وعَنْ وَطَنِ
بينَ الحديثِ بِهَا أو العِيَانِ لها
يَنْشا التَّحاسد بين العين والأذن !!

رجع. ثم سافرتُ من مراكش صحبَة الرِّكاب العلي : ركاب مولانا أيده الله فوصلْنا إلى مدينة(62) سلا ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله...

---

(58) ملاحظة ابن بطوطة ناتجة عن أن مراكش التي كانت عاصمةً سياسيةً للدولة الموحدية، وكانت مقصداً للزوار من سائر جهات العالم هُجرت بعد أن تمكن بنو مرين من السيطرة عليها حيث عادت العاصمة إلى مدينة فاس...

(59) كانت مقارنة مراكش ببغداد مقارنةً في محلها سيما مع تقارب الطقس وتكاثف النخيل وقد شعرت بهذه المقارنة عند وصولي إلى بغداد سفيراً لبلادي حيث جرى حديث مع الجهات المسؤولة حول إمكانية التوأمة بين بغداد ومراكش...

(60) يعتبر ابن بطوطة أول رحَّالة يتحدث لنا عن مدرسة السلطان أبي الحسن، وقد كان – كما نعلم – معاصراً لنشاط المدرسة المذكورة كما سيتحدث عن هذه المدرسة ابن مرزوق وابن الوزّان...

Deverdun : Marrakech, RABAT 1959. - P. 320 - 322 - 344 - 568.

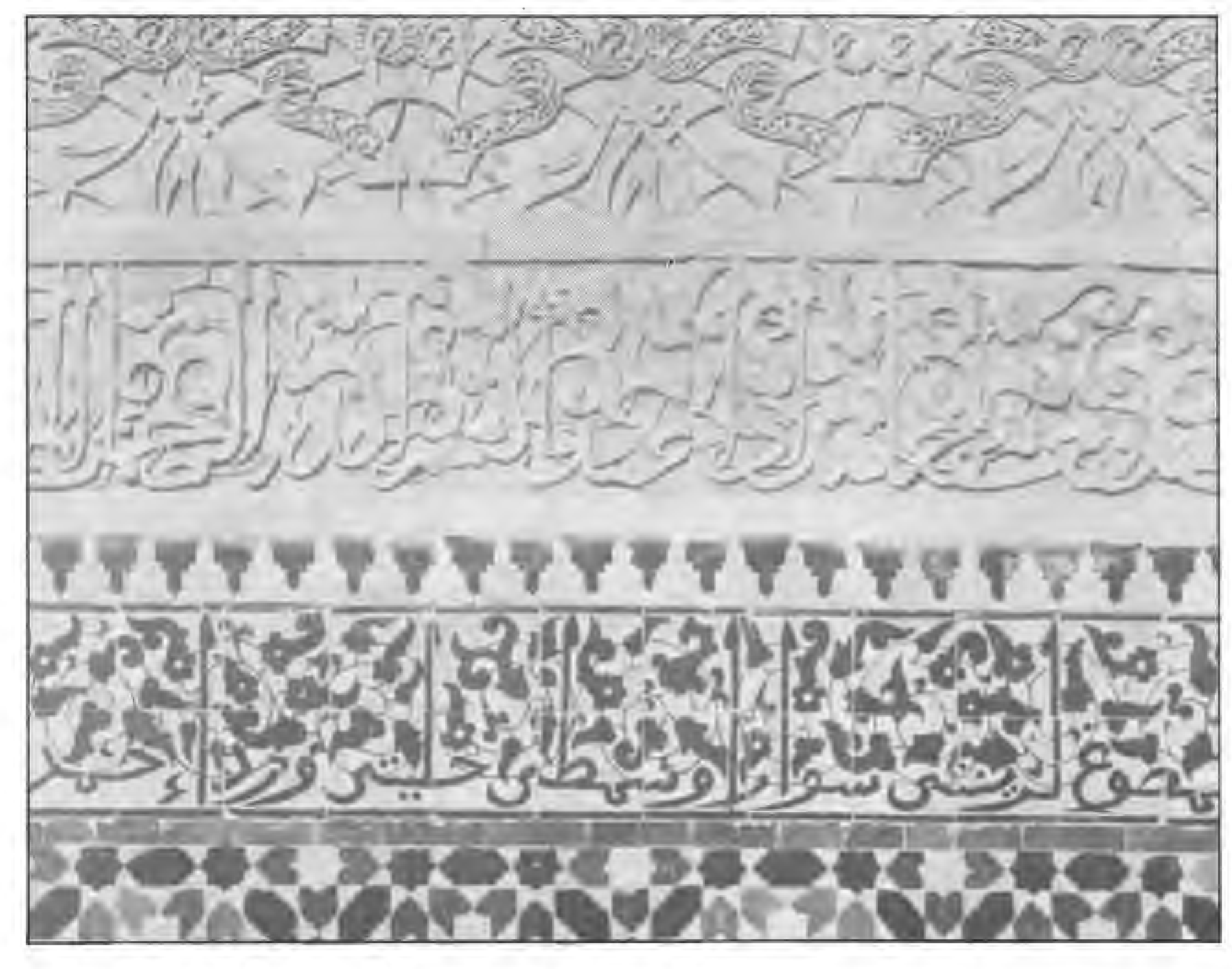
(61) القصد إلى ابن عبد الملك الأوسي المراكشي صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ترجم في أكثر من كتاب، وقد كان فيمن ترجموا له العباس بن إبراهيم صاحب الإعلام بمَن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام، 1976 المطبعة الملكية ج 4 ص 331-332. المراكشي : الذيل والتكملة – القسم الأول تحقيق د. محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984.

Deverdun : Inscriptions Arabes de Marrakech - Rabat 1956 p. 22.

(62) هذه إشارة هامة ينبغي الوقوف عندها ... وهي تفيد أن ابن بطوطة صحب ركب السلطان أبي عنان الذي غادر مراكش يحتمل معه شِلْو أبيه المتوفى يوم 23 ربيع الثاني 752 - 19 يونيه 1751 حيث تمت عملية الدّفن بشالة برباط سلا، ومن المهم أن نلاحظ دهاء وكياسة ابن بطوطة حول عدم التعرض إطلاقا لما كان يجري على الساحة المغربية بين السلطان أبي الحسن وبين ابنه السلطان أبي عنان ممّا يهم الأسرة المالكة وحدها وممّا يعتبر من القضايا الداخلية التي تقتضي التغاضي عنها !



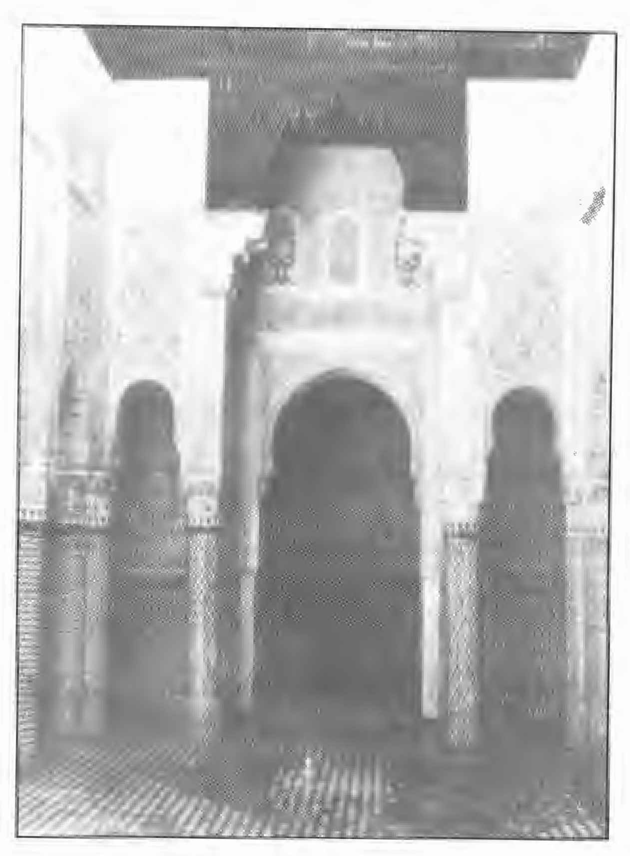
الكتبية بمراكش



مدرسة السلطان أبي الحسن



باب المريسة المريني بسلا



صحن المدرسة البوعنانية بسلا

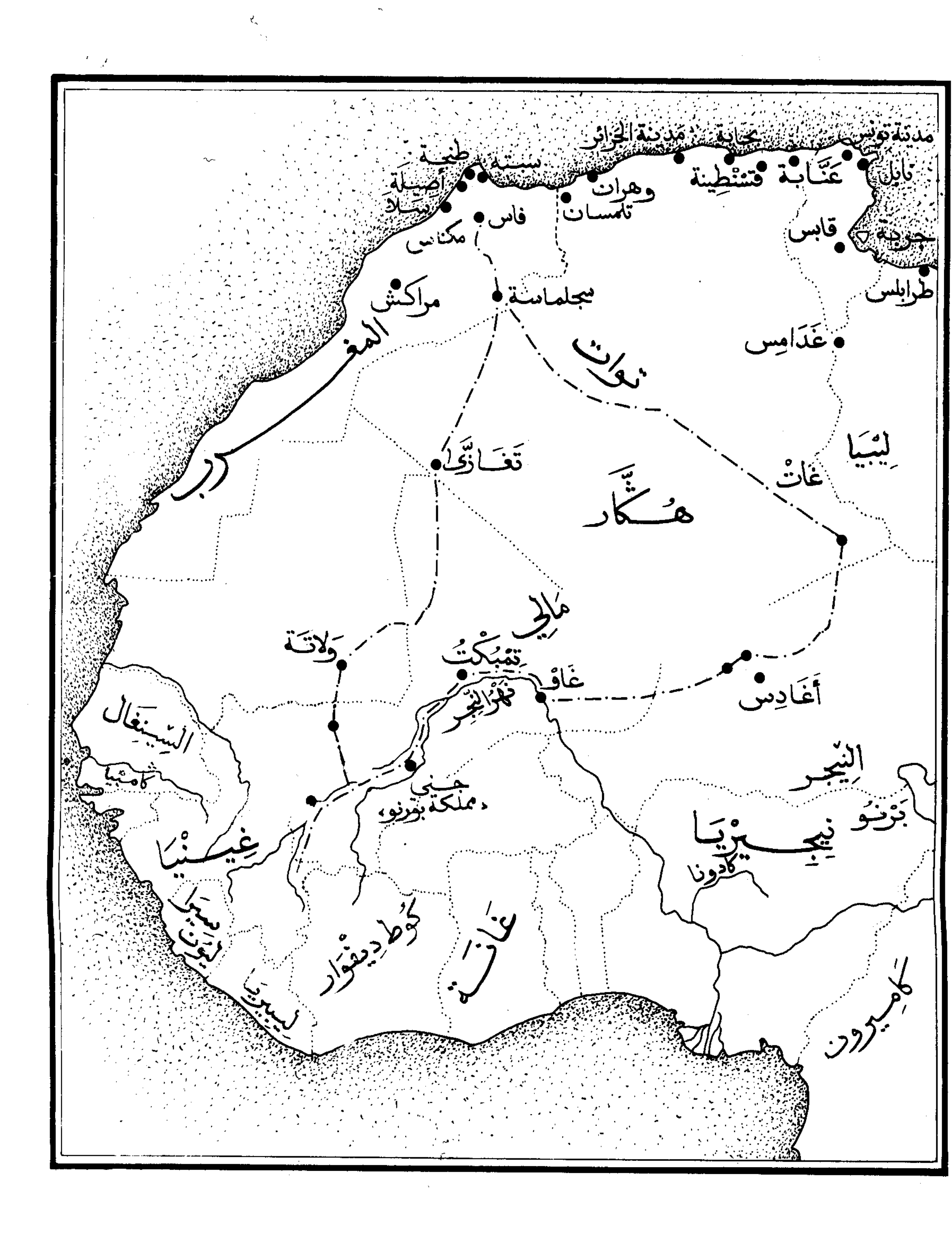
لقطات من مدينة سلا



الفصل الثامن عشر

الرحلة إلى بلاد السودان

- نحو مدينة سجلماسة، وصف المدينة
- أصحاب التكشيف في مسّوفة وشياطين الصحراء !
- إلى تغازّى مدينة الملح
- الوصول إلى ايوالاّتن : أول عمالة السودان
- الحديث عن مركز المرأة في ايوالاّتن
- نحو مالّي حضرة بلاد السودان
- حديثه عن ملك مالي الذي أقام مجلس عزاء للسلطان أبي الحسن...
- حديث ابن بطوطة عن وادي النيجر الذي اعتقد أن له صلةً بالنّيل!
- حديثه عن أكلة لحوم البشر !!
- حديثه عن حج السلطان منسي موسى...
- وصول البريد لابن بطوطة بالعودة إلى المغرب.
- اجتماعه بالسلطان أبي عنان الذي أصدر أمره بانتساخ الرحلة



بلاد السودان



ثم سافرت من مراكش صحبة الرّكاب العليّ : ركاب مولانا أيده الله فوصلنا إلى مدينة سلا، ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضِرة النّضرة ذات البساتين والجنّات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى، فوادعتُ بها مولانا أيده الله.

وتوجهتُ برسم السفر إلى بلاد السودان (1) فوصلت إلى مدينة سجلماسة (2)، وهي من أحسن المدن وبها التّمر الكثير الطيب، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمْر، لكن تمر سجلماسة أطيب، وصنف إيرار (3) منه لا نظير له في البلاد، ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري 377 وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قَنْجَنْفُو من بلاد الصين (4) فيا شدَّ ما تباعدا ! فأكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلَّفتها أربعة أشهر.

ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين (5) في رفقة مقدّمها أبو محمد يَندكان المسُّوفي رحمه الله، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم، فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تغازّى (6) وضبط اسمها بفتح التاء المثناة والغين المعجم وألف وزاي مفتوح أيضا، وهي قرية لا خَيْر فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة المِلْح ! وسقفها من جلود الجمال ! ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت 378 ووضعت تحت الأرض

(1) يتحدث بعض المعلّقين سواء من العرب أو غيرهم، عن أن هذه الرحلة من ابن بطوطة إلى بلاد السودان كانت بتكليفٍ من السلطان أبي عنان في مهمةٍ خاصة الأمر الذي تدل عليه بعض المؤشرات منهاوصول بريد خاص له وهو في تكدّا من لدن السلطان أبي عنان يطلب إلى ابن بطوطة العودة إلى العاصمة... يراجع التعليق الآتي رقم 133.

(2) سجلماسة : مدينة عتيقة أنشأت سنة 140=757م ظلت المحطة الأساسية للتجارة إلى أوائل القرن الذي ولي زيارة ابن بطوطة... الخرائب توجد غرب الريصاني في تافيلالت يسار ساحل وادي زيز، ويتساءل هنا لماذا لم يأخذ ابن بطوطة طريقه إلى السودان مباشرة من مراكش مثلا.
هناك من يعتقد أن ذلك الانعراج كان بسبب أن هناك مصاعب سببها بنو معقل الذين كانوا يحولون دون عبور القوافل عبر غرب الأطلس ووادي سوس. والذي اعتقده أن ابن بطوطة كان عليه أن يصحب الركب العنّاني الذي يحتمل شلْو السلطان أبي الحسن إلى شالة –د. التازي : القبائل العربية بالمغرب 1997.
Textes et Documents relatifs à l'historie de l'Afrique : extraits tirés des voyages d'Ibn Battuta, trad. Annotée par R. Mauny, V. Monteil, Djenidi Robert et Devisse, Histoire n° 9 Universite de DAKAR, 1966, P35 N° 1.

(3) إيرار : هناك قرية تحمل إسم إيراره توجد على مقربةٍ من موقع سجلماسة فلعلَّ الكلمة مأخوذة منها، وقيل إن إيرار كلمة بربرية تعني التّمر الذي ينضج مبكّراً...

(4) يراجع IV ,282.

(5) يوافق 18 يبراير 1352.

(6) مملكة تغازّي تقع شمال غربيّ تاودني وقدجعل أبو عبيد البكري موقعها على بعد عشرين مرحلة من سجلماسة، وقد تُركت في القرن العاشر الهجري = القرن 16 الميلادي وأجرى عليها تنقيب عام 1950 – هذا ويتحدث هيرودوت وبلين عن البناء بالملح حيث لا توجد أمطار كافية لاذابتها.

سوق قريب من موقع سجلماسة القديمة

وادي زيز شمال أطلال سجلماسة عن I.B. IN BLACK AFRICA/

يحمل الجمل منها لوحين (7)، ولا يسكنها إلاَّ عبيد مسّوفة (8) الذين يحفرون على الملح، ويتعيَّشون بما يُجْلب اليهم من تمر درعة (9) وسجلماسة، ومن لحوم الجمال، ومن أنْلي (10) المجلوب من بلاد السّودان، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح، ويباع الحمل منه بايوالأّتن (11) بعشرة مثاقيل إلى ثمانية (12)، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين وربَّما انتهى إلى اَربعين مثقالا.

وبالملحَ يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به. وقرية تغازَّى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التِّبر، وأقمنا بها عشرة أيام في جُهد ‖ لان ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذباباً، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها (13) وهي مسيرة عشر لا ماءَ فيها إلاَّ في النادر، ووجدنا نحن بها ماءً كثيراً في غدران أبقاها المطر، ولقد وجدنا في بعض الأيام غديراً بين تَلَّيْن من حجارة ماءه عذب فترَوِّينا منه وغسلنا ثيابنا.

379/

والكمأَة بتلك الصَّحراء كثيرة، ويكثر القمل بها، حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطاً فيها الزئبق فيقتلها (14) ! وكنا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة فإذا وجدنا مكاناً، يصلح

---

(7) نفس الوصف عند البكري...
Recueil des sources ARABES Concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVIe Siècle (Bilàd AL-Sudan) Trad et notes par Josef n. cuoq Ed. di C.N.R.S. 1985 P. 291.

(8) مسوفة : قبيلة من صنهاجة، كان أهلها يعيشون في القرن الخامس الهجري = القرن الحادي عشر الميلادي، كإخوانهم لمتونة بشمال نهر السينغال، ويعتقد أنهم جاءوا إلى هناك من تندوف حوالي القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، وهي الفترة التي استولوا فيها على مملحة تغازّى... وقد انتزعت منهم في القرن اللاحق من لدن البرابيش... انظر المصدر السابق ص 292 تعليق 5 – يراجع 76, IV.

(9) وادي درْعة (واد دْرا) جنوب الأطلس الصغير حيث تنحدر مياهه إلى الوادي...

(10) أَنلي : (Pennisetum Typhoideum) نوع مما يعرف تحت اسم Mil أو Millet وقد تقدم ذكره 112 : IV 130 314, II

(11) إيوالأّتن : بَرْبَرة للاسم المالينكي (Malinke)، وكلمة ولاّته تعريب للكلمة المالينكية (وَالاَ) بمعنى مكان الظل. تَرَقَّبْ التعليق الآتي رقم 25.

(12) نذكر أن وزن دينار واحد كان يعادل مثقالاً واحداً يعني 4,5 كرام ذهبي.

(13) تذكرني هذه الفقرة من ابن بطوطة فيما عرف في الصحراء باسم (الحوض) فقد كانت هناك ظاهرة صنع السقَّائين للأحواض بمختلف الأحجام : يصنعونَها من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام، يسقون بها الجمال ويملأون الروايا والقِرَب، ولكل أمير حوض يسقى منه جماله. وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جمله وملْء قربته بشيء معلوم من المال على نحو ما حكاه ابن بطوطة عن التزود بالماء استعدادًا للصحراء المخَوِّفة بين العُلاَ وتبوك. انظر 258, I.

(14) الكمأة هي (الترفاس) عند المغاربة تعظم عندهم حتى يَتخذ فيها الأرنب جُحره. "هكذا في البكري ص 182، وقد ورد عند الادريسي التعبير التالي ص 108 : "وأخبر بعض الثقات من متجولي التجار إلى بلاد السودان أن بمدينة أودغشت ينبت بأرضها بقرب مناقع المياه المتصلة بها كمأة، يكون في وزن الكمء ثلاثة أرطال وأزيد وهو يجلب إلى أودغشت كثيراً، يطبخونه مع لحوم الجمال ويأكلونه ويزعمون أن ما على الأرض مثله وقد صدقوا"!
هذا وقد استخدم الفيزائيون العرب الزئبق لعلاج أمراض الجلد ويستعملوه مرهمًا بغرض محاربة الطفيليات الجلدية مثل القمل والصئبان والقراد. القزويني : عجائب المخلوقات القسم الثالث : في الأجسام الذهنية.

للرعي رعينا الدواب به، ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجلٌ يعرف بابْن زيري فلم
380/4 أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت، وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله، ويعرف بابن عَدي،
منازعة ومشاتمة فتأخَّر عن الرفقة فضلَّ، فلما نزل الناس لم يظهر له خبر، فأشرتُ على ابن
خاله بان يكتري من مسُّوفة مَن يقصُّ أثره لعله يجده، فأبى. وانتدب في اليوم الثاني رجلٌ
من مسوفة دون أجرة لطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طوراً ويخرج عنها تارة، ولم يقع له
على خبر، ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجالٍ انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم
ميتاً تحت شُجَيْرةٍ من أشجار الرَّمل، وعليه ثيابه وفي يده سوط، وكان الماء على نحو ميلٍ منه.
381/4 ثم (15) وصلنا إلى تَاسَرَهْلاَ (16)، بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء،
وهي أحساء ماء تنزل القوافل عليها، ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم
ويملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس (17) خوف الرّيح، ومن هناك يُبعث التَّكشيف (18).

• ذكر التكشيف

والتكشيف : اسم لكل رجلٍ من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيوالاَّتن بكُتب
الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع، ومن لم يكن
له صاحب بايوالاَّتن كتب إلى مَن شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك، وربما هلك
382/4 التَّكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهلُ إيوالاَّتن بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم.

وتلك الصحراء كثيرةُ الشياطين (19)، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهوته
حتى يضلّ عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هي رمال تنسفها الريح
فترى جبالاً من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه، والدليل هنالك مَن كثر تردُّده،

(15) الميل العربي يعادل تقريبا أقل من كيلوميترين أما الميل الروماني فلا يعدو كيلو ميترًا ونصفاً تقريبا.

(16) حول (تَاسَرَهْلاَ) أورد الأب جوزيف م.كوك J.M. Couq سالف الذكر في تأليفه القيّم حول مصادر تاريخ افريقيا العربية (التعليق 7) تعليقًا مسهبًا حول الموضوع...
ويظهر أن الأحساء المقصودة هي بئر الگصيب الذي يبعده 250 كـ. م عن محطة تغازًى و 480 عن محطة ولاته Mauny : textes et documents P. 38 N° 4

(17) التلاليس ج تلّيس ويعني في الدارجة المغربية وعاءً كبيراً ينسج من الصوف أو الشعر يصلح في العادة لحمل الحنطة وما أشبه.

(18) الكلمة تعني معرفة معالم الطريق ومسالكها، والشخص الذي يدل على ذلك يحمل إسم الكشاف على نحو ما نعيشه اليوم مع الحركة العالمية للكشفية (Scoutisme)، وهكذا يكون معنى التكشيف : صاحب التكشيف، وهو الدور الذي تقوم به اليوم الشركات السياحية في مختلف جهات العالم...

(19) حديثه عن «الشياطين» في الصحراء يذكرني في نقاش جرى بين المجمعيين ونحن في الطريق إلى واحة سيوة (مارس 1996) حول عزيف الرمل أو طبْل الصحراء عند هبوب الرياح وتخلل المطر بينها...

وكان له قلب ذكي، ورأيت من العجائب أنَّ الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو أعرف النَّاس بالطريق (20) !

واكترينا التَّكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب، وهو من مسّوفة، وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك، وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصَّدر فيها وتطيب النفس، وهي آمنة من السُّراق، والبقر الوحشية (21) بها كثير يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنّشاب، لكن لحمها يولّد أكله العطش فيتحاماه كثيرٌ من الناس لذلك، ومن العجائب أنَّ هذه البقرة إذا قُتلت وجد في كروشها الماء (22)، ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذي فيه! والحيَّات أيضا بهذه الصحراء كثيرة.

حكاية [مُلاعِب الحيَّات]

وكان في القافلة تاجرٌ تلمساني يعرف بالحاج زيَّان، ومن عادته أن يقبض على الحيّات ويعبث بها، وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي، فلما كان ذات يومٍ أدخل يده في جُحر ضب ليخرجه، فوجد مكانه حية فأخذها بيده وأراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى وأصابه وجعُ شديد فكُويتْ يده وزاد ألمه عشيَّ النهار فنحر جملاً وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الأصل، وأخبرنا اهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته (23) !

ولما وصل الينا الذين إستقبلونا بالماء شربت خيْلنا، ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا، وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كلَّه وننزل عند الصباح،

(20) هناك عدة مراجع عن وجود عُميان يمكنهم أن يكونوا ادلاء للمبصرين في الصحراء يستعينون بحاسة الشم لمعرفة الأرض التي يسلكونها ولمعرفة مواقع الماء ونادراً ما كانوا يخطئون.
د. صلاح جرَّار : طريقة القراءة عند المكفوفين بصريا في قصائد من الشعر الأندلسي، الجامعة الأردنية عمان 1995.

(21) القصْد إلى المَها (ADDAX NASOMACULATUS

(22) الحديث عن شرب الماء الذي يوجد في جوف هذه الحيوانات سبق أن طرقه بعض الباحثين المؤلفين، بيد أن هذا الامر يتعلق بالجمال وليس بالبقر الوحشي، أما عن مسّوفة حملة اللثام فقد تقدم الحديث عنهم في IV، 76-303-378-380-381.

(23) وسيلة العلاج هذه ماتزال إلى الآن مستعملة في بعض جهات الجزائر في الگرگور اقليم سطيف، حيث يذبح ديك مثلا ويوضع العضو المصاب في معدته. انظر (Mauny) ص 40 تعليق 6.

وتأتي الرجال من مسّوفة وبَرْدامة (24) وغيرها بأحمال الماء للبيع، ثم وصلنا إلى مدينة إيوَالاَّتن (25) في غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة، وهي أول عمالة السودان، ونائب السلطان بها فرْبَا حسين، وفَرْبا بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الباء الموحدة، ومعناه النائب.

ولما (26) وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السّودان بحفظها، وتوجهوا إلى الفَرْبا، وهو جالس على بساط في سقيف، وأعوانُه بين يديه، بأيديهم الرماح والقِسِيّ وكبراء مسوفة من ورائه، ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قُربهم منه إحتقاراً لهم (27) فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض! وقصدت دار ابن بَدَّاء، وهو رجلٌ فاضلٌ من أهل سلا كنت كتبت له أن يكتري لي داراً ففعل ذلك، ثم إن مُشرف (28) إيوالاَّتن، ويُسمى مَنْشَاجو، بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو، استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته، فأبيت من حضور ذلك، فعزم الأصحاب عليَّ أشد العزم فتوجهتُ فيمن توجه ثم أتى بالضيافة، وهي جريش أنْلي مخلوطاً بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صيَّروه شبه الجفنة، فشرب الحاضرون

386/4

(24) بَرْدَام وهو الاسم الذي يعطى من لدن الفُلاَّنين للتوارگ على العموم وللنبلاء منهم على الخصوص ويمكن أن يكون لهذا الاسم صلة بالقبيلة التي تحمل اسم إيبير ديانان

Beckingham 1994, IV P. 950 N° 15

ومن المعلقين من يفترض أن القصد ببردامة إلى بَغامة التي ذكرها الشريف الادريسي ج I ص 25.

(25) إيوالاتن جمع ولاته، يذكر ابن الوزان أنها مملكة صغيرة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، ليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة واكواخ متفرقة بين حدائق النخل.. الخريطة الحالية تظهر مكانين يحملان اسم ولاته – ايولاتن التي يتحدث عنها ابن بطوطة هي القرية الجنوبية التي تقع على الخط 17,02 شمالاً والخط 6°,44 غربًا... كانت في وقت ابن بطوطة الحد الشمالي لامبراطورية مالي، وهكذا فعلى نحو ما لاحظناه اثناء وجود ابن بطوطة في سيلان نجد هذه الإشارة من ابن بطوطة: «وهي أول عمالة السودان »، وهذا يعني رسم الحدود بين الأقطار الأمر الذي سيكون له بُعده على صعيد العلاقات الثنائية في المنطقة. – هذا ويوافق تاريخ أول ربيع الأول : 17 ابريل 1352.

(26) فَرْبَا كلمة تعني بَامْبَرا أي الشخص الذي يمثل منْسى مالي يعني الحاكم.

(27) كان علي ابن بطوطة أن يعرف أن البروتوكول في بلاد السودان يقتضي، لزومًا، اتخاذ ترجمان مع الأجانب تعبيراً عن الذات وعن الشخصية ومن غير قصد إلى احتقار على نحو ما نراه اليوم يطبَّق في بعض البلاد ولو مع معرفة اللغة... ومن هنا نجد أن مبعوث ملك مصر إلى منسى موسى ملك مالي يحكى عن انه استقبل بحفاوة كبيرة بيد أن هذا الملك الذي كان يتقن اللغة العربية إنما كان يتحدث للمبعوث المصري بواسطة الترجمان...

(28) المشرف لقب وظيفي حضاري دخل في القاموس الأوربي AL MOJARIF : الذي يتوصل بالواجبات والحقوق اللازمة عند الايراد. ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة تحقيق عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة دار الغرب الإسلامي – بيروت 1987.

وانصرفوا، فقلت لهم : أَلِهذا دعانا الأسود؟ قالوا : نعم ! وهو الضيافة الكبيرة عندهم (29)، فأيقنت حينئذ أنْ لا خير يرتجى منهم، وأردت أن أسافر مع حجاج أيوالاَّتن، ثم ظهر لي أنْ أتوجه لمشاهدة حضْرة مَلِكِهم.

وكانت إقامتي بايوالاَّتن نحو خمسين يوماً وأكرمني أهلها وأضافوني، منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن يَنومر، وأخوه الفقيه المدرس يحيى. وبلدة ايوالاَّتن شديدة الحر، وفيها يسيرُ نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ، وماؤهم من أحساءٍ بها، ولحم الضأن كثير بها، وثياب أهلها حسانٌ مصرية، وأكثر السكان بها من مسُّوفة، ولنسائهم الجمال الفائق وهنَّ أعظم شأناً من الرجال (30).

ذكر مسّوفة الساكنين بإيوالاَّتن.

وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجلَ إلا ابناءُ أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المُلَيْبَار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مُسلمون محافظون على الصَّلوات، وتعلمِ الفقه وحفظِ القرآن، وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات، ومن اراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها!

والنساء هنالك يكون لهنَّ الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد إمرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك (31).

---

(29) يعتقد بعض المعلّقين أن هذا النوع من التقديم للطعام لا يعني شيئا ضد الضيف ! بل إنه يعبر عن حبّ له وعدم الكلفة معه يعبّر عن تقاليد وطنية على نحو ما يقدم المغاربة الحليب والتمر لكبار الضيوف... – هذا وكلمة منشاجو تعني عبد السلطان.

(30) لقطة كثيراً ما يستشهد بها اللذون يتحدثون عن مركز المرأة ودورها في المجتمع الإسلامي، ونحن نعرف أن المسّوفيات هن اللواتي كن يشرفن في بعض الفترات على استغلال مملحة تغازّى، فإن سكان المدينة بعد أن يبيعوا الملح ويأخذوا ما يكفي لحاجتهم يسلمون الباقي للسيدات...
د.التازي : المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي نشر FRIEDRICH EBERT Stiftung والفنك –الدار البيضاء 1413=1992 ص 21 – التعليق 4.

(31) كأنّي بابن بطّوطة ينقل عمّا سيكتبه – بعد قرون – المهدي الغزّال عند ما سَفَر عام 1179=1766 بين ملك المغرب وملك اسبانيا !! ج I ص 270، د. التازي : التاريخ الدبلوماسي ج 1 ص 270

اطلال من ايوالأتن

حكاية [القاضي وصاحبته]

دخلتُ يوماً على القاضي بإيوالاَّتن بعد إذنه في الدخول، فوجدت عنده إمرأةً صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رأيتها إرتبْت وأردت الرجوع، فضحكتْ مني ولم يُدركها خجل، وقال لي القاضي : لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتي ! فعجبت من شأنهما، فإنه من الفقهاء الحُجَّاج وأخبرت أنه إستأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبتِه، لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له ! . 390

حكاية نحوها

دخلت يوماً على أبي محمد يَنْدكان المسُّوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفي وسط داره سرير مظلّل، عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان، فقلت له: ما هذه المرأة؟ فقال : هي زوجتي، فقلت : وما الرجل الذي معها. أَإبنُها؟ فقال : هو صاحبها ! فقلت له : أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟! فقال لي : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خيرٍ وحسنِ طريقة لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم !! فعجبت من رُعُونته وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه!

391 ولما عزمت على السفر إلى مالي وبينها وبين إيوالاَّتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمجدِّ إكتريت دليلاً من مسّوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من أصحابي.

وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارُها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها (32). وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، ولكن ظلَّ جسدها بحيث يستظل به الانسان، وبعض تلك الأشجار قد إستأسن داخلُها وا ستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ! ويشرب النّاس من الماء الذي فيها، ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره النَّاس منها، ولقد مررت بشجرةٍ منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه!

392 قال ابن جزي : ببلاد الأندلس شجرتان من شجر القسطل في جوف كلّ واحد منهما حائك ينسج الثياب : إحداهما بسَند وادي آش، والأخرى ببُشَّارة (33) غرناطة.

(32) القصد دون شك إلى الشجر الاستوائي العريض الجذع الذي يحمل اسم BAOBAB في ثمره لبّ يؤكل..

(33) وادي آش (Guadix) شمال شرقي غرناطة، والبُشَّارة (ALPUJARRAS) مرتفعات جبلية بين غرناطة والبحر.

رجع، وفي أشجار هذه الغابة التي بين إيوالاَّتن ومالي ما يشبه ثمرة الإجّاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها، وفيها أشجار تُثمر شبه الفقوص، فإذا طاب انفلق عن شيءٍ شبه الدقيق، فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق، ويستخرجون من هذه الأرض حباتٍ كالفول فيقلونها ويأكلونها، وطعمها كطعم الحمص المقلوّ (34)، وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفُنج وقلوه بالغَرْتي (35). والغَرْتي : بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة، وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذَا أكلوه، ويُدق عظمه فيُستخرج منه زيت لهم فيه ‖ منافع، فمنها أنهم يطبخون به ويُسرجون السُّرج ويقلون به هذا الاسفُنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطّحون به الدور كما تسطح بالجير، وهو عندهم كثيرٌ متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد في قَرْع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القُلَّة ببلادنا. 393/4

والقرع ببلاد السودان يعظم، ومنه يصنعون الجِفان، يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتَين وينقشونها نقشاً حسناً، وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه، يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها، وهي من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً، إنما يحمل ‖ قطع المِلح وحُليّ الزجاج الذي يسمّيه الناس النظم (36)، وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسَرغَنت (37) وهو بخورهم، فإذا وصل قريةً جاء نساء السودان 394/4

---

(34) يتعلق الأمر بما يسمّى فُوَانْدْزُو (Voandzou) عُوِّض اليوم بالفول السوداني : كاوكاو النبات الوارد من البرازيل..Cuoq P. 297 Stephane III P. 406

(35) الغَرتِي هو بالذات القاريتي عند العُمَري معروف بإفريقيا الغربية "وشجر اسمه قاريتي يحمل شبيه الليمون... وطعمه يشبه طعمَ الكمثري بداخله نوى ملحم، يؤخذ منه ذلك النوى وهو طري ويطحن فيخرج منه شبيه بالسمن، ويجمد، تبيّض به البيوت وتوقد منه السرج والقناديل ويعمل منه صابون، وإذا أريد أن يوكل ذلك الدُّهن يحرق بتدبير... ويستعمل في الماكل كالسمن...
العمري : مسالك الأبصار في ممالك الانصار (تـ 749) السفر الثالث إصدار فؤاد سزكين – معهد تاريخ العلوم العربية – والإسلامية جامعة فرانكفورت – ألمانيا 1408=1988 ص 36-37.

(36) النظم من نَظَم العقيق أو اللؤلؤ... أي جعله في نحو خيطٍ مرتباً ليصلح كعقد.

(37) تاسَرغنت صيغة تأنيت، كلمة بربرية، والاسم المعرَّب سرغينة (Corrigiola telephiifolia)، وهي كما يقول الحسن ابن الوزّان : "جذرٌ عطري يوجد على ساحل المحيط إلى جهة الغرب ويجلبه تجار موريطانيا إلى بلاد السودان حيث يستعمل عطراً رفيعاً، ولا حاجة إلى حرقه أو تسخينه، لانه إذا حفظ في حجرة نشر فيها نفس الرائحة على أية حال.."

بأنْلي واللبن والدجاج ودقيق النَّبق (38) والأرز والفوني (39)، وهو كحب الخردل، يصنع منه الكُسْكسو (40) والعصيدة (41)، ودقيق اللّوبيا (42)، فيشتري منهنَّ ما أحب من ذلك، إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان، والفوني خير منه.

وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتّن وصلنا إلى قرية زَاغَري (43)، وضبطها بفتح الزاي والغين المعجم وكسر الراء، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونْجَرَاتة (44) بفتح الواو وسكون النّون، وفتح الجيم والراء والف وتاء مثنّاة وتاء تانيث، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية (45) من الخوارج ويسمون صغَنْغُو بفتح الصاد 395/4

(38) النَّبق باللهجة المغربية يكون على مقدار الحمص تقريباً، وفيه نوع أكبر يسمى في المغرب الزُّفزف (Ju-jub) ويسمى بالعربية الفصحى العُنَّاب... ويشبه به الشعراء أطراف أصابع االعذارى...

(39) يلاحظ وجود الأرز في بلاد السودان الغربي – الفوني : فونيو Digitaria exilis وهو كما يقول العُمري : "بنت مزغّب يدرس فيخرج منه شبيه حبّ الخردل أو أصغر وهو أبيض، يغسل ثم يطحن ثم يعجن ويؤكل" مسالك الأبصار – السفر الرابع ص 36.

(40) يبدوا أن ابن بطوطة أول من استعمل هذا اللفظ بهذه الصيغة : الكسكسو وبها ورد في شعر ابن أجروم (ت 772 هـ) عندما استدعى زميله الماجري لتناول الكسكسو بالقديد واللفت!. وقد ورد ذكره في ترجمة ابى العباس أحمد المقري الذي زار القدس وكان الزوار اعتادوا الا يتناولوا عنده الا الكسكس. كما ورد في مذكرات السفير الزاياني وفي محاضرات اليوسى ويكثر التعليق على اصل هذه الكلمة سيما بعد أن اصبحت تنطق هكذا الكسكس ! ويعتبر الكسكس الصحن المألوف في كل بيت مغربي بما فيه من أنواع تتجاوز العشرة... ويعتمد على سميذ القمح أو الشعير أو الذرة أو أنلي مع اللّحم – د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب – ج II ص 308. د. شقور : الشعر المغربي في العصر المريني 1996.

(41) العصيدة نوع من الطعام يرتكز كذلك على السميذ والدقيق على نحو الكسكس وهي غير الدشيشة طعام سيدنا ابراهيم لضيوفه (يراجع تفسير قوله تعالى : وجاء ضيف ابراهيم... الآية.

(42) ليس القصد إلى اللوبيا التي وردت من أمريكا ولكن القصد إلى ما يعرف بـ : فاصوليا اليونان أو اللاّتين (PHASIOLUS) اللّوبيا العربية معروفة في السودان تحت إسم نْيبي (Nièbé).

(43) زاغَري هو ماسينا الغربية المسمّى ديا غارَا Diaghara من قبل المانديگ، ودياگاري Diagari من قبل البول Peuls. هذه بلاد دياگا Diaga أوديا Dia الاسم الذي أعطى للاقليم وكذلك لقاعدته التي توجد الآن على مقربة من ديافارابي Mauny : Texte 46 N: 8 - Diafarabè

(44) ونْجْراته، هي ونْقارة عند الادريسي : التي يقول عنها من جملة ما يقول : "بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة (كثرة ذهبها) وهي جزيرة طولها ثلاثمائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا... واشتّرى أكثرهَ (الذهب) أهل وارقلان، وأهل المغرب الأقصى وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرَّفون بها في التجارات والبضائع ... وأرض وَنْقَاره فيها بلاد مغموره ومعاقل مشهورة وأهلها أغنياء... الادريسي : النزهة، الجزء الأول ص 24 – طبعة معهد الدراسات الشرقية نابولي.

(45) كان وجود الاباضية قويا بإفريقيا الشمالية في القرون الأولى للهجرة حيث بلغ الأمر إلى حد تكوين دولة أباضية في المغرب الأوسط : دولة الرستميين في تيهرت وبعد أن سقط الرستميون في بداية القرن الرابع وجدنا أن بعض الجماعات الاباضية تصمد في وارجلان... ثم في مزاب إلى أيامنا... ومن هؤلاء وجدنا مذهب الاباضية يتسلل عبر القوافل التجارية الصحراوية إلى بلاد السودان... ومن المهم أن نذكر بهذه المناسبة جلسة مفيدَة حضرتُها كمستشار خاص (AD HOC) في محكمة العدل الدولية بلاهاي يوليه عام 1975 عن مدى التأثير الإباضي في كلّ من الجزائر والمغرب وموريطانيا لمعرفة الحقيقة حول مَن هو "«المعنّى" بقضية الصحراء الغربية... – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 10 ص 238 – ندوة الامام مالك بفاس 1981 – يراجع II ,226.

المهمل والغين المعجم الاول والنون وضم الغين الثاني وواو، والسنّيون المالكيون من البيض يسمّون عندهم تُورِي (46) بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة، ومن هذه القرية يجلب أنْلي إلى إيوالاَّتن.

ثم سرنا من زَاغَرِي فوصلنا إلى النَّهر الأعظم، وهو النيل (47) وعليه بلدة كَارْسَخُو (48)، بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو، والنّيل ينْحدر منها إلى كابَرَة (49)، بفتح الباء الموحدة والراء، ثم إلى زَاغة (50) بفتح الزاي والغين المعجم، وللكَابَرَة وزَاغَة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي، وأهل زاغة قدماء في الإسلام، لهم ديانة وطلب علم، ثم ينحدر النّيل من زَاغة إلى تُنْبُكْتُو (51)، ثم إلى كَوْكَو، وسنذكرهما، ثم إلى

---

(46) هذه الأسماء ما تزال إلى الآن كأسماء عائلية – توري (TURE) وهو يؤدي معنى : (أجنبي)، وأول ملك في مالي كان يعتنق مذهب الاباضية، فمن المحتمل أن آل صَغَنْغُو يكوّنون الشريحة الأولى للبيض الذين استقروا في عين المكان، وقد أتبعت فيما بعد بطبقة أخرى، وكانت هذه الطبقة سنّية مالكية، بيد أنه – بعد ابن بطوطة – وجدنا أن آل صَغَنْغُو سوف يعتنقون المذهب المالكي J. Cuoq. Recueil P. 299 N° 1. د. التازي : التاريخ الديلوماسي للمغرب ج 3 ص 305.

(47) يلاحظ أن اسم النيل أعطى من لدن الجغرافيين العرب لبعض الأنهار الافريقية وهكذا فحتى إلى القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي، نرى أنه توجد أودية في افريقيا لا صلة لها اطلاقا بنيل مصر ومع ذلك تحمل اسم النّيل ! وها نحن مع ابن بطوطة في هذه الفترات التي يذهب فيها بعيداً فيذكر أن النيل ينحدر إلى بلاد النوبة !! وهكذا غاب عنه كسائر سابقية وجود وادي النيجر...! لقد كان يجهل منابع النيل التي اهتم بها الأسواني سفير جوهر الصقلي إلى ملك النوبة حوالي 365=975 – كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافي ص 210 – Mauny : Texte 48 N° 1.

(48) من الممكن أن يكون القصد حسب ديلفوس إلى (KARA-SAKHOU) في عالية ديافارابي (DI-AFARABE) على الساحل الأيمن لنهر النيجر.

(49) كَابَرَة ربما كان أحد أسماء دْيَافَارابي (Diafarabé) في أسفل النيجر، في إقليم موبتي (Mopti) – ومدينة زاغة (ZAGHA) يمكن أن تكون هي (DIA) عند سافلة ديافارَابي
Beckingham P. 36 N°36

(50) يلاحظ أنّ غيرة سكان زاغة على الاسلام ربما كانت مرتبطةً بقربها من مدينة جني الواقعة شرق النيجر والتي ابتدأت منذ هذا التاريخ تفرض نفسها كمركز ديني تجاري الأمر الذي يفسره تردد بعض العلماء عليها... أبو القاسم الفكيكي : الفريد في تقييد الشريد، تحقيق د. التازي – طبع بالبيضاء مطبعة النجاح عام 1983 ص 51 تعليق 21.

(51) سياتي الحديث عن تنبكتو وكَاوْكو (كَاو)

بلدة مُولي (52)، بضم الميم وكسر اللام من بلاد اللّيميّين(53) وهي آخر عمالة مالي، ثم إلى يُوفي (54)، واسمها بضم الياء آخر الحروف وواو وفاء مكسورة، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانُها من أعظم سلاطينهم، ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها! ثم ينحدر (55) منها إلى بلاد النُّوبة . وهم على دين النصرانية، ثم إلى دُنْقُلَة (56)، وهي أكبر بلادهم وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام، وسلطانها يدعى بابن كنْز الدين، أسلم على أيام الملك الناصر (57). ثم ينحدر إلى جنادل (58)، وهي آخر عمالة السودان، وأول عمالة أسوان (59) من صعيد مصر.

396/

ورأيت التّمساح بهذا الموضع من النّيل بالقرب من الساحل، كأنه قارب صغير، ولقد نزلت يوماً إلى النّيل لقضاء حاجة، فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر

---

(52) مُولي تقع على سافلة نهر النيجر، ولكنه لا يُعرف هل إنَّ الأمر يتعلق بمدينة أو بجنس موري (Mouri) الذي يعيش في منطقة دُستو (Dosso) جنوب جمهورية النيجر الحالية حيث إقليم نيامي (Niamey) Gibb : Selections p. 379 - N° 14 - Beckingham –

(53) اللّيميُّون أو النّمانم حسب مختلف المؤلفين العرب، أو الدَمْدم، يقول البكري : وإذا سار السائر من بلاد كوكو (كاو Gao) على شاطئ البحر غرباً انتهى إلى قبيلة يقال لها الدمدم، يأكلون مَن وقع إليهم ولهم سلطان كبير وملوك تحت يده، – انظر II، 192 – تعليق 68 IV - 428 ت 100 – خليفة عبّاس العبيد : الزّبير باشا – مركز الدراسات السّودانية – القاهرة 1995 ت 100.

(54) (يُوفي) عَلَم جغرافي مُربك ! يظهر من ابن بطوطة II - 193 انه على بعد شهر من مدينة سفالة (في الموزامبيق) وانه يوجد هناك تبر الذهب. قال ابن بطوطة : إن (يوفي) في بلاد اللّيميين بسفالة، على مسافة سير تقدر بشهر... هناك إذن تساهل في تحديد الأمكنة بإفريقيا الشرقية والغربية... ويظهر أن (يوفي) يتناسب ومملكة النّوبة. انظر خريطة افريقيا

J. Cuoq : RecueilÙ P. 300-478 - Beckingham 255 N° 38.

(55) حول قوله ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة ! يراجع التعليق رقم 47.

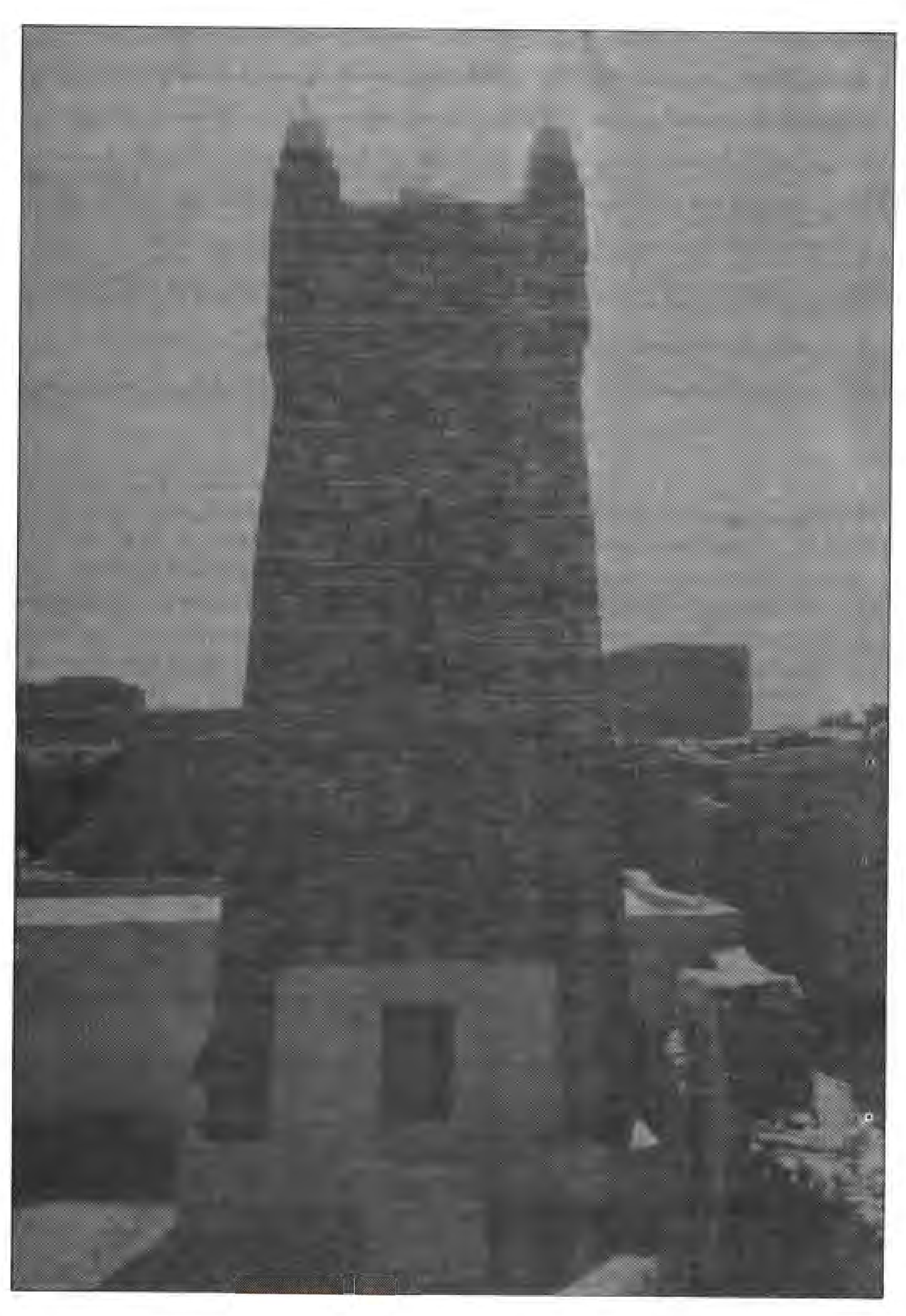
(56) مملكة دنقلة شمال السودان كانت موجودة منذ القرن السادس الميلادي وقد فتحت عام 1317=717 من لدن القبائل الاسلامية واعتنقت الاسلام سريعاً. عبد الغفار : مؤتمر المائدة المستديرة ، رسالة دكتوراه ج. الحسن الثاني ص 134-1996 الدار البيضاء – المغرب.

(57) ينتقد بيكينگام هنا تساهلَ ابن بطوطة في إفادته هذه وينقل أن الأمر يتعلق بكنز الدولة وليس كنز الدين، وأن كنز الدولة لقب لرئيس بني كنز : وهي قبيلة تحتل إقليم الجنوب : أسوان ونواحيه، وهكذا فقد *كان بطبيعة الحال مسلماً وليس حديث اقتناع بالإسلام، وأصبح أول ملك لامارة مُقُرّة Muqurra المملكة الشمالية التي تعتبر دنقلة عاصمة لها حوالي 719 هـ – 1319م، وان المملكة المسيحية التي سبقت هذه المملكة الاسلامية كانت في بعض الاوقات خاضعةً لسلطنة المماليك في مصر – كنز الدولة المتحدث عنه أصبح ملكاً طوال الفترة الثالثة التي تملك فيها الملك محمد الناصر على مصر...*

P.M Holt : The coronation Oaths of the Nubian Kings Sudanic Africa I, 1990 p. 5-9.

(58) القصد إلى شلالات النّيل.

(59) نلاحظ مرةً أخرى أن ابن بطوطة يرسم الحدود بين الأقاليم والولايات يراجع التعليق 25.



من الآثار الهامة في شنقيط

فعجبتُ من سوء أدبه وقلة حيائه، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال : إنما فعل ذلك خوفاً عليك من التمساح 397/ فحال بينك وبينه ! ثم سرنا من كَارْسَخُو فوصلنا إلى نهر صَنْصَرة، بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون، وهو على نحو عشرة أميال من مالِّي (60)، وعادتُهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بالإذن، وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النَّقويش المصري (61)، ليكتروا لي داراً، فلما وصلت إلى النهر المذكور جزت في المعدية ولم يمنعني أحدٌ، فوصلت إلى مدينة مالِّي، حضرة السودان (62)، فنزلت عند مقربتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد ابن الفقيه فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره فتوجهتُ اليها، وجاء صهره الفقيه المُقرئ عبد الواحد (63) بشمعةٍ وطعام، ثم 398/ جاء ابن الفقيه إليَّ من الغد وشمس الدين بن النقويش وعلي الزُّودي المراكشي، وهو من الطلبة، ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن، جاءني، وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق، بعث إلي بقرةً في ضيافته، ولقيت التُّرجمان دُوغَا، بضم الدال وواو وغين معجم، وهو من أفاضل السودان وكبارهم وبعث إليَّ بثور وبعث إليَّ الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني، وقرعةً من الغرتي (64)، وبعث إليَّ ابن الفقيه الأرز والفونى، وبعث إليَّ شمس الدين بضيافة، وقاموا بحقي أتمَّ قيام، شكر الله حسن أفعالهم.

---

(60) تعددت افتراضات المعلقين حول موقع عاصمة مالي : هناك من يعتقد أنها نِيامي وهؤلاء يقاربون بين صنصرة وسَنْكَرَنِي على يمين ساحل النيجر! وبعضهم رأى أن عاصمة مالي هي كامبيا وهناك من يعتقد أن موقع مالي ينبغي أن يكون بين سيگو وباماكو... ولهذا فإن تحرير القول حول الموضوع يحتاج إلى المزيد من التنقيبات... يراجع التعليق الآتي رقم 62 – Beckingham P. 955-956 - Note 40

(61) بعض المخطوطات ترسم النغريس وبعضها النقريس.

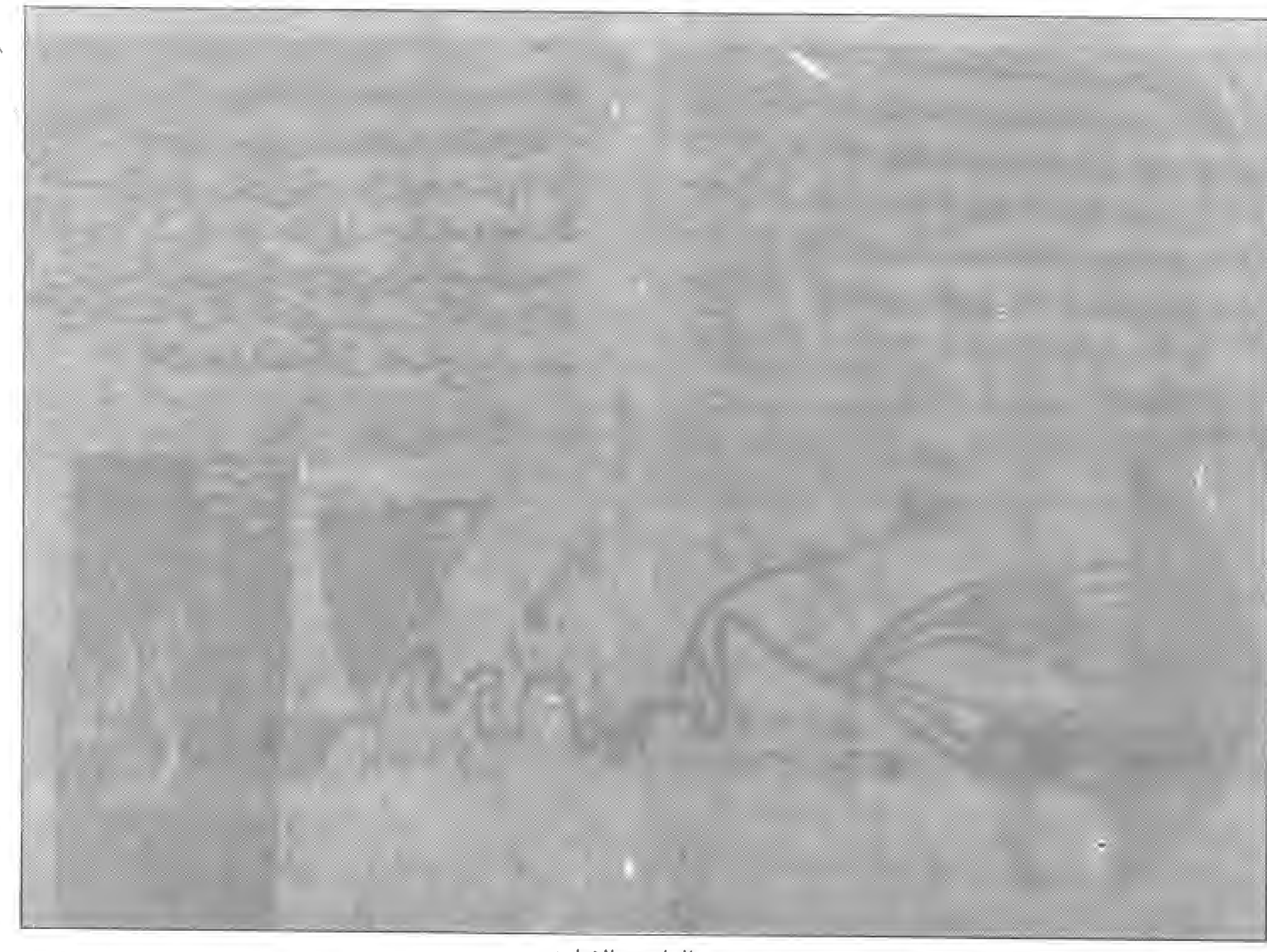
(62) هل إن مالي عند ابن بطوطة هي نِيَنِي عند العُمري الذي يقول عنها نقلاً عن سعيد الدكالي الذي سكنها طوال خمس وثلاثين سنة : ومدينة نيني ممتدة طولاً وعرضاً تكوِّن طول بريد تقريبا (23 ك.م) وعرضها كذلك لا يحيط بها سور وللملك عدة قصور يستدير بها سورٌ ، محيطٌ بها وفرع من النيل يستدير بهذه المدينة من جهاتها الأربع وفي بعضها مجاز يمشي فيه عند قلة الماء وفي بعضها لا يعبر إلا بالمراكب، وبناء هذه المدينة بأيادٍ من الطين... وسقوفها بالأخشاب والقصب... وشرب أهلها من ماء النيل وآبار محتفرة وجميع هذه البلاد مصخرة مجبلة..."

وحسب رسم الكلمة المشكوك فيه، فإن نِيَنِي المدينة حدّدت مع القرية التي تحمل نفس الاسم والتي تقع على سَنْكَرَنِي في الحدود الغينية المالية. والتنقيبات التي أجريت 1965 لم تكن فاصلة، وهكذا فإن محلّة جديدة رُشحت للتنقيب في أعلى غامبيا في الأرض الغينية – أنظر التعليق السابق رقم 60.

Gibb : IBN BAT, Asia and Africa P. 379 - 380 - Note 19

(63) يتعلق الأمر بعبد الواحد المقَّري المنحدر من عائلة كانت تتوفر على عددٍ من التجار المقيمين في ولاّته منذ بداية القرن السابع الهجري = الثالث عشر، علاوة على تمكنهم من التجارة عبْر الصحراء، بين تلمسان ومالي. كلمة (دوغا) تعني النَّسْر في باماناBamana . المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الطيب – تحقيق د. احسان عباس – دار صادر بيروت ج 5، ص 205 1388=1968 – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص 155-156 – راجع التعليق 25 سالف الذكر.

(64) انظر بالتتابع ما تقدم في التعليق 35-39



مجرى النيل عند الخوارزمي

وكان ابن الفقيه متزوجًا ببنت عمّ السلطان فكانت تتفقدنا بالطّعام وغيره، وأكلنا بعد
399/ عشرة أيامٍ من وصولنا عصيدةً تصنع من شيء يُشبه القَلْقَاس،، ويسمى القافِي، بقاف والف وفاء، وهي عندهم مفضلةٌ على سائر الطعام (65)، فأصبحنا جميعًا مرضى وكنا ستة فمات أحدنا وذهبت أنا لصلاة الصبح فغُشي علي فيها، وطلبتُ من بعض المصريين دواءً مسهلا فأتى بشيء يسمى بَيْدَر، بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء، وهو عروق نبات، وخَلَطه بالأنيسون والسكّر ولَتّه بالماء، فشربتُه وتقيأت ما أكلتُه مع صفراء كثيرة، وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين !

ذكر سلطان مالّي

وهو السلطان مَنْسَى سُلَيمان (66)، ومَنْسى بفتح الميم وسكون نون وفتح السين المهمل، ومعناه السلطان، وسليمان إسمه، وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبيرُ عطاء، واتفق
400/ أني أقمت هذه المدة ولم أره، بسبب مرضي ثمّ إنه صنع طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن (67) رضي الله عنه، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، وحضرت معهم فاتوا بالرَّبْعات، وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبي الحسن، رحمه الله، ودعوا لِمَنْسَى سليمان، ولما فُرِغَ من ذلك تقدمت فسلمتُ على مَنْسَى سليمان، وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي، فأجابهم بلسانهم، فقالوا لي : يقول لك السلطان : أشكر الله، فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال.

ذكر ضيافتهم التّافهة وتعظيمهم لها.

401/ ولما انصرفت بُعث إليَّ الضيافة، فوُجهت إلى دار القاضي وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافي القدمين فدخل عليَّ وقال: جاءك قماش السلطان وهديته ! فقمت وظننت أنها الخُلع والاموال، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغَرْتي، وقرْعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير.

---

(65) القلقاص يشبه البطاطا يدعى في المنطقة المحلية طارو (Taro) ويتطلب الغسل بعناية قبل أن يؤكل– القافي نبات نشوي يتناول أيضاً – بَيْدر : لم نتمكن من تحديده.

(66) تملك السلطان منسى سليمان من سنة 741هـ–1341 إلى 761هـ–1360 وهو أخ لمنسى موسى الذي حكم لفترة عشرين سنة أو تزيد وقد ادركه أجله حوالي عام 761=1360.

(67) القصد كما هو معلوم إلى السلطان أبي الحسن المريني الذي توفي كما سبق يوم 23 ربيع الثاني 19 752 = يونيه 1351 – راجع التعليق 38 62 من الفصل السابق عشر السابق.

ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلي

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إليَّ فيهما شيء من قبل السلطان، ودخل شهر رمضان (68)، وكنت خلال ذلك أتردد إلى ‖ المشور وأسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب، فتكلمت مع دُوغَا الترجمان، فقال : تكلم عنده وأنا أعبّر عنك بما يجب، فجلس في أوائل رمضان، وقمت بين يديه وقلت له : إني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولي ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تُضفني ولا أعطيتني شيئا ! فماذا أقول عنك عند السلاطين؟! فقال : إني لم أرك ولا علمت بك، فقام القاضي وابن الفقيه فردًا عليه وقالا : إنه قد سلَّم عليك وبعثت إليه الطعام! فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها ونفقةٍ تجرى عليَّ، ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالاً ليلة سبعة وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة (69)، وأعطاني معهم ثلاثةً وثلاثين مثقالا وثلثا وأحسن إليَّ عند سفري بمائة مثقال ذهبا ‖ .

402/4

403/4

ذكر جلوسه بقُبَّته

وله قبّة مرتفعة، بابُها بداخل داره يقعد فيها أكثر الاوقات (70)، ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب، أو هي فضة مذهبة، وعليها ستور ملف، فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور، فعلم أنه يجلس، فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرّابةُ حرير قد رُبِط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد في أيدي بعضهم القِسّي، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدَّرق، فيقف أصحاب الرّماح منهم ميمنةً وميْسرةً، ويجلس أصحاب القِسِّي ‖ كذلك، ثم يوتي بفرسَين مسْرجين ملجمين ومعهما كبْشان يذكرون أنهما ينفعان من العين !

404/4

وعند جلوسه يخرج ثلاثةٌ من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنْجا موسى، وتاتي الفَرارية (71)، بفتح الفاء، وهم الامراء وياتي الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السَّلحدارية يمنة ويسرةً في المشور ويقف دُوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من

(68) ابتداء من 11 أكتوبر 1352.

(69) الزكاة يعني بها هنا في ليلة القدر مطلق العطاء...

(70) قبة الاستقبال بنيت من قبل أبي إسحاق ابراهيم الساحلي الغرناطي المعروف بالطُّويجن" ...قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته، وكأن صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالَى عليها بالاصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان منسى موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم... انظر تعليق 92 – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ص 40 تعليق 2.

(71) الفرارية ج فاري بلغة الماندينك تعني الرئيس العسكري.

الزردخانة (72) وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشي، لهم في تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفاً، غمده من الذهب، وفي رجليه الخف والمهاميز، ولا يلبس أحدٌ ذلك اليوم خفّاً غيره، ويكون في يده رمحان صغيران : أحدهما من ذهب والآخر من فضة، وأسنتهما من الحديد.

405/4 ويجلس الأجناد والوُلاة والفتيان، ومسّوفة وغيرهم ‖ خارج المشور في شارع هنالك متسع فيه أشجار، وكلُّ فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقِسي والأطبال والأبواق، وبوقاتهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المنوَّعة من القصب والقرع، وتضرب بالسطّاعة، ولها صوتٌ عجيب (73)، وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه، وقوسه بيده وهو راكبٌ فرسا وأصحابه بين مُشاة وركبان، ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجلٌ واقف. فمن أراد أن يكلم السلطان كلَّم دوغا، ويكلم دوغا لذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان.

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضاً بالمشور، وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البَنْبِي (74)، بفتح الباء المعقودة الأولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما ‖ وتفرش بالحرير 406/4 وتجعل المخادّ عليها، ويرفع الشطر وهو شبه قبَّة من الحرير وعليه طائرٌ من ذهب على قدر الباز، ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسُه بيده وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق، طولها أزيد من شبر. وأكثر لباسه جبّة حمراء موبرة من الثّياب الرومية (75) التي تسمى المُطَنْفَس ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر (76) الذهب والفضة، وخلفه نحو ثلاثمائةٍ من العبيد أصحاب السلاح، ويمشي مشياً رويداً، ويكثر التأني، وربما وقف، فإذا وصل إلى البَنْبي وقف ينظر في الناس، ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر، وعند ‖ جلوسه تُضرب الطبول والأبواق والأنفار 407/4 ويخرج ثلاثةٌ من العبيد مسرعين فيدْعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون، ويوتي بالفرسين والكبشين معهما ويقف دُوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الاشجار.

(72) ثوب مطرز بالحرير الرقيق، لا يخلو من رسوم حيوانات كان يصنع في الاسكندرية، العبارة من أصل فارسي، وقد كان لفظ الزردخان مستعملاً بالمغرب إلى سنين خلت – انظر II ,264.

(73) القصد إلى آلة موسيقية مؤلفة من قضبان يعزف عليها بمطرقتين خشبيتين (XYLOPHONES "BALAS") على نحو الآلة التي يسميها أهل بغداد بالسنطور، وهي تقارب – ولو عن بعد – في تركيبها الآلة التي تسمى اليوم بالقانون...

(74) البنْبِي بلغة الماندينك BEMBE عبارة عن منصة مبنية يوضع عليها الكرسي الملكي ويصف العُمري البنبي بأنه كرسي من عاج.

(75) المُطنْفس : من المهم أن تستوقفنا هذه الفقرة التي تشير للعلاقات الافريقية مع أوروبا عبر فاس وتلمسان ومراكش، وقد كانت سجلماسة بمثابة (الملتقي) الحيوي للاتجاه نحو بلاد السودان، أما عن الثوب الذي يحمل إسم المطنفس، فإن المعلقين لم يستطيعوا تحديده...

(76) القنابر ج. قنبري (وتنطق القاف في المغرب كافاً معقودة) نوع من المانضولينه لكن له فقط وتران، جوفه يتكون من ظهر سلحفاة أو نصف كرة من العود المغلف بالجلد... وما تزال هذه الآلة حية على صعيد الفولكلور المغربي إلى اليوم – MAUNY : Textes et documents, P. 55 n°4

رسم لسلطان مالي – المكتبة الوطنية بباريز رقم 696

ذكر تذلل السودان لملكهم وتتْريبهم له وغير ذلك من أحوالهم.

والسـودان أعظم الناس تواضـعاً لملكهم وأشدّهم تذللاً، ويحلفـون باسمـه فيقـولون : مَنْسَى سليمان كِي (77)، فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقُبَّة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه، ولبس ثياباً خلقة ونزع عمامته وجعل شاشيةً وسخة ودخل /408 رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه وتقدم بذِلَّة ومسكنةٍ وضرب الارض بمرفقيه ضرباً شديداً ووقف كالراكع يسمع كلامه !

وإذا كلَّم أحدُهم السلطان فردَّ عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء، وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم ! وإذا تكلَّم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام، وربَّما قام أحدهم بين يديه فيذكر أُفعاله في خدمته، ويقول : فعلتُ كذا يوم كذا، وقتلتُ كذا يوم كذا، فيصدِّقه مَن علم ذلك، وتصديقهم أن ينزع أحدهم في وتر قوسه! ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى (78)، فإذا قال له السلطان : صدقت /409 أو شكره، نزع ثيابه وترَّب، وذلك عندهم من الأدب.

قال ابن جزي : وأخبرني صاحب العَلاَمة (79) الفقيه أبو القاسم بن رضوان أعزه الله أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتي رسولاً عن منسي سليمان (80) إلى مولانا أبي الحسن

(77) الكلمة تعني باللغة المالينكية : «الأمر للملك سليمان»، هذا ويقول ابن خلدون عن سفارةٍ سودانية وصلت لفاس في يوم مشهود "..وحيّوا السلطان بأن جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على سنَّة ملوكهم..." د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب 7، ص 41.

(78)"... والترجمان يُترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قِسِيِّهم على العادة المعروفة لهم..." ابن خلدون... وانظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ص 41.

(79) من المعلوم أن (صاحب العلامة) يعني الكاتب الخاص الذي يوقّع الرسائل ويجعل علاَمة السلطان عليها يراجع التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج I ص 300-301-302. معرض وزارة الخارجية يوم 1997/2/21.

(80) الإشارة إلى السفارة السودانية بتاريخ 1348=748 هـ وكانت السفارة السابقة المعروفة بتاريخ 1337=737، لكنها أي سفارة 1348... كان عليها - لظروف طارئة - أن ترسل من لدن منسى ماري زاطا الثاني الذي أضاف إلى الهدايا الزَّرافة التي اهتزت لها رحاب مدينة فاس - وأبو القاسم هذا هو عبد الله بن يوسف بن رضوان النِّجاري الخزرجي من أهل مالقة واشتغل كاتباً لدى عدد من سلاطين بني مرين، من شعره قصيدة لامية يهنئ فيها أمير المسلمين السلطان أبا الحجاج يوسف ملك الأندلس يهنئه بغلبته للأسطول الحربي بالزقاق الغربي 750=1350 عندما هلك الفونسو الحادي عشر...

ولما استقامت بالزقاق أساطل
له واستقلت للسُّعود مَحَافلا
رآها عدو الله فانقضَّ جمعه
وابصر - أمواج البحَار آساطلا!
ومن دهش ظنَّ السواحلَ أبحراً
ومن رُعب خال البحار سواحلا!

الإحاطة - ابن الخطيب الاحاطة 3 ,443 - السيد عبد العزيز سالم - احمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس 297.
Dr. TAZI la presencia de la poesia en la Historia del Estrecho de Gibraltar SECEGSA 1995 - p . 169.

رضي الله عنه، كان اذا دخل المجلس الكريم حَمَل بعضُ ناسه معه قفةَ ترابٍ فيترّب مهما قال له مولانا كلاماً حسناً كما يفعل ببلاده !

ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه

وحضرتُ بمالي عيدَي الاضحى والفطر (81)، فخرج الناس إلى المصلَّى وهو بمقربة من قصر السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان، والسودان لا يلبسون الطيلسان (82) إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، وكانوا يومَ العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون، وبين يديه العلامات الحُمْر (83) من الحرير، ونُصب عند المصلى خباء فدخل السلطان إليها وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة، ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان وتكلّم بكلامٍ كثير، وهنالك رجلٌ بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب، وذلك وعظ وتذكيرٌ وثناءٌ على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه.

410/4

وبجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البَنْبِي وتأتي السِّلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاّة بالذهب وأغمادها منه، ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلّور، ويقف على رأسه أربعة من الأمراءُ يشرّدون الذباب، وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج، ويجلس الفَرارية والقاضي والخطيب على العادة، ويأتي دُوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه، وهن نحو مائة، عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، فيها تفافيح ذهب وفضة،

411/4

وينصب لِدُوغا كرسي يجلس عليه ويضرب اَلآلة التي هي من قصب وتحتها قُريْعات (84) ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه، ويذكر غزواته وأفعاله، ويغني النساء والجواري معه ويلعبْن بالقِسِي.

412/4

(81) 10 نونبر 1352 - 18 يناير 1353.

(82) الطيلسان عبارة عن قطعة من الثوب الحريري الأسود تحمله بعض الشخصيات على الأكتاف، شعار القضاة والعلماء والأيمة والفقهاء.

(83) اللون الأحمر شعار ملكي في أمبراطوية غانا في القرن الثامن والحادي عشر الميلادي ولا بدَّ أننا نتذكر أن الحلل الأرجوانية شعار الأمراء الأفارقة منذ أيام يوبا الذي منع سيبيون Scipion من ارتدائها طالما أنه ليس أميراً !! – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 3 ص 148.

(84) القصد دائماً إلى ما قلناه في التعليق 73... والترجمان هنا يقوم بدور الشاعر...

I.B. IN BLACK AFRICA قافلة تقترب من تنبكتو

تنبكتو المدينة

ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب المِلفّ الحُمر (85)، وفي رؤوسهم الشواشي البيض، وكلٌّ واحدٍ منهم متقلّد طبله، يضربه ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السّندى، ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب، ويلعب دُوغا بالسيف لعباً، بديعًا وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان فيوتي بصُرَّة فيها مائتا مثقال (85) من التّبر ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس، وتقوم الفَرارية فينزعون في قِسيهم شكراً للسلطان، وبالغد يُعطي كلُّ واحدِ لدوغا عطاءً ‖ على قدره، وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه. 413/4

• ذكر الأضحوكة في إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يوم العيد وأتم دُوغا لعبَه جاء الشعراء، ويسمون الجُلاَ، بضم الجيم، واحدهم جَالِي (86)، وقد دخل كلُّ واحد منهم في جوفِ صورةٍ مصنوعة من الرِّيش تشبّهالشَّقْشاق، وجعل لها رأسٌ من الخَشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيأة المضحكة، فينشدون أشعارهم (87)، وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان : إن هذا البَنْبِي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من حسن أفعاله ‖ كذا، وفلان وكان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك ! ثم يصعد كبير الشعراء على درج البَنْبِي ويضع رأسه في حِجر السلطان، ثم يصعد إلى أعلى البَنْبي فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ثم على كتفه الأيسر، وهو يتكلم بلسانهم، ثم ينزل، وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديمًا عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه!. 414/4

حكاية [الجرادة المتكلمة] !

وحضرتُ مجلس السلطان في بعض الأيام، فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلادٍ بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً، فقام القاضي فصدَّقه ثم صدقهما السلطان، فوضع كلُّ واحد منهما عمامته عن رأسه وترَّب بين يديه، وكان ‖ إلى جانبي رجلٌ 415/4

(85) لعل (الملف) يأخذ أسمه من أمالفي الإيطالية... التازي : مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة مايه 1989.

(86) جالي (DYELI) ويعني المنشد...

(87) من المعتاد إلى اليوم رؤية مثل هذه المشاهد الجميلة والمثيرة بمناسبة استقبال عزيز أو ضيف كبير على نحو ما شاهدناه عند زيارة سمو ولّي العهد سيد محمد للمنطقة... التازي : دفاعا عن الوحدة الترابية للمملكة المغربية رمضان 1400 = يوليه 1980 نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي ص 70.

الشقشاق : بلارج في تلمسان وهو الشحرور في غرناطة، وقد ترجمه بيكينگام إلى HORNBILL طائر ضخم المنقار.

من البيضان، فقال لي : أتعرف ما قالوه؟ فقلت : لا أعرف. فقال : إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها، فقال : هذا جراد كثير، فأجابتْه جرادة منها، وقالت : إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها !! فصدقه القاضي والسلطان، وقال عند ذلك للأمراء : إني بريء من الظلم، ومَن ظَلَم منكم عاقبتُه، ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذُنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبرَّؤُوا من الظلم ▒ 416

حكاية [عن عدل السلطان]

وحضرت الجمعة يوماً فقام أحد التجار من طلبة مسُوفة ويُسمى بأبي حفص فقال : يا أهل المسجد، أُشهدكم أن مَنْسى سليمان في دعوتي إلى رسول الله صلى الله ليه وسلم ! فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان، فقالوا له : مَن ظلمك؟ من أخذ لك شيئا؟ فقال : مَنْشاجُو إيوالاَّتن (88) ! يعني مُشرفها، أخذ مني ما قيمته ستمائة مثقال، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة، فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد أيام وصرفهما للقاضي فثبت للتاجر حقه فأخذه وبعد ذلك عُزِل المشرف عن عمله ▒ . 417

حكاية [زوجة السلطان وبنات عمه]

واتَّفق في أيام إقامتي بمالّي أن السلطان غضب على زوجته الكُبرى بنت عمه المدعوة بقَاسَا، ومعنى قَاسَا عندهم الملكة، وهي شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع إسمه على المنبر (89) وسجنها عند بعض الفَرارية وولى مكانها زوجته الأخرى بَنْجُو، ولم تكن من بنات الملوك، فأكثر الناس الكلام في ذلك وأنكروا فعله، ودخل بنات عمه على بَنْجُو يهنئْنَها بالمملكة، فجعلن الرَّماد على أذرعهن ولم يترِّبن رؤوسهن! ثم إن السلطان سرح ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئْنها بالسراح، وترَّبن على العادة، فشكت بَنْجُو إلى السلطان بذلك ▒فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن! 418

وعادتهن إذا دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ! ورضي عنهن، وصرن ياتين باب السلطان غدوًا وعشياً مدة سبعة أيام، كذلك يفعل كلُّ من عفا عنه السلطان.

---

(88) يراجع IV – 386 راجع التعليق رقم 28.

(89) يعني في خطبة يوم الجمعة، وقاسا بلغة المالينك تعني الزوجة المحظية عند الحاكم.

وصارت قاسا تركب كلَّ يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم التُّراب، وتقف عند المشور متنقبةً لا يُرى وجهها. وأكثر الامراءُ الكلام في شأنها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه : إنكم قد اكثرتم الكلام في امر قاسا وإنها أذنبت ذنباً كبيراً ثم أوتى بجارية من جواريها مقيَّدة مغلولة، فقيل لها : تكلمي بما عندك فأخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطا ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كَنْبُرني (90)، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه!! وقالت له : أنا وجميع العساكر طوع أمرك، فلما سمع الامراء ذلك قالوا : إن هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه، فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب، وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد وان لم يتمكن فبدار الخطيب.

419/4

وكان السودان يكرهون منْسى سليمان لبُخله وكان قبله منسى مَغَا، وقبل مغا، منسى موسى (91)، وكان كريماً فاضلاً يحب البيضان، ويحسن اليهم وهو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يومٍ واحد أربعة آلاف مثقال (92)، وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فَقُّوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحدٍ، وكان جده سارَق جاطة (93) أسلم على يدي جدِ مُدْرك هذا.

420/4

(90) لعل القصد إلى مَاري جَاطا (وليس إلى منسى جاطا) الذي سيبعث (صفر 762 = يناير 1361) بسفارةٍ إلى العاهل المغربي أبي سالم. كان من جملة الهدايا التي حملها السَّفير الزرافة التي حركت من قريحة الشعراء راجع التعليق 80 – كَنْبُرني : لعل القصد إلى كُونبِرى (Konbere) التي تقع في باندوكو (Bendugu) منطقة وراء وادي باني (BANI).

(91) منسى موسى (712-1337=1312-1337) أعظم امبراطور اكتسبته مالّي وقد اشتهر بما انفقه في حجه من أموال : طن ونصف من التبر عام 1324=724 ولده منسا مَغَا الاول (مغَا = محمد) -1341 1337 خلَفه بيد أن أخا موسى سليمان تغلَّبَ على مغا واستولى على الحكم عام 1341= 741.

(92) القصد إلى ابراهيم بن محمد الأنصاري الساحلي المشهور بالطُّوَيجن (تعليق 70) كان أبوه أمين العطارين بغرناطة وقد ترجم له لسان الدين ابن الخطيب في الاحاطة ترجمة واسعة، وقال عنه : إنه نسيج وحده في الأدب نظمًا ونثرًا... آنيق الديباجة غزير المادة إلى خطٍّ بديع ومشاركة في الفنون وكرم من النفس، رحل بعد أن اشتهر فضله... ثم دخل بلاد السودان فاتصل بملكها واستوطنها زمانًا طويلاً... ثم آب إلى المغرب لكن القدر صرفه إلى مستقره من بلاد السودان ورزق هناك اولاداً كالخنافسة...!! وقد أهدى إلى ملك المغرب هدية فأثا به عليها مالاً خطيراً ومدحه بشعر بديع عند دنّو ركابه من ظاهر تلمسان :

خَطَرَتْ كمياس القنا المتاطّر ورنتْ بألْحاظ الغزال الأعفر

وقد ادركه اجله بتنبكتو يوم الاثنين 27 جمادى الثانية 747 – المقري : النفح 194,2 الإحاطة : ج 1ص 329 تحقيق عبد الله عنان – يراجع التعليق رقم 70

(93) سارَق جاطة : القصد إلى سون دياطا أو ماري دياطا 629-653=1230-1255 أول سلطان لمالّي ذكر من لدن المؤرخين وفي بعض المخطوطات ماري جاطة – ابن بطوطة يشير إلى ماري جاطا المعروف أكثر بسُو نْدياطا المؤسس الأسطوري لامبراطورية مالّي – والواقع أن تاريخ وتسلسل أسرة الحكام بمالي في الفترات الأولى غير مؤكد... إن والد منسى موسى أبا بكر كان أخا أو ربما ابن أخت لسُونْدياتا.

حكاية [الحسنة بعشر أمثالها]

وأخبرني الفقيه مُدرك هذا أن رجلا من اهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللَّبن كان قد أحسن إلى السلطان مَنْسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث، وهو يومئذ صبي غير معتبر، ثم إتفق أن جاء اليه في خصومةٍ وهو سلطان، فعرفه ودعاه وأدناه منه حتى جلس معه على البنْبي ثم قرَّره على فعله معه، وقال للأمراء : ما جزاء من فعل فعله من الخير؟ فقالوا له : الحسنة بعشر أمثالها (94)، فأعطه سبعين مثقالاً فأعطاه عند ذلك سبع مائة مثقال وكسوة و/421 عبيداً وخدمًا وأمره أن لا ينقطع عنه، وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللَّبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالّي.

ذكر ما استحسنتُه من أفعال السودان وما استقبحته منها.

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارقٍ ولا غاصبٍ، ومنها عدم تعرضهم لمالٍ من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه (95)، ومنها /422 مواظبتهم للصلَوات والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكّر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كلّ إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضعٍ يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد، وسجادتُهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له، ومنها لباسُهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه!

ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده /423 مقيَّدون، فقلت له : ألا تسرحهم؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ! ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيدٌ ثقيل، فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي : إنما قيد حتى يحفظ القرآن ! ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصّغار يظهرن للناس عرايَا باديات العورات، ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك

(94) القرآن الكريم، السورة 6، الآية 160.

(95) هذه هي أحكام الإسلام في التعامل الدّولي. يُراجع مختصر خليل عند قوله في الجهاد : وإن مات عندنا...

الصورة، فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان، وياتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهنَّ من جواريه، وهن عرايا ! ومنها دخول 424/4 النساء على السلطان عَرايا غير مستترات، وتعرِّي بناته. ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر! ومنها جعلهم التُّراب والرماد على رؤوسهم تأدباً، ومنها ماذكرته من الأضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكِلاب والحمير.

ذكر سفري عن مالّي

وكان دخولي إليها في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين (96)، ورافقني تاجرٌ يعرف بأبي 425/4 بكر بن يعقوب، وقصدنا طريق ميمة (97)، وكان لي جملٌ أركبه لان الخيل غالية الأثمان، يساوي احدها مائةَ مثقال، فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النِّيل لا يجاز إلا في المراكب وذلك الموضع كثيرُ البعوض فلا يمر أحدٌ به إلا باللَّيل ووصلنا الخليج ثلثَ الليل والليل مقمر.

ذكر الخيل التي تكون بالنِّيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابَّة ضخمة الخِلْقة، فعجبت منها وظننتها فيلةً لكثرتها هنالك، ثم إني رأيتها دخلتْ في النهر، فقلت لأبي بكر بن يعقوب : ما هذه الدواب؟ فقال : هي خيل البحر، خرجتْ 426/4 ترعى في البر وهي أغلظ من الخيل، ولها أعراف وأذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل، وأرجلها كأرجل الفيلة.

ورأيت هذه الخيل مرةً أخرى لما ركبنا النِّيل من تنبكتو إلى كَوْكَو ، وهي تعوم في الماء وترفع رؤوسها وتنفخ، وخاف منها أهل المركب، فقربوا من البر لئلا تغرقهم، ولهم حيلة في صيدها حسنة، وذلك أن لهم رماحاً مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة، فيضربون الفرس منها فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير.

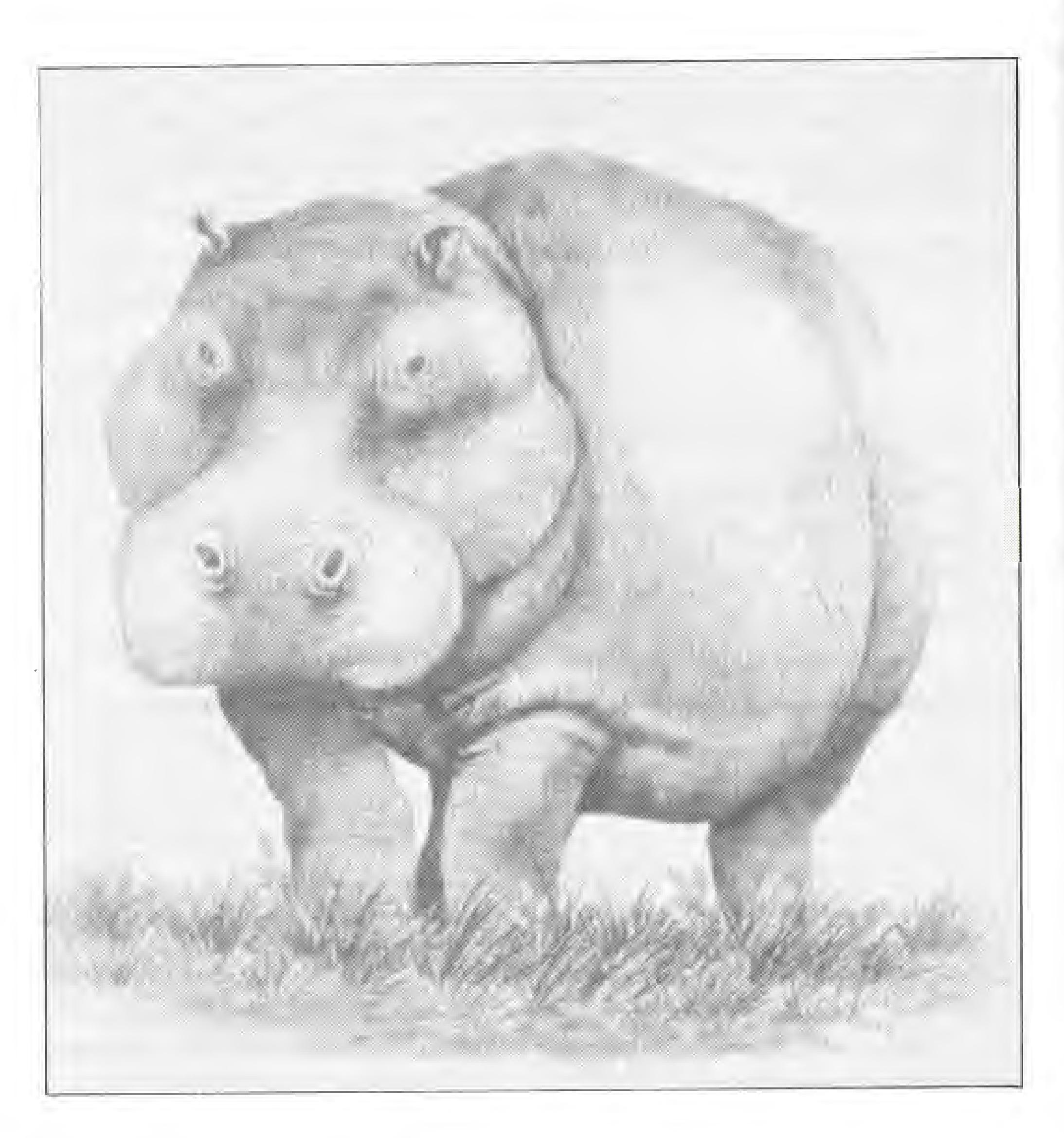
وكان نزولنا عند هذا الخليج بقريةٍ كبيرة عليها حاكمٌ من السودان حاجٌ فاضل يسمى فَرَبا 427/4 (98) مغا بفتح الميم والغين المعجم، وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج.

---

(96) يعني من 29 يونيه 1352 إلى 28 يبراير 1353.

(97) مِيمه Mema اسم يعطيه السّونيك لموقع خرب قريب من نامبّالا Nampala شمال منطقة ماسينا (Macina) هذا والقصد بفرس النهر أو جاموس البحر إلى Hippopotame

(98) حول لقب (فَرَبا) انظر التعليق السابق رقم 26 وحول موسى وحجِّه، انظر التعليق 91.



خيل البحر

حكاية [أكَلَة لحم البشر]

أخبرني فَرَبا مَغَا أن منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج، كان معه قاضٍ من البيضان يكنى بأبي العباس، ويعرف بالدُكالي (99) فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال سُرقتْ له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعَّده بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأميرُ السارقَ فلم يجد أحداً ولا سارق يكون بتلك البلاد، فدخل دار القاضي واشتدَّ على خدامه وهدَّدهم، فقالت له إحدى جواريه : ما ضاع له شيء ! وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع ! وأشارت له إلى الموضع، فأخرجها الأمير وأتى بها السلطان وعرَّفه الخبر فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم (100)، فأقام عندهم أربع سنين، ثم رده إلى بلده، وانما لم يأكله الكفار لبياضه! لأنهم يقولون : إن أكل الأبيض مضر لأنه لم ينضج والأسود هو النضج بزعمهم!!

428/4

حكاية [أَكَلَة خادمة السلطان]

قدمتْ على السلطان منْسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، معهم أمير لهم، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطاً كباراً وتكون فتحة القرط منها نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب، فأكرمهم السلطان، وأعطاهم في الضيافة خادماً فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتو السلطان شاكرين!!

429/4

وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك وذُكر لي عنهم أنهم يقولون : إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكفُّ والثدي !!

---

(99) نحن على مثل اليقين من أن القصد إلى أحد أفراد عائلة الشيخ الثقة الثَّبْت أبي عثمان سعيد الدكالي الذي كان ابن فضل الله العمري يعتمد عليه في أخباره، وهو أي الدكالي ممن سكن مدينة (نِيَنِي) خمسة وثلاثين سنة - نقل عنه أكثر من مرة وكان يكنيه بأبي عثمان... وقد يكون أبو العباس عند ابن بطوطة هو أبا عثمان عند العُمَري... وتتحدث الكتب بهذه المناسبة عن علاقات بلاد السودان مع المغرب.

(100) تقع المناطق التي عرفت بأَكْل لحوم البشر l'anthropophagie في الطريق الرئيسي الذي يمتد من يولا (Yola) إلى تخوم زاريا (ZARIA)، هناك أربع وثلاثون قبيلة معروفة بالاسم، ويذكر ميك (Meek) في تأليفه عن قبائل شمال نيجيريا) 1925 أن من بين القبائل التي لا تتناول لحوم البشر اليوم توجد بقايا عادات تدل على أن فيها من كان يفعل ذلك قبل : وقد ذكر العمري أن تاجرا قدم لأحد الملوك الوثنيين السود قطعا من الملح، وعند العودة بعث اليه الملك المذكور بفتاتين لغرض اكلهما! خليفة عباس العبيد : الزبير باشا مصدر سابق - تعليق 53.

ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا إلى بلدة قُرِي مَنسى (101)، وقري بقم القاف وكسر الراء ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه، فأخبرني راعيه بذلك فخرجت لأنظر إليه، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف، فبعثتُ غلامين كنت استأجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملاً بزَاغَري، وهي على مسيرة يومين، وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا /430 بميمة فأقمت ستة أيام أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل.

حكاية [منامة]

وفي أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلةً، فيما يرى النائم، كأن إنساناً يقول لي : يا محمَّد بن بطوطة ! لماذا لا تقرأ سورة يس (102) في كل يوم ؟ فمن يومئذ ما تركت قراءتها كلّ يوم في سفر ولا حضر.

ثم رحلت إلى بلدة ميمة، بكسر الميم الأول وفتح الثاني، فنزلنا على آبارٍ بخارجها، ثم سافرنا منها إلى مدينة تُنْبُكْتُو (103)، وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم البلاد الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوه الثانية وواو، وبينها وبين النِّيل أربعة أميال، وأكثر سكانها مسُّوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمى فَرَبا مُوسى، حضرت عنده يوماً وقد قدَّم /431 أحدَ مسُّوفة أميراً على جماعة فجعل عليه ثوباً وعمامةً وسروالاً، كلّها مصبوغةٌ، وأجلسه على درقة ورفعه كُبَراء قبيلته على رؤوسهم.

وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطُّويجن، وبها قبر سراج الدين ابن الكُويك (104) أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية.

---

(101) يرى اصطيفان أن من الأفضل أن نقرأ قُرَى بضم القاف وفتح الراء ولو أن الافارقة ينطقون على نحو ما قاله ابن بطوطة... لكنها حسب ديلفوص تبقى قُرى وتقع على مقربة من القرية التي تحمل اسم كوكري (KOKRI) شمال شرقي سَانسَا ندينغ (SANSAŃDINQ)...

Gib, P, 381 Note 29 - Beckingham 968 N° 74.

(102) حول التعود على أكل الجيف انظر *424, IV – السورة 36 الآية*، وقد *اعتاد المغاربة أن يتلو سورة ياسين على الأموات كما سلف القول نظراً لما ورد فيها من أحاديث حول المناسبة.*

(103) تِنبُكتُو اضافها إلى مملكته منسى موسى بعد فتح گاو (او كاوكاو) عام 1325=725، وفي عام 1333 انتُهِبت المدينة واحرقت عند غارة مُوسى عليها انطلاقا من ياتينگا (فولتا العليا) ولكنها بنيت من جديد من لدن سليمان مباشرة بعد اعتلائه الحكم... أما عن الشاعر الساحلي فلنرجع للتعليق 70-92.

(104) ابن الكوّيك هو عبد اللطيف بن احمد بن محمود بن أبي الفتح بن محمود بن أبي القاسم التكريتي الأصل سراج الدين بن الكويك التاجر الاسكندراني... تفقه ومَهَر ورحل إلى دمشق فسمع من اسحاق الاسدي واسماعيل بن مكتوم وبنت البطائحي وغيرهم وكان من الرؤساء الكبار... قال ابن حجر : هو جدُّ شيخنا أبي الطاهر محمد بن محمد بن عبد اللطيف، قرأت بخط ولده أبي جعفر انه مات ببلاد التكرور توفى 734-1334. هذا وأتساءل عن صلة سراج الدين هذا بتاج الدّين ابن الكويك المتقدم الذكر في ج II 249. – الدرر ج 3 ص 18-19.

حكاية [أمير لا يحب البكاء]

كان السلطان منسى موسى لما حج، نزل بروضٍ لسراج الدين هذا ببركة الحَبَش (105)، خارج مصر، وبها ينزل السلطان واحتاج إلى مالٍ فتسلَّفه من سراج الدين وتسلَّف منه أمراؤه أيضًا وبعث معهم سراج الدين وكيلَه يقتضى المال فأقام بمالي ‖ فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابنٌ له فلما وصل تُنْبُكْتو أضافه أبو إسحاق الساحلي، فكان من القدر موته تلك الليلة، فتكلم الناس في ذلك، واتَّهموا أنه سُم، فقال ولده : إني أكلتُ معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سمٌ لقتلنا جميعا لكنه انقضى أجله ! ووصل الولد إلى مالّي واقتضى ماله وانصرف إلى ديار مصر.

432/4

ومن تُنبكتو ركبت النيل في مركبٍ صغير منحوتٍ من خشبةٍ واحدة، كنا ننزل كل ليلة بالقُرَى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحُلى الزُّجاج، ثم وصلتُ إلى بلد أنسيتُ اسمه، له أميرٌ فاضل حاج يسمى فَرْبَا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة، لا يتعاطى ‖ أحدٌ النزع في قوسه، ولم أر في السودان أطولَ منه ولا أضخم جسماً، واحتجتُ بهذه البلدة إلى شيء من الذُّرة فجئت إليه، وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (106)، فسلمت عليه، وسألني عن مقدمي، كان معه فقيه يكتب له فأخذتُ لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه : يا فقيه ! قل لهذا الأمير : إنَّا نحتاج إلى شيء من الذرة (107) للزاد والسلام! وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرّاً ويكلم الأمير في ذلك بلسانه، فقرأه جهْراً وفهمه الأمير، فأخذ بيدي وأدخلني إلى مشوره، وبه سلاح كثير من الدرق والقِسِيِ والرماح، ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي (108) ‖ فجعلت أقرأ فيه، ثم أتى بمشروبٍ لهم يسمى الدَّقْنُو، بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو، وهو ماء فيه جريش الذرة

433/4

434/4

(105) بركة الحبش، كانت جنوب الفسطاط، وفي بعض المخطوطات بركة الخش – عن السَّلَف الذي اضطر اليه موسى بعد أن صرف طنّاً ونصف الطن من الذهب يذكر أن التجار هناك ربحوا "أضعافاً مضاعفة" فانهم في مقابلة تسليفهم لثلاثمائة دينار مثلا ربحو سبعمائة ! (عن حج موسي انظر بدائع الزهور لابن إياس الذي ينعته بملك التكرور ويذكر أنه قدَّم هدايا جليلة ...)
هذا وحسب رواية أخرى فإن سراج الدّين ابن الكويك سلف موسى ثلاثين الف دينار وبعث باثنين من رجاله الى مالي لاسترجاع ماله بيد أن هذين توفيا بمالي، وهنا بعث بولده فخر الدين ابى جعفر وبعث معه بموظف ثالث لكن الموت ادركت حينئذ موسى نفسه فلم يحصل المبعوثان على شيء...
Monteil : Les Empires du MALI p. 113 Peckingham IV P. 970 N° 81.

(106) 12 ربيع الأول 754 يوافق 25 غشت 1353.

(107) ليس القصد إلى الذّرة الامريكية التي تعرف اليوم ولكن إلى الذرة البيضاء التي نقدّمها لِطَيْر الحمام.

(108) هو عبد الرحمن بن علي الجوزي البغدادي الحنبلي أبو الفرج، كثير التصانيف... من تأليفه تلقيح فهوم أهل الآثار... والأذكياء وأخبارهم، وكتاب الحمقى والمغفَّلين، وتقويم اللسان ومنها هذا التأليف : "المدهش في المحاضرة وغرائب الأخبار" له نحو ثلاثمائة مصنف... أدركه أجله في بغداد عام 597 = 1201.

مخلوط بيسير عسل أو لبن (109)، وهم يشربونه عوض الماء لانهم إن شربوا الماء خالصاً أضرَّ بهم، وإن لم يجدوا الذُّرة خلطوه بالعسل أو اللبن، ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه، ودخل غلام خماسي (110) فدعاه، وقال لي : هذا ضيافتك، واحفظه لئيلاً يفر ! فأخذته وأردت الانصراف، فقال : أقم حتى ياتي الطعام، وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية (111)، فكلمتني بالعربي، فبينما نحن في ذلك سمعنا صراخاً بداره، فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت إليه فأعلمته أن بنتاً له قد توفيت ! فقال : إني لا ‖ أحب البكاء ! فتعال نمشي إلى البحر ! يعني النيل، وله على الساحل ديار، فأتى بالفرس فقال لي : اركب، فقلت : لا أركبه وأنت ماش ! فمشينا جميعاً، ووصلنا إلى دياره على النّيل وأتي بالطعام فأكلنا وودعته وانصرفت ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل، والغلام الذي أعطانيه باقٍ عندي إلى الآن. 435/4

ثم سرت إلى مدينة كَوْكَو (112) وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبها الفقُّوص العِناني الذي لا نظير (113) له، وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع، وكذلك اهل مالّي، وأقمت بها نحو شهر وأضافني ‖ بها محمد بن عمر من أهل مكناسة، وكان ظريفاً مزَّاحا فاضلاً وتوفّي بها 436/4

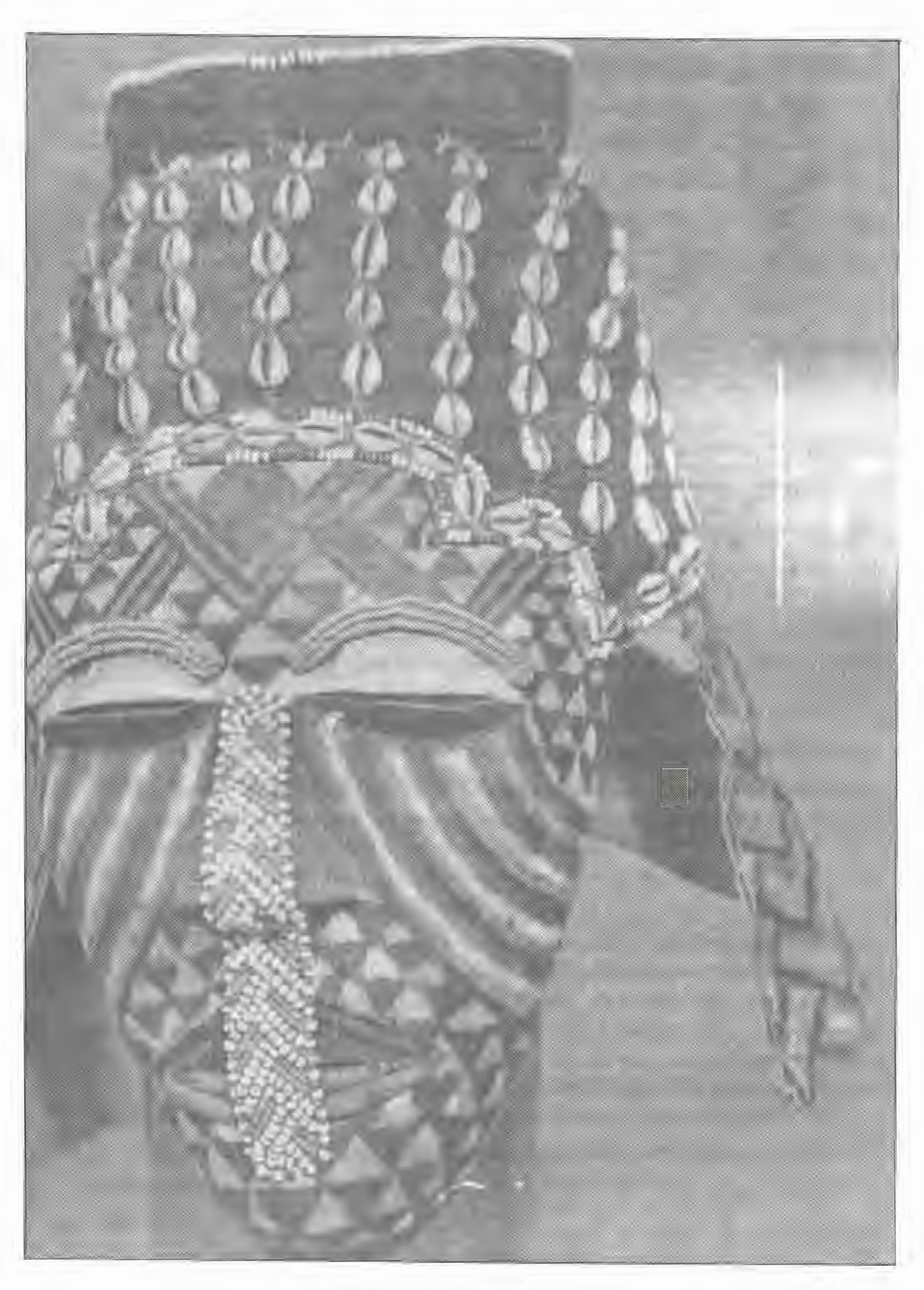
(109) الدقنو هو الذي سمَّاه كايّي باسم الدخنو، ويقول عنه أنه خليط من دقيق أنْلي مع العسل يشربونه.
RENE CAILLE : VOYAGE A TOMBOUCTON, 1830

(110) غلام خماسي : العبارة تعني أنه من خمسة أشبار أي إنه بلغ سن الرشد.
Cuoq : Recueil p. 316 - Note 1.

(111) يظهر أنَّ هذه الجارية اقتُنيت من مصر أثناء موسم حج، ونحن نعلم أن منسى موسى حصل على بعض المرتزقة الترك من القاهرة على ما يفهم من العُمري، وسنرى أن ابن بطوطة سيذكّر بأن أهل مالي وايولاّتن وتكدّا يعتزون بامتلاك الجواري "ولا يبيعون المعلّمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكثير" فلعل هذه الجارية من هؤلاء – وقد ذكر المقريزي أن اهل السودان جرت عادتهم على اقتناء الجواري من الشرق أثناء قيامهم مناسك الحج – Ouoq : P. 316 N° 2

(112) كوكو بالكاف المصرية : Gao على نهر النيجر شرقي تُنبكتو كانت نقطة الانطلاق بالنسبة للطَّريق التجاري عبر الصحراء ومن المفيد أن نذكّر بأن كوكو كانت في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كانت عاصمة امبراطور سنغاي عند اعتناقها الإسلام، وقد ألحقت سُنغاي هذه بمالي من لدن السلطان منسى موسى عام 725-1325 ولكن، عند عام 759-1335 استقرت كدولة تحت عنوان (سُنِّي) وهو اللقب الذي لازمها إلى أيام سنِّي على 1465-92 آخر حاكم من أصل بربري، وقد عرف كيف يوسع مملكته "وقد عوض من لدن الجنرال محمد سونينك SONINKE 1493-1559 ويعتبر مؤسسا لدولة عَسكية التي سنرى أن نهايتها كانت عام 1591 على يد ملوك المغرب.. Gibb : selections, P. 382

(113) تبع كيب الترجمة الفرنسية في ترجمتها لكلمة الفقوص... (Cucumber)، أما موني (Mauny) فقد ترجمها بالبطيخ Melon والكل ترك كلمة عناني بدون ترجمة وكأنها اسم لنوع من الانواع، ويقترح دوزي أن تقرأ الكلمة هكذا (عتابي) وهو اسم لنوع من هذه الخضراوت يشبه البطيخ...
Beckingham p. 971 n° 86.



الودع يستعمل كعملة وهو من أدوات الزينة وربما صلح كقناع – عن متحف افريقيا الوسطى

بعد خروجي عنها، وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن(114)، والفقيه محمد الفيلالي امام مسجد البيضان.

ثم سافرتُ منها برسم تكدا (115) في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين، دليلهم ومقدمهم الحاج وُجِّين بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة، ومعناه الذئب بلسان السودان، وكان له جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد، فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فأخذ الحاج وُجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزَّعوا حمله، وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلة (117) فأبى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره، وعطش غلامي يوماً فطلبتُ منه الماء فلم يسمح به !

437

ثم وصلنا إلى بلاد بَرْدامَة (118) وهي قبيلة من البربر، وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل والف وميم مفتوح وتاء تأنيث، ولا تسير القوافل إلاَّ في خفارتهم، والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأناً من الرجل، وهم رحَّالة لا يقيمون، وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر، وفوق ذلك أعواد مشتبكة، وفوقها الجلود أو ثياب القطن، ونساؤهم أتم النساء جمالاً وأبدعهن صُوَّراً، مع البياض الناصع والسِّمَن ! ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السِّمن ! وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح، ومن أراد التزوُّج منهن سكن بهن في أقرب البلاد إليهن ولا يتجاوز بهن كَوْكَو ولا إيوالأتن.

438

(114) لم يكن هذا التازي المغربيّ الأول والأخير الذي دخل اليمن، فقد عرف التاريخ عن عددٍ ممّن كان لهم باليمن. – د. التازي : رحلة مغربيّ إلى حضر موت، مجلة المورد البغدادية 1993.

(115) تكدّا اضطربت أقوال المعلقين حول تحديد المكان الذي يقصده ابن بطوطة في منطقة إير (AYAR) ويبدو ا الآن انها هي أزليك (AZELIK). هذا وإن التنقيبات والحفريات كشفت عن النشاط الذي كان موجوداً فيما يتصل بصناعة النحاس والصفر بموقع أزليك (Azelik) على بعد 25 كـم. شمال شرق تيگيدًا – المناجم نفسها توجد في أزوزا (Azouza) على بعد 13 كـم شرق أزليك، وأن وجود النحاس أكّده العُمري GIbb, P. 282 Note 35.
Stephane T. P. 435 - Note 110 Beckingham T IV P. 972.

(116) كان ينبغي أن تكتب (وجين) هكذا : أوشين بالشين (Uchchn) وهي تعني ابن آوى لأنه هو الموجود بالمغرب أما الذئب بمعنى Wolves فلا يوجد بأرض افريقيا على ما يقول المتخصصون.

(117) تادلة من الأقاليم المغربية الكبرى وقد كان لها حضورٌ بارز في تاريخ المغرب على عهد المرابطين والموحّدين واليها ينتسب عددٌ من العلماء ورجال الفضل، والعجب كيف أن ابن بطوطة صادف هذا الرهط منه فإن أهل تادلا معروفون بالفضل والخير...

(118) برْدَامة، يعتقد أنها هي بالذات بغامة عند الادريسي وهو يقول عنها ج I ص 25-27.
ومع الصحراء قوم يقال لهم بغامة وهم برابر رحالة لا يقيمون في مكان، يرعون جمالهم على ساحل وادٍ يأتي من ناحية المشرق فيصبُّ في النيل (كذا)، واللبن عندهم كثير، ومنه يعيشون..." وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الارض عن علم لها وتجربة في ذلك صحيحة – يراجع التعليق رقم 24.

وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء، واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تَكَدًا، وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده، ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي(119)، وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتي، وهو من الأفاضل وأضافني جعفر بن محمد المسّوفي.

وديارُ تَكَدًا مبنية بالحجارة الحُمْر، وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغيّر لونه وطعمه بذلك (120)، ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدّا من أمدادهم (121) بمثقال ذهب، ومدُّهم ثلث المدّ ببلادنا، وتباع الذُّرة عندهم بحساب تسعين مدّاً بمثقال من ذهب، وهي كثيرة ‖ العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ، وأما الرجال فقلَّما تقتلهم، ولقد لَدَغَت يوماً، وأنا بها، ولداً للشيخ سعيد ابن علي عند الصبح فمات لحينه، وحضرت جنازته.

439/4

ولا شغل لأهل تَكَدًا غير التجارة يسافرون كلّ عام إلى مصر ويجلبون من كلٍّ ما بها من حسان الثياب وسواها، ولاهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم، وكذلك أهل مالي وإيوالاَّتن ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكثير.

حكاية [جَوار مُعلّمات]

أردت - لما دخلت تَكَدًا - شراء خادم معلّمة فلم أجدها ثم بعثَ إليَّ القاضي ابو ابراهيم بخادمٍ لبعض أصحابه ‖ فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالاً ثم إن صاحبها نَدِم ورغب في الإقالة، فقلت له : إن دللتني على سواها أقلتك، فدلّني على خادم لعليّ أغْيُول، وهو المغربي التادلي الذي أبى أن يرفع شيئًا من أسبابي حين وقعت ناقتي، وأبى أن يسقي غلامي الماء حين عطش! فأشتريتها منه وكانت خيْراً من الأولى، وأقلت صاحبي الأول، ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ورغب في الإقالة وألح في ذلك فأبيت إلا أن أجازيه بسوءٍ فعله! فكاد أن يجن أو يهلك أسفاً ثم أقلته بعد!!

440/4

(119) نسبة إلى جزولة جنوب المغرب مشهورة برجالها... حول الجناتي انظر تعليق 122.

(120) يذكر أن مياه (Teguidda n'Tesemt) مشحونة بالطين وبالملح، لا تشرب تقريباً، وكذلك فإن منطقة أزليك (Azelik) سالفة الذكر وبالذات المحَلّة التي تحمل إسم (Azelik Guélélé) تمتلك نفس الخصائص...

(121) المُدّ يختلف من بلد إلى آخر، ففي الشرق الأوسط نراه يعادل 513 كـ.كـ ... أما عن المثقال الذهبي فإنه يعادل دائماً دينار الذهب المغربي الذي يزن 4,46 كرام.

ذكر معدن النحاس

441/4 ومعدن النحاس بخارج تَكَدا (122) يحفرون عليه في الأرض فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربع مائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبع مائة بمثقال، وهي صرفهم يشترون برقاقها اللّحم والحَطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح، ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبَر (123) من بلاد الكفار وإلى زَغاي (124) وإلى بلاد برنو (125)، وهي على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس (126) لا يظهر للناس ولا يكلّمهم الا من وراء حجاب 442/4 ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري (127) الحسان والفتيان والثياب الجيّدة، ويحمل النّاس أيضا منها إلى جَوْجَوَة (128) وبلاد المُورتبين (129) وسواها.

---

(122) انظر ما تقدم – تعليق 115.

(123) كُوبَر (Gobir) تقع في منطقة مارادي (Maradi) جنوب جمهورية النيجر الحالية، غربيّ العاصمة نيامي. انظر الخريطة.

(124) زغاي القصد بدون شك إلى ديا Dia أو دياكا Diaga على ساحل نهر النيجر، بعض المخطوطات تحمل اسم زاغاي وبعضها زاغري

Mauny : Texte et Documats P. 76 N°3.

(125) تقع برنو في شرق بحيرة التشاد،التي تقع بين الجزائر والتشاد، كانت على ذلك العهد جزءاً من مملكة كانم.

(126) إدريس ابن ابراهيم ملك كانم 1329-53 وفي هذا العهد كانت برنو قسما من امبراطورية كانم "يقول العمري : محجوب لا يراه أحد إلا في يوم العيدين يُرى بكرة وعند العصر، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب!!

(127) الحديث عن جمال الجواري في بورنو تكرر في مصادر أخرى بصياغة أكثر دلالة وإثارة كذلك على نحو ما نقرأه عند محمد بن عمر التونسي (تـ 1274=1857) في تآليفه الرحلة إلى وادي داي (Oud day) الذي ترجمه د. بيرون (Perron) إلى الفرنسية بعنوان (Voyage au Ouaday) وطبع بها وضاعت نسخة العربية ! الزركلي : الأعلام / ص 209.

(128) جَوْجَوَة : ربما كان القصد إلى كاوْكاو (Kukawa) التي ذكر هاليون الافريقي والتي تقع في شرق كانم وشمال دارفور (Darfour) بجمهورية السودان الحالية. وقد أشار ابن سعيد 1286 م = 685) إضافة لهذا إلى جاجا (Djadja) كعاصمة لكانم.

(129) بلاد المورتبين : هذه البلاد لم يعرف تحديدها ... ويتسائل هل ما إذا لم تكن في منطقة كانم بورنو أو بلاد الهوسا.... Cuoq : Recueil : P. 319 - Note, 3.

ذكر سلطان تَكَدًّا

وفي أيام إقامتي بها توجَّه القاضي أبو ابراهيم، والخطيب محمد والمدرس أبو حفص، والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تَكَدًّا، وهو بربري يسمى إزار (130)، بكسر الهمزة وزاي والف وراء، وكان على مسيرة يوم منها، ووقعت بينه وبين التكَرْكَرى (131)، وهو من سلاطين البربر أيضا، منازعة فذهبوا إلى الاصلاح بينهما فأردت أن القاه، فاكتريت دليلاً وتوجهت إليه، وأعلمه المذكورون بقدومي فجاء إليَّ راكباً فرسا دون سرج ‖ وتلك عادتهم، وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلُّها زرق، ومعه أولاد أخته وهم الذين يرثون ملكه، فقمنا إليه، وصافحناه، وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك، وأنزلني ببيتٍ من بيوت اليناطِبين، وهم كالوصفان (132) عندنا، وبعث برأس غنمٍ مشوي في السفود، وقعب من حليب البقر، وكان في جوارنا بيتُ أمه وأخته فجاءتا إلينا وسلَّمتا علينا وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العَتَمة وهو وقت حلْبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو، وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه، وأقمت عندهم ستَّة أيام، وفي كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء، وأحسن إلي ‖ بناقةٍ وعشرين مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت إلى تَكَدا.

443/4

444/4

ذكر وصول الأمر الكريم إلي

ولما عدت إلى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السّجلماسي بأمر مولانا أمير

---

(130) ورد في الباب الحادي عشر من مسالك الأمصار لابن فضل الله العمري : "وبلاد السودان أيضا ثلاثة ملوك مستقلون مسلمون بيض من البربر سلطان أهير، وسلطان دَمُوسه وسلطان دامكة... ثلاثتهم في جنوب الغرب وأكبَرُهم ملك أهير... زيّهم نحو زي المغاربة" ففيما يتصل بأهير فإنها توجد في شرق تيكيدًا وتادْمَاكّتا في الشمال الغربي لهذه المدينة الاخيرة (في شرق جمهورية مالي) – سلطان تكدا الذي ذكره ابن بطوطة هو سلطان دموسه عند العُمَري، في هذه السنة ذاتها لقي ابن خلدون في بسكره مبعوثاً من هذا السلطان يشيد بازدهار تكدّا...

(131) ينبغي أن يكتب هكذا : الكركري نسبة إلى كَرْكَر : منطقة صحراوية تقع في الجنوب الغربي لأير (AIR) ويحتمل أن يكون الأصل (جِرْجِر) .Cuoq p 320 - Note 2

(132) الوصفان في اصطلاح كُتاب القصور الملكية بالمغرب جمع أوصيف (Usef)، ويعني العبد الحارس المقرّب من الملك وهو نظام يشبه إلى حدّ كبير نظام الحَشَم الذي كان في عهد المرابطين على ما نقراه في الحلل الموشية... وتقدم لنا الحديث عنهم أما الياناطيون (أو النّياطيون كما في نسخة الحبيب اللمسي) : فلم يعرف القصد منه ولعل أصل الكلمة من لغة التوارگ وعرّبت فحرّفت Beckingham 975 n° 101 Cuoq. p 320 Note 2.

المؤمنين وناصر الدين المتوكّل على رب العالمين (133) أمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية فقبَّلته، وأمتثلته على الفور، واشتريت جَمَلين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث، وقصدت السَّفر إلى توات (134)، ورفعت زاد سبعين ليلة إذْ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشتري بالأثواب، وخرجت من تَكَدًّا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة ‖ أربع وخمسين (135) في رفقةٍ كبيرة فيهم جعفر التواتي، وهو من الفضلاء، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تَكَدًّا، وفي الرفقة نحو ستمائة خادم (136) فوصلنا إلى كاهِر من بلاد السلطان الكَرْكَرى، وهي أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغَنَم ويقدِّدون لحمها ويحمله أهل توات إلى بلادهم. 445/4

ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء، وهي مسيرة ثلاثة أيام، ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في بريّة لا عمارة بها إلا أن بها الماء، ووصلنا إلى الموضع (137) الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر، وطريق توات، وهنالك أحساء ماء يجري على الحديد، فإذا غُسِل به الثوب الأبيض إسودَّ لونه ! وسرنا من هنالك عشرة ‖ أيام ووصلنا إلى بلاد هكّار (138)، وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم، ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها ! وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان، وهم لا يُغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، واذا وجد سُرَّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع مَن بهذه الطريق من البرابر. 445/4

---

(133) القصد إلى السلطان أبي عنان، وهذه لقطة أيضا هامة حول صلة ابن بطوطة بالبلاط المريني، وهكذا فبعد أن كان التحق بالعاهل المذكور وهو بمراكش وصحبه إلى شالة يحتمل شلْو أبيه على ما تقدم... نراه اليوم يَتَلَقَّى بريداً خاصّاً من السلطان المذكور يطلبه للالتحاق بفاس التي كانت أنذاك تزخر بالعلماء ورجال الفكر – اللقطة تعبّر من جهة أخرى عن نشاط حركة البريد بين المملكة المغربية وباقي الممالك الافريقية المجاورة... ومع الاسف فإن ابن بطوطة لم يسجل لنا نص الامر الذي وصله من ملكه... وهذا مما يندرج عندي في موضوع إهمال المغاربة لتاريخهم...

(134) تقع توات في الشمال الغربي لاقليم الصحراء، يراجع تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الايالة السعيدة من القصور 1381=1962 المطبعة الملكية – الرباط.

(135) هذا التاريخ يوافق 12 شتنبر 1353.

(136) يلاحظ أن المترجمَيْن الناشرين تصرفا في الترجمة على نحو يجعل الستمائة خادم جميعاً جواري وتبعهما الأب كيوك (Cuoq) في تأليفه (Recueil...) ص 321 كما تبعهم بيكينگام... فهل لم يكن بين هؤلاء الخوادم ذكور؟ هذا والقصد بالكاهر إلى إير – أيار سالف الذكر.

(137) يمكن أن يكون القصد إلى الموضع الذي هو مفترق الطرق : (AZAWA) أو (ASIU) في أقصى جنوب شرق الجزائر حيث تذهب الطرق من جهة نحو جانِي (Djanet) (وليست هي جناتة!) ومن جهة نحو غات والصحراء الليبية – يلاحظ الاحتفاظ بالقافلة مجتمعةً بالنظر لتلك الثروة المتجلية في 600 خادم التي تصحب القافلة، وكل ذلك يمكن أن يفسر السرّ في تلك اللفَّة من جهة الشرق – تجنّبا لطريق قد يكون محفوفا بالاخطار...

(138) الهكّار القصد إلى رجال التواركة ... لقيهم ابن بطوطة طوال شهر رمضان = 30-29 أكتوبر 1353.



دينار مريني من عهد السلطان أبي عنان ولي نعمة ابن بطوطة

وسرنا في بلاد هكّار شهراً، وهي قليلة النبات كثيرةُ الحجارة، طريقها وعْر، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فأخبرونا باخبار بلادنا واعلمونا أن اولاد خَرَاج (140) وابن يَغْمُور (141) خالفوا وسكنوا (تَسَابيتْ) من توات (142)، فخاف 447/4 أهل القافلة من ذلك، ثم وصلنا إلى بُودا (143)، بضم الباء الموحدة، وهي من أكبر قُرى توات، وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثيرٌ ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب، واكل أهلها التمرُ والجراد، وهو كثير عندهم يختزنوه كما يختزن التمر ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فانه لا يطير اذا ذاك لأجل البرد !

وأقمنا ببُودا أياماً، ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أواسط ذي القعدة (144) إلى مدينة سجلماسة، وخرجت منها في ثاني ذي الحجة (145)، وذلك أول البرد الشديد، ونزل بالطريق ثلج كثير. ولقد رأيت الطرق الصَّعبة والثلج الكثير ببخاري وسمر قند وخراسان وبلاد الأتراك فلم أر أصعب من طريق أمّ جُنَيْبة! (146).

ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطمع (147)، فأقمت هنالك يوم الأضحى، ثم

(139) كان يوافق 30 أكتوبر 1353.

(140) أولاد خَرَج : قبيلة عربية من بني معقل مكانهم بين تلمسان ووجدة والبحر المتوسط وكانوا يتنقلون من تلمسان إلى توات... وقد كانت هذه القبائل تتمرد أحيانا على السلطان انظر التعليق رقم 2

(141) القصد إلى بني عبد الواد، أصحاب تلمسان الذين كان أبو عنان تغلب على عاصمتهم في ربيع الثاني عام 753 مايه 1352 في السنة الماضية – في أعقاب المعركة الشهيرة المعروفة بمعركة أنگاد الاستقصا 182,3 – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب – الجزء السابع ص 14 تعليق 10.

(142) تَسَابيت : واحات على بعد 60 شمال أدرار تمردوا على السلطان بزعامة يعقوب ...

(143) بودا : واحات على بعد 20 كـ.م. شمال غرب أدرار توات، على الخط 28° شمالاً و 0,30 شرقا.

وحسب ابن خلدون فإن هذا المكان هو نقطة انطلاق القوافل نحو مالي... هذا ويذكر بعض الجغرافيين العرب أن الجراد مما يؤكل في مراكش.

(144) يوافق 12 دجنبر 1353 –حول سجلماسة انظر ما سبق تعليق رقم 2.

(145) يوافق 29 دجنبر 1353.

(146) ورد عند الحسن ابن الوزان في (وصف افريقيا) وهو يتحدث عن مدينة تحمل هذا الاسم : أم جنيبة أنها قرب ممر الأطلس على منحدره الجنوبي (90 كـ.م. جنوب شرق فاس) ويظهر بجانب المدينة مرتفع يلزم كلَّ من صعده ليقطعه مع قافلة أن يرقص ! وقد رأى ابن الوزان بعينه أن كلّ الذين يمرون بالمرتفع يرقصون... ! انظر وصف افريقيا، وانظر الترجمة الإسبانية التي أعدها S. Fanjul و F. Arbós 1993 ALIANZA EDITORIAL ص 793

(147) ربما تكون دار الطمع هي تاملالت (Tamelalt) بين أزرو و بين صفرو على ما يقوله بيكنگام وقد تجنب Mauny اذكرها نهائيا بينما استغنى كيوك عن التعليق عليها!!

خرجت فوصلت إلى حضرة فاس حضرة مولانا أمير المومنين أيده الله فقبلت يده الكريمة (148) وتيمَّنت بمشاهدة وجهه المبارك وأقمت في كنف إحسانه بعد طول الرحلة، والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل إحسانه وسابغ إمتنانه ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائه.

وهاهنا إنتهت الرحلة المسماة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار) وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة ‖ وخمسين وسبع مائة (149) والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. 449/4

قال ابن جزي : انتهى ما لَخَّصتُه من تقييد (150) الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة، اكرمه الله، ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحَّال العصر، ومن قال : رحَّالُ هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدُّنيا للرحلة واتَّخذ حضرة فاس قراراً ومستوطناً بعد طول جولاته، إلا لَما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنًا وأعمهم فضائل، وأكثرهم إحسانا وأشدهم بالواردين عليه عنايةً، وأتمهم بمن ينتمي إلى طلب العلم حماية، فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى لأن وفقه في أول حاله ‖ وترحاله لاستئيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلةٍ خمسةٍ وعشرين عاما، إنها لنعمة لا يُقدر قدرها ولا يوفى شكرها، والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المومنين ويُبقي علينا ظلَّ حرمته ورحمتِه ويجزيه عنا معشر الغُرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين. 450/4

اللهمَّ ـ وكما فضلته على الملوك بفضيلتيْ العلم والدين وخصصته بالحلم والعقل الرصين، فمدَّ لُلكه أسباب التأييد والتمكين وعرفْهُ عوارف النصر العزيز والفتح المبين واجعل الملك، في عقبه إلى يوم الدين وأره قرَّة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا أرحم الراحمين ‖ وصلَى اللّه وسلم على سيدنا ومولانا ونبيّنا محمد خاتم النبيين وأمام المرسلين والحمد لله رب العلمين. 451/4

وكان الفراغ من كتبها في صفر عام سبعة وخمسين وسبع مائة (151) عرف الله من كتبها.

---

(148) هذه لقطة أخرى تتحدث عن مدى صلة الرحالة المغربي بالسلطان أبي عنان مما يزيّف ما حكاه أبو القاسم الزياني مما حكاه زوراً عن رحلة البلوي مما تعرضنا له في المقدمة وفي الملاحق...

(149) كان ذلك يوافق تاسع دجنبر 1355.

(150) ينبغي أن ننتبه هنا لهذه الفقرات من الكاتب ابن جزي : لقد قام ابن بطوطة بوضع "تقييد" للرحلة أنهاه بتاريخ 3 ذي الحجة عام 756 (9 دجنبر 1355) وقدم "التقييد" للكاتب بن جزي الذي قام بوضع "تلخيص" لما كان قيده ابن بطوطة وأنهى كتْب هذا التلخيص في صفر من عام 757 (يبراير 1356)، ومعنى هذا أن العملية إنما إستغرقت من قبل ابن جزي ثلاثة شهور على أكثر تقدير...!

(151) كان ذلك يوافق يبراير 1356، والجدير بالذكر هنا أن نكرر القول بأن النسخة التي تحمل في مكتبة باريز رقم 907 أو 2291، والمعروفة بمخطوط دولا بّورط، تُختتم هكذا : "وكان الفراغ من كتبها في صفر عام سبعة وخمسين وسبع مائة عَرَف الله من كَتَبها. "بينما نجد أن سائر النسخ الأخرى التي توفَّرنا عليها لا تحتوي على هذه العبارة وهي تقف عند : ياأرحم الرحمين... ومن هنا رجح القول بأن المخطوطة رقم 907 = 291 .9 هي بخط ابن جزي.



منظر عام لمدينة فاس حيث انتسخت الرحلة



الملاحق

- شهادة ابن خلدون
- تعقيب الزياني
- كلمة (أفراج) المغربية
- وثيقة تأسيس مسجد مالديف
- تعليق وكالة المغرب العربي للأبناء
- أكاديمية السلطان أبي عنان
- رسالة إلى الروضة الشريفة
- نص وقفية المدرسة البوعنانية بداخل فاس
- حول الحديث عن الزاوية المتوكلية خارج فاس
- تهنئة ملك غرناطة لملك المغرب بتحرير طرابلس
- معلومات عن الرحلة من خلال المراسلات...



لقد وَعَدنا أثناء المقدمة وفي غضون التعاليق بالاتيان ببعض الملاحق التي نراها ضرورية لإيضاح بعض النقط الغامضة في الرحلة أو لتكميل المعلومات الذي كانت في النص موجزة مختصرة...

شهـادة ابن خلـدون

عن حديث ابن خلدون في المقدمة عمّا يقوله الناس حَوْل مرويّات ابن بطوطة وما أجابه به الوزير ابن ودرار، نسوق مايلي نقلا عن المقدمة : (طبعة لبنان 1956 ص 325-327)

«ولاتُنكِرَنَّ ماليس بمعهودٍ عندك ولا في عصرك شيءٌ من أمثالهِ، فتضيقَ حوصلَتُك عند مُلتقَط المكنات، فكثيرٌ من الخواص إذا سمعوا أمثالَ هذه الأخبار عن الدُول السالفةِ بادرَ بالإنكار وليس ذلك من الصواب، فإنَّ أحوالَ الوجودِ والعُمرانِ متفاوتَةٌ، ومن أدركَ منها رُتْبَةً سفلى أو وسطى فلايحصُرُ المدَارِكَ كلَّها فيها، ونحن إذا اعتبرنا مايُنقَلُ لنا عن دولة بني العباس وبني أميّةَ والعُبيديينَ، وناسَبنا الصحيحَ من ذلك والذي لاشكّ فيه بالذي نشاهِدُهُ من هذه الدُوَلِ التي هي أقلُّ بالنسبة إليها وجدنا بينها بَوْناً، وهو لما بينها من التفاوُتِ في أصلِ قُوَّتِها وعُمْرانِ ممالِكِها فالآثارُ كلُّها جاريةٌ على نسبةِ الأصلِ في القُوةِ كما قدّمناه، ولايسعُنا انكارُ ذلك عنها، إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشُهرة والوضُوح، بل فيهامايُلحَقُ بالمستفيضِ والمتواترِ، وفيها المعايَنُ والمشاهَدُ من آثار البناء وغيره. فخذ من الأحوال المنقولةِ مراتِبَ الدُول في قوتِّها أو ضُعفها وضخامتِها أوصِغَرِها، واعتبر ذلك بمانقُصُه عليك من هذه الحكاية المستظرفَةِ، وذلك أنه وردَ بالمغرب لِعهد السُلطانِ أبي عِنانٍ من مُلوكِ بني مرينَ رجلٌ من مشيخةِ طنجة يُعرفُ بابنِ بَطُّوطة كان رحل منذُ عشرينَ سنةً قبلَها إلى المشرقِ وتقلب في بلاد العراقِ واليَمَنِ والهِنْدِ، ودخلَ مدينَةَ دهلي حاضِرَةَ مَلِكِ الهندِ، وهو السلطانُ محمدُ شاه، واتَّصَلَ بملِكِها لذلك العهدِ وهو فيروزجوهُ (1)، وكان له منه مكانٌ، واستعملَهُ في خِطَّةِ القضاء بمذهبَ المالكيّة في عمله، ثم انقلبَ إلى المغربِ واتَّصَلَ بالسلطان أبي عنانٍ وكان يُحدِّثُ عن شأنِ رحلتِهِ وما رأى من العجائبِ بممالِكِ الأرضِ، وأكثرُ ماكان يحدِثُ عن دولةِ صاحبِ الهندِ إذا خَرَجَ إلى السَفَرِ أحصى أهْلَ مدينتِهِ من الرجالِ والنساءِ والولدان، وفرضَ لهم رزْقَ ستَّةِ أشهُرٍ تُدْفَعُ لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخلُ في يومٍ مشهودٍ يبرزُ فيه الناسُ كافَّةً إلى صحْراء البلدِ ويطوفونَ به، ويُنْصَبُ أمامَهُ في ذلك الحفْلِ مَنجنيقاتٌ على الظهرِ تُرمى بها شكائرُ الدراهمِ والدنانيرِ على الناسِ، إلى أنَّ يدخلَ ايوانَهُ، وأمْثالَ هذه

---

(1) القصد إلى فيروز ملك الذي ورد ذكراه عند ابن بطوطة في م III-221-230-239-348ـ

الحكاياتِ فتناجي الناسُ بتكذيبهِ. ولقيتُ أيامئذٍ وزيرَ السلطانِ فارس بن ودرار البعيد الصيتِ ففاوضتُهُ في هذا الشأنِ وأريتُهُ إنكارَ اخبارِ ذلك الرجل لما استفاضَ في الناس من تكذيبه، فقال لي الوزيرُ فارسٌ : اياك أن تستنكرَ مثْلَ هذا من أحوالِ الدُوَلِ بما انك لم ترهُ، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن، وذلك أن وزيراً اعتقَلَهُ سلطانهُ ومكثَ في السِجْنِ سنينَ ربي فيها ابنُهُ في ذلك المحبسِ، فلما أدركَ وعقلَ سألَ عن اللحم الذي كان يتغذّى به، فقال له أبوه هذا لحمُ الغنمِ، فقال وما الغنَمَ ؟ فيصفُها له أبوهُ بشياتِها ونُعوتها، فيقول : ياأبتِ تراها مثل الفارِ فينكرُ عليه، ويقولُ : أين الغنمُ من الفأر! وكذا في لحم الإبِلِ والبقَر إذ لم يعاينْ في محبسِهِ من الحيوانات إلا الفارَ فيحسبُها كلّها أبناءَ جنسِ الفارِ. ولهذا كثيراً مايعتري الناسَ في الاخبار كما يعتريهم الوَسواسُ في الزيادة عن قصدٍ الإغراب كا قدّمناه أول الكتابِ، فليرجع الانسانُ إلى أصولِهِ وليكن مهيمناً على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقلِه ومُستقيم فطرتِهِ، فما دخل في نطاق الإمكان قبِلَهُ، وما خرج عنهُ رفضَهُ، وليس مرادُنا الامكانَ العقليَّ المطلقَ فانَّ نطاقَهُ أوسع شيء فلَايُفرضُ حدّا بين الواقعاتِ، وانما مرَادُنا الامكانُ بحسب المادَّة التي للشيء، فانا اذا نظرنا أصل الشيء وجنسَهُ وصِنفَهُ ومقدارَ عِظَمِهِ وقوّتِهِ أجرَينا الحُكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ماخرج من نِطاقه، وقلْ ربِّ زدني علماً وأنت أرحمُ الراحمين واللّه سبحانه وتعالى أعلم.



تعقيب الزياني

وعن التحامل على ابن بطوطة من لدن الزياني مما اشرنا إليه في التقديم نورد نص الترجمانة الكبرى مصحوباً بالرد عليه من قبل الكتاني في مخطوطةٍ عن تاريخ القرويين :

قال الزياني : إنما رسمت فيها (أي الترجمانة) ماشاهدته في الأقاليم التي بلغتها، وغيره نقلته من رحلة العياشي، ومحاضرة اليوسي، ورحلة البلوي، ورحلة ابن نباتة، ورحلة السرخسي للاندلس والمغرب، ورحلة الكردي، ورحلة البكري، واخبار الهند، والسند والصين من تاريخ الإسلام للذهبي، ومن تواريخ لبعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة، وكنت أسرد عليهم رحلة ابن بطوطة، فأنكروا كثيرا مما فيها من أخبار ملوكهم، وأما قضاؤه بالهند ومصاهرته لسلطانه، فقد أبطلوه بالكلية، وقالوا : هذا غير ممكن، فبسبب ذلك لم أنقل من خبرها شيئا، ثم بعد ذلك وقفت على ترجمته في الاحاطة، لأبي عبد الله الخطيب، نقلا عن شيخه أبي البركات البلفيقي، أن محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة. حاله كان رجلا له مشاركة في الطب، وارتحل للمشرق وتزيابزي الصوفية، وجال الاقطار، ودخل بلاد العجم، والسند والهند والصين، وعاد لبلده طنجة، وجاز البحر للأندلس،

وبلغ غرناطة، واجتمع بفقهائها في دعوة، وكان يحدثهم عن رحلته في يومه وليلته فاستغربوا أخباره واستبعدوها. وقال البلوي في رحلته، في ترجمة ابن بطوطة، إنه لما عاد من رحلته ومن لقيه بها من الملوك، وأن ملك الهند صاهره وقلده القضاء بمدينته العظمى، وحصل من الأموال عدداً كثيراً، زيفوه وكذبوه، ثم عاد لبر العدوة ودخل مدينة فاس أيام السلطان أبي عنان فارس ابن أبي الحسن المريني، ولم يجتمع به، ثم توجه للصحراء ثم للسودان، يحسب أن ملوكه كملوك الهند وأرضه مثلها، فخفق سعيه ووجد الأرض غير الأرض، والناس غير الناس، وبلغ خبره للسلطان أبي عنان، فكتب له واستقدمه، ولما اجتمع به عاتبه على عدم الاجتماع به لما قدم من الأندلس لفاس، وكان أبو عنان فرغ من تشييد المدرسة المتوكلية التي بطالعة فاس، فقال له : ياMولانا السلطان، انما أتيت لفاس بقصدك والمثول بين يديك، ولما دخلت هذه المدرسة التي شيدت، ولم أقِفْ على مثلها فيما شاهدته في المعمور كلِّه، قلت والله لابد لي أن أتمم عملي، وأبر قسمي بالوصول إلى أقاليم السودان حتى أشاهده، وأقسم أن ليس في المعمور كله مثلها، فحقق الله ظني، وأبر يميني، هذا موجب تأخيري عن المثول بين يديك، فأكرمه السلطان أبو عنان، وأجرى عليه الانعام، وأمره أن يؤلف رحلته ويذكر فيها مدرسته التي زعم أنها لانظير لها في المعمور. انتهى.

قال كاتبه عفا الله عنه، وهذا من التغالي في الكذب، ودليل على ما لمزه به فقهاء الأندلس، فان في كل اقليم من أقاليم بلاد العرب، كمصر، والشام، والعراق، التي شاهدناها من المدارس والمساجد، ماهو مثلها وأعلى منها ضخامةً وتأنقا وحسناً، وأما بلاد العجم، والترك، فحدث عن البحر ولاحرج، فكل مسجد، وكل مدرسة صغيرة أو كبيرة، فوقها وأعظم منها؟؟؟؟ وأتقن منها، وما وصف به المدرسة العنانية لبانيها، أبي عنان رحمه الله، فانما قصد به مدحه والتخلصَ منه بتلك الحيلة التي نجح سعيه بسببها، غفر الله لنا وله ولقد أخبرني أحد طلبة السلطان، سيد محمد رحمه الله، أنه كان يسرد عليه رحلة ابن بطوطة، وساق كلام ابن تيمية في الاستواء، والنزول، فنزل من محل جلوسه، وقال : كنُزُولي هذا، فقال له السلطان سيدي محمد، اِطو ذلك الكتاب وبعْه في السوق وكلْ ثمنه لحماً، هذا رجل كذاب من اهل التجسيم كمن نقل عنه، فوالله لو حضر بين يدي لاضربن عنقه، فقد تحقق عنه ما وسمه به أهل الأندلس من الكذب، وسيما اذ هو من أَهل البدع.

الكتاني ينتقد الزياني

عن مخطوطة الخزانة العامة رقم 29

تحت عنوان : "الشعائر الدينية المقامة بالقَرويين"

وعند الكلام على "المدرسة المتوكلية" التي تعرف بالعنانية... قال : عبد الحي الكتاني، ولما تم بناؤها دخلها السلطان أبو عنان لينظرها وأعطاه القائم عليها هناك زمامَ صائرها... إلى أن قال :

...ذكر مؤرخ المغرب أبو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى نقلا عن رحلة البلوى أن الرحالة ابن بطوطة لما دخل فاسا بعد رحلته الطويلة ولم يجتمع بالسلطان أبي عنان وسافر إلى السودان إستقدمه وعاتبه على عدم الاجتماع به، وكان أبو عنان قد فرغ من تشييد المدرسة المتوكلية، فقال : يامولانا السلطان لما دخلت هذه المدرسة التي شيدت ولم أقف على مثلها فيما شاهدته في المعمور كلّه، قلت : والله لابد أن أتمم عملي وأبر بقسمي بالوصول إلى أقاليم السودان حتى أشاهده وأقسم أن ليس في المعمور كله مثلها. فحقق الله ظني وأبرَّ يميني. فأكرمه السلطان وأمره أن يؤلف رحلته ويذكر فيها مدرسته التي زعم أنه لانظير لها في المعمور... أقول (الكتاني) وهذه مبالغة، وعجيبٌ سريانُ حقد الزياني إلى مَن كان قبله بدهور وأجيال ! والعجب أن القصة التي ذكرت في اعتذار ابن بطوطة لأبي عنان عن موجب عدم لُقيّه بعد رجوعه من الأندلس لم أجدها في رحلته المطبوعة إلا أن أهل البحث من الأروباويين اليوم يذكرون أن رحلة ابن بطوطة الأصلية ليست هي المطبوعة في مجلد ، وأن المطبوعة إنما هي تلخيص ابن جزي لا الرحلة الأصلية والله أعلم أي ذلك كان، على أني أقول : قد دخلت كثيرا من مدارس الشام ومصر والحجاز والمغرب فلم أر من حيث ضخامة البناء والوسع والشكل أضخم من المدرسة العنانية هذه إلا ما كان من جامع السلطان حسن بمصر وجامع بني أمية بدمشق وبيت المقدس بفلسطين، أما في النهر الجاري وسط المدرسة العنانية والبيوت المحيطة بها من فوق لسكنى طلاب العلم وغير ذلك من النقش والزخرف، فلم أر لها نظيراً مطلقا فيما رأيت بعد التتبع والبحث الذي أتشخصه...

* * * * *

عن كلمة (أفراج) أو أفراق المغربية

عن ذكر (أفراج) في عدد من المرات II ,369 - 405 - III 44 ، 251 - 415 وحيرة المعلقين حول القصد منها نسوق الملحق التالي عن ابن الحاج النُّميري من كتابه فيض العباب.

وأفراق السعيد كالبلد الواسع الأقطار، القائم الأسوار. البديع الاختطاط، الشريف الاستنباط، المحكم الارتباط. وهو في وضعه مستدير الساحة، بدري المساحة. قد صنع من شقاق الكتّان الموضونة، وفضلاته الفاضلة المصونة. وضوعفت طاقاته، وحذيت حذو القذّة بالقذّة مسافاته.

وأظهر النصَّاحُون في خياطته النصائح، وظاهر المراوح منهم المغادي والمعادي

المراوح. وأعملوا فيه نبات الوخز غائصة غوص الأذهان، أخذ من الألسنة الفاتقة رتوق البيان. ترسل خيوطها أسرع من البريق وتغادر الأنامل وكأنّها أفراس رهان تبارت في لاسبق، عارفة كالأصولي بالجرح إلا أنها جاهلة بالفرق. ضيّقة العيون كالأتراك، ناحلة الجسوم كالعابدين النُسّاك، إلا أنّها تبيّن لها الخيط الأبيض لاتدين بالإمساك. فالْتأمت أجزاؤه أحسن الالتئام، والْتحمت على وفق الإبداع أجمل الالتحام. وتجانست أنحاؤه وتطابقت، وتناسبت ميامنه ومياسره وتوافقت.

وجمع بشرائطه شرائط الكمال، واختار من لونه وهو البياض طراز الجمال. وصنعت له عمد مثقفة كالقداح، موشاة كأثواب الخود الرداح. بأسافلها زجاج حديد كبير الإجرام، تشقّ الأرض شقّ الغرام قلب المستهام. وتقرّ في الترب كأنها جذور النخل الباسقة، وعروق الأزرة السامية السامقة.

فتقف تلك العمد متناسقة الصفوف، جائبة لمعنى في غيرها وزهى الملك منها بصحيفة دلّ على شرف مافيها عنوانها. ذات الاطناب التي تمتد امتداد أشعة الشمس، وتحل أوتادها من الأرض محل النفس من الجسم والسر من النفس. قائمة لفارس كإيوان كسرى، مزدانة بأنواره التي هي أفخر من أنوار البدر وأسرى.

ويتصل بها البيت الأعظم الذي كاد يبلغ الفرقدين، وتصير ذات العماد منه إلى ذي العمادين. بديع المحاسن جميل المسافر، بهي المناظر، زكي المخابر. وسيع مقام الاستضراب، ممتد شأو الاستنخاب.

وتتّصل به القبّة التي هي ثالثة التعزيز، وسمة شرف التمييز. ذات الحسن الفائق، والجمال الرائق. والشكل البديع، والاستنباط المرضى التأصيل والتفريع.

وبغربي هذه المساكن خيمة الشعر التي أعجز وصفها الشعراء، وأنست بألوانها وبدائع صنعتها وشي صنعاء. قريبة التداني، منيفة على أوثق المباني، مستطيلة الشكل كالفجر الأول، مستطيرة الذكر المنزّهة عن التداني، وخلال الأقيال (العياهلة) الذين فازوا من دنياهم بنيل الأماني.

وفي أفراق السعيد من الأخبية والبيوت مايشابه الكواكب في جمالها وازدحامها، ويشابه العقود النفائس في حسنها وانتظامها. كل ذلك مما نشأ في مظاهر الإبداع والإتقان، وصنع في أسعد الأوقات والأزمان. واستفرغ في تنجيده الوسع، ونعم برؤيته البصر وبوصفه السمع.

وأمام باب أفراق قبّة الجلوس وهي قبّة ليست بالكبيرة إلاّ أنّها في غاية الاحتفال،

مشتملة بالمحاسن أحسن الاشتمال. وفيها مرتبة الملك العزيز التمكين، أحسن من طاقات السوسان والنسرين. وهي مستندة إلى ألواح تتصل بلطائف الصنعة، وتتلاءم أجزاؤها فتصير سوراً ظاهر المنعة. وقد أودعها الدّهانون عجائب اشغالهم. وأظهروا بالفعل ماكان بالقوة في خيالهم حتى شمل الاتقان جميع ماتقع عليه الأبصار، وتتشوّف إليه الأفكار، واستوضحت الحكم التي استتبعت بها الأسرار.

ويستقدم قبّة الجلوس مجال يقيد الألحاظ، وتقف على ذكر محاسنه الألفاظ. وبه طريق الخليفة إذا خرج من مضاربه إلى حياة الساقة، التي قامت قيام الجبل الرفيع الذروة، والحديقة الملتفّة بأعلى الربوة. مرسلة أطنابها إرسال شآبيب الأمطار، رافعة عمدها الثابت الذي كاد كالحروف. فتنتشر المرواقات على أعطافها، وتتكاشف بمواطن استشرافها. حتى تحيط بالبقعة المتخيّرة لنزول خير الملوك، والمنزّل المطهر الذي يحوز بسلوك الإمام عليه بركة أهل السلوك.

سور عظيم يعارض مهاب الرياح، ويسمو سمو الحبا على الراح. ويزاحم الجو بمناكبه، ويكاتب البروق الومضة بكوائبه. وله شرفات من الرقاع الزرق تباهي ألوان السحاب، والعيون المناسبة في حجر الروض أحسن الانتساب.

وله بابان أحدهما جوفي وهو المسمى بباب الصرف، وهو مفتوح لبيت علا سمكه علو السماك، وأشرف على المحلّة إشراف البدر المنّور الأحلاك. وأعرب عن الفخامة الثابتة الدلائل، والجلالة الرفيعة المنازل، والضخامة التي أنافت على الملوك الأوائل. والباب الثاني بقبلية أمام البرج الذي كاد يبلغ عنان السماء، ويزحم النجوم المختومة كؤوسها بمسك الظلماء. وهو مربّع الشكل، محتفل العلو والسفل، دواخل حيطانه أبدع من الروض غب العهاد، وأحسن من تحلّيات الخريدة ولاغرو فهي منوطة بالعماد.

فسيح مجال الأطناب، عالي مسادل الجلباب. شديد الأركان، يفوق شامخ البنيان. سام على الهضاب، دافع في صدور السحاب. قابض بأعنّة الرياح الهوج، مشرف كغوارب القلائص العوج. قد لبس أثواب الهيئة وجرّ برودها، وصدع بأنوار العزّ وأبدى صعودها. وزهى بجامور تحسد الثريا اجتماع تفافيحه، ويود الشفق لو كان بعض ذوائبه المرسلة إلا هزّ ريحه.

وفي جوفه حائط من الخشب يروق الأبصار بريقه، ويفوق الوشي اليماني تنميقه. حسن المساق، جميع الاستنساق تجتمع أجزاءه بعد الافتراق، وتعود بعد الانخرام للانتظام والاتّساق.

وفيه جملة أبواب محكمة الصنائع، مفيضة بقداح البدائع، آخذة بأزمّة العيون إلى حسنها الرائع، قائمة على قلب القلوب بجمالها الموفور البضائع. وكلّها موصد مغلق إلا الباب الذي بجهة الشرق فإنه معدّ لدخول الخليفة، ومواطئ أقدامه الشريفة، مخصوص بالولوج إلى المواقف العالية المنيفة، والحواضر التي احتوت على أسرار الحسن اللطيفة. ومن هنالك يشرع إلى باب أفراق الثاني الذي به مساكن الخلافة ومضاربها، ومسارح ربّات خدوره ومساربها.

ويوالي باب أفراق الثاني القبّة العظمى التي ظهرت كقوس قزح ألوانها يلحق بالكوكب السيّار.

قد أحكمت بدواخله الحرائم البديعة الاختراع، والتوارق العجيبة التي استمتع الحسن بها أعظم الاستمتاع.

وبها أيضا مرتبة الملك بيضاء عالية كالصبح، مكتنفة في كل الأوقات بالنصر والفتح. يحلّها البدر فتجلي الأحلاك لكن بانتسامه، ويستقر بأعلاها البحر فيرسل الدرّ لكن من كلامه، وتروي عن سهل لكن من خلائقه وعن كثير لكن من أنعامه، «وتشاهد منه ثالث العمرين لكن عند تنفيذ أحكامه» ونصر الدّين بالماضيين لسانه وحسامه.

ويمقربة من قبّة الجلوس بالجهة الشرقية يضرب الجامع الذي امتدت له الأسباب، وسرّ بالدخول في المحراب منه المحراب. وبه استقرار الحزّابين والمؤذنين من مرتبين لقراءة القرآن، وحفظ أوقات الصلوات بالآذان، وإقامة شعائر الإسلام والإيمان.



وثيقة تأسيس مسجد ماليف

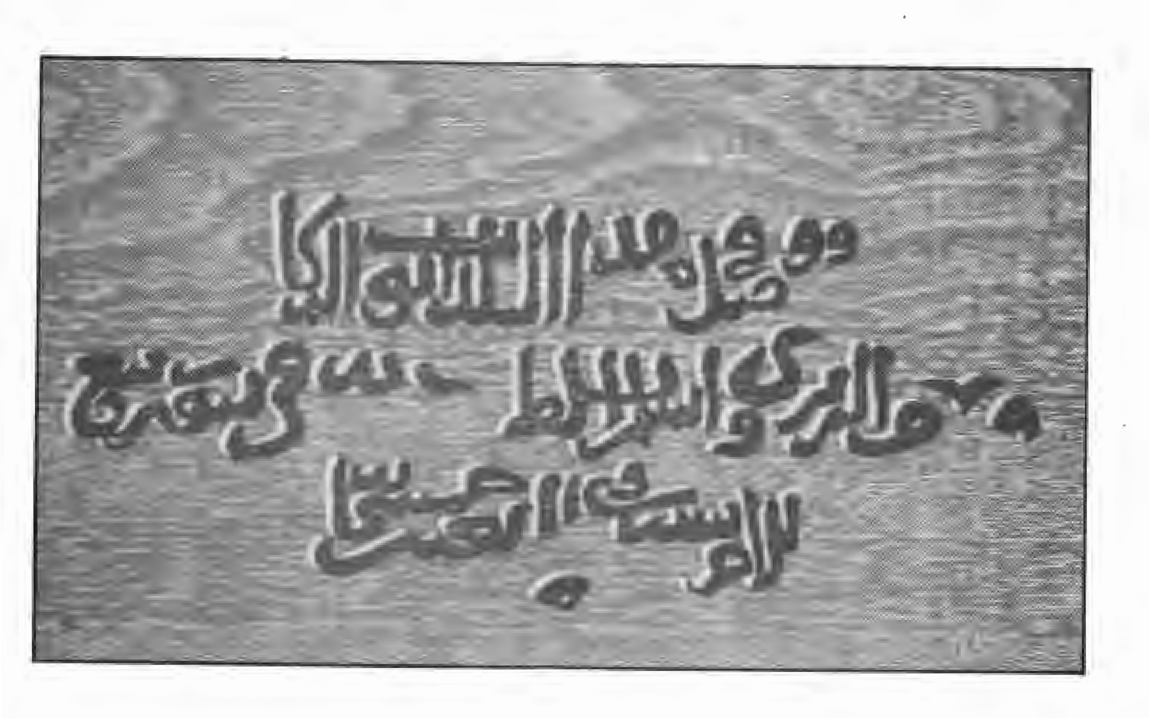
عن حديثه حول الخطوط التي قرآها وهو يزور الجامع الأعظم في ماليف نسوق النص الكامل لهذا النقش كما وقفنا عليه بالعيان.

1) السطر الأول : أمر ببناء هذا المسجد المبارك الجامع لله تعالى السلطان درمس محمد بن عبد الله وأخوه سيري كلَوْ ؟ رحمة الله عليهم أجمعين وأمر الوزير شنورازاه ببنائه، فبنا وعمّر رحمة الله عليه ووصل في هذا البلد أبو البركات.

2) السطر الثاني : يوسف ؟ البربري وأسلم على يديه في شهر ربيع الآخر في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقدُم وأمر بعمارة هذا المسجد الجامع لله عزّ وجلّ مولانا السلطان

ابن السلطان : شهاب الدين أحمد بن أبي الفتح جلال الدين عمر بن صلاح الدين خلد الله أعماله وأمر الوزير.

3) السطر الثالث : شنورازه ؟ الدين علي بن أبي الفرج الصلاحي بعمارته فبنى وعمر وقام فيه بحمد الله وشكر وفرغ من عمارته في شهرذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ؟ وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها السلام.



PERIPLE

De la présence maghrébine dans l'Océan Indien au XIIe siècle

Le Dr Abdelhadi Tazi, membre de l'Académie du Royaume, a présenté une importante communication à la cinquante-septième session de l'Académie de Langue Arabe du Caire, organisée en ce moment dans la capitale égyptienne dans laquelle il a traité de "la plus ancienne inscription arabe aux Maldives. (La présence duMaghreb dans l'Océan Indien au VIe S.H./XIIe S. J. -C.).

Dans son intervention , le Dr Tazi, qui est également membre de l'Académie de Langue Arabe du Caire, a montré les liens historiques et religieux entre les Maldives et le Maghreb.

Le Dr Tazi a rappelé que le vo-yageur et cadi marocain, Sharaf Alin Ibn Battuta a noté qu'en 744H/1344 J.-C. il avait été reçu avec tous les honneurs par les habitants des Maldives (pays qui portait alors le nom de "Dibat Al-Mahal"). Il faut remarquer que cet accueil chaleureux s'explique par le fait que ce peuple était resté très attaché aux Maghrébins, précisément parce qu'il a embrassé l'Islam grâce à un habitant du Maghreb, du nom d'Abu-Barakat Al Barbari. Celui-ci a-vait, en effet, visité les Maldives deux siècles auparavant et avait conduit les habitants de ce pays à adopter ka dictrube malikite qui était celle des Maghrébins.

Le Dr Tazi ajoute qu'Ibn Battuta raconte qu'un groupe de personnes et à leur tête le cadi Abd Allah, lui fit visiter la mosquée de la capitale qui venait d'être restaurée sur ordre du Sultan Shihab Al-Din. Il put alors y lire de visu l'inscription de fondation placée au-dessus du Mihrab et dont on retient en particulier que le Sultan du pays avait embrassé la religion musulamne par l'intermédiaire d'Abu-l-Barakat Al Barbari.

Le Dr Tazi indique qu'il décida d'effectuer une étude minutieuse de ce document épigraphique. C'est ainsi que profitant de sa présence aux Maldives (mission officielle au cours de l'été 1990), il demande aux responsables de ce pays de l'aider dans son entreprise, ce qu'ils firent avec beaucoup de bonne volonté.

La pièce de bois en question, poursuit-il, se trouve actuellement conservée au musée natioanal de la capitale de la République Maldive. Elle avait été prélevée de l'ancienne mosquée où elle s'y trouvait orginellement et ce, à la suite des travaux de restauration dont cet édificic religieux avait été l'objet au milieu des années soixante.

Le Dr Tazi explique que la frise épigraphique consiste en un bandeau de bois de platane (d'un seul tenant) de trois mètres vingtcinq centimètres de longueur sur quarante cinq centimètres de largeur, sur lequel l'inscription se déroule sur trois lignes. Cette inscription consiste en deux textes successifs dont le premier concerne la fondation de la mosquée à l'époque où Ahu-l-Barakat avait visité la ville. Dans ce texte on lit notamment : "Puis Abu-l-Barakat (Yusuf ?) Al-Barbari arriva dans ce pays et grâce à lui le Sultan se convertit à l'islam au mois de Rabi II de l'année 548".

Le second texte est relatif à la reconstruction de la mosquée en 738 H par le Sultan Shihab Al-Din, six années avant l'arrivée d'Ibn Battuta aux Maldives.

Le Dr Tazi précise qu'il a effectué une étude des six anthroponymes, des Jakabs Fonorifiques ainsi que des surnoms qui figurent dans les deux textes.

C'est ainsi, poursuit le Dr Tazi, qu'il nous fait connaître le Sultan Muhammad Ibn Abd Allah s'était converti à l'Islam, son frère Siri Kalu qui partageait avec lui le pouvoir, le Premier ministre, surnommé Shanu Raja, le sultan Shihab Al-Din, son Premier ministre, ajoutte le Dr Tazi qui fait remarquer qu'en ce qui concerne Abu-l-Barakat Al-Barbari, considéré toujours comme le "patron du pays", son nom est mentionné dix fois dans la Rihla d'Ibn Battuta, suivi parfois, pour davantage de précision, par la qualificatif "Maghribi"...

Pour le voyageur marocain, les renseignements qu'i fournissait n'avaient rien de nouveauk, ni d'exceptionnel. En effet, on trouve dans des ouvrages d'histoire le mention de noms de certains Maghrebins qui étaient arrivés en Chine avnat Abu-l-Barakat Al-Barbari et qui avaient adjoint à leur nom patronymique le qualificatif d'Al-Sini, le cadi Sharaf Ad-Din Ibn Battuta avait lui-même trouvé, une fois en Chine, une colonie maghrébine à Khan Djanfou.

Dans ce sens, le chercheur américain, Ross Dunn, a établi que les Nord-Africains et les Andalous étaient, qux Ve et VIe S. H (XIe et XIIe S.) beaucoup plus actifs dans le domaine du commerce indien que les autres Arabes ou les Perses. Aussi n'était-il pas étrange de trouver le nom "Al Barbari" dans la frise en question.

Le Dr Tazi a reppelé aussi qu'il a ensuite émis un certain nombre de remarques au sujet du manuscrit maldive intitulé "Tarikh Islam Dib Mahal" qui a été composé par le cadi "Ala Al-Din, en 1138 H/1726 J.-C. et que le chercheur anglais Forbes a cité dans l'article "Maldives" de la nouvelle édition de l'encyclopédie de l'Islam

Il apparaît ainsi que le cadi "Ala" poursuit le Dr Tazi, a écrit son ouvrage dans l'ignorance totale de ce qui avait été consigné par Shara Al-Din Ibn Battuta quatre siècles auparavant. Il convient d'ailleurs de signaler, dans le même ordre d'idées, que la Rihla d'Ibn Battuta ne de vint célèbre chez les Orientaux qu'après sa publication à Paris au milieu du XIX S. accompagnée de sa traduction en langue française.

En fait, le mot "Al- Barbari" ne demandait pas à être déchiffré, sa lecture est manifestement des plus aisées.

Le Dr Tazi a souligné que le professeur japonais Yajima fournit un autre exemple de ces fausses données : c'est ainsi que " Ala Al-Din a noté que le Sultan " Al-Hilali avait accompli le pèlerinage de La Mecque en 871 H/1467 J. -C., en fait, Al-Jaziri, qui est un témoin oculaire, souligne que ce pèlerinage avait en fait eu lieu en 838 H/1434 J.-C., soit trente-trois années auparavant.

Ainsi, M. Yajima utilise avec beaucoup de précaution les données présentées par Ala Al-Din et notamment celles relatives à la période ayant précédé l'occupation des Maldives par le Portugal en 965 H/1558 J.-C. L'auteur de l'article a d'ailleurs attiré l'attention sur une autre déformation subie par le texte de l'inscription (la première ayant été celle du cadi "Ala" Al-Din) : En effet, un sculpteur a remplacé le mot (Abi-Barakat) par celui de (Abi-l-Rikab) ! Et il est regrettable de trouver ce nom figurant aujourd'hui sur une frisé épigraphique neuve, laquelle a été placée près du Mihrab de la même mosquée.

Anoter que le Dr Abdelhadi Tazi qui était membre correspondant de l'Académie de Langue Arabe du Caire vient d'être élu à l'unanimité par la présente session membre actif de cett académie. (MAP)

أكاديمية السلطان أبي عنان

عن المجلس العلمي المشار إليه في IV 342 نذكر مايلي نقلاً عن شرح الموقت الجاديري (ت 839) لبردة البوصيري.

وقد تعمدنا ايراد هذا الملحق لأنه يعطي صورة عن الحياة الفكرية بفاس على عهد السلطان أبي عنان، ثم هو يقدم لنا نخبةً من العلماء الذين تعددت اختصاصاتهم وتنوعت حقول معارفهم بين فقيه وقاض وأديبٍ وخطيب وموقتٍ ومفتي وفيلسوفٍ ودبلوماسي وسياسي ومهندسٍ ورياضي ومقرئ ومتصوفٍ وموثق ومؤرخ ، ومعبّر للرؤيا ! علاوة على الرحّالة ابن بطوطة ... إنه مجْمع عِلمي حافل :

وهذا الشرح إنما هو مختصر لما ورد في الشرح الحافل لبُرْدة البوصيري الذي ألفه الأمير أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر المتوفى بفاس سنة 807 هـ.

قال البوصيري :

لعلّ رحمةَ ربي حينَ يقسمها * تأتي على حسب العِصْيان في القِسَم

لعلّ : كلمة ترج، قال الجوهري : وأصلها عل، واللام في أولها زائدة. قال المرادي : ولعل للترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه، ولايكون إلا في الممكن ولاتكون للتعليل ولا للاستفهام ولا للشك عند البصريين خلافاً لمن قال بذلك، وليست مركبة على الأصح، والرحمة : الرقة والتعطف، يقال رحمة ومرحمة، والحين : الوقت، ويقسمها : يَهبها. وتأتي : تجيء على حسب على مقدار، والعصيان : ضد الطاعة، والقِسم : الحظ والنصيب. معناه : رجا الشيخُ رحمه الله من الله تعالى أن تكون رحمته شاملةً مستوعبة لجميع المعاصي حين قسمه إياها، وذلك لما جاء في الحديث النبوي : إن الله تعالى يقول : "لو أتاني ابن آدم بقِراب ملء الأرض ذنوباً لآتيته بقِراب ملء الأرض رحمة.

قال شيخنا أبو الوليد : وقد وقع الكلام بين يدي السلطان أمير المؤمنين أبي عنان فارس بن السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ملك المغرب من مقعد ملكه من المدينة البيضاء من حضرة فاس، بمحضر الفقهاء والعلماء والأساتيذ والقضاة والشرفاء والخطباء وأصحاب العلوم، منهم :

1- الفقيه الإمام المفتي القاضي الخطيب أبو عبد الله محمد بن محمد القرشي التلمساني المَقري بمفتح الميم.
2- وشيخنا الإمام الفقيه المدرك المفتي القاضي الخطيب أبو عبد الله محمد بن الفقيه

القاضي الخطيب أحمد بن عبد الملك بن شعيب الفشتالي الصنهاجي الحميري.

3- والفقيه العارف بالفقه أبو عبد الله محمد بن الحسن السدراتي.

4- وشيخينا الفقيه الحاج الخطيب أبو علي عمر بن محمد البطوئي المعروف بابن البحر.

5- والفقيه الإمام المتكلم أبو عبد الله محمد بن أحمد المعافري التلمساني المعروف.

6- وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب المفتي أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم الجذامي الفاسي المعروف بالقبّاب.

7- والشريف الفقيه الإمام العالم المتكلم النظار المفتي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الحسني التلمساني.

8- والفقيه المحدث الحاج الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي.

9- الفقيه الإمام المتكلم النظار القاضي الخطيب أبو عثمان سعيد بن محمد الخزرجي التلمساني المعروف بالعقباني.

10- والفقيه المفتي المدرس العارف بالفقه والفرائض أبو الحسن علي الصرصري الفاسي.

11- والشريف الفقيه القاضي أبو محمد عبد النور بن محمد العمراني الحسني.

11- وصاحبنا الفقيه المفتي أبو إسحاق ابراهيم بن الفقيه المفتي الصالح إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسني.

13- وشيخنا القاضي الخطيب الكاتب صاحب القلم الأعلى العارف بالفقه والحديث والنحو والأدب أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان الخزرجي المالقي.

14- وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الكاتب أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد الغساني البُرجي.

15- وشيخنا الفقيه القاضي المدرس العارف بنوازل الفقه أبو عبد الله محمد المدعو بأبي خريص بن ياسين الياباني المريني.

16- والفقيه المفتي القائم على حفظ المدونة عبد الرحمان النفزي المعروف بأبي عائشة.

17- وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الحاج الكثير الجولة بالمشرق والمغرب وجميع البلاد محمد بن بطوطة العارف بالتاريخ.

18- والفقيه القاضي العارف بكتاب ابن الحاجب الفرعي المدرس مُعبّر الرؤيا أبو عبد الله محمد القسمطيني المعرفو بالتمتام.

19- والفقيه المعدل الهندسي الحسابي أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي الحميري التلمساني المعروف بابن الفحام.

20- وشيخنا الفقيه المدرس المفتي أبو إسحاق إبراهيم بن الفقيه العالم أبي زيد عبد الرحمان بن محمد الحميري التلمساني المعروف بابن الإمام.

21- وأخوه الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد.

22- والفقيه الخطيب العارف بكتاب ابن الحاجب الفرعي علي بن منصور بن هدية القرشي التلمساني.

23- وشيخنا الأستاذ النحوي سيبَويه زمانه أبو عبد الله بن علي بن حياتي الغافقي الغرناطي.

24- وصاحبنا الفقيه القاضي العارف بالبديع والبيان أبو يحيى محمد بن أبي البركات العياضي السكاك.

25- والأستاذ المقري النحوي محمد المجكسي فارس زمانه.

26- وشيخنا الصوفي الحكيم محمد بن شاطر الجمحي المراكشي.

27- والفقيه الأستاذ العارف بالقراءات والتصوف والنحو محمد بن إبراهيم الموحدي التينْملّي المراكشي المعروف بابن الصفار.

28- وشيخنا الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الأورّبي الفاسي العارف بالوثائق.

29- والفقيه المدرس مجالس السلطان أحمد بن أبي الفضل ابن الصباغ الخزرجي العارف بالفقه والحديث ، الآية في علم التاريخ.

قلت : وغير ذلك ممّن تركنا ذكره ويطول به الكتاب في قوله : (لعل رحمة ربي حين يقسمها) البيت.

وتردّد بينهم الكلام فيه، فقال مجالس السلطان أبو زيان عريف ابن يحيى العربي السويدي : إذا كانت الرحمة تأتي على حسب العصيان إذاً لخسر المحسنون ! قال شيخنا : لو كنت حاضراً هناك لقلت مجاوباً له : أما أهل الطاعة ففرارُهم عن الذنوب ونبذُهم إياها بعراء الترك، وأدبارُهم عن المعاصي، وإقبالُهم على الطاعة لهو الرحمة الكبرى، والطائع بإحسانه لايشابه العاصي بإساءته : لشتان مابين اليزيدَيْن : يزيد بن سلَيم والأغر بن حاتم(1) .

---

(1) الإشارة إلى قول الشاعر ربيعة الرقى :

لشتان مابين اليزيدين في الندى * يزيدُ سُليم والأغر بن حاتم

وقد كان الشاعر قد ذهب إلى الأمير يزيد بن سليم الذي غزا الروم عام 158 واستولى على حصون من ناحية قاليقلا، وقد توفي بعد عام 162، لكن الشاعر استقلّ ماأعطاه يزيد هذا ثم ذهب إلى الأمير يزيدِ بن حاتم والي المنصور العباسي على إفريقية عام 154 الذي قضى على كثير من الفتن وقد توفي بالقيروان عام 170 واشتهر بالجود والكرم فأغدق عليه من خيراته...

وقد فضّل الله تعالى الصالح على العاصي بقوليه : أمْ حسب الذين اجترحوا السيئات أن يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، الآية، وقوله : ومايستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيئ إلى آيات كثيرةٍ في هذا المعنى، لكن لما وقع العصاة في المعصية ولم يجدوا سبيلا لأفعال البر فانكسرت قلوبهم بالوقوع في الحوب، جاءت الأحاديث بما طمعوا به من رحمة الله وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : شفاعتي لأهل الكبائر، وقوله في خبر عن ربنا : أنا عند ظن عبدي فليظنّ بي ماشاء فشاء العصاة لذلك بحروف الرحمة، ولذلك قال الناظم :

لعلّ رحمة ربي حين يقسمها * تأتي على حسب العصيان في القِسم

ومع ذلك فالرحمة تُلحق العاصي بالطائع، وقال بعض المشايخ من الصوفية :

إذا بدت عينٌ من عيون الرحمة ألحقت المسيء بالمحسن ! وقال تعالى : ورحمتي وسعت كل شيء.



رسالة إلى الروضة الشريفة

عن الرسالة والقصيدة اللتين بعثهما السلطان أبو عنان إلى سيد المرسلين بخط يده (IV- 354) وحتى نأخذ فكرة عن محتويات مثل هذه الرسائل نأتي هنا –في غياب خطاب أبي عنان– بنموذج مما بعث به ملك غرناطة عن نفح الطيب (ج 5 ص 354 الإحاطة 556،4) وهو من عمل لسان الدّين ابن الخطيب إثر نظم كما نذكر بأن هذه الرسائل كانت تلقى أمام الضريح قبل خزنها.

إذا فاتني ظلُّ الحمى ونعيمُهُ فحسبُ فؤادي أن يَهُبَّ نسيمُهُ
ويُقنعني أنّى به متكنّفٌ فزمزمُهُ دمعي، وجسمي حطيمُهُ
يعود فؤادي ذكرُ مَنْ سكَنَ الغضا فيُقعدهُ فَوْقَ الغَضا ويقيمُهُ
ولَمْ أرَ شيْئاً كالنّسيم إذا سَرى شفى سَقَمَ القَلْبِ المَشوقِ سقيمُهُ
نعلّلُ بالتذكار نَفْساً مشوقةً نديرُ عليها كأسَهُ ونُديمه
وماشفْني بالغور قدٌّ مرنّحٌ ولاشاقني من وحشٍ وجرةَ ريمُهُ
ولاسهرتْ عيني لبَرْق ثنيّةٍ من الثغرِ يبدو مَوْهناً فأشيمُهُ
برانِيَ شوقٌ للنبيّ محمدٍ يسومُ فؤادي بَرْحُهُ مايسومُهُ

٢ألا يارسولَ اللّهِ ناداكَ ضارعٌ ... على النأي محفوظُ الودادِ سليمُهُ

مَشوقٌ إذا ما الليلُ مدَّ رواقَهُ ... تهمُّ به تحتَ الظّلامِ همومُهُ

إذا ما حديثٌ عنك جاءت به الصّبا ... شَجاهُ مِنَ الشّوقِ الحثيثِ قديمهُ

أيجهر بالنّجْوى وأنتَ سميعُها ... ويشرحُ مايخفي وأنْتَ عليمُهُ

ونعوزُه السقيا، وأنْتَ غياثُهُ ... وتتلفُهُ الشّكوى، وأنْتَ رحيمُهُ

بنوركَ نور اللّه قد أشرقَ الهُدى ... فأقمارُهُ وضّاحةٌ ونجومُهُ

لكَ انهلَّ فضْلُ اللّهِ بالأرضِ ساكباً ... فأنواؤهُ ملتقّةٌ وغُيومُهُ

ومن فوقِ أطباقِ السماء بك اقتدى ... خليلُ الّذي أوطاكها وكليمُهُ

لك الخُلقُ الأرْضَى الذي جلَّ ذكره ... ومجدكَ في الذكرِ العظيمِ عظيمُهُ

يجُلُّ مَدى علياكَ عن مدحِ مادحٍ ... فموسرُ درِّ القولِ فيكَ عديمُهُ

ولي يارسولَ اللّه فيكَ وراثةٌ ... ومجدُكَ لايَنْسَى الذمامَ كريمُهُ

وعندي إلى أنْصارِ دينكَ نسبةٌ ... هي الفخرُ لايَخْشَى انتقالاً مقيمُهُ

وكانَ بودّي أنْ أزورَ مُبَوَّأً ... بكَ افتَخَرَتْ أطلالهُ ورسومُهُ

وقد يُجهدُ الإنسانُ طِرْفَ اعتزامه ... ويُعوزه مِنْ بَعْدِ ذاك مَرُومُهُ

وعذريَ في تسويفِ عزمِيَ ظاهرٌ ... إذا ضاقَ عُذْرُ العَزْمِ عمّن يلومهُ

عدَتْني بأقصى الغرْبِ عن تربك العدا ... جلالقةُ الثغرِ الغريب ورُومُهُ

أجاهدُ منهُم في سَبيلكَ أمةً ... هي البحرُ يُعيي أمرها من يرومُهُ

فلولا اعتناء منك ياملجأ الورى ... لريعَ حماه واسْتُبيحَ حريمُهُ

فلاتقطعِ الحبلَ الذي قد وصلتهُ ... فمجدك موفورُ النوال عَمِيمُهُ

وأنْتَ لَنَا الغيثُ الذي نستدرُّهُ ... وأنْتَ لَنَا الظلُّ الذي نستديمهُ

ولمّا نأت داري وأعوز مطْمَعي ... وأقلقني شوقٌ يشبُّ جحيمُهُ

بعثتُ بها جهدَ المقلِّ معوّلاً ... على مجدك الأعلى الذي جلَّ خيمُهُ

وكلت بها همي وصدْقَ قريحتي ... فساعدني هاء الرويِّ وميمُهُ

فلاتنْسَى ياخَيْرَ مَنْ وطئَ الثرى ... فمثلُكَ لايُنْسَى لديْهِ خدِمُهُ

عليك صلاةُ اللّه ماذَرَّ شارق ... وماراقَ من وجْهِ الصباحِ وسيمُهُ

«إلى رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البَرْق، الحائز في ميدان

اصطفاء الرحمن قصَبَ السّبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوّة وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب أدواء القلوب، والوسيلة إلى عَلاّم الغيوب، نبي الهدى الذي طَهُرَ قلبه، وغُفرَ ذنبه، وخَتمَ به الرسالة ربه، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حُبّه، الشفيعِ المشفع يوم العرض، المحمودِ في ملإ السماء والأرض، صاحب اللواء المنشور يوم النشور، والمؤتمن على سِرّ الكتاب المسطور، ومُخرج الناسِ من الظلمات إلى النور، المؤيد بكفاية الله وعِصمْته، الموفور حَظّه من عنايته ونعمته، الظل الخفاق على أمّته، مَنْ لو حازت الشمسُ بعض كماله ماعدمت إشراقاً، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسُهم إشفاقاً، فائدة الكون ومَعْناه، وسر الوجود الذي يبهر الوجودَ سناه، وصفيّ حضرة القدس الذي لاينام قلبه إذا نامت عَيْناه، البشير الذي سبقَت له البشرى، ورأى من آيات ربّه الكبرى، ونزل فيه ﴿ سُبحان الذي أسْرى ﴾ مَنِ الأنوارُ من عنصر نوره مُسْتمدّة ، والآثار تخلق وآثاره مستجدّة، مَنْ طُوي بساطُ الوحي لفقده، وسُدّ باب الرسالةِ والنبوّة من بعده، وأوتي جوامع الكلم فوقفت البلغاء حَسْرَى دون حَدّه، الذي انتقلض في الغُرر الكريمة نورُه، وأضاءت لميلاده مصانعُ الشام وقصورُه، وطفقت الملائكة تجيئه وفودُها ونزوره، وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء وصفاته، وأخذ عهد الإيمان به على مَنِ اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته، المفْزَع الأمنع يوم الفزع الأكبر، والسند المعتمد عليه في أهوال المحشر، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس، وأقرَّ بها الجنُّ والإنس، من جماد يتكلّم، وجذع لفراقه يتألّم، وقمر له ينشقّ، وحجَرَ يشهد أن ما جاء به هو الحق، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس، وماء من بين أصابعه يتبجّس، وغمامٍ باستسقائه يَصُوب، وطَويٍّ بصق في أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب، المخصوص بمناقب الكمال وكما المناقب، المسمى بالحاشر العاقب، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب، أكرم من رُفعت إليه وَسيلة المعترف المغتّرب، ونجحت لديه قُرْبَة البعيد المقترب، سيد الرسل محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب، الذي فاز بطاعته المحسنون، واستُنقذ بشفاعته المذنبون، وسَعِدَ باتباعه الذي لاخوف عليهم ولاهم يخزنون صلى الله وسلّم مالَمَعَ بَرْقَ، وهمَعَ وَدْق، وطلعت شمس، ونَسَخَ اليومُ أمس :

«مِنْ عتيق شفاعته، وعَبد طاعته، المعتصم بسَبَبه، المؤمن باللّه ثم به، المستشفي بذكره كلّما تألم، المفتتح بالصلاة عليه كلّما تكلّم، الذي إن ذكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله، وإن هبَّ النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاله، وإن سمع الأذان تذكر صوت بلالِهِ، وإن ذكر القرآن تردُّدَ جبريل بين معاهده وخلاله، لاثِمِ تُربه، ومؤمل قربه، ورهين طاعته وحبّه، المتوسل به إلى رضى الله ربّه، يوسف بن إسماعيل بن نصر :

«كتبه إليك يارسول اللّه والدمْعُ ماح، وخَيْل الوجد ذات جِماح، عن شَوْق يزداد كلّما

نقص الصبر، وانكسار لايُتاح له إلاّ بدُنُوّ مَزارك الجَبْرِ، وكيف لايُعني مشوقَك الأمر، وتوطأ على كبده الجمر، وقد مَطَلَتِ الأيامُ ابلقدوم على تربك المقدسة اللحد، ووعدت الآمال ودانتْ بإخلاف الوعد، وانصرفت الرفاق والعينُ بنور ضريحك ماالكتحلت، والركائبُ إليك مارحَلَتْ، والعزائم قالت ومافعلت، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرَحْ، وطيورُ الآمال عن وكور العجز لم تَبْرَحْ، فيالها من معاهدَ فازَ مَنْ حَيّاها، ومشاهد ما أعْطَرَ رَيّاها، بلاد نيطت بها عليك التمائم (1) ، وأشرقت بنورك منها النجودُ والتهائم، ونزل في حُجُراتها عليك الملك، وانجلى بضياء فرقانك فيها الحَلَك، مَدَارِسُ الآياتِ والسور، ومطالع المعجزات السافرة الغُرر، حيث قضيت الفروض وحتمت، وافتتحت سورة الرحمن وختمت، ابتُدِئت الملّة الحنيفيّة وتممت، ونُسِخت الآيات وأحكمت :

«أمـا والذي بعـثك بـالحق هادياً، وأطلعك للخلق نوراً بادياً، لايطفئ غُلّتي إلاّ شِربك، ولايُسكن لوعتي إلا قربك، فما أسْعَدَ مَنْ أفاض من حرم اللّه إلى حرمك، وأصبح بعد أداءِ مافرضتَ عن الله ضيفَ كرمك، وعفّر الحدَّ في معاهدك ومعاهد أسرتك، وتردد مابين داريْ بعتتك وهجرتك، وإنّي لما عاقتني عن زيارتك العوائق، وإن كان شغلي عنك بك، وعَدتْني الأعداء فيك عن وَصْل سببي بسببك، وأصبحت بين بحر تتلاطمُ أمواجُهُ، وعدوّ تتكاثف أفواجُه، ويحجب الشمس عند الظهيرج عجاجُه - في طائفة من المؤمنين بك وطّنوا على الصبر نقوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، ورفعوا إلى مصارختك رؤوسهم، واستعذبوا في مرضاة اللّه تعالى ومرضاتك بُوسهم، يطيرون من هَيْعَة إلى أخرى، ويلتفتون والمخاوف عن يُمْنَى ويُسْرى، ويقارعون وهُم الفئة القليلة جموعاً كجموع قيصر وكسرى، لايبلغون من عدوّ هو الذرُّ عند انتشاره، عُشْر معشاره، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة اللّه تعالى هي العليا، فَيا لَه من سِرْب مَرُوع، وصريخ إلا منْك ممنوع، ودعاء إلى اللّه وإليك مرفوع، وصبية حُمْر الحواصل، تخفق فقو أوكارها أجنحة المناصل، والصليبُ قد تمطّى فمدّ ذراعيه، ورفعتِ الأطماع بضَبعيْه، وقد حُجِبتْ بالقتامِ السماء، وتلاطمت أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلا الدمَّاء، وعلى ذلك فما ضعفت البصائر ولاساءت الظنون، وماوعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تشاهده العيون، إلى أن نلقاك غداً إن شاء اللّه تعالى وقد أبلينا العذر، وأرغمنا الكفر، وأعْملنا في سبيل اللّه تعالى وسبيلك البيض والسّمر - استنبتُ(2) رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق، وتسعد من نيتي التي تصحبها برفيق مُوافق، فتؤدّي عن عبدك وتبلّغ، وتعفّر الحدّ في تُربك وتمرّغ،

---

(1) نثر فيه قول الأعرابي :

بلاد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

(2) استنبت : جواب «لما» التي وقعت قبل سطور عديدة.

وتطيّب بريّا معاهدك الطاهرة وبيوتك، وتقف وقوفَ الخضوع والخشوع تجاه تابوتك، وتقول بلسان التملّق، عند التشتبت بأسبابك والتعلّق، منكسرة الطرف، حذراً يَهْرجُها من عدم الصرف : ياغياث الأمة، وغمام الرحمة، ارحم غربتي وانقطاعي، وتغمد بطَوْلك قصر باعي، وقوِّ على هيبتك خَوَرَ طباعي، فكم جُزت من لج مَهُول، وجُبت من حزون وسُهُول، وقابِلع بالقَبوُل نيابتي، وعجّل بالرضى إجابتي، ومعلوم من كمال تلك الشّيَم، وسَجاياتيك الديم، أن لايخيب قَصْدُ من حط بفِنائها، ولايظمأ واردٌ أكبَّ على إنائها.

«اللّهم يامن جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة، وأعطيته لواء الحمد يسيرُ آدمُ فمن دونه تحت ظلاله المنشورة، وملكت أمته ما زُوي له من زوايا البسيطة المعمورة، وجعلتني من أمته المجبولة على حُبّه المفطورة، وشوّقتني إلى معهاده المبرورة، ومشاهده المَزُورة، ووكلت لساني بالصلاة عليه، وقلبي بالحنين إليه، ورغبتي بالتماس ماالديه، فلا تقطع منه أسبابي ، ولاتحرمني من حبّة ثوابي، وتداركني بشفاعته يوم أخْذِ كتابي.

«هذه يارسول اللّه وسيلة من بَعُدَت داره، وشَطّ مزاره، ولم يُجعل بيده اختياره. فإن لم تكن(3) للقبول أهلاً فأنت للأغضاء والسماح أهل، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يُتوارث كما أخبرت، والعروق تدس حسبما إليه أشرت، فلي بانتسابي إلى سعدٍ عميدِ أنصارك مزية، ووسيلة أثيرة حفية، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نيّة، فلاتنسي ومَنْ بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك، على أيدي خيار أمتك، فإنّما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك، نعوذ بوجه ربّك من إغفالك، ونستنتشق من ريح عنايتك نفحة، ونرتقب من مُحيّا قبولك لمحة، ندافع عدوّاً طغى وبغى، وبلغ من مضايقتنا ماابتغى، فمواقف التمحيص قد أعيتض مَنْ كتب وورّخ، والبحر قد أصمت من استصرخ، والطاغية في العُدوان مستبصر، والعدو محلق والولي مقصر، ويجاهك ندفع مالانطيق، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيف، فلا تفردنا ولاتهملنا، وناد ربّك فينا ﴿رَبَّنا ولاتُحَمّلْنا﴾ (البقرة : ٢٧٦)، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم، وربك يقول لك وقوله الحق ﴿وما كان اللّهُ ليُعذِّبَهُمْ وأنْتَ فيهمْ﴾ (الأنفال : ٢٣) والصلاة والسلام عليك ياخيرَ مضنْ طاف وسَعَى، وأجاب داعياً إذا دعا، وصلى اللّه على جميع أحزابك وآلك، صلاة تليق بجلالك، وتحق لكمالك، وعلى ضجيعيك وصديقيك، وحبيبتك ورفيقيك، وخليفتك في أمتك، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك، بدر سمائك ووالد أهلتك، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيرا أثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة، صانها الله تعالى ووقاها، ودَفَعَ عنها ببركتك كيدَ عِداها» انتهت الرسالة.

---

(3) الضمير يعدو إلى «وسيلة» ويعني بها الرسالة.

وكتب أيضا إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم على لسان مخدومه السلطان الغني باللّه محمد ابن السلطان أبي الحجاج - رحم اللّه تعالى الجميع- ماصورته (الإحاطة 536،4)

دَعَاكَ بأقصى المغربين غريبُ ... وأنتَ، على بُعدِ المزار، قريبُ

مُدِلٌّ بأسبابِ الرجاءِ وطرفُهُ ... غضيضٌ على حكم الحياء مريبُ

يكلفُ قرصَ البدر حمل تحيةٍ ... إذا ماهوى والشمسَ حين تغيبُ

لترجعَ من تلك المعالمَ غدوةً ... وقدْ ذاعَ من ردِّ التحيةِ طيبُ

ويستودعُ الريحَ الشمالَ شمائلاً ... من الحبّ لم يعلمْ بهن رقيبُ

ويطيبُ في جيبِ الجُيوب جوابها ... إذا ما أطلّتْ والصباحُ جنيبُ

ويَستفهم الكفَّ الخضيبَ ودمعهُ ... غراماً بحنّاء النجيع خضيبُ

وَيَتْبَعُ آثار المطيّ مشيّعاً ... وقدْ زَمْزَمَ الحادي وحنَّ نجيبُ

إذا أثر الأخفافِ لاحَتْ محارباً ... يخرّ عليها راكعاً وينيبُ

ويلقي ركابَ الحجّ وهي قوافلٌ ... طِلاحٌ وقد لبّى النداءَ لبيبُ

فلا قولَ إلا أنّةٌ وتوجّعٌ ... ولاحوْلَ إلا زفْرةٌ ونحيبُ

غليلٌ ولكنْ من قبولك منهلٌ ... عَليلٌ ولكنْ مِنْ رضاكَ طبيبُ

ألا ليت شعري والأمانيُّ ضلّةٌ ... وقدْ تخطئُ الآمالُ ثمَّ تصيبُ

أينجدُ نجدٌ بعد شَحْطِ مزاره ... ويكثُبُ بعد البعدِ منهُ كثيبُ

وتُقْضَى ديوني بعدما مَطَلَ المدى ... وينفُذُ بَيْعِي والمبيعُ معيبُ

وهَل أقتضي دهري فيسمح طائعاً ... وأدعو بحظي مسمعاً فيُجيبُ

ويالَيْتَ شعري هل لحَومِيَ موردٌ ... لديك ؟ وهل لي في رضاك نصيبُ ؟

ولكنّك المولى الجوادُ وجارُهُ ... على أيّ حال كان ليس يخيبُ

وكيف يضيقُ الذَّرعُ يوماً بقاصدٍ ... وذاكَ الجنابُ المستجارُ رَحيبُ

وما هاجني إلا تألّقُ بارقِ ... يلوحُ بفَوْدِ الليلِ منهُ مشيبُ

ذكرتُ به رَكْبَ الحجاز وجيزةً ... أهابَ بها نحو الحبيب مُهيبُ

فبتُّ وجَفْنِي من لآليءِ دمعِهِ ... غنيّ وصبري للشجون سليبُ

ترنحني الذكرى ويهفو بي الجوى ... كما مال غصنٌ في الرياضِ رطيبُ

وأحْضُر تعليلاً لشوقيَ بالمُنى ... ويطرقُ وجدٌ غالبٌ فأغيبُ

مراميَ، لو أُعطي الأمانيَّ، زورةٌ ... يُبَثُّ غرامٌ عندها ووجيبُ

فقولُ حَبيبٍ إذ يقول تشوّقاً ... عسى وظنٌ يدنو إليَّ حبيبُ

تعجبتُ من سيفي وقد جاور الغَضَا ... بقَلْبي فلَمْ يسبكْه منهُ مذيبُ
وأعجَبُ أن لايورقَ الرمحُ في يدي ... ومن فوقه غيثُ المشُوق سكيبُ
فيا سَرْحَ ذاك الحيّ لو أخلف الحيا ... لأغناك من صوْبِ الدموع صبيبُ
وياهاجِرَ الجوّ الجديب تلبُّثا ... فعهديَ رطْبُ الجانبين خصيبُ
وياقادحَ الزندِ الشَّحاح ترفّقا ... عليكَ فشوقي الخارجيُّ شبيب
أيا خاتَمَ الرسلِ المَكين مكانُهُ ... حديثُ الغَريبِ الدار فيك غَريبُ
فؤادي على جمر البعادِ مقلَّبٌ ... يُماحُ عليه للدموعِ قليبُ
فواللّه مايزدادُ إلا تلهّباً ... أأبصرتَ ماءً ثارض عَنْهُ لهيبُ
فليلتُهُ ليلُ السّليمِ ويَوْمُها ... إذا شُدَّ للشوقِ العصابُ عصيبُ
هواي هُدًى فيك اهتديتُ بنوره ... ومنتسبي للصحبِ منك نسيبُ
وحَسْبِي على أني لصحبكَ مُنْتمٍ ... وللخزرجيّينَ الكرامِ نسيبُ
عدتْ عن مغانيك المشوقة للعدا ... عَقاربُ لايخفي لهنَّ دبيبُ
حِراصٌ على إطفاء نورٍ قَدَحْتَهُ ... فمستلَبٌ مِنْ دونِه وَسليبُ
فكم من شهيدٍ في رضاك مجدّلٍ ... يظلله نسرٌ وينَدبُ ذيبُ
تمرُّ الرياحُ الغُفْلُ فوق كلومهم ... فتعبقُ من أنْفاسها وتَطيبُ
بنصركَ عنك الشغلُ من غير منّةٍ ... وهَلْ يتساوى مَشْهدٌ وَمغيبُ
فإن صحَّ منك الحظُّ طاوعتِ المُنى ... ويبعدُ مرمَى السهم وهو مُصيبُ
ولولاك لم يُعْجَمْ من الروم عُودها ... فعُودُ الصليبِ الأعجميِّ صليبُ
وقد كانتِ الأحوالُ، لولا مراغِبٌ ... ضمنتَ ووعدٌ بالظهور، تُريبُ
فما شئتَ من نصرٍ عزيزٍ وأنعُمٍ ... أثاب بهنَّ المؤمنين مُثيبُ
منابرُ عزّ أذّنَ الفتحُ فوقها ... وأفصحَ للعضبِ الطرير خَطيبُ
نَقُودُ إلى هيجائها كلَّ صائلٍ ... كما ريعَ مكحولُ اللحاظِ ربيبُ
ونجتابُ من سَرْدِ اليقين مدراعاً ... يكفِّتُها من يجتَني ويثيبُ
إذا اضطرب الخطّيُّ حول غديرها ... يروقُكَ منها لجَّةٌ وقَضيبُ
فعذراً وإغضاءً ولاتنسَ صارخاً ... بعزّك يرجو أن يجيبَ مجيبُ
وجاهك بعدَ اللّه نرجو، وإنّهُ ... لحظٌّ مليءٌ بالوفاءِ رغيبُ
عليك صلاةُ اللّه ماطيّبَ الفضا ... عليك مطيلٌ بالثناء مطيبُ
وما اهتزَّ قدٌّ للغصونِ مرنَّحٌ ... وما افترَّ ثغرٌ للبروقِ شَنيبُ

«إلى حجّة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره، وفائدةِ الكون ونكتة أدواره، وصفوة نوع

البَشَر ومنتهى أطواره، إلى المجتبي وموجودُ الوجودِ لم يَغْنَ بمطلق الوجود عديمه، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظامَ أديمه، المحتومِ في القِدم، وظلمات العدم، عند صدق القَدَم، تفضيلُه وتقديمُه، إلى وديعةِ النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدُّرر، وغمامِ الرحمة الهاميةِ الدِّرَر، إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتبائه، وحبيبه الذي لم المزية على أحبائه، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه، إلى الذي شرح صدره وغسله، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله، وأتَمَّ عليه إنعامه الذي أجزله، وأنزل عليه من الهدى والنور ماأنزله، إلى بشرى المسيح والذبيح، ومن لهم التّجْر الربيح، المنصور بالرعب والريح، المخصوص بالنسب الصريح، إلى الذي جعله في المُحُولِ غماماً، وللأنبياء إماماً، وشقَّ صدره لتلقّي روح أمره غُلاماً، وأعلَم به في التوراة والإنجيل إعلاماً، وعلم المؤمنين صلاةً عليه وسلاماً، إلى الشفيع الذي لاتُرَدُّ في العُصاة شفاعته، والوجيه الذي قُرنت بطاعة الله تعالى طاعتُه، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائم ضراعته، صاحب الآيات التي لايسعُ ردها، والمعجزات التي أربى على الألف عدها، فمن قمر شُقَّ، وجذع حن له وحق، وبنان يتفجّر بالماء، فيقوم بريَّ الظماء، وطعامٍ يُشبعُ الجمعَ الكثير يسيرُه، وغمام يُظَلِّلُ به مقامه ومسيره، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض، وأول من تنشقُّ عنه الأرض، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ماأقرض القرض، ولاعرف النفل والفرض، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذي، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال، صلى الله وسلّم ماذرَّ شارق، وأومض بارق، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق، صلاة تتأرج على شذا الزّهر، وتتبلّج عن سنا الكواكب الزُّهر، وتتردد بين السر والجهر، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر، وتدوم بدوام الدهر :

«من عبد هُداه، ومستقري مَوَاقع نداه، ومزاحم أبناء أنصاره في منتداه، وبعض سهامه المفوقة إلى نحور عداه، مؤمّل العتق من النار بشفاعته، ومحرز طاعة الجبّار بطاعته، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة، وذخائر في الشدائد مُرْتجاة، متاجر بضائعها غير مُزجاة، الذي ملأ بحبّه جوانح صدره، وجعل فكره هالة لبدره، وأوجب حقّه على قدر العبد لا على قدره، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي، نسيب بعد سعد بن عُبادة من أصحابه، وبوارق سحابه، وسيوف نصرته، وأقطاب دار هجرته، ظلّله الله تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنهُ بظلال الأمان، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السياحة في فضاء حُبّك والهيمان :

«كتبه إليك يارسولَ الله – واليراع تقتضي الهيبة صفرة لونه، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنه، وورقة الكتاب يخفق فؤادُها حرصاً على حفظ اسمك الكريم وصَوْنه، والدمعُ

يقطر فتنقط به الحروف وتفصل الأسطر، وتوهُّمُ المثولِ بمثواك المقدس لايمر بالخاطر سواه ولايخطر، عن قلب بالبعد عنك قَريح، وجفن بالبكاء جريح، وتأوّه عن تبريح، كلّما هَبَّ من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس لَهُ إلا جَبْرك، واغتراب لايؤنس فيه إلا قربك، وإن يُقْضَ فقبرك، وكيف لايسلم في مثلها الأسى، ويوحش الصباح والمسا، ويرجفُ جبل الصبرِ بعدما رسَا، لولا لعلَّ وعسى، فقد سارتِ الركبانُ إليك ولم يُقْضَ مَسيرَ، وحومت الأسرابُ عليك والجناحُ كَسير، ووعدت الآمال فأخلفت، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل، إلاّ على التمثيل، ولا من المعالم الملتمسة التنوير، إلاّ على التصوير، مَهْبط وحي اللّه تعالى ومتنزل أسمائه، ومُتردَّد ملائكة سمائه، ومدافن أوليائه، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه، رزقني اللّه تعالى الرضى بقضائه، والصَّبرَ على جاحم البعد ورَمْضائه – من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك، ومسحبة رَجْلك يارسولَ اللّه وخَيْلك، أنأى مَطارح دعوتك ومساحب ذيلك، حيث مصافُّ الجهاد في سبيل اللّه وسبيلك قد ظللها القَتام، وشُهْبان الأسنّة أطلعها منه الإعتام، وأسواقُ بيعِ النفوسِ من اللّه تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام، حيث الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور، والشهداء تحفُّ بها الحور، والأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور، حيث المباسم المُفتَرَّة، تجلوها المصارع البَرَّة، فتحييها بالعَراء ثغورُ الأزاهر، وتندبها صَوادحُ الأدواحِ برنّات تلك المزاهر، وتحلّي السحابُ أشلاءها المعَطّلة من ظلّها بالجواهر، وحيث الإسلامَ من عدوّه المكابد بمنزلة قطرة من عارضِ غِمام، وحَصاةٍ من ثَبيرٍ أو شَمام، وقد سدت الطريق، وأسلم الفراقُ الفريق، وأغصّ الرِّيق، ويئسَ من الساحل الغريق، إلا أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل الله تعالى وحبلك، المهتدية بأدلّة سُبلك، سالم والحمد للّه تعالى من الانصداع، محروسٌ فيه وجودُ الطوائف المُضِلّة، وإلا مايخص الكفر من هذه العلّة، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة.

«ولهذه الأيام يارسول اللّه أقام اللّه تعالى أوَدَه برّاً بوجهك الوجيه ورَعْياً، وإنجازاً لوعدك وهو الذي لايحلف وعداً ولايخيب سَعْياً، وفتح لنا فتوحاً أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب، وبشَّرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع التثريب، ونصرنا ولَهُ المنّة على عَبَدَة الصليب، وجعل لألفنا الرُّدَيْني ولامِنا السَّرْدي حكم التغليب، وإذا كانت الموالي التي طوّقت الأعناق مِنَنُها، وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها، تبادر إليها نوّابها الصرحاء وخدامها النصحاء بالبشائر، والمسرات التي تشاع في العشائر، وتجلو لديها نتائج أيديها، وغايات مَباديها، وتتاحفها وتهاديها، بمجاني جناتها وأزاهر غَواديها، وتطرفِ محاضرها بطُرفِ بواديها، فبابُها يارسولَ اللّه أولى بذلك وأحَقّ، ولك الحق الحق، والحرُّ منّا عَبْدُك المسترقَ، حسبما سَجّله الرق، وفي رضاك من كل من يلتمس رضاه المطمع، ومَثْواك المَجْمَع، وملوك

الإسلام في الحقيقة عبيد سُدَّتك المؤملة، وخَوَلُ مثابتك المحسنة بالحسنات المجملة، وشهب تعشو إلى بدورك المكملة، وبعض سيوفك المقلّدة في سبيل الله تعالى المحملة، وحَرَسه مهادك، وسلاح جهادك، وبروق عهادك.

«وإن مكفول احترامك الذي لايخفر، ورَبيَّ إنعامك الذي لايكفر، وملتحف جاهك الذي يمحى ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويُغْفَر، يطالع روضة الجنّة المفتحة أبوابها بمثْواك، ويفاتح صِوان القُدُس الذي أجنّك وحَوَاك، وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طُواك، ويعرض جنى ماغرست ويذرت، ومصداق مابشرت به لما بشرت وأنذرت، ومالنتهى إليه طَلَق جهادك، ومَبُّ عهادك، لتقرَّ عينُ نصحك التي أنام العيونَ الساهرةَ هجوعُها، وأشبع البطونَ ورواّها ظمئوها في الله تعالى وجُوعها، وإن كانت الأمور بمرأى من عَيْن عنايتك، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنايتك، ومجمله يارسول الله صلى الله عليك، وبلَّغ وسيلتي إليك، وهو أن الله سبحانك لمّا عرف عرفني لطفه الخفي في التمحيص، المقتضي عدم المحيص، ثم في التخصيص، المغني بعيانه عن التنصيص، وفّق ببركاتك السارية رحماتها في القلوب، ووسائل محبتك العائدة بنيل المطلوب، إلى استفادة عظة واعتبار، واغتنام إقبال بعد إدبار، ومزيد استبصار، واستعانة بالله تعالى وانتصار، فسكن هبوبُ الكفر بعد إعصار، وحُلَّ مخنّقُ الإسلام بعد حِصار، وجرت على سنن السنّة بحسب الاستطاعة والمنّة السيرة، وجُبرت بجاهك القلوب الكسيرة، وسُهِّلت المآربُ العسيرة، ورفع بيد العزة الضَّيْم، وكشف بنور البصيرة الغَيْم، وظهر القليل على الكثير، وباء الكفرُ بخطّة التعثير، واستوى الدينُ الحنيفُ على المهاد الوَثير، فاهتبلنا يارسول الله غِرة العدوّ وانتهزناها وشِمْنا صَوارم عزة الغدوّ وهَزَزْناها، وأزحنا علل الجيوش وجهزّناها.

«فكان ممّا ساعد عليه القدر، والخطبُ المبتدر، والوِرد الذي حسُنَ بعده الصَّدَر، أنّنا عاجلنا مدينة بُرْغُه(1)، وقد جَرَّعَت الأختين مالَقَة ورُنْدَة، من مدائن دينك، ومزابِن ميادينك، أكواسَ الفِراق، وأذكرت مثل مَنْ بالعراق، وسدت طرق التزاور عن الطُّاق، وأسالتِ المسيلَ بالنجيع المُراق، في مراصد المراد والمَرَاق، ومنعت المراسلة مع هدير الحمام، لابل مع طَيْف المنام عن الإلمام، فيسّر الله تعالى اقتحامها، وألحمت بيض الشفار في زُرق الكفار إلحامها، وأزال بَشْرُ السيوف من بين تلك الحروف إقحامها، فانطلق المَسْرى، واستبشرت القواعدُ الحَسْرى، وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصَرْعى ومثاقف الأسْرَى، والحمد لله على فتحه الأسنى ومَنْحِهِ الأسرى ، ولا إله إلا هو منفِّل قيصر وكسرى ، وفاتح مغلقاتهما المنيعة قَسرا؛ واستولى الإسلام منها على قرار جنات، وأم بنات، وقاعدة حصون، وشجرة غصون، طهرت

---

(1) برغه (Burgo) بين مالقة ورندة.

مساجدها المغتصبة المكرهة، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبرهة، وانطلقت بذكر اللّه الألسنة المِدْرهة، وفاز بسبق ميدانها جيادك الفرهة، هذا وطاغية الروم على توفّر جموعه، وهَوْل مرئيه ومسموعه، قريبٌ جوارُه، بحيث يتصل خُواره، وقد حرك إليها الحنين حوَاره.

«ثمَّ نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذي أعيا النطاسيَّ علاجُه، وكرك(2) هذا القطر الذي لاتُطاول أعلامه ولاتصاول أعلاجه، وركاب الغارات التي تطوى المراحل إلى مُكايدة المسلمين طي البرود، وحجر الحيات التي لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود، ومُنَغِّص الورود في العذب المورود، ومُقَضّ المضاجع، وحلم الهاجع، ومجهّر الحطب الفاجئ الفاجع، ومستدرك فاتكة الراجع، قبل هبوب الطائر الساجع، حصن آشر(3) حماه اللّه تعالى دعاء لاخبراً، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبراً، فأحاطوا به إحاطة القِلادة بالجيد، وأذلوا عزته بعزّة ذي العرش المَجيد، وحفت به الرايات يَسِمُها وضسْمُكَ، ويلوح في صفحاتها اسمُ اللّه تعالى واسْمُك، فلا ترى إلاّ نفوساً تتزاحم على مَوْرد الشهادة أسرابها، وليوثاً بَصِنْدُق في الله تعالى ضَرابُها، وأرسل اللّه عليها رِجْزاً إسرائيلياً من جَرَاد السهام، تشذ آياته عن الأفهام، وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام، من بعد الاستغلاق والاستبهام، وقد عبثت جوارح صخوره في قنائص الهام، وأعيا صَعْبُه على الجيش اللُّهام، فأخذ مسائغَه النقضُ والنقبُ، ورَغا فوق هله السّقب(4)، ونَصُبَت المعارج والمَراقي، وقُرِعت المناكب والتراقي، واغتنم الصادقون مع اللّه تعالى الحظ الباقي، وقال الشهيد السابق : يافوز استباقي ، ودخل البلد فأُلحم السيف، واستُلِبَ البَحْتُ والزيف، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامُك في أبراجها المشيدة، وظفر ناشدُ دينك منها بالنشيدة(5)، وشكر اللّه تعالى في قصدها مساعيَ النصائح الرشيدة، وعمل مايرضيك يارسول اللّه في سدّ ثَلْمها، وصَوْن مستلمها، ومُداواة ألمها، حرصاً على الاقتداء في مثلها بأعمالك، والاهتداء بمشكاة كمالك، ورتب فها الحماة تشجي العدوّ، وتصل في مرضاة اللّه تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُوّ.

«ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة(6) بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلّتها بالجناح السائر، وأنامتها في ضَمان الأمان للحُسام الباتر، وقد وتر الإسلام من هذه الموسة البائسة

---

(2) شبهه بحصن الكرك، وكان ذا شأن ومنعة في الحروب الصليبية.

(3) حصن آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحصن روطة (Rute) على ضفة رافد من روافد شنيل ؛ وقد صحف في ق فكتب «أشب»

(4) السقب : ولد الناقة وفي العبارة إشارة إلى ماحل بقوم صالح عندما عقروا الناقة، فيقال في المثل لتصوير الهلاك «رغا فوقهم السقب».

(5) النشيدة : الضالة التي تنشد أي تطلب.

(6) إطريرة (Utrera) إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد 39 كيلومتراً، وقد ضبطت بكسر الهمزة وسكون الطاء.

بوتر الواتر، وأحفظَ منها بأذى الوَقاح المهاتر، لما جرّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر، حَسْب المنقولِ لابل المتواتر، فطوى إليها المسلمون المدى النازح، ولم تشكُ المطيُّ الروازح، وصدق الجدُّ جَدها المازح، وخفقت فوق أوكارها أجنحةُ الأعلام، وغشيتها أفواجُ الملائكة الموسومة وظلالُ الغمام، وصابت من السهام وَدْق الرّهام، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام، وقد صمَّ خاطبُ عروس الشهادة عن الملام، وسمح بالعزيز المَصُون مبايع الملك العلاّم، وتكلم لسانُ الحديد الصامت وصمت إلا بذكر اللّه لسانُ الكلام، ووفت الأوتار بالأوتار، ووصل بالحَطّيّ ذَرْع الأبيض البتّار ، وسلطت النار على أربابها، وأذن اللّه تعالى في تَبار تلك الأمة وتَبابها، فنزلوا على حكم السيف آلافا، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافاً، واستوعب المقاتلة كتافاً، وقُرنوا في الجُدُل أكتافاً أكتافاً، وحُملت العقائل والخرائد، والولدان والولائد، إركابا من فوق الظهور وإردافاً، وأقلت منها أفلاك الحمول بدوراً تضيء من ليالي المحاق أسدافاً، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم، بما لايصوّره حلم النائم، وتركت العَوَافي تتداعى إلى تلك الولائم، وتفتنُّ من مطاعمها في الملائم، وشُنّت الغارات على حمص فجللت خارجها مغاراً، وكست كبار الروم بها صَغاراً، وأجحرت أبطالها إجحاراً، واستاقت من النَّعم مالايقبل الحصر استبحاراً.

«ولم يكن إلا أن عدل القسم، استقل بالقفول العزيز الرسم، ووضح من التوفيق الوسْم، فكانت الحركة إلى قاعدة جَيّان قيعة الظل الأبرد، ونسيجة المنوال المفرد، وكناس الغِيد الخُرَّد، وكرسي الإمارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيثَ الهَتُون، وحزب التين والزيتون، حيث خندق الجنّة تدنو لأهل النار مَجانيه، وتشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زُهْرُ مبانيه، والقلعة التي تَخَتّمَتْ بنانُ شرفاتها بخواتيم النجوم، وهمَت من دون سحابها البيض سحائبُ الغيث السّجوم والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها، وهجوم فراقها، سِمَة الوجوم لذلك الهجوم، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوداعة، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادعة، وحَبَتْها بالفادحة الفادعة، فغَصَّت الرُّبى والوهاد بالتكبير والتهليل، وتجاوبت الخيلُ بالصَّهيل، وانهالت الجموعُ المجاهدة في اللّه تعالى انهيالَ الكَثيب المَهِيل، وفهمت نفوسُ العباد المجاهدة في اللّه تعالى حقَّ الجهاد معانيَ التيسير من ربّها والتسهيل، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل، وأربت المحلات المسلمة على التأميل، ولمّا صبحتها النواصي المقبلة الغُرَر، والأعلام المكتتبة الطُّرَر، برز حاميتها مُصْحرين(7)، وللحوزة المستباحة منتصرين، فكاثرهم من سَرْعان الأبطال رَجْلُ الدَّبا(8)، ونَبْتُ الوهاد والرُّبى ، فأقحموهم من وراء السور، وأسرعت أقلام الرماح في بسط عددهم المكسور، وتركت

(7) مصحرين : بارزين.

(8) الرجل : الجماعة، والدبا : الجراد.

صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا رَبَضَ المدينة الأعظم فقرعوه، وجَدّلوا مَنْ دافع عن أسواره وصَرَعوه، وأكواسَ الحتوف جَرَّعوه، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم، ويحمد بمخيم النصر العزيز سُراهم، حتى خذل(9) الكافرَ الصبرُ وأسلم الجلَد، ونزل على المسلمين النصر فدُخِل البلد، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد، وأتهم المطرف والمتلد، فكان هولاً بعدَ الشناعة، وبعثاً كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار، والأكبُش عن مناطحة الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد، ومعاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلَتِ الكثْبان، وأبيد الشيب والشبان، وكسرت الصُلبان، وفجع بهدم الكنائس الرهبان، وأهبطت النواقيس من مَراقيها العالية وصروحها المتعالية، وخلعت ألسنتها الكاذبة، ونقل ماستطاعته الأيدي المجاذبة، ، وعجزت عن الأسلاب(10) ذوات الظهور، وجلل الإسلام شعار العزّ والظهور، بما خلت عن مثله سوالف الدهور والأعوام والشهور، وأعرست الشهداء ومن النفوس المبيعة من اللّه تعالى نحل الصدقات والمهور. ومن بعد ذلك هُدم السور، ومحيت عن محيطه المحكم السطور، وكاد يسير ذلك الجبلُ الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور، ومن بعد ماخرب الوِجار، عُقرب الأشجار، وعُفِّر المنار، وسلطت على بنات الترابِ والماء النار، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب، وأصمى لَبّتها السهمُ الصائب، وجللتها القَشاعم العصائب، فالذئاب في الليل البهيم تعسل، والضباع من الحَدَّبِ البعيد تنسل، وقد ضاقت الجُدُلُ عن المخانق، وبيع العِرضُ الثمين بالدانق، وسُكبت أسورة الأسوار، وسوّيت الهضاب بالأغوار، واكتسحت الأحوازَ القاصية سرايا الغوار، وحجبت بالدخان مطالعُ الأنوار، وتخلفتِ قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين، وآية للمستبصرين، ونادى لسان الحمية، يا لثارات الإسكندرية، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين، وأحَقَّ اللّه الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين.

«ثم كان الحركة إلى أختها الكبرى، ولِدَتِها الحزينة عليها العبرى، مدينة أبدة (11) ذات العمران المستبحر، والربَضِ الخرق المصحر، والمباني الشُّمّ الأنوف، وعقائل المصانع الجمة الحلي والشنوف، والغاب الأنوف، بلدة التجر، والعسكر المَجْر، وأفق الضّلال الفاجر الكذبِ على الله تعالى الكاذب الفَجْر، فخذل اللّه تعالى حاميَتَها التي تعيي الحسبان عدُّها، وسَجر بحورها التي لايرام مدُّها، وحقَّت عليها كلمة اللّه تعالى التي لايستاع رَدُّها، فدُخلت لأول وَهْلَة، واستوعب جَمُّها والمنة للّه تعالى في نَهلة، ولم يكف السيف من عليهنا ولامهلة، فلّما تناولهنا العَفا والتخريب، واسباحها الفتح القريب، وأسْنِد عن عَوَاليها حديثُ النصر الحسن

(9) في نسخة جذل ، وصوبناه.

(10) في نسخة الأشلاء.

(11) أبدة (Ubeda) – بتشديد الباء – إلى الشمال الشرقي من جيان.

الغريب، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب، وأضْرعَتْ مسايفها(12) لهول المصاب، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم صيتُه، والعز الذي سما طَرْفه واشرأب ليثُه، والعزم الذي حُمد مَسراه ومبيته، والحمد لله ناظم الأمر وقد راب شتيته، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفيته.

«ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطارف والتلاد، قرطبة، وما قرطبة ؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسي الذي بعصاهُ رُعي الهمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمية (13) الحمل، فخيم الإسلام بعقوتها(14) المستباحة، وأجاز نهرها المعيي على السّباحة، وعم دَوْحها الأشبَ بواراً، وأدار المحلاّتِ بسورها سِواراً، وأخذ بمُخَنّقها حِصاراً، وأعمل النصر بشجر بصلها(15) اجتناءاً ماشاء واهتصاراً، وجدّل من أبطالها من لم يرض انجحاراً، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً، حتى فرغ بعض جهاتها غلاباً جهاراً، ورفعت الأعلام إعلاما بعز الإسلام وإظهاراً، فلولا استهلاك الغَوادي، وأن أتى الوادي، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولَقَضَى تفثَه (16) العاكفُ والبادي، فاقتضى الرأي ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها مَتاب، تعمل ببُشراه بفضل الله تعالى أقتاد وأقتابُ، ولكل أجل كتاب - أن يُراض صَعْبها حتى يعود ذَلولاً، وتُعْفى معاهدها الآهلة فتُترك طُلولاً، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار طوائفها المارجة، وأباد بخارجها الطائرة والدارجة، خَطَبَ السيفُ منها أمَّ خارجة (17)، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارقُ الهضاب بالهشيم قد شابت، والغلات المستغلات قد دعا بها القَصْلُ فما ارتابت، وكأن صحيفة نهرها لما أضرمت النار في(18) ظهرها ذابت، وحييته فرّت أمام الحريق فانسابت، وتخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح، وأغريت بأقطارها الشاسعة، وجهاتها الواسعة، جنودُ الجوع، وتوعدت بالرجوع، فسلب أهلها لتوقع الهجوم

---

(12) المسايف : جمع مسيف، ويعني بها لسان الدين في الأرجح ؛ المدماك (أي السطر من البناء)

(13) العبشمية : نسبة إلى عبد شمس.

(14) العقوة : الساحة. وفي ق : بعقرتها.

(15) في نسخة : فأعمل النصر ... نصها، والمراد أن النصر حطم رماحها.

(16) التفث في الحج : الحلق والتقصير وقص الأظفار ونحر البدن وغير ذلك ممايفعله الحاج إذا حل من إحرامه، والمراد أنه استوفى حجه، فكنى به لسان الدين عن بلوغ غاية الأرب.

(17) أم خارجة : كانت سريعة الخطبة ولذلك قيل في المثل «أسرع من نكاح أم خارجة» وقد شبه قرطبة بها لتداول الغلبة عليها دهراً بعد دهر، وألمح ابن شهيد إلى هذا حين نزل بقرطبة فقال :

زنت بالرجال على سنها فيا حبذا هي من زانيه!!

(18) في نسخة : حافي ، ولعلها : حامي.

منزور الهجوع، فأعلامها خاشعة خاضعة، وولْدانُها لثُديّ البؤس راضعة، والله سبحانه يُوفِدُ بخبر فتحها القريب ركابَ البُشْرى، وينشر رحمته قَبلنا نشرا.

«ثم تنوّعت يارسول الله لهذا العهد أحوالُ العدوّ تنوّعاً يوهم إفاقته من الغمرة، وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمرة، وتُوُقِّعُ، وحُذِر ذلك السمُّ الناقع، وخفيف الخرق الذي يحار فيه الراقع، فتعرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك، وموصول عنايتك، فأنزل النصر والسكينة، ومكّن العقائد المكينة، فثابت العزائم وهبّت، واطّردت عوائد الإقدام واستتبت، وماراع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله، وشمس الحق توجب ظلاله، وهُداك الذي هَديت يُدْحِض ضلاله، ونازلنا حصني قنبيل والحائر(19)، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً، وقد اتخذا بين النجوم قَراراً، وفصل بينهما حسام النهر يروق غراراً، والتفَّ معصمُه في حُلّة العَصْب وقد جعل الجسر سواراً، فخذل الصليبُ بذطلك الثغر مَنْ تولاّه، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه، وتبرجت عروسُ الفتح المبين بمَجْلاه، والحمد لله تعالى على ماأولاه.

ثم تحركنا على تفئة (20) تعدّي ثغر الموسطة على عدوّه المساورِ في المضاجع، ومصبحه بالفاجئ الفاجع، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكَظْم، المعترض بالشَّجا اعتراض العظم، وقد شحنه العدو مدداً بئيساً، ولم يألُ اختياره رأياً ولاتلبيساً، فأعيا داؤه، واستقلت بالمدافعة أعداؤه، ولمّا أتلع إليه جيد المنجنيف، وقد برك عليه بروك الفَنيق، وشد عصام العزم الوثيق، لجأ أهلُه إلى التماس العهود والمواثيق، وقد غصوا بالريق، وكاد يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق، فسكناه من حامية الماهدين بمن يحمي ذماره، ويقرر اعتماره، واستولى أهلِ الثعور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها، وشرعوا أرْشِيَةَ الرماح إلى قُلُب قلوبها فمتحوها.

«ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفُضُ عن الأعراف متراكم الغبار، وترحي عن آباط خيلها شدَّ حُزُم المغار، حتى عاودت النفوسُ شوقَها، واستتبعت ذَوْقَها، وخطبت التي لافَوْقَها، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية، والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي من طرق وادعُه، ومطلع الحق الذي صَدَعَ الباطلَ صادعه، وثنية الفتح التي بَرَقَ منها لامعه، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه، وفرضة المجاز التي لاتنكر، ومجمع البحرين في بعض مايذكر، حيث يتقارب الشطّان، ويتوازى الخطّان، وكاد أن تلتقي حَلْقَنَا البِطان، وقد كان الكفرُ قدّرَ قَدْرَ هذه الفرصة التي

---

(19) في نسخة والحوائر.

(20) على تفئة : على أثر.

طرق منها حِماه، ورماه الفتح الأول بما رَماه، وعلم أن لا تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلاّ من تلقائها، وأنّه لايعدم المكروه مع بقائها، فأجلب عليها برَجْله وخَيْله، وسد أفق البحر بأساطيله، ومراكب أباطيله، بقطع ليْله، وتداعى المسلمون بالعُدوتين إلى استنقاذها من لَهَواته، أو إمساكها من دون مَهْواته، فعجز الحول، ووقع بملكه إياها القول، واحتازها قَهْراً وقد صابرت الضيق مايناهز ثلاثين شهراً، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم، واسودّت الوجوه لخبرها الهاجم، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم، وانقطع المدد إلا من رحمة من يُنَفّس الكروب، ويغري بالإدالة الشروقَ والغروب. وبما شكُنا بشَبا الله تعالى نَحْوَها، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تُكاثر نجم السماء برها وبحرها، ونازلناها نذيقها شديد النزال، ونجحّها بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال ، رأينا بأواً لا يظاهر إلا بالله تعالي ولايُطال، وممنَّعة يتحاماها الأبطال، وجناباً روّضة الغيث الهطال، أما أسواقها فهي التي أخذت النجد والغَوْر، واستَعَدَّتْ بجدالِ الجلاد عن البلاد فارتكبت الدَّوْرَ(21) ، تحوز بحراً من العمارة ثانيا، وتشكّكُ أن يكون الإنس لها بانياً، وأمّا أبراجها فصفوف وصفوف، تزين صفحاتِ المسايفِ منها أُنوف، وآذان لها من موامغ الصخر شُنُوف، وأما خندقها فصخر مجلوب، وسورٌ مقلوب، فَصَدَقها المسلمون القتالَ بحسب محلّها من نفوسهم، واقتران اغتصابها ببوسهم، وأفول شموسهم، فرشَقوها من النبال بظلالةٍ تحجب الشمس فلا يشرق سَناها، وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون مبناها، ونفوسها أنقاباً، وحصونها عقاباً، ودخلوا مدينة إلبنةَ(22) بِنْتِها غلاباً، وأحسبوا السيوف استلالاً والأيدي اكتسابا(23)ً، واستوعب القتل مقاتِلتَها السابغة الجَبَن، البالغة المنن، فأخذهم الهول المتفاقم، وجدّلوا كأنّهم الأراقم، لم تفلت منهم عينٌ تطرف، ولا لسانٌ يلبي من يستطيع الخبر أو يستشرف.

«ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سواراً على سورها، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها، وأدنوا إليها بالضُّروب من حيل الحروب، بروجاً مَشيدة، ومجانيق توثق حبالها منها نَشيدة، وخفقت بنصر الله تعالى عَذَباتُ الأعلام، وأهدت الملائكة مدد السلام، فخذل الله تعالى كفَّارها، وأكْهم(24) شفارها، وقلَّم بيد قدرته أظفارها، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا على مَراقي العروج، إلى الأباطح والمروج، من سمائها ذات البروج، فكان بروزهم إلى العَراء من الأرض، تذكرة ببيون العَرْض، وقد جلل المقاتِلةَ الصّغار،

---

(21) أي أنها وقعت في قضية دور (وهو من مصطلح المنطق) بسبب ماستعدت به من جدال المجالدة ؛ ولاريب أن التلاعب بمصطلح أهل المناظرة هنا واضح.

(22) في نسخة البنية ؛ والمقصود أن هذه المدينة «البنة» هي بنت الجزيرة الخضراء أي هي من توابعها.

(23) يقابل هنا الاحتساب – وهو ما كان لوجه الله تعالي – وبين الاكتساب.

(24) أكهم : أكلّ عن الضرب.

وتعلّق بالأمان النساء والصِّغار، وبودرت المدينة بالتطهير ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير، والذكر الجهير، وطرحت كفّارها التماثيل عن المسجد الكبير، وأزرى بألسنة النواقيس لسانُ التهليل والتكبير، وأنزلت عن الصروح أجرامُها، يعيى الهندام(25) مرامُها، وألفيَ منبر الإسلام بها مجفوّاً فأنست غربته، وأعيد إليه قربه وقربته، وتلا واعظ الجمع المشهود، قول منجز الوعود ومُورق العود ﴿وماظَلَمْناهُم ولكن ظَلَموا أنْفُسَهُم، فَما أغْنَتْ عَنْهُم آلِهَتُهُم التي يَدعون مِنْ دُون اللّه مِنْ شيءٍ لَمَّا جاء أمْرُ ربّك، وَمَا زادُوهُم غَيْر تَتْبيب، وكذلك أَخْذُ رَبّك إذا أخذَ القُرى وهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَديد، إنَّ في ذلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذابَ الآخرَة، ذلكَ يَوْمٌ مجمُوعٌ لَهُ النّاسُ وذلكَ يَوْمٌ مَشْهود﴾ فكان الدمعُ يُغرق الآماق، والوجدُ يستأصلُ الأرماق، وار تفعت الرغبات، وعَلَت السيات، وجيء بأسرى المسلمين يرسُفُون في القيود الثقال، وينسلون من أحدابِ الاعتقال، ففُكت عن سوقهم أساودُ الحديد، وعن أعناقهم فَلَكاتُ البأس الشّديد، وظلّلوا بجناح اللطف العريض المديد، وترتبت في المقاعد الحامية، وأزهرت بذكر اللّه تعالى المآذن السامية، وعادت المدينة لأحسن أحوالها، وسكنت من بعد أهوالها، وعادت الجالية إلى أموالها، ورجع إلى القطر شبابه، ورُدَّ على دار الإسلام بابه، واتصلت بأهل لا إله إلاّ اللّه أسبابه، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادَه النحر، وحاضرةُ البرّ والبحر، أبقى اللّه تعالى عليها وعلى ماوراءها من بيوت أمتك، ودائع اللّه في ذمتك، بكلمة دينك الصالحة الباقية ؛ وعُدنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول، وهِجّيرا الشروقِ والأفول، والجهاد يارسول اللّه الشأن المعتمدَ، ماامتدَّ بالأجل الأمد، والمستعان الفرد الصمد.

«ولهذا العهد يارسول اللّه صلى اللّه عليك، وبَلّغ وسيلتي إليك، بلغ من هذا القُطر المرتدي بجاهك الذي لايذل من ادّرعَه، ولايضل من اهتدى بالسبيل الذي شرعه، إلى أن لاطفَنضا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها، ورفع التماثيل بيوت اللّه تعالى ونصبها، فانجاب عنها بنورك الحلك، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذي نزل به على قلبك المَلَك، فوجبت مطالعةُ مقرّك النبويّ بأحوالِ هذه الأمةِ المكفولة في حِجْركَ، المفضلة بإدارة تَجْرك، المهتدية بأنوار فَجْرِك، وهل هو إلا ثمراتُ سَعْيك، ونتائج رَعْيك، وبركة حبّك، ورضاك الكفيل برضي ربّك، وغمام رعدك، وإنجاز وَعْدك، وشعاع من نور سعدك، وبَذْر يجنى رَيْعه من بعدك، ونصر رايتك، وبرهان آيتك، وأثر حمايتك ورعايتك.

«واستنْبتُ هذه الرسالة مائحةَ بحرِ الندى الممنوح ومُفاتحة باب الهدى بفتح الفتوح، وفارعة المظاهر والصروح، وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح، لتمدَّ إلى قبولك يَدَ استمناح، وتطيرَ إليك من الشوق الحثيث بجناح، ثم تقف موقف الانكسار، وإن تَجْرها آمناً من

(25) الهندام : الآلات

الخسار، وتُقْدم بأنس القربة، وتحجم بوَحْشة الغربة، وتتأخّر بالهيبة، وتُجْهش لطول الغيبة، وتقول : ارحم بُعْدَ داري، وضعف اقتداري، وانتزاح أوطاني، وخلوَّ أعطاني، وقلة زادي، وفراغ مزادي، وتقبّلْ وسيلة اعترافي، وتغمّدْ هفوةض اقترافي، وعجِّل بالرضى انصراف متحملي لانصرافي، فكم جُبت من بحر زاخر، وقَفْرَ بالركاب ساخر، وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدك، أو تتخطاني مقاصدُك، أو تطردني موائدك، أت تضيقض عني عوائدك، ثم تمدّ مقتضيةً مزيد رحمتك، مستدعيةً دعاء مَنْ حضر من أمتّك، وأصحبتها يارسولض الله عرضاً من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتتحة تعيق الإقامة والأذان، وتسمع الأسماع الضالة والآذان، ممّا قَبِلَ الحركة، وسالم المعركة، ومكّن من نقله الأيدي المشتركة، واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك السابقة في الأزل البركة، وما سواها فكانت جبالاً عجزَ عن نقلها الهتدام، فنسخ وجودَها الإعدام، وهي يارسولَ الله جنى من جنانك، ورطبٌ من أفنانك، وأثرٌ ظهر علينا من مسحةِ حنانك.

«هذه هي الحال والانتحال، والعائقُ أن تشدّ إليك الرحال، ويعمل الترحال، إلى أن نلقاك في عَرَصات القيامة شفيعاً، ونحلَّ بجاهك إن شاء الله تعالى محلاً رفيعاً، ونقدمَ في زُمْرَةَ الشهداء الدامية كلومهم من أجلك، الناهلة غللهم في سَجْلك، ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجاً، وأعلى لك في السبع الطباق معراجا، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم، وقَفَى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم، أن لايقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك، ولايسدّ في وجوهها أبوابك، ويوقفها لاتباع هذاك، ويثبت أقدامها على جهاد عِداك، وكيف تعدم ترفيها، أو تخشى بَخْساً وأنت موفّيها، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحط بفِنائك رحال طيبها، وتهدر في ناديك شَقائق خطيبها، ما أذكر الصباحُ الطّلْقُ هداك، والغمامُ السّكْبُ نَداك، وما حنَّ مشتاق إلى لَثْم ضريحك، وبُليت نسمات الأسحار عمّا استرقت من ريحك، وكتب في كذا» انتهت الرسالة ، وفيها مالا خفاء به من براعة لسان الدين، رحمه الله تعالى وقدّس روحه الطاهرة، آمين.

* * * * *

ومن المهم أن نعرف أن رسالة السلطان أبي عنان وقصيدته كذلك تركت صدىً كبيراً في المشرق الأمر الذي يفسره أن صاحب كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون تحدث عن كتاب يحمل اسم الدرة السنية والرسالة النبوية، وقال عنها : أنها رسالة لأبي عنان فارس ملك المغرب...

* * * * *

وقفية المدرسة البوعنانية بداخل فاس

وفي حديثه (352-IV) عن المدرسة الكبرى المعروفة بالمتوكلية ينبغي أن نعرف أن هذه المدرسة تعتبر مؤسسة حضارية فائقة لا بما تضمه من العدد الكثير من الغرف التي تؤوي الطلاب، ولكن بما اشتملت عليه من تجهيزات وبما فاقت به المدارس الأخرى أيضا حيث إنها اشتملت، بالإضافة إلى رواقين متقابلين للدرس، على صومعة تشرف على المدينتين : فاس القديم وفاس الجديد، وعلى قاعة للصلاة ازدانت بمنبر رائع بديع... كما اشتملت على ساعة مائية كانت حديث الكتاب والشعراء ردحاً من الزمان، نصبت قبالة باب المدرسة الرئيسي في شارع الطالعة الكبرى غير بعيدة عن دار الوضوء التي تعدّ بدورها متحفاً رائعاً لأنها تنسيك وأنت تتجول ببصرك في قبتها أنك في بيوت لم يأذن الله برفعها ! وقد روى أنّ السلطان أبا عنان وقد أطلعه المهندس علي المصاريف الباهضة التي انفقها لم يستكثر تلك الأرقام بل مزق الأوراق ورمى بهافي الساقية التي تخترق المدرسة متمثلاً بالبيت القائل :

ليس لما قرتّ به العين ثمن * لابأس بالغالي إذا قيل حَسَن !!

وهذا هو نص أسماء الأوقاف المرصودة لسير المدرسة منقوشة على رخامة مغروسة في الجدار هناك حتى يقف عليها الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة السنية المسماة بالمتوكلية المؤسسة على تقوا من الله ورضوان المعدة لتدريس العلم واقراء القرآن المفضة بإقامة فرض الجمعة المخصوصة بالمرافق الشاملة والمحاسن المستبدعة مولانا الخليفة الامام حنسة الأيام وناصر الإسلام ، المجاهد في سبيل الله، المضفر بمعونة الله، العالم العامل، الصالح العادل، الفنت الأوّاب، صاحب الحرب والمحراب، أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، المتوكل على الله أبو عنان، فارس ابن مولانا الإمام العادل، الفاضل الكامل، الأروع، الأخشى لله الأخشع، أمبير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن ابن مولانا الإمام الطاهر، المؤيّد الطاهر وجواد الاجواد، واسد الاساد وأمير المسلمين وناصر الدين والمجاهد في سبيل رب العالمين وأبي سعيد ابن مولانا الإمام العابد والفانت الزاهد والذي اعزّ الإسلام جهاده، المبرور وكرم في سبيل الله اثر اجتهاده المأثور، أمير المسلمين وناصر الدين والمجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف بن عبد الحق وصل اله تعالى، لمقامه العلي أسباب التاييد والتمكين، وسناله النصر العزيز والفتح المبين وجعل الخلافة كلمة باقية في عقبة إلى يوم الدين وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل جزاء المحسنين، فصد ايده الله تعالى ببنائها وجه الله تعالى، في احياء رسوم العلوم وتجديد العناية بالمنقول والمفهوم، ابتغاء حسن الثواب على تجليد أعمال

البر واجراء الصدفات الباقية بفاء الدهر والله تعالى ولي المثوبة ومجزل الاجر حبسى ايده الله على هاذه المدرسة ارفافا لطلبة العلم، وارفادا واعانة بهم على طلبه واسعادا جميع ما ينقسم من الربع وذالك الحمام المعروف بحمام الشهارة والدويرة المتصلة من حقوقه بأعلى حلق النعام فبلي المدرسة المباركة، والرحا المتصلة بالمدرسة من جهة الشرق والرحا الثانية المعروفة برحا الحطا بين التي بها معدة الماء المجلوب منها الماء إلى المدرسة ودار الوضوبها والفرز الذي بالزنقة الفاصلة بينه وبين المدرسة والروال الاثنان احدهما بالزنقة جنب الفرز وتتصل بدار الوضو المذكورة واربع وسبعون حانوثا كلها بالقرب من المدرسة بحقوق ذلك كله ومنافعه أجمعها اليصرف فوائده في اصلاح المدرسة ومرتبات ، المقرئين والطلبة والقوامين بها تحبيسا تاماً ثابت الحكم لاتبديل لرسمه ان شاء الله تعالى وكان ابتداء بنائها في الثامن والعشرين لشهر رمضان المعظم عام واحد وخمسين وسبعمائة والفرا غ منه في آخر شعبان المكرم عام ستة وخمسين وسبعمائة وكان بناوها علي يدي الناظر في الحبس بحضرة فاس حرسها الله تعالى أبي الحسين بن أحمد بن الأشقر وفقه الله تعالى والحمد لله كثيرا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وسلم.



حول الحديث عن الزّاوية المتوكلية خارج المدينة

حول حديثه عن (الزاوية العظمى) التي بناها خارج فاس (353-IV-84,I) والتي التبست على معظم الناس بالمدرسة العنانية نسوق مايلي نقلا عن ابن الحاج النّميري والمقّري...

وعلى إثر رجوع مولانا أيدّه اللّه من حركته الجميلة الآثار، واستقراره بحضرته العلية التي هي مطلع الأنوار، ومطرح أشعة المجد والفخار، تخلّصت الزاوية العظمى التي أمر أيّده اللّه ببنائها على غدير (الحِمِّص) الذي أنسى وادي حمص، وأطلعها بشاطئه مجموع كمال لايعرف النقص وروضة أذهان فحصت عن المحاسن فلزمت الفحص.

وما الذي أقوله في زاوية أعجز وصفُها كل بليغ، وأثنته وكأنه بحيات الأقلام جد لديغ. فشغر الشعر به مكبوت، والنثر وإن فاق النثرة به ممقوت. فهي أعجوبة المغرب والمشرق، ومنشأ أحاديث الهشيم والمعرق مصنع طأطأت له المصانع رؤوسها، ومبنى استصغرت به المباني الشامخة نفوسها. قد اختطت في أرض وطئة الأكناف، متخّيرة للمنزل المنيف والروضة الميناف. فتأسّست على أثبت القواعد، وقامت شامخة المراقي والمصاعد. راسخة أقدام حيطانها، ظاهرة بركات استنباطها. منفسحة الساحة، متلقية الواردين براحتي الراحة. مبيضة كأنما أشكالها الصباح الصباح. صحيحة جسوم البناء لكن تسري بها من

روضـها المجاور الأرواح. أحسـن من الوشي اليمـاني تنميقاً، وأبدع من حلتي الغواني جمعاً وتفريقاً

قد قام بقبليها على العادة جامع للمحاسن جامع . ومسجد يتحيّر فيه راء ويعجّب فيه سامع. قد لبست سقفه من الزخارف حللاً. وجرت ذيل الإبداع والإتقان فضلاً. وأزرت شمساً بالبدور وأبدت وجوه الابتهاج. وتلقت أعراب البدائع من الزجاج.

وتقابلـها بالجوف قبة صـعدت ف الجو، وتنزّه كمالها عن الليث واللو. وارتفـعت ارتفاع النسر الطائر. وجمعت بين الحسن الباطن والحسن الظاهر.

وتدور بهذه الزاوية المباركة من جهاتها الأربع براطل بديعة الاختراع. متقابلة الأشكال والأوضـاع. قد قـامت سواريها كـأنـها عرائس تجلي. وبأرضـها من الصنـائع مـاهو أبدع من حللهن التي تبلى.

وقد امتد من الجامع إلى القّبة صـهريج بديع الطول والعرض. يلتفت عن زرق كـأنّما عيونه عيون للأرض. ينسخ به الرياح دروعاً لكنها فـارسية ولربما جاءت بها المياه رافضة القياس كأنّما ظاهرية داودية.

وبشاطئي هذا الصـهريج أسدان لم يغل التبر، حين نفق منهما الصفر، ولم تبأ الزهر، حين طلع أمـامهما الزهر. للماء على أفواهـهمـا تحدر، وللحباب أمـامهما تحيّر وللحصـا خيفة منهما تستر. من كل ثقيل على النفوس خفيف. قد سخر للصـالحين وشـرف أحسن تشريف. وعظم بمحله إيناس. فكأنما عرينه كناس وفي طي ذلك للتنعّم أنواع وأجناس.

وفي كل ركن من أركـان هذه الزاوية باب يشـرع إلى دار بديعـة البناء، مـتناسـبـة الأجزاء، مكملة المنافع. منيعة المصاعد والمصاعد والمطالع. إلاّ الباب الذي بالجوف الموالي إلى جهة الغرب فإنه يشرع إلى دار وضوء أطـردت فيها مياه، وطابت لميازبها أفواه. وخـرجت بها خطايا المتوضي مع آخر قطر الماء. فعاد نقياً من الذنوب إلى إخوانه الصلحـاء مخلصاً لمولانا أمـير المؤمنـين في الدعـاء. شـاكـراً لتـهـمـمـه بالفـقـراء وأبنـاء السـبـيل المشـتـاقين إلى الأوطان والأبناء. والمستضعفين الذي قصدوا جنابه الذي استهميت به سحائب النعماء، واسنسقت غمائم الآلاء.

والديار الثلاث المذكورة إحداها معينة لإمـام هنالك، والأخرى للمؤذّن الذي يسلك في إقـامـتـه شـعـائر الدين المناهج الواضـحـة المسـالك. والثـالثة للناظر في الأوقـاف والأحبـاس، المتصرّف في إعداد الطعام وترتيب الناس.

ويتصل بهذه الزاوية دار معدّة لنزول الواردين. مفتحة أبوابها للوفود القاصدين، وتقابلها دار أخرى معدّة للطبخ، واستمجاد العفار والمرخ. لاتخمد بها نيران القرى. ولاتزال مشبوبة لذوي النوائب والسرى.

وللزاوية والدارين المتصلتين بها باب عظيم في جهة الشرق. ناظر إلى الحضرة العليّة التي هي مجمع الخلق. وبمقروبة منه الصومعة التي كادت تزحم الكواكب، وتبلغ السحاب فتدر غيوثها السواكب. وهي من أحسن الصوامع صنائع وأعظمها بأشغال الزليج الملون بدائع. تفوق بمحاسنها الرائقة الرائعة الديباج. وتنسى بتفافيحها المذهبة السراج الوهّاج.

أعلى اللّه كلمة من أعلاه إظهاراً للدين. وجعل أيّامه خليفة الأمنة والتهدين. ونفعه بأعماله الصالحة التي شهدت بسلامة القلب وصحة اليقين بمنّه ويمنه.

ويتصل بهذه الزاوية المباركة من جهة الغرب واتلجوف روض أريض، لقداح الحسن مفيض. قد رمى كتاب تربه بالأثقال، وضمن منها سطوراً بديعة الجمال وشغلت أفكار أرضه بالأصول، وصار من حيطانه في حكم المعقول. حتى أبهج أولي الأحكام، وأبدى المحاسن المشتركة الإلزام. وأخرج الأشجار من زهره في أبدع نصيف. وترك الريح تصلي من نوره في درع حصيف. فالأغصان تميل على جوانبه حباً. والماء يجري إلى ملاقاته صباً، وبنات المزن تصاحب منه أباً.

ويغربي الزاوية صهريج عميق. للماء في جنباته لعب وتصفيق.

- ذكر السانية وأوصافها المتباينة :

وقد قامت بأزائها سانية بديعة الأشكال. لاتشكو في حبّها بتقطّع الأوصال. كريمة كأنما علمها بنوبرمك البذل، فهي تصاحب في قعر بيها جعفراً وتطلع لنا الفضل. بديعة النغمات ولاغزو فيه الميلاء. حنينها أشدّ من حنين مهيار إذا أبدت من روضة ظمياء. حسناء ليس التوقف من مذاهبها، ولا الإمساك من مآربها. بل حبلها بين الرجال على غاربها. فهي تجد وتفور، وتشرب وتدور. منزّهة عن الهنات، معدودة عند الروض في السابحات.

إلاّ أنها أصابتها العين فهي باكية. ومن حمل المصاحب المفارق شاكية، قد دارت عليها الدوائر. وأدخل أصبعه في عينها الزائر.

أستغفر اللّه بل هي الجارية المبررة، الضاحكة المسرورة. المنشرحة الصدر. الطالعة في الهالة كالبدر. إذا نادت بمائها فهو المنادى المرفوع. وإذا أتت في أبياتها بوتد فهو المجموع. وتبهج الفقراء بمحاسنها المتوالية، وترسل إليهم ماءها فلاتنكر مجيء السائل إلى

الزاوية.

معجبة حبائلها ملازمة للشرب. فلو كانت عاقلة لكانت نداماً. وكل قواديسها مركب مفيد بالوضع. فلو كانت عاقلة لكانت نداماً. وكل قواديسها مركب مفيد بالوضع. فول كان لفظاً لكان كلاماً. من كل ممنطق يروي عن الحبال، ويجود بذوب الفضّة على السؤال. ويخدم على رأسه إذا جاء زوّار. وهو مع كرمه لايبالغ في الفخر. ولو شاء لقال : أنا فخّار.

وماهي عند السقي إلاّ كواكب، قد قرن بالسعادة منها الطالع والغارب. ومنازل أنواؤها متصلة الري، تسر الولي، في الزاوية بالوسمي. إلاّ أنا نقوم عندها للّه بالحق الأوجب، وكم ندى بمائها الروض فلم يكن المنادى مضافاً، بل طاب فإخرج نباتاً طيبا كرم أنواعاً وأصنافاً. وسرى إلى الأشجار فألقته في عيونها، وظهرت ينابيع حكمته من قلوبها على ألسنة غصونها. فدعت إلى الاعتبار، فزينت كمائم قلوبنا بأزهار الأسرار.

زاد اللّه في معاني مولانا السلطان الباهر الأنوار. الذي زيّن بأفعاله الجميلة وجوه الأزمان والأعصار.

- ذكر الناعورة :

وأوصافها المحمودة المأثورة :

ولما رأى مولانا أيّده اللّه أن هذه السانية قد لاتبالغ في العطية. ولايسرع بعمل فريضة دورانها الحمارية. وإنه قد يحتاج إلى أكثر من مائها. وأعظم من نائلها وحبائها. أمر رضي اللّه عنه أن تعمل على نهرها ناعورة توفي بالمقصود ويحسب ماؤها المستوى على وجودها بالجود.

فلايزال الليل والنهار مطرداً. مجدداً لحكمه الثابت بالقياس الجلي ومؤكداً. فجاءت ناعورة جميلة الآثار. مقبولة العمل وإن صلّت مستندة إلى الجدار. عزيزة عند أهل الشرع. مرجوة في كل أحيانها للنفع إلاّ أنها تسرق الماد من حرزة فلايحكم عليه بالقطع.

بديعة روت من أحاديث المحاسن كل مسند، وغنت على جانب المسجد فكان غناؤها على معبد. مرفعة علية، فريضة دولاً بها منبرية. مقدمة تحب فضل جسارة، وتقهر سيف النهر بقناة إلى الزاوية خطارة.

ولم أرَ قبل مائها مسلسلاً يدخل الجنة على حاله، وبارد المزاج يسرع أتم الإسراع في حركته وانتقاله. جارية بادية الزينة. حكم عليها منجم نهرها بالطينة ، فرأى طالعها أسعد طالع. محقّق الدرجة ليس يشان بقاطع.

صابرة لايضجرها سائل، ولايروعها ثعبان النهر وهي حامل. لاجرم أن قلبها قد تقوى بشراب العود، وجسمها قد صبح ببركة الركوع، والسجود مشتغلة بالتصريف إلاّ أنها لاتعرف اعتلال العين. عاكفة على التأويب والسرى إلاّ أنها لاتشكو بالأين. معربة نصبت فعلها وقلبت أكوابها ؟ لتحرّكها وانفتاح ماقبلها. خليلية أعجبها التقطيع، وأظهرت الدائرة التي يخرج منها السريع.

شامخة لها الفلك الثابت العمد، يحل الماء منه بالقوس ثم يحل بالزاوية في الأسد. جانية على كل روضة غضّة، محلّية لها من مائها المتلون بأساور من فضة. ماثلة لاتعرف الخوف، ضخمة تدور إلى الشرق وتملأ الجوف. قائمة صرفت وفد النسيم أحسن الصرف. وسجنت الماء لأنه فرّ عند الزحف. إلاّ أنها لاتزال تخرجه فيسير بإقبال النور البديع، ويستحلف ربيعه فلاينكر يوم دولاب استخلاف الربيع.

سامية حازت أعظم البهاء. وغدت وعليها تاج كسرى تنادم ابن ماء السماء، وربما نقضت النهر لما حازت فضله الظاهر استعلاء. حسنة السرائر. ماؤها في قلبها خاطر من الخواطر. مهتدية إلى الري اهتداء الطيف، غير مكترثة وقد انتحت أكوابها من نهرها بالسيف. مصلحة إذا أيبس الأصحاب بينهم الثرى. ممتطية من مائها الإفجر فلا غرو إن جرى. وفيه ضمنت للروض نجاز الوعود، وطلع عليها سعد مولانا أيّده اللّه وهو سعد السعود، فلا غرو أن أرى جريان الماء في العود.

ومن العجائب أن دولابها معظم عند بني مرين وهو عند الوادي، مضيق عليه وهو يجود بأعظم من صوب الغوادي. ويسر الجار الجنب لاسيما إذا قرب الصباح ونادي المنادي. وكم أظهر في خدمة الصالحين من فعل الأكياس، إلاّ أنه إذا ذكر له رأس الماء أحب دوراناً في الرأس.

راقية إذا شكا الماء بداء الضرع، وإن ارتفع خشبها الذي أمن من الصدع. سقت بمثل الكافر. هو الأرزة مثل المؤمن، وهي خامة الزرع، فللّه درّها حين أتت من المحاسن بفنون. وكشفت عن مجنون ؟ لايُتاح به منجى نون. فروت من سيلها عن المنكدر، ودارت على القطب فعرفته معرفة المختبر. ورأت بالزاوية الابدال. وعرفت المقامات والأحوال، فلو نطقت لقالت : ما النية إلاّ نيّتي، وأنشدت مخاطبة نواعير المصارة : وماشرب العشاق إلاّ بقنتي.

ولا أعجب منها حين اتحفت بالسقط، وأبهجت بنقطها ولابد للدوائر من النقط. فهي الطاهرة القلب، المحبوبة القرب، التي تأدّب الماء مع أكوابها، ما أتى بيوتها إلاّ من أبوابها. وقصد بالزاوية الأخيار، وقيل ذا الجدار وذا الجدار.

أجرى اللّه الصالحات على يدي من أجراه، وتقبّل أعماله التي قدّمها لأخراه بمنّه ويمنه.

﴿ فصل ﴾

ولما تخلصت الزاوية التي هي شمس والزوايا كواكب، وتم ذلك المصنع الذي هو بحر والمصانع أنهار ومذانب. أمر مولانا أيّده اللّه بكتب ظهير كريم بتعيين مرتبات للقائمين هنالك بالوظائف، وجرايات للمتولين لاشغالها المرضية السالف والخالف، وأن يرتب هنالك جملة من الفقراء الصوفيّة أولي الأسرار القلبية، والأنوار القدسيّة، ليقيموا هنالك لإقامة الذكر، ملعنين مع -شيخهم- بالحمد للّه والشكر، عامرين المجالس التي تحف بها ملائكة الرحمان. وتتنزّل عليها الرحمة في كل الأحيان، سالكين مسالك أهل الطريق، دارجين على مقامات أهل التحقيق. مكرمين للضياف، موضحين لهم سبل الائتلاف. جامعين لهم على مركز التقوى ، معلقين آمالهم بالأسباب التي لاتزال تقوى.

وكذلك تعيّنت الجرايات لجملة من الخدم المتزوجات لأمثالهن عدداً من العبيد المجتمعين في قبضة الرقّ السعيد المختارين للتحبيس على ذلك الموضع الذي هو أبدع من القصر المشيد، ليقوموا بتنظيف تلك الديار، وخدمة الزوّار، وعمل الأطعمة العميمة الإيثار.

وعيّنت للقبّة السعيدة وسائر البيوت فرش حسنة النعوت، من الطنافس والقطف، والزرابي واللحف.

وصدرت بخطي تلك الظهائر الكريمة، والمراسم الشريفة. واستقر الحال على مارتضاه الإمامة المنيبة والخلافة المنيفة. ونجحت الأمور، وثلجت برؤية الصدور الصدور. وزادت الأنوار، وتوالت الأذكار، ورقت شمائل الأسرار. وهبّت الصبا والشمائل بالاستبشار. فهي زاوية سعيدة السعداء إلاّ أنها في الغرب، ورياض ربيع إلاّ أنه نابت منها بالقرب.

﴿ فصل ﴾

ومن جملة من سكن هذه الزاوية المباركة من الواردين عليها، والصلحاء القاصدين إليها، ولي من الأولياء أقام هنالك نحو نصف عام صامتاً لايتكلّم، صائما الدهر يتحدّث ويتألّم. مقبلاً على العبادة، طالباً كيمياء السعادة. لايلتفت إلى مخلوق، ولايفتر عن أداء ما للّه عليه من حقوق.

إلى أن اعتراه مرض برح به، ووصل سبب التألّم بسببه. فعند ذلك تكلّم بما خفّ، ومد للمصافحة الكف. وصرف وجهه إلى رؤية القاصد. وغدا أمله موصولاً، فاحتاج إلى العائد.

وأنا ممن زرته في آخر عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، فأسمعني كلامه، وأولاني برّه وإكرامه. فرأيت منه رجلاً أطال شأو المجاهدات، وتوغل في ارتياد رياض الرياضات، وجعل لذاته في ترك اللّذات، وصفى باطنه من كدورات الشهوات، حتى لحق بمن هام في وادي الفناء الذي هو وجود، وغاص في بحور المحو الذي هو إثبات مشهود. وتحلّى بفرائد التفريد، وكتب في جرائد التجريد. وأنس باللوائح والطوالع، وانتعش بالبواده واللوامع. وهام بالمحادثات والمكالمات، وكلّف بالمشاهدات والمحاضرات. وتاه في بيداء السحق والمحق. وانتقل إلى بقاع الجمع من حضيض الفرق. وشرب من عين الحياة، واجتلى شموس الحقائق باهرة الآيات. واحتسى كؤوس المحبّة على بساط الوفاء، ووقف لاجتلاء كعبة الأسرار على صفاء الصفاء.

نفع اللّه بمنّ هذه أوصافه، وحيّا اللّه من اهتزّت لسماعها أعطافه. واللّه يجبر صدع من ردّ من الباب، إلى ظلمة الحجاب. وحسده الشيطان في الدخول مع الأحباب واستنشاق نواسم الاقتراب. فهو متبع هواه. متردٍّ في مهواه. قد ردّ من أمره في الحافرة، وآثر الدنيا على الآخرة. ونفسي بهذا أعني، فما أجدرني ببكاء على الذنوب وحزني، وعودي إلى التوبة التي تقرّب إلى اللّه وتدنّي، وخروجي عن الدنيا التي لاتنفع طالبها ولاتغني.

رجع الحديث :

وطلبت من هذا الشيخ المبارك أن يعرّفني بشيخه الذي سلك على يديه، واستند في حسن التربية إليه. فأعرض عن الجواب، واشتغل بذكر رب الأرباب. فقنعت منه بالدعاء، وفارقته مفارقة الظمآن للماء.

ثم إنه بعد ذلك أبل، وعافاه اللّه عزه وجلّ، فتشوّف لرؤية مولانا أمير المؤمنين أيدّه اللّه ونصره، وشكر في اعتنائه بالصالحين وردّه وصدره. فأخلى له مجلسه، واستدعاه وأنسه. فلم يزد الشيخ على حمد اللّه والثناء عليه وانصرف إلى حلّه الذي اشتاق إليه، وعاد إلى انقطاعه وتخلّيه، والاشتغال بتحلّيه العائد بتجلّيه.

ولم يزل مولانا أيّده اللّه معتقداً فيه وفي أمثاله، معتملاً في الاهتمام بأهل اللّه تعالى أعظم اعتماله. فاللّه يثيبه وينفعه، ويحيطه بالعمر الطويل ويمتعه بمنّه ويمنه.

﴿ فصل ﴾

وكان المقدّم شيخ الصوفية بهذه الزاوية المباركة عند خلاصها. ومتولى الإمامة بجامعها الأكرم المناسب لشرف اختصاصها الفقيه الصالح الزاهد أبا عبد اللّه محمد بن الفقيه الجليل المعظّم الأصيل رئيس المغرب وحسنة عصره المعجب به المغرب أبي محمد عبد

الله بن أبي مدين. فقال الواجب، وسلك في أموره على السنن اللاحب.

ولما حصل مفتاح الزاوية بيده، وناسبت أحوالها الحسنة حسن معتقده، واستحق ذلك الطوق جيّد ولايته، وكانت تلك الخطة بداية في تقديمه، ونهاية رعايته، رأى حفظه الله أن يشهر أحوال تلك الزاوية في الآفاق، ويشيع في المعمور عمارتها الجميلة الوفاق. ليقدم عليها الوفود، وتكرم بمعاهدها العهود. وتحطّ بها الرحال، وتستقدم ببركتها الآمال، وتستكفى بحماها الخطوب، وتستجلى بروحها الكروب. وتتيّسر للضعفاء الأقوات، وتصفو من كدرها الأوقات.

فاستدعى أهل فاس إلى الحضور بجامع القَرويين في يوم أخذت به السعود مأخذها، واسترجعت الأفراح من يد الزمان أخائذها. واسترجعت في ميزان الابتهاج تباشيره، واستوضحت في وجه السرور أساريره. وطاف بكعبة الآمال طواف القدوم، وأبدى من محاسنه ماهو أبدع من الوشي المرقوم.

فجاء الناس زرافات وأفذاذاً، وأغذوا إلى إجابة داعيهم اغذاذاً، ولم تتسلل البشرى عنهم لوذاً بل أنفذ لهم حكم السعادة إنفاذاً وأسرعوا إلى الجامع الأعظم إسراع الحجّج ليلاً بين العلمين، وازدحموا بصحنه ازدحام الركائب ليلة النفر بالمأزمين. فما راعهم إلاّ بروز الشيخ الصالح الولي أبي يعقوب يوسف عمر الإمام نفع الله به فوقف للدعاء ملياً. وأفصح بالثناء على مولانا أيّده الله بدياً.

ولم ينشب الناس أن أمنوا على دعائه، وأثنوا أعظم من ثنائه، وحمدوا الله ملء أرضه وسمائه. وقد كان شيوخ الزوايا مجتمعين، والفقراء السفّارة للأوامر مستمعين. وبيد قيّم الزاوية مفتاحها الضامن للفتوح، المبشِّر بالخير الممنوح الذي فعله حميد؛ وكل بصر برؤية حديده حديد.

فلما طلع حاجب الشمس، وتعرف الأفق بالفصل منها والجنس. خرج خدمة الزاوية مع الفقراء، وأمامهم صدور الشرفاء، وأعلام الفقهاء، وغيرهم من الأعيان الحسباء، ومن انخرط في سلك الدهماء. رافعين أصواتهم بالأذكار والدعاء، مفعمة أنوفهم بالعنبر والورد والكباء. مرسلة عليهم مزن القوارير بغيوث ماء الورد مشوباً بالعبير، مفضوضة لهم نوافح المسك الأذفر. مضمخة ذيول نسيمهم بشذاه الأذكى وعرفه الأعطر.

وبرزت لذلك المشهد الكريم ربّات الحجال، والمخدرات المحمية ببيض النصال. وامتأت الطرق بالشبّان والكهول والشيب، داعين السميع المجيب، مظهرين للمحبّة التي استجليت ضرائبها المنزهة عن الضريب كالضريب. مخلصين لمولانا أمير المؤمنين المنصور الذي جاء

بالترغيب والترهيب.

ثم خرجوا على باب المحروق فغصّت الأباطح بأصناف الخلائق. وانتشروا بتلك الأرجاء انتشار النواسم في الحدائق، وتجاذبوا أهذاب المسرّات الواضحة الحقائق، والابتهاج الذي أبان لهم أوضح الطرائق، إلى أن أفضوا إلى الزاوية النّيرة الطالعة الأنوار، وقدموا منها على محل الجود والإيثار، والفضائل التي تحلّت بها عواطل الاعصار، واشتهر ذكرها في الأقطار والأمصار.

ودخلوا بابها الذي فتح للسعود أبواباً، وحلُّوا بجنابها الذي فسح للخيرات جناباً، وعجبوا من صنائعها، وقيّدوا أبصارهم ببدائعها. وأطالوا بها الأذكار، واستنزلوا بأسرار قلوبهم الأنوار.

وكان فيمن حضر ذلك الحفل الشيخ الشاعر الشهير أبو إسحاق الحسناوي التونسي، فأنشد قصيدة من نظمه في مدح مولانا الخليفة الإمام، وذكر محاسن تلك الزاوية التي هي بكر الأيام. فأصاخت إليه الأسماع، وكادت تنطق بأمثال مدامحه البقاع.

وعلى أثر ذلك وصلت طيافير الطعام الملوكية، عليها المناديل الساطعة البياض، والسباني المرموقة كأنّها أزهار الرياض. من كل موشى الظاهر والباطن، ثقيل إلاّ أنه متلقى بالقبول في كل المواطن، مستدير كالشمس لكن حرارتها في ألوانه إذا سار لم يبرح عن سمت الرؤوس يرصد أهل زمانه، كبير الساحة، تجول فيه الراحة بالراحة. مرتصّة في دواخله صفوف صحافه، لا يتحلّل فرجها الشيطان الذي حكمت التسمية بانصرافه. آت بما تشتهيه الأنفس التي حظيت بإستعاده وإسعافه، معروفة حروفه بالإشباع والاتباع، آمنة أحاديثه المسلسلة من الانقطاع. متحرّك خفض على الجوار، فروى لحمه عن البزار. فأكل الناس هنيئاً مرياً، وأفاضوا في الدعاء الذي أطلع صبح القبول جلياً، وانفضوا عن مشهد تهادت البلاد أخباره، واجتلت في صفحات الأيام آثاره. ووقت صفت من الشوائب موارده، واستحكمت بأيدي السعود معاقده.

وحين أبدى وجوهه باهرة الجمال، وصدع بأنوار البشرى الطالعة نجومها في سماء الإقبال. واستتبت أمور الزاوية أحسن استتباب، وانسكبت سحائب الجود بذراها أعظم انكساب، واتبعت قلم الحساب بكل عطاء حساب.

جزى اللّه مولانا على ذلكم جزاء من آتبع الحسنة بأختها. وتحلّى من الفضائل بأبدع نعتها، وجلى أحكام الفخار لوقتها، ولازال كماله منزهاً عن عوج النقائض وأختها.

ولابن جزيّ في "الزاوية المتوكلية" نقلاً عن كتاب أزهار الرياض

وله في زاوية أبي عنان

ومن ذلك قوله رحمه اللّه في الزاوية التي أنشأها أبو عنان، وهو مكتوب عليها إلى قرب هذا التاريخ :

هذا محلُّ الفضل والإيـــثـــار ... والرِّفْـــقِ بالسُّكـــانِ والزُّوَّارِ

دارٌ على الإحسان شِيدَتْ والتُّقى ... فجزاؤها الحُسْنى وعُقْبى الدّار

هي مَلْجـــأٌ للواردين ومـــوْرِدٌ ... لابن السبيل وكلِّ ركْب ســارِي

آثارُ مولانا الخليـفة فـــارسٍ ... أكْرِم بها في المجد من آثــار

لازال منصورَ اللواء مُظَفَّــــراً ... ماضي العزائم سامَى المـقدار

بُنِيَتْ على يدِ عبدهم وخديم بـا ... بِهِمِ العلِّي محمـدٌ بن جِـــدار

في عام أربعَةٍ وخمسين انقَضَت ... مِنْ بَعْدِ سبْع مِئِينَ في الأعْصار

* * * * *

تهنئة ملك غرناطة لملك المغرب بتحرير طرابلس

وعن تحرير لمدينة طرابلس IV-350 نجد رسالة هامة إليه في غرض التهنئة من ملك غرناطة وكانت من انشاء ابن الخطيب ننقلها عن كتابه (ريحانة الكتاب).

المقامُ الذي شُفي المجدُ والكرمُ بشِفائه. وعاد جَفْن الملة بأنبا عصمته المستقيلة إلى إغْفائِهِ، ويلقى السرور ضيف البشارة المختالة من خبر راحته في أجمل الشّارة باحتِفائه واعتِفائِهِ، وثبت للدين الحنيف مافرج به من التعريف دليل السعد المنيف، وقد تطرَّق القياس الجلى إلى انتقائِه، فعاد مورد اليمن إلى صَفَائِهِ، وتبرَّأ الدهر من ذنبه [وعاد إلى وفائِهِ]. مقام محل أخينا الذي أسباب هذه البلاد الغريبة بأسبابه معقودة، وآمال الإسلام بوجوده موجودة، وأبواب المخاوف بتأميل بابه العلى مسدْودة [وأيدى من بها من الأمم على مجدها الراعي الذمم مشدودة] فأقطارها بقطر الإعلام بعافيته مَجُودة، وأكف ناسِها على اختلاف أجناسها باشكر ممدوة، أبقَاه اللّه يتلقى زيارة اللّهِ بالكَنَفَ الرَّحْب والعـقـد السَّليم، ويعـجل بريد الضراعة والاستقالة، مهما أحسَّ بتغيير الحالة، طارقاً باب السَّميع العليم، ونقَّتني من الأجر الموفور الموفور، والثَّواب المذْخُور، بضائع إنما يخص اللّه بها [من عباده] خزائِنِ الأوَّاه

الحليم، وجعل العصمة مصاحبةً لِذاته الطَّاهرة، [في الأحوال الباطنة والظاهرة] يطالع منها زاد المُسافر وتُحفة القادم [وزاد المقيم] وشكُر مايصله بعناية تعريفه من سَبَبِ الولي الحميم [من الولي الحميم] معظَّم قدره الذي تعظيمه مُفترض. ومقيم برُّه الذي لايقدم على تتميمه غَرَض. الذي أقصى مذاهب المساهمة لَمجْده مهما ألمَّ بجوهر مقامه الأبوي عَرَض، أو شاب مَوْرِد صحته مرض، فلان ومنه : وإلى هذا حَرَس اللّه ذاتكم الطاهرة من طُرق النوائِب، وصان مواردَكم المؤملة من شبوب الشَّوائب، وكَنَفَكم بجناح عصمته في الشَّاهد والغائِب. فإننا في هذه الأيام، طَرَق بعض سواحلنا شاني مَشْنُو الخبر، وحثَّ جناح الشِّراع منه مارج مكروه العين والأثر، جَمْجَم بكلام مُلَفَّق، ونَبإ غير محقَّق، عللَّنا النفوس بتمحيله وتكذيبه، [ولم نعن] بتقرير هُذْهُدِهِ فضلاً عن تَعْذيبه، وغمضنا عنده الأجفان، طمعاً في أن يكون حلماً، وتغافلنا عن استفسار كلا يجر كَلِما، فلم تَقَرُّ الجوارح على هذه الصَّدْمة المتعرَّفة، ولاسكن اضطراب النفس في مثل هذه الأمور المصرَّفة، فزَنْدُ القَلق في مثلها أوْرَى، واضطراب البال بمثالها أحْرَى، والشفيق كما قيل بسوءِ الظن مُغرى. فعجَّلنا إلى جبل الفتح، من يجلب منه نفساً بنفس من بثٍّ وعَيهَناً له المراحل تحت الحثِّ، فلم يكن يهبُّ نسيمه، ويقضي إلى المطلوب سيره وتقسيمه، حتى طَلَعَ علينا من كتابكم صُبح جَلَى الظُّلمة المعتركة، وعُلِمَ عَرْف النكرة، وحُكم حزم الظنون المذهلة المسكرة، عرفتمونا فيه بالألم الذي ألمَّ، واتصال العافية التي خصَّ صُنْعها وعم، وشرحتم ما أوجب الألفية التي صدَّقت الآمال بتكذيبها ، وسهَّلت العبارة بحذف وحْشيها وغريبِها، وقررتم استقرار العافية في مِهادها، ورجوع الحال الصحيحة إلى مُعتادها، واستبشار قُبَّة الإسلام باستقامة عِمادها، وذهاب جِياد السُّرور في أقطار المعمور إلى غاياتها وآمادها. فقَدَّمنا أولاً شكرَ اللّه الذي تعزَّى لسان الفرج بتقديمه، ونظرنا إلى وجه الإسلام، وقد عادت نظرةُ أديمه، وبهرتنا فواضل مقامكم الذي اتَّصل فضل حديثه بقَديمه. فلقد كان كتاب مقامكم إلينا أمْرٌ من توقُّع الشفا لديكم، وأنْسٌ من عوايد الصُّنع الذي ورد عليكم، فنحن نُسهب في الثناءِ ونُطيل، ونتحكم على الأيام ونستطيل [ونظرح بظهور الحق مادلسته الأباطيل[ونهنئكم بمراجعة عَقيلة الصحة التي لايَنْبو بها من بعد إن شاءَ اللّه بَيْت، ولايتطرَّق إليها [كَيْتُ ولاكيت] ولايعمل بسببها بعلٌ ولالَيْتَ ، فلتهن راحتكم مجالس العلم وخَلَوات العمل، لابل الإسلام بما حمل، فإنما عصمتكم على الدين الحَنيف وأهله رواق، وظلٌّ خفاق، ومكارمكم في أسواقها للدين والدنيا نِفاق، فإذا تألَّمتم كان بالدين الحنيف وأهله إشفاق، وإذا عوفيتم، كان للأمْن اتِّساق، وللسَّعد إشراق. ثم أتْبَعتم رَحْل المرَّة بالحقيبة، وجهاد الشيطان الناعق بالتعقيبة [جارياً على فضل من فضل الضريبة ومن النقيبة] فسرَّحتم ماعندكم من العزم الذي جعلتم هذه الحركات المباركات مقدَّمات قياسه، وأنواعاً لأجناسه، وأنكم تباشرون إعداد المنشآت وتستظهرون على قطع مسافة البحر لجيادها الكرام الشِّيات، وعملكم على مافيه رضى اللّه، قضيةٌ لاتحتمل النقيض، وتصريح لايقبل التعريض. إنما هو

جدٌّ خلص للّه قصده، وعَزْمٌ أرهف في سبيل اللّه حدُّه، وكريم يقفو ما سنَّه أبوه وجَدُّه، فاستَكثِروا من الخير الذي أنتم بسبيله، واستعدوا على البحر القاطع بيننا وبينكم بتوفُّر عدد أساطيله، فقبل الرّمى تُراش السِّهام، وقبل اللقاءِ يُكْتَب الجيش اللِّهام. وعقل التجربة قد بيَّن ما أشكل ، وفي معرض الاستعداد قيِّدها وتَوَكَّل، ومن قِبَلكم تلتمس العَوارف، ونقتبس المعارف، ونتوَسَّد الظِّل الوارف، وبنظركم السَّديد تُحمد الموارد والمصارف [بفضل اللّه]. ومما أطرف به كتابكم الذي أطْعَمَ وسَقَا، وأوْرَدَ المسرَّات نسقا، وجلا من [الظلم المتظاهر] غَسقاً، خبر ما آل إليه حال مدينة إطرابلس التي أوقعت بالقلوب وقيعتُها الشنيعة، وفَرعَت بملْكه الكفر هَضْبتها المنيعة، وماذخر اللّه فيها للْكِكم من حسن الصَّنيعة، وأنكم لبَّيتم على البعد نداءَها، وشفيتم داءَها، وعاجلتم من يد الكفار فداءَها، وذلك عنوان قبول اللّه على مقامكم وإقباله، ومنْقَبة حَباها اللّه لجلاله، فمن طمح إلى ماطمحتم إليه نظر لمناله ، ومن شَراها بالثمن الخطير، واللّه ماجار على ماله، فياله من فخر جَلَّ قدره عن الثمن، وذكر تخلل بَغْداد العراق وصَنْعا اليمن، وصفقة رابحة إن لم يعقدها مثلكم، وإلاَّ فمن لمثل ذلك تَطْمح الْهمم، وفي مثله تتنافس الأمم، واللّه يذخر المال، وعليه تحوم الآمال، لُدَّة الإسكندرية، وأمُّ من أُمهات المدن البحرية، أراد اللّه أن يبقى التوحيد بها بسببكم، وأن يجعلها بالملك الصريح من مُكْتسبكم، فاهنوا بهذه الصنائع التي يلبسكم اللّه أطواقها، ويفتح بسعدكم أغْلاقَها، ماذلك إلا لنِّية اطَّلع عليها من ضميركم، فسدَّد إلى [الغرض الكريم] سهام تدبيركم، وهو سبحانه يزيدكم من مواهبه، ويحملكم من البرِّ على أوضح مذاهبه. وأننا لم استْجلينا من كتابكم غُرَّة السعادة المُشْرقة. وشكرنا منكم موقع الغَمامة المُغْرقة [أمرنا برقد] المنشور، فصدع به في الحَفْل المشهود [وبلغنا من الإشادة به أقصى الشهود] ورحَّبنا بوافده المَرْدُود، وأرغمنا أنُوفَ أعداءِ اللّه وأعدائِنا بلوائِه المعقود، حتى يبدو للقريب والبعيد تشيُّعُنا لمقامكم المحمود، واستظلالُنا بظلكم الممدود، ونحن نجمع في مراجعتنا بين الشكر والثنا، ومضاعفة الهنا. ونسل اللّه تعالى أن يطيل بقاءَكم في الملك الوثيق البناء، ويعرفكم من لديه عوارف الاعتناء [وهو سبحانه يديم سعدكم ويحرس مجدكم] والسلام.

معلومات عن الرحلة من خلال المراسلات

وعن اشاراتنا في المقدمة للمراسلات العديدة التي اجريناها مع بعض الجهات المعنية للتحري في القول نسوق البعض منها مما يعالج بعض مناطق الظل من الرحلة أويكشف عن معلومات تهم المهتمين بالبحث العلمي...

معهد الدراسات الإسلامية
المركز الفلبيني للدراسات التقدمية
جامعة الفلبين

November 2, 1976

Dr. AbdelHadi Tazi
Souissi, Ait ouirir
Villa Baghdad
Rabat, Morocco

السلام عليكم

Dear Dr. Tazi:

First of all, I want to thank you for your invariant courtesy towards me when I was in Rabat last May. In the meantime, in accordance with my promise to you, I have been making some studies on the views of various European and Filipino geographers and historians on whether Ibn Batuta went to the Philippines or Japan. The key word is Tawalisi. Henry Yule who presented a translation of Ibn Batuta's account of Tawalisi in his book Cathay and the Way Thither (Vol. IV, revised edition, London, 1916), indentifies it as Sulu, that is, in Southwestern Philippines or Northeastern Borneo. Yule says that this idea of his has some probability. He added that to say that Tawalisi refers to Japan will bring about many more serious objections.

Jose Rizal, one of the national heroes of the Philippines, writing in the last century, gave the opinion that Tawalisi was located in Northwestern Luzon in the Philippines in an area now known as the province of Pangasinan. Rizal's method to deal with the problem was not by the study of the place names or customs mentioned by Ibn Batuta but lay on the basis of distances transversed at given times. However, Professor Nicholas Zafra, former head of the Department of History, University of the Philippines, writing in 1952, argued quite well that if one used the basis utilized by Rizal, then, one would rather point to Tawalisi as somewhere in the coast of Indo-China, more specifically in the Kingdom of Champa. This Kingdom of Champa survived up to 1471 when it was conquered by Annam. (Incidentally, before such a conquest, there was a Muslim community in Champa.) If Professor Zafra's views

(over)

معهد الدراسات الإسلامية
جامعة الفلبين

Nov. 2, 1976

are accepted, then many of the things mentioned by Ibn Batuta in Tawalisi like elephant, silk, sandalwood, gold, etc., can be well accounted for. To say that Tawalisi was in Japan, I guess, would force us to assert that there were elephants and a Turkish speaking princess in Japan around 1347 A.D. However, Champa as well as Sulu, had elephants at the time mentioned.

Some French translators say that Tawalisi is the island of Celebes; others say it is Tonkin. Yule rejects the idea that it is Cambodia or somewhere in Indo-China.

Unfortunately, Ibn Batuta's memoirs of his travels were written many years after his actual travel and he could have mixed up a few names of persons and places as well as his chronology.

Dear Doctor, I wonder if you can help me on a certain detail? My last trip to attend the Second Conference on Islamic Universities in Rabat was made possible because the Moroccan Ambassador to Islamabad, Pakistan, asked the Philippine Charge d' Affaires in Islamabad to communicate with the Foreign Office here in Manila to send a delegate. The understanding was that the Moroccan Government was going to pay for my round-trip air fare. On the basis of this information, the Foreign Office here requested me as the Dean of the Institute of Islamic Studies at the University of the Philippines to go to Rabat. I contacted a travel agent who advanced me a round-trip (economy) ticket. I gave the bill to Ustadh Mohammad Bashier, Secretary General of the Conference. I was assured that the Secretariat would deal directly with the travel agency. But this has not happened in accordance with my hopes and expectations. The Foreign Office here had been writing and phoning to the Philippine Charge d' Affaires in Islamabad to intercede with the Moroccan Ambassador to help expedite matters. The Charge d' Affaires message to us the last few days was that he was having "great difficulties". What is happening now is that the travel agent is intending to file a civil case against me which is terribly embarassing. In order to know what to do, it is first of all important for me to discover what is the attitude of the Secretariat and

(over)

whether it is true that they were willing to pay for my trip. If not, then an information from them would help clarify matters and I would know what to do as well as make arrangements with the travel agency not to bring me to court. Frankly speaking, I am not in an immediate position here to pay the whole amount; but since I am well-known and respected in my country, I can make arrangements with him to pay by installments for the next two years. I sincerely hope that with your prestige, kindness, and concern for me, you can contact Ustadh Mohammad Bashier of the Secretariat or the proper official at the Foreign Office to find out what the situation is so that I know what is going on and what to do next. I hate to bother you on this detail but it seems that Ustadh Bashier did not receive a telegram I once sent him on this question. Please do not go out of your way to help me in a manner that will disturb or embarras you.

Would you like me to send you a Xerox or U-Bixed copy of the article on Ibn Batuta? Will you like me to comment on them?

Attached is a modest article written by me on the Qur'an.

With respects to you and your family, I am as always praying to Allah to grant us His Blessings and Mercy.

Your brother in Islam,

CESAR ADIB MAJUL

CAM:lje

Attached: as stated

الرباط، في : 3/14 / 1991

إلـــــــى

سعادة الزميل العزيز والأستاذ الجليل
السيد ريميليو گارسيا گوميز

Monsieur le Professeur Emilio García Gomez
Bibliotеca de la Réal academia de la Historia
Calles de léon - Madrid-

تحية تقدير وودّ وإكبار

وبعد أرجو قبل كلّ شيء أن تجدكم رسالتي هذه وأنتم والسيدة زوجتكم، تنعمون بالصحة والعافية، وكذلك كلّ أعضاء أسرتكم الكريمة.

نحن على أمل أن نراكم قريباً بين ظهرانينا بالدار البيضاء في أبريل المقبل بحول الله عند اللقاء الأكاديمي.

حضرة الزميل العزيز

أنتم تعلمون أن الأكاديمية الملكية المغربية عمدت إلى أخيراً بنشر رحلة ابن بطوطة نشراً علمياً يعتمد على ما جدّ من معلومات حول الرحلة ...

وكان من جملة ما أثار انتباهي، وأنا أحضر لهذا الموضوع، أن الأستاذ دوزي ذكر في مقدمة كتابه "معجم الملابس العربية" أنه استفاد كثيراً من نسخة الرحلة التي كانت في ملك الأستاذ دو گايانگوس (De Gayangos) والتي أثنى عليها كثيراً ..

فرجائي أن تزودوني بصورة لهذه النسخة التي ذُكر أنها توجد ضمن المخطوطات التي تعود للفقيد گايانگوس.

وبهذه المناسبة أذكركم أنني قرأت في أحد المصادر أن هناك نسخة من مخطوطة ابن بطوطة في مكتبة مدريد، ولا أدري هل هي تلك؟ أو هي أخرى؟ المهمّ أنّ أتوفر على ما يوجد من نسخ الرحلة في مكتبات المملكة الإسبانية ...

في انتظار تفضلكم بإفادتي، تقبلوا فائق تقديري وأطيب متمنياتي.



• مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري
• هاتف: ٤٦٣١٠١٠-٤٠٢٠٧١٤ ص.ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١ الرياض
• شارع حمد الجاسر - حي الورود - السليمانية - المملكة العربية السعودية - برقيا "العرب"



الرقم ٢/٦٧٣ التاريخ ١٤١١/٩/٩ المرفقات

استاذنا الجليل العلامة الدكتور عبد الهادي التازي وفقه الله

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فقد تلقيت الكتاب الكريم المؤرخ في ١٩٩١/٢/٢٨ وأبديت اسفي الشديد لعدم تمكني من رؤية حبيبنا واخواننا اثناء اجتماع المجمع لأسباب لا يد لي فيها .

ولقد سررت بقيام حبيبنا بتحقيق "رحلة ابن بطوطة" ويؤسفني انني لا أعرف عنها من النسخ سوى ماهو مطبوع.

وأكرر من الأعماق اطيب التحيات لاستاذنا الجليل ولاسرته الكريمة الطاهرة ، ولا ازال اذكر بمزيد من الشوق والحب السويعات التي سعدت فيها بالالتقاء بتلك الأسرة في دارة بغداد في حي السويسي في الرباط ، آملا أن تتكرر على خير ويمن وسعادة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

اخوكم

حمد الجاسر

حمد الجاسر

1991 مارس 27

المملكة المغربية

وزارة التربية الوطنية

جامعة محمد الخامس

المعهد الجامعي للبحث العلمي

شارع ماء العينين

ص، ب، 447 ـ الرباط

الرباط في 1991/7/24

رقم : 110

مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي

الى حضرة الزميل العزيز الدكتور الاستاذ

السيد حسن علي إبراهيم

مجمع اللغة العربية

أشارع عزيز أباظة ـ القاهرة

جمهورية مصر العربية

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

وبعد فكل الأمل أن تكونوا بخير وعافية وهناء بال يمكّنكم كلّ ذلك من أداء رسالتكم، بل رسالة أسْرتكم جميعها زكى الله في عَدَدِها وعُدَدِها، تلك الرسالة المقدسة التي لا يقتصر نفعها على مصر وحدها ولكنه يتجاوزها الى كل البلاد الشقيقة والصديقة بل إلى الانسانية جمعاء .

هذا ومنذ مدة وأنا أمني النفس بمكاتبة الزميل العزيز حول ما جاء في تدخلكم الجيّد الرفيع بمجمع اللغة العربية يوم 1991/2/18 حول البلهارسيا، عندما ذكرتم أن الرحالة المغربي ابن بطوطة لاحظ البول الدموي في الرجال وفسّره قائلا : " إن مصر بلد يحيض رجالها "..!

إن هذه المقولة لم أعثر عليها إطلاقاً في رحلة ابن بطوطة التي أعكف هذه الأيام على نشرها نشرا أكاديمياً معتمِداً على حوالي 25 مخطوطة عثرت عليها في مكتبات أوربا وبعض الخزائن الخاصة...

فرجائي أستاذنا الجليل أن تفيدوني عن مرجعكم في تلك المعلومة المقدمة .

في انتظار جوابكم أرجو لكما لمزيد من العافية والمزيد من التوفيق مغتنما هذه الفرصة لتحميلكما لسلام لأهلكم وذويكم وزملائنا جميعا ....

مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي

د. عبد الهادي التازي

UNITED NATIONS NATIONS UNIES

POSTAL ADDRESS—ADRESSE POSTALE UNITED NATIONS, N.Y. 10017
CABLE ADDRESS—ADRESSE TELEGRAPHIQUE UNATIONS NEWYORK

REFERENCE:

11 September 1991

Dear Dr. Tazi,

Thank you for your letter dated 27 August 1991.

With regards to your request to have the UNGEGN members confirm the status of geographical names related to the exploration of "Ibn Batouta", you may wish to contact the UNGEGN members to collect the necessary information.

As you may be aware by now that the UNGEGN meeting in Geneva has been postponed for a later date instead of 7-18 October 1991, because of problems of accomodations in Geneva. We will inform you as soon as we get the new schedule.

With kind regards.

Looking forward to seeing you in Geneva.

Yours sincerely,

Kadri ElAraby
Secretary, UNGEGN
Chief, Infrastructure Branch
NRED/DTCD

Dr. Abdelhadi Tazi
Membre de l'Academie du
Royaume du Maroc
6, Villa Baghdad
Rue Ait Ourir
Souissi, Rabat
Morocco

Paris le 8 octobre 1991

Monsieur Abdelhadi Tazi
Directeur de l'
Institut Universitaire de la
Recherche Scientifique

Monsieur le Directeur

Les éditions de La Découverte viennent de me transmettre votre lettre. Je vous remercie pour vos mots gentils concernant mon édition du récit d'Ibn Battûta et je serai très intéressé à vous rencontrer au sujet de l'édition que vous comptez préparer.

Mes coordonnées sont les suivantes:

51, rue de la Glacière
75013, Paris
Tel.: 43 37 82 98

Veuillez agréer, Monsieur le Directeur, l'expression de mes sentiments les meilleurs.

Stephane Yerasimos

Faculteit der Godgeleerdheid,



Leiden, le 8-1-1992

Cher Collègue ainé, ami très honoré,

Voici les renseignements que j'ai pu ramasser ici concernant les passages indonésiens d'Ibn Battûta. Ces matériaux concernent les points suivants:
1) Identification du roi de Samudra ("Al-Malik al-Zâhir") visité par I.B;
2) Pierre tombale (retrouvée à Samudra-Pasè) du fils d'un descendant d'un Caliph Abbaside rencontré par I.B. à Delhi;
3) Parallèles entre une histoire racontée par I.B. et, dans une forme légèrement différente, par la "Chronique des Rois de Pasè" (qui est d'une époque tardive en comparaison avec I.B.).

J'ai ajouté les photocopies des bibliographies de 2 publications récentes sur I.B., qui vous peuvent être utiles aussi, dans le cas (improbable) que vous ne les connaissiez pas encore. Vous savez que la bibiothèque de Leiden est assez riche en matériaux islamiques et orientaux. Donc, si vous avez besoin de quoi que ce soit en photocopies, n'hésitez pas, s.v.p., et je ferai de mon mieux pour vous.

Quoique je crois que les matériaux sur I.B. peuvent parler pour eux-mêmes (les passages en hollandais qui vous concernent ont été traduits par moi en français dans les marges de l'article comme vous verrez) je reste toujours à votre disposition pour chaque élucidation et chaque question additionelle.

Grace à Dieu nous avons trouvé un remplaçant temporel pour un de mes collègues dans mon département qui a été élu recteur de notre université et que j'ai du remplacer dans la majorité de ses taches pendant la période juin-décembre de l'année dernière. Avec ma nomination comme secrétaire de mon département et la cumulation de tous mes cours dans le premier sémestre de l'année académique, ces mois (après mon retour du Maroc) ont été une période assez pénible. Maintenant ça va beaucoup mieux. Je suis en train de préparer ma contribution au congrès de Rabat (fin de février de cette année) sur les manuscrits. J'espère d'avoir l'honneur de vous retrouver chez vous en bonne santé et en pleine activité scientifique!

Veuillez agréer, maître et ami très honoré, mes salutations les plus cordiales pour vous, votre famille et pour notre amie Mme la Dr. Halima Ferhat.

t.à.v.,

votre

(P.S. van Koningsveld)

Dr.P.S. van Koningsveld,
Département d'Histoire des Religions,
B.P. 9515,
2300 RA LEIDEN
Pays-Bas.

Matthias de Vrieshof 1
Postbus 9515 2300 RA Leiden
Telefoon 071-27 25 70
Telefax 071-27 26 15.



Rijks Universiteit Leiden

UNIVERSITY *of* PENNSYLVANIA

School of Arts and Sciences
Department of Asian and Middle Eastern Studies
847 Williams Hall
Philadelphia, PA 19104-6305
215-898-7466

حضرة الزميل العزيز الأستاذ الفاضل الدكتور
عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
فيلا بغداد زنقة آيت أورير السويسي
الرباط المغرب

تحية وسلامًا وبعد فأرجوكم عدم مؤاخذتي لتأخري عن ردّ الجواب الى كتابكم الكريم فإني كنت تغيّبت عن الجامعة مدة من الزمن فلم يتح لي مجاوبتكم حال وصول الكتاب. أمّا ما فصّ سؤالكم عن نصّ نُقل عني مما قاله عبد اللطيف البغدادي فأنا آسف أن الناقل عني كان مخطئًا فلا يوجد شيء قط عن طنجة فيما قاله البغدادي وما نقلته عنه بالأنكليزية في الصفحة ٩١ من كتابي The Rise of Colleges.
وما نقلته عن البغدادي موجود على الصفحات ٨٨ الى ٩١، والنص العربي لعبد اللطيف أخذته من كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت – طبعة ١٩٦٥) من منتصف الصفحة ٦٩١ الى آخر الصفحة ٦٩٢ (انظروا صفحة كتابي من٢٨٤ الحاشية ٣٣ = الصفحة ٣٢١ الحاشية ٣٣) (حيث الإحالة الى صفحة عيون الأنباء ٦٨٣ وما بعدها). فإذا قرأتم النص العربي ستجدون أن البغدادي لم يذكر طنجة.

هذا وتفضلوا بقبول فائق احترامي
جورج المقدسي (من مواليد المهجر)

الكامل
لابن
خرزاذ!!

NATIONAL BUREAU OF
SURVEYING AND MAPPING

Prof. Du Xiangming
Director
Research Institute of Toponymy

16 Beitaiping Lu
Beijing, China
Postcode: 100039

Tel: 8212277-375
Fax: 8218654
Telex: 221081 CHYJS CN

Dear Dr. Abdelhadi Tazi

As you requested, I've studied carefully based on the relevant documents and I've some suggetions for your map concerning the great traveller Ibn Batuta to China.

11/8/1994

1. The seat of №. 43 and №. 45 in the map should be modified.

2. The name for №. 46 should be definited as Khan Baliq.

with Best Regards and kind wishes,

your sincerely

Prof. Du Xiangming

11 August 1994

	Today's name	Notes
43 Tseu-thoung	Quanzhou 泉州	Tseu-thoung was translated from 刺桐 (Citong) which is the allonym of Quanzhou in ancient times.
44 syn-calân	Guangzhou 广州	syn-calân is the exonym of Guangzhou (Canton) used by Marco Polo
45 khansa	Hangzhou 杭州	Khansa was translated from 京师 (Jingshi) which is the allonym of Hangzhou in ancient times.
46 Khan Baliq *not Qanjanfu	Beijing 北京	汗八里 (Hanbali). is the historical name of Beijing in 14th century.

* About the seat of Qanjanfu, there are different opinions in China, but it's location is between Quanzhou and Hangzhou.



THE PERMANENT REPRESENTATIVE
OF THE REPUBLIC OF MALDIVES
TO THE UNITED NATIONS

New York, August 24, 1994

Dr. Abdelhadi Tazi,
Villa Bagdad
Rue Ait Curir - Suissi,
Rabat 10 000,
Morocco.

My dear Dr. Tazi,

Greetings and best wishes!

You will recall that when we first met in tho United Nations Delegates' Lounge you wanted a photograph of the monument erected in the respected memory of His Eminence Abu-l-Barakat al-Barbari in Male'. You might also recall that I sent that communication to His Excellency the President of the Republic of Maldives informally. His Excellency was good enough to send me some photographs of the monument.

Please find enclosed these photographs which I hope will meet with your satisfaction.

I sent another letter to you on the 22 of this month with a photograph of the day we joined the United Nations Organization. I hope these two letters reach you safely.

Meanwhile, my payers are for your good health and success in the valuable work you are doihg.

Sincere salaams.

Yours sincerely,

Ahmed Zaki

820 SECOND AVENUE, SUITE 800 C, NEW YORK, N.Y. 10017.



REAL ACADEMIA DE LA HISTORIA

PARTICULAR

Madrid, 8 de julio 1995

Excmo. Sr. Dr. Abdelhadi Tazi
6 Villa Bagdad, Rue Aït Ourir
Souissi Rabat

Querido Colega y maestro:

Recibí su carta en la que me preguntaba por el وادي كرة citado por Ben Battuta y donde murió o alcanzó el martirio el hermano del Sherife Abū Gurra. Se trata del río Guadacorte que corre por el término de Los Barrios y desemboca en la bahía de Algeciras. Los Barrios está a 6 Km de Algeciras. La escritura correcta debe ser وادي كُرْت. El río se llama también Guadacortes, es decir, وادي كُرْتِش. En Kurtiš se instaló ʿAbd al-Malik, antepasado de Muhammad ben Abī ʿĀmir, el famoso Almanzor, cuando los árabes conquistaron قرطاجنة الجزيرة, Torre de Cartaya, según fuentes árabes.

significa "cortijo", "casa de campo", (métairie, الدشار "Los Alixares o Alijares, palacio real de los reyes de Granada en la Alhambra.

Estamos muy triste por la muerte de nuestro maestro Don Emilio García Gómez. Era la figura indiscutible del arabismo español del pasado y del presente. Ha sido una gran pérdida.

Espero que le sea útil mi nota sobre Guadacorte

Con todo afecto

Joaquín Vallvé

摩洛哥王国驻华大使馆
Ambassade du Royaume du Maroc
en Chine



سفارة المملكة المغربية بالصين

إلى الأستاذ العلامة الصديق العزيز
الدكتور عبد الهادي التازي، عضو أكاديمية
المملكة المغربية

1995/7/30

1995/7/30

سلام الله ورحمته عن خير مولانا دامت عزته

وبعد، أود قبل كل شيء أن أعتذر على تأخري في القيام بالمهمة

التي كلفتموني بها.

عذري أنني كنت مشغولا بسبب انعقاد المؤتمر العالمي الرابع

للمرأة ببكين، وكذلك ما لاقيته من صعوبات في البحث بدون جدوى

عن عملة من كاغط كانت متداولة وقت زيارة ابن بطوطة للصين

تسمى "بالشت"

إنني لم أعثر ولم أجد أثرا للعملة التي كانت تحمل هذا الإسم

في القرن الرابع عشر.

العملة الورقية الوحيدة التي كانت متداولة في السنوات التي

قضاها الرحالة المغربي في الصين (1346-1349) أي في عهد دولة YUAN

نوعان:

BAO CHAO

JIAO CHAO -

مع العلم أن BAO CHAO يساوي 5 JIAO CHAO ولم تكن هناك

بالتأكيد في عهد دولة YUAN عملة باسم «بالتشنن» الذي

ليس له أي معنى في اللغة الصينية .

وقد تكون هذه الكلمة مجرد تحريف لكلمتي BAO CHAO (التي

تعني نقد نفيس) .

هذا وان الاسم الكامل لهذه العملة هو :

"ZHI YUAN TONG XING BAO CHAO"

بمعنى نقد نفيس متداول في عهد (اسم عهد الامبراطور)

أوراق BAO CHAO كانت من 11 نوعا وهي :

2000	قرش
1000	قرش
500	"
300	"
200	"
100	"
50	"
30	"
20	"
11	"
5	قروش

لا وجود لأية ورقة BAO CHAO واضحة المعالم، أحسن صورة

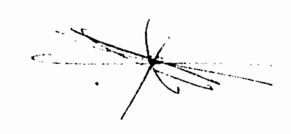
اكتشفتها لهذه العملة هي التي توجد في الصفحة 74 من الكتاب طيه

حول تاريخ النقود بالصين .

ورقة من فئة 300 قرش التي توجد صورة منها في العملة الصينية ، الصفحة 34 ، طولها 27cm وعرضها 18,80cm .

هذا ولقد ساعدني في إنجاز هذا البحث الذي قمت به الأستاذ الجامعي ZHU KAI الذي تجدون رفقته نبذة عن حياته والذي عبر عن استعداده لتزويدكم بالمزيد من المعلومات إذا ارتأيتم ذلك .

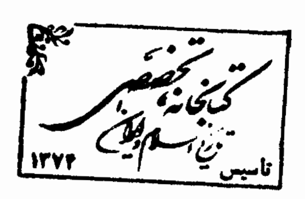
وتقبلوا فائق التقدير والتحية



فهرس موضوعات المجلد الرابع

الصفحة	الموضوع
65	حديث ابن بطوطة عن السلطانة خديجة التي تحكم في هذه الجزائر
68	عن مقام ابن بطوطة بجزيرة كنّلُوس في مالديف
70	علاقته برجال الحكم... وتزوجه بسيدة مرهتية تعرف اللغة الفارسية
72	حضوره حفلات العيد مع رجال الدّولة وتزوجه وولايته القضاء
75	صراحة ابن بطوطة كانت وراء انفصاله عن البلاد...
77	الاتجاه إلى جزيرة سيلان لزيارة جبل سرنديب
79	سلطان سيلان وحديث عن أحجار الياقوت التي تتقلدها النساء
83	القرود والعَلَق الطيار
88	ذكر قدم سيدنا آدم
90	وصوله إلى مدينة كلنبو (colombo) !
91	الوصول إلى بلاد المعْبر والحديث عن سلطانها غياث الدّين الدّامغاني
95	الصدام بين السلطان غياث الدّين وبين السلطان بلاّل ديَوْ...
96	وصوله إلى مُترة حضرة السلطان غياث ا لدّين الذي خلفه ناصر الدّين ابن أخيه الذي مدحه الشعراء
98	ابن بطوطة يتعرض من جديد لعملية قرصنةٍ أخرى في جزيرة هِنّور وفاكنور عندما هاجمه اثنا عشر مركباً !! وعودته إلى قالقوط
100	عودته إلى جزر مالديف لتفقد ولده الذي تركه هناك ثم الاتجاه إلى بنجالة والحديث عن سلطانها فخر الدين
107	الوصول إلى بلاد البَرَهْنكار الذين يجعلون أيورهم في جعاب من القصب منقوشه!
108	كيف يعاقب سلطانهم الذين يمارسون الزنا...
109	**الفصل الخامس عشر : آسيا – الجنوب الشرقي والصين**
113	في جزيرة الجاوة... والاجتماع بسلطانها الملك الظاهر في العاصمة سُمُطرة
116	الحديث عن ترتيب السلام على الملك الظاهر
117	ذكر قيام ابن أخي الملك الظاهر على عمّه ! والحديث عن اللبان والكافور والعود القماري والقرنفل... وقاقله
119	حديث عن سلطان (مل جاوة) الكافر الذي التجأ إلى إقليمه ابن أخي الملك الظاهر
122	في بلاد طوالسي بعد السفر في البحر الراكد 34 يوماً ملكها يضاهي ملك الصّين فهل هو ملك اليابان ؟
123	اجتماعه بملكة كَيْلُوكَري
125	بعد طوالسي سفر 17 يوماً للوصول للصّين
126	حديث مسهب يقدّم فيه الصينَ وأحوال أهلها
129	حديث عن العملة الورقية...

فهرس الرسوم والصور للمجلد الرابع



تم طبع هذا الكتاب في مطبعة المعارف الجديدة - الرباط
الهاتف : 28.06.67/68 (07) - 79.47.08/09/15 (07)
الفاكس : 79.47.38 (07)